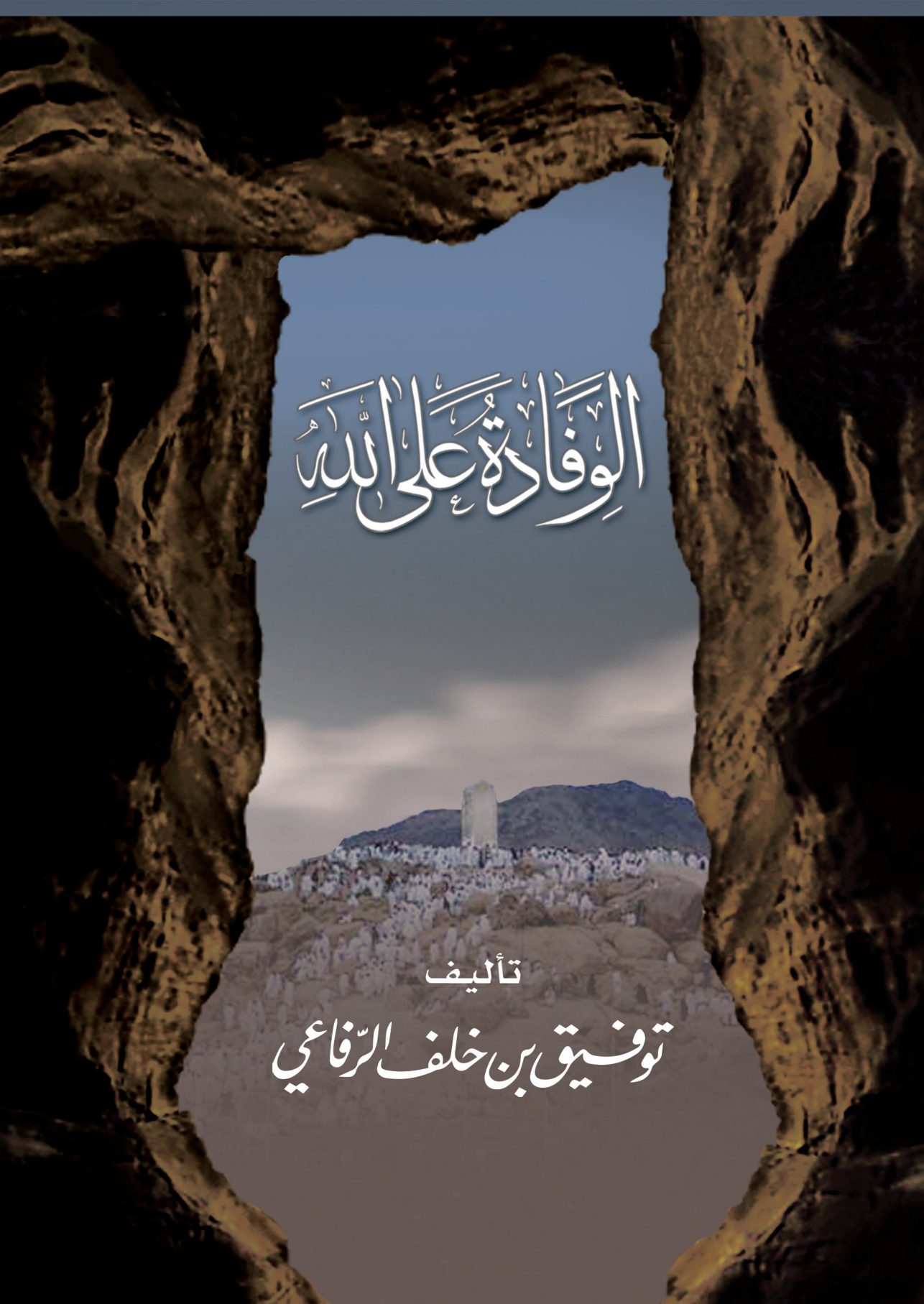
الوفادة على الله
تأليف
توفيق بن خلف الرّفاعي

الـوفـادة على اللَّه

كافة الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠١٢م - ١٤٣٣هـ

الـوفـادة علـى اللَّه

تأليف

توفيق بن خلف بن عبد الله الرفاعي

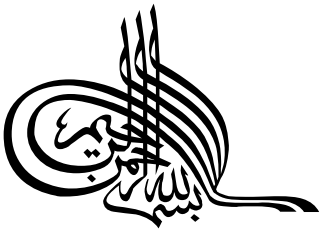
بسم الله الرحمن الرحيم

بوابــة الوفــادة

قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

عن عُمَرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نَحنُ عندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ذاتَ يوم... قال - أَيْ جبريل -: فَأَخْبِرْني عن الإحسانِ؟ قال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنه يَراك**»(١).

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الحُجَّاجُ والعُمَّارُ وَفْدُ اللَّهِ، دَعَاهم فأجابوه، وسَألوه فأعطاهم...**»(٢).

عن معاذ رضي الله عنه قال: قُلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي. قال: «**اُعبدِ اللَّهَ كأنَّك تراه، واعْدُدْ نَفْسَكَ في الموتى، واذكُر اللَّهَ عز وجل عندَ كُلِّ حَجَرٍ وعندَ كلِّ شجرٍ، وإذا عَمِلْتَ سيئةً فاعْمَلْ بِجَنْبِهَا حسنةً، السِّرُّ بالسِّرِّ والعلانيةُ بالعلانية**»(٣).

* * *

(١) رواه مسلم (٨)، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، وله شاهد من حديث أبي هريرة في الصحيحين.

(٢) رواه البزار، قال الألباني: حسن لغيره، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١١٠٧).

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (٣٤٧)، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٥٩): حسن لغيره.

عن الغلاف

أَتذْكُرُ مكان اللقاء الأول والأعظم الذي عَرَفَ فيه النبيُّ ﷺ ربَّه سبحانه وتعالى، وعَرَفَ فيه جبريلَ عليه السلام، وعَرَفَ فيه القرآنَ، وعَرَفَ فيه أنه هو النبيُّ . . .؟!

مِنْ هذا المكانِ جاءتْ صورةُ الغلافِ.

أَطِلَّ ببصيرتك مِنْ فَتْحَةِ الغارِ على الدنيا. . . لِتَرَى كَمْ بَيْنَ صورةِ الغلافِ وغَايَةِ كتاب الوِفَادَةِ مِنْ تَنَاسُبٍ عجيبٍ. . .؟!

فَتَأَمَّلْ. . .

المقدمــة
غايةُ كتابِ الوِفادةِ

أيها الوافدُ[١] **على اللَّه**[٢]: لا يَتَبادَرَنَّ لِذِهنِكَ أنَّ غايةَ كتابِ «**الوفادة**» هي: تحقيقُ مراقبةِ اللَّهِ في كُلِّ موقفٍ من مواقفِ الحجِّ والعمرةِ - وما أَعْظَمَهَا مِنْ غايةٍ - أو أَنَّ غايتَهُ هي: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ عَالِماً أنه سبحانهُ يَراك - وما أعظَمَها مِنْ غَايةٍ كَذلك - ! لكنَّها بالإضافةِ لكلِّ ذلك، وفوقَ ذلك فإنَّ غاية هذا الكتاب هو: **أَنْ تعبدَ اللَّهَ كأنَّك - أَنْتَ - تراه سبحانه، نَعَمْ كأنَّكَ - أنت - تَراه سبحانه وتعالى!**

غايةُ كتابِ «الوفادةِ»: أَنْ يُبَيِّنَ للنَّاسِ عامَّةً أَنَّ الحجَّ والعمرةَ «**مَحْضَنُ الإحسانِ الأمثلِ**»، وأَنَّ مَنْ حَجَّ أو اعتمرَ ولم يَدْخُلْ مَحْضَنَ الإحسانِ ويُتِمَّه، فقد فاتته الغايةُ العليا للوفادةِ خاصَّةً، وللعباداتِ عامَّةً، وهي: عبادةُ المؤمنينَ رَبَّهم كأنَّهم يَرَوْنَهُ سبحانه..

وهل مِنْ غايةٍ يَسمُو إليها كُلُّ العابدينَ أَسْنَىٰ مِنْ منزلةِ الإحسانِ..؟!

سَيَرَى مَنْ قَرَأَ هذا البحثَ تفصيلًا، وتَأَمَّلَهُ قليلًا...كيفَ أَنَّ اللَّهَ تعالى جَعَلَ الحجَّ والعمرةَ مَحضَناً للإحسان...

سَيَرَى بعذ الحكمة البالغة: كيف أن الله سبحانه وتعالى جعل آخر المنازل ذكراً في رحلة الحج في سورة الحج، وآخر الآيات ورداً في سياق السورة

---

(١) الوفد: القوم يجتمعون ويردون البلاد ويقصدون الكبراء.

(٢) كل ما يكتب في هذا الكتاب بخط مميز على رأس السطر إنما هو تنبيه للقارئ على أن هذا ابتداء فكرة جديدة، ومعنى غير المعنى السابق.

العظيمة لهذا النسك العظيم هو مقام المحسنين فقال سبحانه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧]، فالرحلة بما فيها من فراق وإنفاق وإهراق دماء كل ذلك لبلوغ الإحسان الذي بشرهم الله سبحانه خاصة. وكفاهم هذا التخصيص إشارة ببشارة... وإنارة على منارة.

سَيَرَى كيفَ جَعَلَ اللَّهُ تعالى بعضَ العباداتِ تُؤَدَّىٰ في مكانٍ واحدٍ كالصلاةِ والاعتكافِ، وجَعَلَ منها ما يُؤَدَّىٰ في زمانٍ واحدٍ كالصيام والزكاةِ... لكنَّه سبحانه جَعَلَ الحجَّ والعمرةَ شيئاً آخَرَ... إِذْ جَعَلَهُمَا اللَّهُ يُؤَدَّيَانِ في أماكنَ متعددةٍ، متفرقةٍ، متباعدةٍ ومتقاربةٍ، تَبْتَدِئُ بِالخروجِ مِنَ البيتِ... إلى المِيقاتِ... إلى البيتِ العتيقِ، وما بعدَ البيتِ العتيقِ: مواقفُ ومواقفُ، وأزمانٌ وأماكنُ، وتقلُّباتٌ وتحوُّلاتٌ، حتَّى يعودَ الوافدُ إلى البيتِ العتيقِ مُوَدِّعاً، قافِلًا إلىٰ بيته..

يَتَلَقَّىٰ الوافدُ في كلِّ هذهِ المواقفِ والتَّنقُّلاتِ الإحسانَ دُروساً عَمَليَّةً، ومواقفَ تربويَّةً، وأذكاراً شرعيَّةً، ومشاهدَ أُمميَّةً، ومشاعرَ إيمانيَّةً، تَرْسَخُ فيها منزلةُ الإحسانِ في قلبِه، وفي حياتِه - كلِّها - التي عاشَهَا ما بينَ المناسكِ... ليست مخاطبة الله من منزلة الإحسان في مكانٍ واحدٍ، ولا في صورةٍ واحدةٍ، ولا في زمانٍ واحدٍ، ولا في كيفيَّةٍ واحدةٍ، ولا في هيئةٍ واحدةٍ، ولا في ذكرٍ واحدٍ... فَلَكَأَنَّ رحلةَ الوفادةِ تُمَثِّلُ رِحلةَ الحياةِ كلِّها، وكَأَنَّ كُلَّ مَوْقِفٍ مِنْ مواقِفِها يُمَثِّلُ نُموذجاً يتدرَّبُ فيه الوافدُ على معايشة الإحسانِ في كلِّ مكانٍ وكلِّ زمانٍ.

فإذا ما تَرَسَّخَتْ حقيقةُ الإحسانِ - في حياتِهِ في أثناءِ رحلةِ الوِفادةِ - بكلِّ

متغيِّراتِها التي ذَكَرْنَا... عَمَّ الإحسانُ باقِيَ الحياةِ كُلِّها بعدَ رحلةِ الوِفادةِ بإذنِ اللَّهِ..

بهذه الإشارةِ الخاطفةِ تَعْلَمُ - أيُّها الوافدُ - كيفَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ مِنَ الحَجِّ أَعْظَمَ مَحْضَنٍ للإحسانِ.

غايةُ كتابِ «الوفادةِ»: أَنْ يَمْنَحَ أَهْلَ العلمِ والدعوةِ إلى اللَّه وأهلَ التَّربيةِ، مَنْهَجاً شَرْعِيًّا مُؤَصَّلًا... تربويًّا عَمَليًّا... مُتتابعاً مُتصاعداً.. مَنْهَجاً يَجْعَلُهُم يأخذونَ بأيدي النَّاسِ إلى منزلةِ الإحسانِ بسهولةٍ، بل بتلذُّذٍ وَتَلَهُّفٍ، حتَّى يَرفعوهم إلى منزلةِ المُحسنينَ العُليا مِنْ خلالِ معايشة الكتاب في مواقِفِهِ، أو حتَّى بِمُجَرَّدِ قراءةِ كُلِّ موضوعٍ من موضوعاتِ كتابِ «**الوفادةِ**» على رُفْقَةِ السَّفَرِ قِراءةً دونَ شَرْحٍ أو إيضاحٍ، في المَوْقِفِ الَّذي كُتِبَ فيهِ وعنه ذلك الموضوعُ[1]...

وَسوفَ أُؤكِّد علَى قَارِئ كتابِ الوِفادَةِ فأقولُ: يُخطِئ مَنْ يظنُّ أنَّ منزلةَ الإحْسانِ المَقروءةِ هُنا هِيَ مجرَّد مشاعرٍ، أوْ أنَّ ثمرةَ هذَا الكِتابِ المطلوبةَ هُوَ تغيُّر في أَحاسيسِ الحَاجِّ والمُعتمرِ، إنَّها ليستْ كذلكَ أبداً، بلْ غايتُها هيَ بلوغُ منزلةِ الإحسانِ حقيقةً، ومَا المشاعرُ فِيها إلَّا الشَّرارةَ الَّتي تتولَّد عندَ كلِّ منسكٍ ولحظةٍ من لحظاتِ هذه المرحلةِ المباركةِ، ومشاعرُ الإحسانِ هُنا تثبتُ بموقفٍ، ثمَّ تتحوَّل إلى خُلقٍ وعملٍ وَحياةٍ تُمارس بعدَ ذلكَ بكلِّ

(١) هذا ما جعل الكثير من ركبنا في صحبتنا السابقة يعيشون حياة الإحسان في تلك الأركان، إذ كان بعض الإخوة يقرأ بعد بعض الصلوات على المصلين الباب المناسب لذلك المقام، فشهد الجميع بتلذذ لحجتهم تلك لم يتذوقوه من قبل، وكنا نناقشهم أحياناً بسر اختيار العيون الساقية ومناسبة آياتها وأحاديثها لكل باب من الأبواب.

جزئيَّاتها، وتصوُّرٍ يَرسخُ، ولذةٍ تتخلَّلُ، وكلَّما تسمعُ الخطابَ في هَذا الكتابِ منَ العبدِ لربِّه بقولهِ: «يَاربِّ» فاحرصْ عليهِ؛ فإنِّها إشارةُ الإحسانِ وعنوانُه، وإيَّاكَ أنْ تفهمَ أنَّها كلامُ المُؤلفِ يخاطبُ ربَّه بتكلُّفٍ، إنَّما هُو لسانُ قلبِك المُحسن حِين يبلغُ درجةَ الإحسانِ، وليسَ هُو لسانَ قولِ الكاتبِ يُزيِّن به كلامه، أو يتزيَّن به لقارئِه، عياذاً باللَّه، فاقْرأ خطابَ الإحسانِ علَى أنَّك قائلُه، وعِشْه بقلبِك وأنتَ تطلقه لربِّك حقيقةً ليقبله اللَّهُ منكَ بفضلهِ ويرفعكَ إليهِ بكرمهِ، فتكرارُ هذهِ المعايشةِ القلبيَّةِ كفيلةٌ بإذنِ اللَّهِ بتحويلِ الإحسانِ المكتوبِ في هذهِ الورقاتِ إلى حياةِ قلبٍ يعيشُ الإحسانَ طوالَ حياتِه، وهَذا هُو مُنتهى المرادِ فاللهمَّ حقِّقه لي ولكلِّ قارئٍ أو سامعٍ يَا حيُّ يَا قيومُ.

ولَعَلَّ أَهْلَ العِلمِ والدعوةِ يَجِدُونَ في «الوفادةِ» كذلكَ مِنَ التَّحليلاتِ الشَّرعيةِ لهذه المناسكِ العباديَّةِ ما يُجَلِّي الكثيرَ مِنَ الحِكَمِ العَظيمةِ، الَّتي تَعَامَلَ معها البعضُ على أنَّها شعائرُ غيرُ معلومةِ العِلَلِ والحِكَم، بينَما حَلَّلَ آخرونَ بعضَ المناسكِ وظَنُّوا أنْ لا مَزيدَ على تِلكَ التَّحليلاتِ والحِكَمِ... فَمَلَّ أكثرُ الناسِ تَكرَارَها في كُلِّ حَجٍّ وعُمْرَةٍ...!

فَارْجِعْ وانْظُرْ لِمَوْضُوعِ الرَّمْيِ، وإلقاءِ التَّفَثِ، وَالفَارِقِ بينَ الحَلْقِ والتَّقصيرِ وغيرِهَا.. ولَيستْ هِيَ واللَّه مِنْ كَدِّي ولا مِنْ جُهْدِي اللَّهم إلا إنْ كانتْ خطأً، فَنَعَمْ، وأمَّا إنْ كانتْ حَقاً فهي مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تعالى وحدَه لا شريكَ له..

اِقرأْ كتابَ «الوفادةِ»، ولَنْ تَجِدَهُ مَشَاعِرَ شَخْصٍ تَجَمَّعَتْ، وعلى النَّاس فُرِضَتْ، وبأسلوبٍ أدبي اصطبغتْ، بل سترى أَنَّ التأصيلَ الشرعيَّ هو الأساسُ، وأنَّه ما مِنْ مَوضوعٍ في هذا الكتابِ إلا وقد تَفَجَّرَ يَنْبُوعُهُ مِنْ آيةٍ

قرآنيةٍ أو حديثٍ صحيحٍ. . .لذا فقد جُعِلَ بعدَ كُلِّ فَصْلٍ مُلْحَقٌ به تحتَ عُنوانِ: «**العُيونِ السَّاقيةِ**» لـ«**ذلكَ الموضوعِ**»[١] وذلكَ مِنْ صَريحِ الآياتِ وصَحيحِ الأحاديثِ، والتي لا يَحتاجُ القارئُ إلا إلى القليلِ مِنَ التأملِ فيها لِيَتَجَلَّى له الرابطُ ما بينَ موضوع الباب وعيونِه.

أيها الوافدُ على اللَّه، اقرأْ كتابَ «**الوفادة**» لِتَرَى أَنَّ المُتمسِّكينَ بالكتابِ والسنَّةِ عقيدةً وعبادةً، الحريصينَ على متابعةِ المصطفى ﷺ، هُمْ أَبْعَدُ الناسِ عن غِلَظِ القلوبِ، وجَفافِ الإيمانِ، وجَلافَةِ الأخلاقِ، وأنَّهم وإنْ لم يكتُبُوا في هذا الموضعِ عن هذا الموضوع تحديداً - مِنْ قَبْلُ - كما تَرَاه هنا، إلَّا أَنَّ حقيقةَ الإحسانِ الَّتي عاشُوهَا في وِفَادَتِهِمْ هي أَعْظَمُ مِنْ هذا الكتاب، وهي ما أَفْصَحَ عَنْ بعضِهِ هذا الكتابُ. . . بل هم على الأصلِ الأصيلِ وهو: كُلَّما زادَ عِلْمُهُم زَادَ استمساكُهُم بالكتابِ والسنَّةِ، وزَادَتْ متابعتُهُم للنَّبي ﷺ، وهذهِ الزيادةُ في العلم والعمل تَقتَضِي بالضَّرورةِ زيادةَ الإيمانِ، وزيادةَ خَشيةِ اللَّهِ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولذا كان أَخْشَاهُم للَّهِ هو أكثرهُمْ عِلماً ذلك هو النبيُّ محمدٌ ﷺ الَّذي قال: «**واللَّهِ اني لأرجو أَنْ أكونَ أخشَاكم للَّه وأَعْلَمَ بما أَتَّقِي**»[٢].

أيها المصطحبُ كتابَ «الوِفادةِ»، لعلَّكَ لَنْ تَجِدَ منزلةَ الإحسانِ مُتَجَلِّيَةً في

---

(١) ما جعلنا «العيون الساقية» بعد الموضوع إلا خدمة للنصوص، وليفهم القارئ الرابط ما بينها وبين الموضوع أكثر، وليكون كلامنا بالنسبة للنصوص الشرعية كالخادم الذي يمشي بين يدي سيده حياءً، وإجلالاً، وتضحية.

(٢) رواه مسلم (١١١٠)، كتاب الصيام، باب: صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، من حديث عائشة.

أَوَّلِ فُصولِ رحلةِ الوفادةِ، كما ستراها راسخةً شامخةً كُلَّمَا عَلَوْتَ سلالمَ الكتابِ وأغصانه وَرَقَةً على إِثْرِ وَرَقَةٍ. . .

ومع هذا فلا غِنَى لك عَنِ المُرورِ بالفصولِ الأُولَى، حتَّى وإنْ طالَ الطريقُ، وكَثُرت المواضيعُ، فإنَّ المرورَ بهذه الفصولِ ضرورةٌ، ذلك أنَّها الأساسُ، ثمَّ إنَّ ما تَنْشُدُهُ في هذا الكتابِ ليس مَطلباً عادياً. . ! إنك تطلبُ منزلةَ الإحسانِ الَّتي إنْ ظَفِرْتَ بها- وأنت ظافرٌ بها بإذن اللَّه - فقد ظَفِرْتَ بما لا يُدَانِيهِ شيءٌ في الحياةِ كُلِّها. . . ولا يُعادله مَنزلٌ بينَ منازلِ العابدينَ جميعاً. . !

فاصبرْ، فَلِمِثْلِ هذا الهدفِ يَحْلُو المُرُّ، ويُمْضَغُ الصَّخْرُ، ويُشدُّ الرَّحْلُ، ويُعْزَمُ الأَمْرُ. . . وقُلْ كما قال الأَوَّلُ - عليه الصلاةُ والسلامُ -: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٩٦].

أيُّها الوافدُ على اللَّه، اقرأْ ما شِئْتَ في هذا السِّفْرِ عَنْ هذا السَّفَر. . . لكنَّك لَنْ تبلغَ غايتَهُ المنشودةَ بمُجرَّدِ تركيزِ فِكْرِكَ على الفِكرةِ. . . ! فما العقلُ المجرَّدُ هنا إلا جَنَاحُ الموضوعِ، ويَبْقَىٰ الجناحُ الأَوَّلُ هو القَلْبُ. . . وبهما تَطِيرُ - بإذنِ اللَّه - وتُحَلّقُ في سَماءِ الإحسانِ، فيكونُ التواصلُ ما بينَ المكتوبِ مِنَ القلبِ عَنِ القلبِ إلى القلبِ، وتَبْلُغُ الغايةَ الَّتي فارقت الأحبَّة طلباً لها، وهَجَرْتَ كُلَّ شيءٍ لأجلها. . .

هَجَرْتُ الخَلْقَ طُرًّا فِي هَوَاكَ ... وَأَيْتَمْتُ العِيَالَ لِكَيْ أَرَاكَ
فَلَوْ قَطَّعْتَنِي فِي الحُبِّ إِرْباً ... لَمَا حَنَّ الفُؤَادُ إِلَى سِوَاكَ[1]

(١) للعلم فإنه لا يوجد لي بيت واحد من الشعر، لا في هذا الكتاب ولا في غيره، حتى وإن لم أذكر قائله هنا.

فبلوغُ منزلةِ الإحسانِ من هذهِ الرِّحلةِ يقتضِي المُرورَ بِمحطَّاتها الواحدةِ تِلْوَ الأُخرى كَما هِيَ في هذَا الكتابِ، فالعودةُ من هذَا المَحضنِ برُسوخ القَدم في منازلِ المُحسنينَ إنَّما يعنِي بُلوغَ الذِّروةِ والعودةَ بالبُشرى العُظمى الَّتي كانتْ آخرَ ما ذكرَ اللَّهُ سُبحانه في أَحكام الحجِّ في سُورة الحجِّ فقالَ سُبحانُه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

فـ «اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَىٰ شُكْرِكَ وَذِكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[(١)].

المُؤَلِّفُ

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢/ ٩٩٢) من حديث أبي هريرة، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، وكذا صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٤٨) وفيه قال ﷺ: «أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: . . .» والحديث عام، وليس مقيداً بدبر الصلوات كما في حديث معاذ رضي الله عنه.

وسوف يتكرر معنا ختم العديد من مواضيع كتاب «الوفادة» بهذا الدعاء، وما ذاك إلا لأن غاية كلمات هذا الدعاء هي غاية كتابنا، وهل نريد إلا حسن العبادة، التي تتعدى أداء الحج وتتعدى الفرائض الخمس، كما أنها شرعت في ختام أعظم مواطن الإحسان في الحياة، ألا إنها الصلاة، ولذا فنحن نذكرها في ختام أغلب المواضيع حين يناسب المعنى ذكرها.

الفصل الأول
الإحسان من مقرِّ الإقامة[١] حتَّى المدينة

* وصيَّة مودِّعٍ.
* ركعتا الوداع في البيت.
* قطع الالتفات.
* إمامة الرَّكب.
* ثقل إمامة الرَّكب.
* ما بين التَّقديم عند النَّاس والتَّقديم عند اللَّه.
* الإعدادُ المَنْسِيُّ.
* ما أَلَذَّ الأذكارَ عندَ وقتها وظرفها.

(١) كثيرون أولئك الذين يكون عملهم خارج بلادهم فيحجون من مقر إقامتهم، وهذا اللفظ يشمل صاحب البلد والمقيم فيها، ولذا اخترنا هذا اللفظ مراعاة للجميع، وإن كانت الدنيا ليست بدار إقامة.

وَصِيَّـةُ مُـوَدِّعٍ[١]

يا أولادي[٢]، إني سَائِلُكم فَأَجِيبوني:

هل تَشُكُّونَ في أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ منكم قَدِ احْتَلَّ جُزْءاً مِنْ قَلْبِي..؟!

جَوَابُكُمْ: قَطْعاً لا نَشُكُّ.

فَاعْلَمُوا إِذاً أَنَّ وَدَاعَ كُلِّ وَاحِدٍ منكم إِنَّما يَعْنِي اقتلاعَ جُزْءٍ مِنْ قَلْبِي، فَهَلْ عَلَىٰ مَنْ يُقْتَلَعُ جُزْءٌ مِنْ قَلْبِهِ مِنْ عِتَابٍ إذا ما عانَىٰ أَشَدَّ المُعَاناةِ حِينَ يُوَدِّعُ أَجْزَاءَ قَلبِهِ جُزْءاً، جُزْءاً...؟!

يا أولادي، كيفَ أَصِفُ لكم وَقْعَ وَدَاعِكُم عَلى قَلبِ أَبِيكم..؟!

لو صَوَّرْتُ لكم بِالكَلِمَاتِ آلَامَ وَقْعِ وَدَاعِكُم لَرُبَّمَا ظننتم أنَّني أبالغ..

ولكنْ أَرجوكم، أُخرجُوا بمشاعركم مِنْ عَالَمِ البُنُوَّةِ إلى عالمِ الأُبُوَّةِ، لِتَعِيشُوا لَحْظَةً مِنْ لَحَظَات أَبٍ يُوَدِّعُ فَلْذَاتِ كَبِدِهِ..

إذاً فَلْتَعْلَمُوا يا أولادي، أَنَّ كلماتِ وَصِيَّتي هذه لكم مَمْزُوجةٌ ظاهراً وباطناً

---

(١) كثيرون لا يعيرون الوصية اهتماماً، وآخرون لا يعرفون بم يوصون! فجاء ذكر هذهِ الوصية - الحقيقية- عند وداع الأهل في أول طريق الوفادة هنا..بياناً لأهميتها، وتعريفاً بموضوعاتها، وتوثيقاً بين أطرافها، واستعداداً للوداع وهي وصية صالحة للمسافر وغير المسافر وإذا نزعت الأسطر المتعلقة بوداع المسافر صلحت لكل أحد وهذا هو المقصود.

(٢) الأغلب في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم أن تحذف منه ياء المتكلم إلا إذا استوجب التحريك بأن كانت بعد ساكن، فتجب بعد المثنى مثل: يا أخويَ، وما جمع على حدة مثل يا بَنِيَّ، والمفرد الذي في آخره ياء مثل: يا بُنيَّ، وتكثر بعد الألف مثل يا حبلايَ وسعدايَ وسلوايَ وقد أبقيناها هنا على غير الأغلب، للإيضاح.

بالمَحبَّة القلبيَّة الصافية الساخنة. . . الَّتي لا نظير لها.

نَعَمْ: إنَّها خَطَرَاتُ أَفْهَام، أو عباراتُ كَلام، أو قَطَرَاتُ أقلام، لكنها قَطَرَاتٌ مِنْ مَعِينِ مَحبَّة الأُبوَّةِ الرحيمةِ، العظيمةِ، الحَميمةِ. . تَتَقَاطَرُ على أسماعِكم الليلةَ. . فهل لِقَطَرَاتِ القَلبِ مِنْ قَرارٍ إلَّا القَلْبُ. .؟!

يا أولادي، ليسَ مُسوِّغاً لنا إنْ تَرَكْنَا الوصيَّةَ - مِنْ قبلُ - أَنْ نستمرَّ على تَرْكِهَا، وليسَ مُسوِّغاً لنا غفلةُ الآخرينَ عنها أو تَهَاوُنُهم بها، فالوصيَّةُ مشروعةٌ بالكتابِ والسنَّةِ، وعليها هَدْيُ الأنبياءِ، ومَنْ سَلَكَ طريقَهم، وهي ما عليه هَدْيُ سلفنا الصالح، وما يَقْتَضِيهِ العقلُ، وخُصوصاً عندَ السَّفر. .

يا أولادي، هاكُم وَصِيَّةً مكتوبةً[1] بوضوحٍ، أَتْرُكُهَا لكم في هذا المظروفِ، فيها ما لِي وما عَلَيَّ مِنْ دُيُونٍ وحقوقٍ، وفيها ما يَجِبُ عليكم نَحْوَ أُمِّكُم. . . نَحْوَ أَخيكُم الأكبرِ. . . نَحْوَ بعضِكم البعض. . . نحوَ أرحامِكم. . . نحوَ جيرانِكم. . . نحوَ مُجْتَمَعكم . . . نحوَ أُمَّتِكم. . . نحوَ أعدائِكم. . أَمَّا ما يجب على أُمِّكُم فقد ذَكَرْتُهُ لها قبلَ قليلٍ وهي أَعْرَفُ الناس بذلك. .

يا أولادي، السَّفَرُ سَفَرَان، سَفَرٌ طويلٌ، وسفرٌ قصيرٌ، وما بينَ السَّفَرَيْنِ خَيْطٌ مُشْتَرَكٌ، إنَّه: خَيْطُ الفِراقِ. .!

فالسَّفرُ الطَّويلُ هو سَفَرُ الآخرةِ، وفِرَاقُهُ طويلٌ. . . والسفرُ القصيرُ هو سَفَرُ الدنيا، وفراقُهُ قَصيرٌ. . . . لكنَّني أَحْمَدُ اللَّهَ أَنْ جَعَلَ سفري هذا سفراً إليه سبحانه.

---

(١) والجمع ما بين الوصية المكتوبة والمنطوقة هو ما ورد في الكتاب والسنة، وفي هذه العبارة ذكر للوصية المكتوبة.

يا أولادي، صباحَ الغَدِ سوفَ نُوَدِّعُكُم أنا وأَخُوكم-إن شاء اللَّه- إلى بيتِ اللَّهِ الحرام. . .

فلا يَغُرَّنَّكُم أنَّنا سافرْنا مِنْ قَبْلُ وَعُدْنا، وسافَرْنا وَعُدْنا، فَنِسْبَةُ العودةِ إلى الفراقِ، كنسبة الفراقِ إلى العودة، تتفاوَتُ مِنْ حَيْثُ الأسبابُ، وتتساوى مِنْ حيثُ الغَيْبُ والأقدارُ. .

يا أولادي، أوصيكم بخيرِ وَصيةٍ إنَّها تقوى اللَّه، تقوى اللَّه في كلِّ شيءٍ، في كلِّ قولٍ، في كلِّ عملٍ. .

يا أولادي، لا أَجِدُ لكم آصِرَةً خيراً مِنَ الأُخُوَّةِ، ولا رابطةً خيراً مِنَ الصحبةِ الصالحةِ، ولا حِزَاماً أحسنَ مِنْ أُلْفَتِكُم عَلى محبَّةِ اللَّه، ولا مُطَهِّراً لِحَيَاتِكم أَحْسَنَ مِنَ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ، ولا أُمْنِيَةً أَحْسَنَ مِنَ الشَّهادَةِ، ولا طريقاً أَحْسَنَ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ، ولا طَلَباً أَحْسَنَ مِنْ طَلَبِ بَعضِكم النَّصيحةَ مِنْ بعضٍ. .

يا أولادي، إنَّه مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ - حقيقةً - لا يُفَرِّقُ بينَ حُضورِ أبٍ أو غِيابِهِ، فالتَّقوى مراقبةُ اللَّهِ لا مراقبةُ مخلوقٍ، فليكن حضوري معكم أو غيابي عن أعينكم في ميزان تقواكم للَّه، وهذا لا يكون عند أحدٍ مثل من يعبد اللَّه سبحانه كأنَّه يراه، ثم عند من يتَّق اللَّه حيثما كان.

يا أولادي، يَفْقِدُ النَّاسُ عادةً بعضَ المَكاسبِ بِذَهَابِ المَسؤولِ وَالصَّديقِ والأَبِ ونَحْوِهِم، ومِنْ أَعْظَمِ المَنْكُوبِينَ بِذَهَابِ الأَبِ هي: الأُمُّ. . . لكنْ أَنْ تُنْكَبَ الأُمُّ بِذَهَابِ زَوْجِهَا عَلى يَدِ أَبنائِها، فهذا ما لا يَرضاهُ اللَّهُ ولا رسولُهُ ﷺ كما لا يرضاه أَبُوكم، ولا صاحِبُ الضميرِ الحَيِّ أَيًّا كانَ. .!

نَعَمْ رُبَّما لا تَجِدُ الأُمُّ بِكُم العِوَضَ عَنِّي، ولكن أَلَّا تَجِدَ بِكُم العَزَاءَ..؟ فهذه مُصيبةٌ..!

والمُصيبةُ الكُبرى أنْ يُصبِحَ الأبناءُ هُمُ المُصِيبةُ، وتُصْبِحُ الأُمُّ هي الحاملة لمَصَائِبِهم..!

يا أولادي، ليسَ الغَيُورُ على عِرْضِهِ هو مَنْ يُبالغُ في التَّشديدِ على أَخَوَاتِهِ كُلَّما دَخَلَ وخَرَجَ، وقَامَ وقَعَدَ، يَنْظُرُ إليهِنَّ نَظَرَ ارتيابٍ وسُوءِ ظَنٍّ... إنَّ الغَيُورَ على أخَوَاتِه هو مَنْ يَحْمِيهِنَّ، وأَعْظَمُ حِمَايَةٍ لَهُنَّ هي أَنْ يُحِبَّهُنَّ حَقِيقةً، ويُشْعِرَهُنَّ بهذه المَحبةِ الكبيرةِ، مَحبةِ المُحِبِّ الحَنُونِ لِأُخْتِهِ الحَنُون... فقد أَثْبتتِ التَّجْرِبَةُ أَنَّ مَحَبَّةَ الإِخْوَانِ لأَخَوَاتِهِمْ أَعْظَمُ سُورٍ لِحِمَايَةِ أَعْراضِهِنَّ، وأنَّ أَعْظَمَ هَدْمٍ شَيْطَانِيٍّ في ذلك السُّورِ هو الإفراطُ في الشِّـدَّةِ على الأَخَوَاتِ، ذلك أَنَّ المحبةَ في قَلْبِ البِنْتِ حَاجَةٌ وجَوْعَةٌ، فإذا لم تَجِدْ حاجتها في البيتِ طَلَبَتْهَا خارِجَ البيتِ طَلَبَ الجَائِعِ طَعَاماً، وبهذا الطُّعْمِ تَحديداً تَتَهَاوَىٰ كَثيرٌ مِنَ البَنَاتِ في الشَّرَكِ، فإياكم أَنْ تكونوا مِنَ الأسبابِ، إذْ تُرِيدُونَ أَنْ تكونوا أنتم السُّورَ والحجابَ..

يا بُنَيَّاتِي، مَعَ أَنَّ كُلَّ ما قُلْتُهُ لأبنائي هُوَ لكُنَّ، ولا فَرْقَ في ذلك بينَكُم، فَكُلُّكُم أولادي، إلا أَنَّني أَخُصُّكُنَّ بِمَزِيدِ حِرْصٍ، فَأَنْتُنَّ عِرْضِي وَشَرَفِي، فَاصْنَعْنَ ما شِئْتُنَّ بالعرض والشَّرف!

يا بُنَيَّاتي، لا تَسْمَحْنَ لِأَيٍّ كانَتْ مِنَ النِّسَاءِ في مَجْلِسِكُنَّ بِمَعْصِيةِ لِسَانٍ، أَوْ عَمَلٍ مِنْ غِيبةٍ أو نَميمةٍ أو سُخريةٍ أو تَجرُّؤ ولو بخُطوةٍ من خُطُوات الشَّيطان..

وَأَحْسَنُ طَريقةٍ هي أَنْ تَبْدَأْنَ قِيَادَةَ المَجْلِسِ بِفِكْرَةِ خَيرٍ تَشْغَلُ الجَمِيعَ

بِالتَّفكيرِ فيها، ثم يَنْشَغِلُ الجميعُ بالعَمَلِ عليها..

يا بُنَيَّاتِي، بِمَا أَنَّ الجَهْلَ في عَالَمِكُنَّ - عَالَمِ المَرأةِ - أَكْثَرُ، والهَجْمَةَ عليها أَشَدُّ، والمُتَجَاوِبَاتِ المُتَجَاذِبَاتِ مَعَ الهَجْمَةِ مِنْهُنَّ أَكْثَرُ، فإنَّ الأمانةَ عليكنَّ أَثْقَلُ بِإِنْقَاذِ ما يُمْكِنُ إِنْقَاذُهُ مِنْهُنَّ... وَوَقَايَةِ مَنْ يُمْكِنُ وِقَايَتُهُ مِنْهُنَّ... ولا يَكونُ ذلك إلا إذا تَعَلَّمْتُنَّ العِلْمَ الشَّرْعِيَّ، وحَفِظْتُنَّ القُرآنَ، وتَعَاوَنْتُنَّ مَعَ العَالِمَاتِ وطَالِبَاتِ العِلْمِ عَلى ذلكَ... إِنَّها أَمَانَةُ جِيلٍ قَلَّ المُعِينُ عَليها.

فَإِيَّاكُنَّ والخَوْضَ مَعَ الخَائِضَاتِ، وَمُنَافَسَتَهُنَّ عَلَى الموضَاتِ... فَإِنَّ مَنْ تُريدُ مَدَّ يَدِهَا لِإِنْقَاذِ الهَاوِيَاتِ فَعَلَيْهَا أَنْ تُنَظِّفَ يَدَهَا مِنَ الزُّهُومَاتِ، وتُمَكِّنَ قَدَمَهَا الثابتة عَلَى الأَرْضِ الرَّاسِيَةِ، وَإِلَّا انْزَلَقَتْ مَعَ المُنْزَلِقَاتِ...

يا أولادي، إذا كُنْتُ لَمْ أُحْسِنْ تَرْبِيَتَكُمْ كَمَا أُرِيدُ، فَأَحْسَنُ إِحْسَانٍ تُقَدِّمُونَهُ لِي هُوَ أَنْ تُحْسِنُوا أَنْتُمْ تَرْبِيَةَ أَنْفُسِكُم، فَتَجْبُروا تَقْصِيرِي في حَقِّكُمْ، وتَسُدُّوا خَلَلِي، وَتَحْمُوني مِنْ عَاقِبَةِ سُؤُالِ رَبِّي سبحانه، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٩٨]. فإنِّي أَسْأَلُكُم بِاللَّهِ - يا أولادِي - أَلّا تَكُونُوا سَبَباً في هَلاكِي، إِذْ إِنَّني رُبَّمَا أَكُونُ قد تَحَصَّنْتُ لِنَفْسِي مِنْ نَفْسِي، لَكنَّني لَمْ أَتَحَصَّنْ لِنَفْسِي مِنْ أَهْلِي، فإذا لَمْ تَكُونُوا سَبَباً في نَجَاتِي فَلا تَكُونُوا سَبَباً في عَذَابِي - وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

يا أَولادِي، كَيْفَ أُكَافِئُ وَلَداً جَعَلَ عَمَلَهُ في مِيزَانِي، ولَمْ يَنْسَنِي مِنْ دُعَائِهِ عِنْدَ رَبِّي، بَلْ كَيْفَ أُكَافِئُهُ إِذَا خُفِّفَ عَنِّي بِهِ في قَبْرِي، أَوْ رُفِعَ بِسَبَبِهِ هُنَاكَ في قَدْرِي..؟!

كَيْفَ أُكَافِئُ وَلَداً أَلْبَسَنِي وَأُمَّهُ حُلَّتَيْنِ لا يُقَوَّمُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا يَوْمَ القِيَامَةِ، أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَامَ خَلْقِهِ وذلك بِحِفْظِهِ القُرآنَ..؟! ألم يقل النَّبي ﷺ: «... **ويُكْسَى والدَاهُ حُلَّتَانِ، لا يقُومُ لَهما الدنيا وما فيها، فَيقولان: يا ربِّ أنَّى لنا هذا؟ فيقال: بتَعْلِيمِ وَلَدِكُمَا القرآنَ**»(١).

يَا أَولادِي، لا أَجِدُ ضَابِطاً لَكُمْ - وأَنْتُمْ كَثِيرو المَشَاوِير- أَحْسَنَ من الالتزام بقَوْلِ النبيِّ ﷺ: «**حَيْثُمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاةُ فَصَلِّ، وَالأَرْضُ لَكَ مَسْجِدٌ...**»(٢) فاللَّهَ اللَّهَ في الصَّلاةِ حَيثُما أَدْرَكَتْكم. اللَّهَ اللَّهَ في صَلاةِ الجَمَاعَةِ في المَسَاجِدِ.

وإذا ضَاقَتْ بِكُمُ الأَوْقَاتُ عَلَى الصَّلَوَاتِ، أَوْ ثَقُلَ بِكُمُ القِيَامُ مِنَ المَضَاجِعِ، أَوِ اشْتَدَّ الزِّحَامُ وكَثُرَتِ الأَعمالُ، وتَنَازَعَتكم الاهْتِمَامَاتُ وَالمَوَاضِيعُ فَتَذَكَّرُوا قَوْلَ النبيِّ ﷺ: «**الصلاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ فَلْيَسْتَكْثِرْ...**»(٣).

يا أَوْلادِي: املئوا قلوبكم بمَحَبَّةِ اللَّهِ وَحَكِّمُوا محبَّته فِي كُلِّ مَا يَعْرِضُ، وإذا اعترضكم أمران للاختيار فاجعلوا اختياركم مبنيٌّ على جواب سؤال يقول: أَيُّ الأَمْرَيْنِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللَّهِ...؟! فَكَفَىٰ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ وشَرْعِهِ اختياراً وحكماً.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٧٦٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٢٩).

(٢) جزء من حديث رواه البخاري (٣٢٤٣)، كتاب: الأنبياء، باب: قول اللَّه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ومسلم (٥٢٠)، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٢٤٣)، قال الألباني: حسن لغيره. انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٩٠).

يا أَوْلادي، إِيَّاكُمْ أَنْ تُنْفِقُوا ثِمَارَ الصَّلَواتِ، والأَذْكَارِ، وذَخِيرَةِ المَسَاجِدِ في بَاحَاتِ الأَسْوَاقِ، أَوْ تَجْعَلُوهَا حَصِيداً لِذُنُوبِ الأَلْسُنِ والعيون ومَا إِلَىٰ ذلكَ . . .

يا أَولادِي، سَيُقَدَّمُ عند حِسَابِكُمْ - واللَّهُ أَعْلَمُ - السُّؤَالُ عَنِ الصَّلاةِ قَبْلَ كُلِّ سُؤَالٍ، فَأَحْسِنُوا إِعْدَادَ الإجابةِ الآنَ . . وتَنَبَّهُوا . . ! فَإِنَّ السؤالَ ليسَ على أَدائِها فَحَسْبُ، ولكنْ على صَلاحِهَا «**فَإِنْ صَلُحَتْ صَلُحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ**»[1]، فَأَصْلِحُوا التَّطَهُّرَ عِنْدَ قَضَاءِ الحَاجَةِ لِأَجْلِهَا، وَأَصْلِحُوا الوُضُوءَ وَأَسْبِغُوهُ، أَصْلِحُوا السُّنَنَ والنَّوَافِلَ بين يديها ومن خلفها، أَصْلِحُوا الخُشُوعَ فيها، أَصْلِحُوا الخِتَامَ، أَصْلِحُوا التَّسبيحَ والتهليلَ والتكبيرَ . . . أَصْلِحُوا أَثَرَهَا في حَيَاتِكُم . . أَصْلِحُوهَا فَثَمَّةَ النَّجَاةُ . . .

يا أَوْلادِي، إِيَّاكُم أَنْ تَدَعُوا يَوماً يَفُوتُ بِغَيْرِ إِنْفَاقٍ في سَبِيلِ اللَّهِ، ولَوْ في صُنْدُوقِ الصَّدَقَاتِ الصغيرِ الَّذي جَعَلْنَاهُ في مَمَرِّ البَيْتِ، ولَوْ مِنْ مَصْرُوفِكم اليوميِّ . . . فَنِعِمّا الشبابُ مَنِ ابْتَدَأَ الادِّخَارَ لِلآخِرَةِ مِنْ عُمُرِ الزُّهُورِ . . فَأَخَذَ مِنْ مَصْرُوفِهِ الشَّخْصِيِّ للإنفاقِ اليومي، أَخَذَ مِنْ قُوَّةِ الشَّبَابِ لِلعِبَادَةِ، أَخَذَ مِنَ السُّكُوتِ وَالهَذْرِ لِلذِّكْرِ، أَخَذَ مِنَ المَنَامِ لِلْقيَام، أَخَذَ مِنْ تَتَابُعِ الطَّعام للصِّيَام . . . أَلَيْسَ ذلك هُوَ الثَّمن لِحَجْز أَغْلَىٰ مَكَانٍ في أَخْطَرِ زَمَانٍ؟ «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَا ظِلُّهُ . . . وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ . . .**»[2].

---

(١) جزء من حديث رواه الطبراني في «الأوسط» (١٨٥٩) من حديث أنس، قال الألباني: الحديث صحيح بمجموع طرقه، انظر «السلسلة الصحيحة» (١٣٥٨).

(٢) جزء من حديث رواه البخاري (١٣٥٧)، كتاب: الزكاة، باب: الصدقة باليمين، ومسلم (١٠٣١)، كتاب: الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة، من حديث أبي هريرة ﷺ .

يا أَولادِي، لا يُسْعِدُنِي - وَاللَّهِ - أَنْ يَقُولَ أَرْحَامُنَا أَوْ غَيْرُهُم: نِعْمَ الرَّجُلُ أَبُو فُلانٍ، وبِئْسَ الأَبْنَاءُ أَبْنَاؤُهُ، فَلأَجْلِ اللَّهِ وَحْدَهُ صِلُوا الأَرْحَامَ حَتَّى مَنْ قَطَعَكم مِنهم، تلكَ الأرحامُ التِي امْتَدَّتْ لَكُم مِنْ جِهَتِي وَمِنْ جِهَةِ أُمِّكُم كَذَلك، أَوْ مِنْ أَيَّةِ جِهَةٍ أُخْرَى، وَاعْلَمُوا أَنَّ الأَصْلَ في الصِّلَةِ المُوَاصَلَةُ، فالمواصلة بكلِّ طريقٍ وإلا فبأيِّ طريقٍ.

يا أَولادِي، صِفَةٌ مُلازِمَةٌ لِبَنِي إِسرائيل قَدْ تَفَشَّتْ في الكثيرِ مِنْ بُيُوتِ الصَّالحين، وخُصوصاً بَيْنَ الأبناءِ، تِلْكَ هِيَ ما قَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ**﴾ [المائدة: ٩٧]، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تَضِيقَ صُدُورُكُم بِنَاصِحٍ مِنْ دَاخِلِكم، فَضْلًا عَنِ الخَارِجِ، فَالنَّاصِحُ بَيْنَنَا سَاتِرٌ لَنَا عَنْ أَعْيُنِ الخَارِجِينَ عَنَّا... لَرُبَّما تُرَدُّ النَّصيحةُ بِما يُنَاسِبُهَا مِنَ الأَدِلَّةِ، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُرَدَّ النَّاصِحُ، أَوْ يُعَنَّفَ وَكَأَنَّكَ تَقُولُ لَهُ: حَذَارِ مِنْ أَنْ تَنْصَحَنِي مَرَّةً أُخْرَى، أَوِ انْظُرْ لِنَفْسِكَ أَنْتَ أَوَّلًا..!

يا أَولادِي، أَيُعْقَلُ أَنْ يَقْدِرَ رَجُلٌ عَلَى أَنْ يُخَاطِبَ اللَّهَ تَعَالَى كُلَّ يَوْم ثُمَّ يَتْرُكَ خِطَابَهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عليه، أَمْ يُعْقَلُ أَنْ يَقْدِرَ عَلَى الاسْتِمَاع لِخِطَابِ اللَّهِ كُلَّ يَوْمٍ ثُمَّ يَتْرُكَ الاسْتِمَاعَ إِلَيْهِ..؟!

فَاللَّهَ اللَّهَ فِي وِرْدِ القُرآنِ اليَومِيِّ، في صُحْبَةِ القُرْآنِ الدَّائِمَةِ، احْفَظُوهُ بِإِتْقَانٍ، وحَافِظُوا عَلَى حِفْظِهِ، وَحَفِّظُوهُ أَبْنَاءَكُم، وأَشِيعُوا حِفْظَهُ في العَالَمِينَ..

يا أَولادِي، أَيَقْدِرُ رَجُلٌ أَنْ يَعِيشَ بِرُوحِهِ وَعَقْلِهِ وَجُزْئِيَّاتِ حَيَاتِهِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَ الأَنبياءِ، وَيَرى الجَنَّةَ والنَّارَ، وَيَكْشِف مِنَ الغُيُوبِ ما يَكْشِفُ ثُمَّ يَتْرُكَ ذَلِكَ..؟!

تِلْكَ هِيَ السُّنَّةُ، فَالسَّنَّةَ السُّنَّة... مَحَبَّةً، وَحِفْظاً، ومُدارسةً وَاتِّبَاعاً، وَدَعْوَةً..

يا أَولادِي، كُلَّمَا ارْتَقَيْتُمْ دَرَجَةً فِي العُبُودِيَّةِ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، فَتَطَلَّعُوا لِبُلُوغِ دَرَجَةِ الإِحْسَانِ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ تَعَالَىٰ كَأَنَّكُمْ تَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ، في صَلاتِكُمْ، في قِرَاءَتِكُمُ القُرْآنَ، فِي صِيَامِكُمْ، حَتَّى يَعُمَّ الإِحْسَانُ حَيَاتَكُم بِإِذْنِ اللَّهِ... وَلَعَلِّي أَضَعُ كِتَاباً يَجْعَلُ مِنَ الحَجِّ والعُمْرَةِ مَحْضَناً لِلإِحْسَانِ[1]... فَأَرْجُو أَنْ تَدْخُلُوا هذا المَحْضَنَ، وتَكُونُوا مِنْ أَعْظَمِ المُنْتَفِعِينَ به...

يا أَولادِي، حِينَ أُوصِيكُمْ بِهَذِهِ الأُمُورِ فَإِنَّمَا أُوصِيكُم بِالأَقَلِّ، وَإِلَّا فَإِنَّ اللَّائِقَ بِكُمْ هُوَ أَنْ يَتَعَدَّىٰ خَيْرُكُم لِغَيْرِكُم، وَيَتَعدَّىٰ إِصْلَاحُ صَلَاتِكُمْ لإِصْلَاحِ صَلاةِ النَّاسِ، وتَتَعَدَّى صَدَقَاتُكُمْ لِحَضِّ النَّاسِ عَلَيها وَإِنْشَاءِ أَعْظَمِ الصَّدَقَاتِ الجَارِيَاتِ، وتَتَعَدَّىٰ غَيْرتُكُم عَلَى أَعْرَاضِكُم إلى الغَيْرَةِ عَلَى أُمَّتِكم، وتَتَعَدَّىٰ نَظْرَتُكُم فِي كُلِّ خَيْرٍ إلى أَبْعَدِ مَدَى، وَأَبْقَى أَثَرٍ، وَأَعْظَمَ ثَمَرٍ، لِيَعْظُمَ الحَصَادُ لكم وَلِبِلَادِكُم ولِأُمَّتِكُم، فَيَكُونَ أَعْظَمَ قُرَّةِ عَيْنٍ لَنَا يَوْمَ نَلْقَى رَبَّنَا سُبحانه...

يا أولادي، لَوْلَا مَحَبَّةُ ما افْتَرَضَ اللَّهُ، ومَحَبَّةُ مَا يُحِبُّ اللَّهُ لَمَا فَارَقْتُكُمْ، لَكِنَّها مَحَبَّةُ اللَّهِ الَّتي إِذَا دَخَلَتِ القَلْبَ أَذْهَلَتْ صَاحِبَهُ عَنْ كُلِّ حَبِيبٍ.

يا أَوْلادِي، إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي... وتَارِكُكُمْ فِي حِفْظِهِ، فَإِنَّ الفُؤَادَ قَدْ هَوَى[2]، وَإِنْ كَانَ البَدَنُ هُنَا... فَيَارَبِّ[3]: هَلْ مَنْ طَلَعتْ لَهُ - في مَكَانٍ مَا

---

(١) الإشارة هنا لهذا الكتاب «الوفادة».

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

(٣) كل لفظ (ربي) حذفت منها (الياء) اتباعاً لكتاب اللَّه، إذ لم ترد فيه (الياء) حال كونها منادى مطلقاً.

عَلَىٰ هذه الأَرْضِ - طَلَائِعُ مَحَبَّتِكَ، وَبَدَا لَهُ بَعِيداً عَنْ بَيْتِهِ بَوَارِقُ مَوَدَّتِكَ. . . يُمْكِنُ أَنْ يَحْجُبَهُ عَنْهَا مَحَبَّةُ سِوَاكَ، أَوْ يَتَلَهَّى عَنْ ذِكْرِكَ بِذِكْرِ خَلْقِكَ. . .؟!

وَكَانَ فُؤَادِي خَالِياً قَبْلَ حُبِّكُمُ ... وَكَانَ بِذِكْرِ الخَلْقِ يَلْهُو وَيَمْرَحُ
فَلَمَّا دَعَا قَلْبِي هَوَاكَ أَجَابَهُ ... فَلَسْتُ أُرَاهُ عَنْ فِنَائِكَ يَبْرَحُ
رُمِيتُ بِبُعْدٍ عَنْكَ إِنْ كُنْتُ كَاذِبا ... وَإِنْ كُنْتُ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِكَ أَفْرَحُ
وَإِنْ كَانَ شَيْءٌ بِالبِلادِ بِأَسْرِهَا ... إِذَا غِبْتَ عَنْ عَيْنِي لِعَيْنِيَ يَمْلَحُ

* * *

العيون الساقية لـ: «وصيـة مـودع»

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُۖ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣١] .

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النساء: ١٣١].

قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤] .

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**ما حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**»(١).

* * *

(١) رواه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٧).

ركعتا الوداع في البيت[١]

مَنْ لامسَتْ قلبَه - بصدقٍ - لحظةُ الوداع، وَلَذَعهُ إحساسُ الفراقِ في ظرْفٍ ما. . . عَلِمَ يقيناً ما تَصنعُ هذه اللمسةُ بقلبه. . !

وفي مقابل ذلك فإنَّ مَنْ لامَسَ إحساسُ اقتراب لقاء اللَّه تعالى قلبَه، في حالةٍ مِنْ حالاتِ حياتِه، عَلِمَ ما يُمكِنُ أن يصنعَ شعورُ الاقترابِ مِنْ لقاءِ اللَّهِ في حياتِهِ. . ؟!

فكيف إذا اجتمعَ شُعورا الوداعِ، واللقاءِ، على العبد في ركعتين. . ؟!ذلك الاجتماعُ إنَّما يكونُ في ركعتي الوداعِ عندَ إرادةِ الخروجِ مِنَ البيتِ، في ابتداءِ رحلةِ الوِفادةِ على اللَّه. .

فيا رَبِّ: لم يَبْقَ أمامي الآنَ وأنا أستقبلُ القبلةَ في بيتي بهاتينِ الركعتينِ إلا أَنْ أُكَبِّرَ، فَأدخلَ في الركعتينِ ثمَّ أخرجَ منهما إلى خارجِ البيتِ إلى بيتِكَ العتيقِ. . !

فلأَدْخُلَنَّ بهاتينِ الركعتينِ على ربِّي الأعلى، ولأَرتَقِينَّ - بأمر ربِّي - إلى درجةِ الإحسانِ فيهما، ولأصلينَّهما اليومَ - بإذنِ اللَّهِ - وكأَنَّني أَراه سبحانه. .

---

(١) المقصود هنا هو تحقيق الإحسان في ركعتي الوداع. وإن شئت قلت: كيف تصلي ركعتي الوداع للَّه كأنك فيهما تراه سبحانه، وبيان الخاصية التي تجعل من هاتين الركعتين فرصة لبلوغ هذه المنزلة، وليصبح الاستمرار عليها بعد ذلك منهجاً بإذن اللَّه.

أليستا آخِرَ ركعتينِ لي في بيتي، ورُبَّما في بَلدي، وربما لي على هذه الأرضِ..!

فَلَئِنْ قال النبيُّ ﷺ لأصحابِهِ وقد اصطَفُّوا للصَّلاة: «**صَلِّ صلاةَ مُوَدِّع**»(١) وأصحابُهُ في مسجدِه مُقيمونَ في مدينتِهِم، وبينَ أَهلِيهم، وفَعَلُوا ما أَمَرهم ﷺ فَحَرِيٌّ بي أَنْ أُصلِّيَهُمَا بِرُوحِ المودِّعِ الملاقِي لأنِّي أَختمُ بهما - الآنَ - حياةً وحالةً، وأستقبلُ بهما - الآنَ - حياةً وحالةً.. وأَعيشُ لحظةَ الوداعِ - الآنَ - معنىً ومبنىً..

إنَّه وَداعٌ حقيقيٌّ، وأنا المودِّعُ الحقيقيُّ، فكيفَ لا يختلفُ حالي في ركعتي الوداعِ عَنْ كُلِّ صلاةٍ صَلَّيْتُهَا مِنْ قَبْلُ..؟!

يا ربِّ إني لَأَرجو بِهاتين الركعتينِ مِنْ فضْلك الكثيرَ الكثيرَ... وإني أُعِدُّهما لأعظمِ المنازلِ وأعلى الدرجات..

ما أَرْخَصَ الحياةَ الدنيا في ظلِّ ركعتي الوداعِ هاتين..؟!

ما أكبرَ لقاءَ اللَّهِ على القَلبِ في هاتينِ الركعتينِ..؟

شعورٌ لا يُوصَفُ أبداً إلا بالقولِ: إنك وأنت تصليهِما تَعبدُ اللَّهَ كأنك تراه فيهما... نَعَمْ، كأَنَّك تراه..! في القيامِ كأَنَّك تراه..! في القراءةِ كأَنَّك تراه..! في الركوعِ كأَنَّك تراه..! في السجودِ كأَنَّك تراه..! في القعودِ كأَنَّك تراه..! في السلامِ منهما كأَنَّك تراه سبحانه وتعالى..!

---

(١) جزء من حديث: رواه البخاري في «التاريخ» (٦/٢١٦)، من حديث أبي أيوب بسند حسن. قاله الألباني، انظر «السلسلة الصحيحة» (١٩١٤).

فدَعِ الوِفادةَ على اللَّهِ تَبتدئُ بركعتينِ، وَدَعْ وَدَاعَ الأهلِ يَتمُّ بكلمتين[١]، وَدَعِ المسيرَ إلى اللَّهِ يَبتدئُ بِخُطْوتينِ. . .

فَعَنْ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمِعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**ما يرفعُ إبلُ الحاج رِجْلًا ولا يضع يداً إلا كتبَ اللَّهُ له بها حسنةً، أو مَحَا عنه سيئةً، أو رَفَعَهُ بها درجةً. . .**»[٢].

يا ربِّ[٣]، إنْ عِشْتُ فَأَعِنِّي - دائماً وأبداً - على تحقيقِ الاستجابةِ في كلِّ صلاةٍ لأمرِ نبيِّك ﷺ بقولِه: «**صَلِّ صلاةَ مُودِّع. . .**»[٤].

وأَعِنِّي يا ربِّ على الإقامة في منزلةِ الإحسانِ، حيثُ أعبدُك - بفضلك - كأنَّني أراك، في جميع صلواتي. . وخُطُواتي، وسَكَناتي، وكَلِماتي، وسَكَتَاتي، وخَلَواتي، ولِقَاءَاتي. . . إلى أنْ أعودَ مِنْ وِفادتي، وإلى أن ألقاك - بفضلك - ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٣٢].

أَولَيس مِنَ الحكمةِ البالغةِ ارتباطُ المنزلةِ العُليا - والله أعلم - في العبوديةِ

---

(١) الإشارة هنا إلى جواب المسافر لدعاء المودع له بقوله: «**أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهَ الذي لَا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ**» رواه ابن ماجه (٢٨٢٥) وصححه الألباني.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤١١٦) وحسنه الألباني، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٠٦).

(٣) لا ينبغي أن يقرأ القارئ هذا الخطاب وأمثاله على أنه من المؤلف لربه، بل منك أنت أيها القارئ لربك سبحانه وتعالى، ومعاذ الله أن يكون هو خطاب تمثيل الإحسان، إذ هو التدرج الطبيعي للمنطق الإيماني من أول الموضوع حتى بلوغ هذه المنزلة، ومن ثم إذا رفع القارئ هذا الخطاب من قلبه غير منشغل بكاتبه ولا كتابه عاش - بإذن الله - منزلة الإحسان في كل مراحل الكتاب. . . وهذا التنبيه من الأهمية بمكان ولسوف تحتاجه كلما ذكر هذا الخطاب.

(٤) سبق تخريجه.

هنا، بالمنزلةِ العُليا في نعيمِ الجنةِ هناك..؟!

أليسَ مِنْ حُسْنِ الجزاءِ العاجلِ، أنْ يكونَ أعظمُ المتلذِّذينَ بالعبوديَّةِ في الدنيا هُمْ أعلى المتلذِّذينَ بالنَّعيمِ في الجنَّة..؟! هنا كأنَّهم يَرونه، وهناك حقيقةً يرونه..؟!

فيا ربِّ، اجعلْهما ركعتيْ رِفعةٍ لم أَشْهَدْهَا - من قبلُ - في حياتي..

إنَّه بِقَدْرِ ما في الوداعِ مِنْ أَلَمٍ، بِقَدْرِ ما في ركعتي الوداع مِنْ لذَّةٍ.. وبِقَدْرِ ما في هاتَينِ الركعتينِ مِنْ وَدَاعٍ، بِقَدْرِ ما فيهِما مِنْ لِقَاءٍ مُفْعَم ومَحبَّةٍ...

إنه لقاءُ بَقاءٍ، وصِلةٍ، واتِّصالٍ، وقُرْبٍ، واقترابٍ...

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**حُبِّبَ إلي من الدُّنيا: النِّساءُ والطِّيبُ، وجُعِلَ قُرَّةُ عيني في الصَّلاة**»(١).

وهل للأَعْيُنِ قُرّةٌ أعظمُ - في صلاتها - مِنْ أنْ تعبدَ ربَّها كأنَّها تراه..؟!

* * *

(١) رواه النسائي (٣٩٣٩)، كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء، وصححه الألباني.

العيون الساقية لـ:
«ركعتا الوداع في البيت»

قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «**ثلاثةٌ في ضَمَانِ اللَّه: رَجُلٌ خرج إلى مسجدٍ من مساجدِ اللَّه عز وجل، ورَجُلٌ خَرَج غازياً في سبيل اللَّه، وَرجُلٌ خَرَجَ حاجًّا**»(١)(٢).

عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما يقولُ: أتى رَجلٌ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللَّه! حَدِّثْني بحديثٍ واجعلْه مُوجزاً؟ فقال له النبيُّ ﷺ: «**صَلِّ صلاةَ مُوَدِّعٍ، فإنَّك إن كنتَ لا تراه فإنَّه يراكَ، وأيس مِمَّا في أَيدي النَّاسِ تَكُنْ غنياً، وإياكَ وما يُعْتَذَرُ منه**»(٣).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا خَرَجْتَ من منزلك فَصَلِّ ركعتينِ يَمْنَعَانِكَ مِنْ مَخرَجِ السُّوء، وإذا دخلتَ إلى منزلك فَصَلِّ ركعتين يمنعانِكَ من مَدْخَلِ السُّوء**»(٤).

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٥١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٩٨).

(٢) يربط البعض ما بين الحج وبين الموت فيجعله سببه، ولا يزال البعض يعزف عن الحج خوفاً من الموت، ولذا جاء ذكر هذا الحديث هنا، إذ ليس من تطمين أعظم مما ورد في هذا الحديث من ضمان للحاج، إن عاش صاحبه أو مات.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٤٢٧)، وقال الألباني: حسن لغيره، انظر «صحيح الترغيب» (٣٣٥٠)، و«الصحيحة» (١٩١٤).

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٠٧٨) والبزار، وحسنه الألباني انظر «صحيح الجامع» (٥٠٥)، و«الصحيحة» (١٣٢٣).

فائدةٌ: قال ابنُ أبي شيبةَ في «مصنَّفه»: «**الرَّجلُ يريدُ السَّفرَ مَنْ كان يَسْتَحِبُّ له أنْ يصليَ قبلَ خروجِه**»:

حدثنا أبو معاوية عن عُبيدِ اللَّه عن نافعٍ عن ابنِ عمرَ أنه كانَ إذَا أرادَ أَنْ يخرجَ دخلَ المسجدَ فصلَّى. . .

حدثنا حُمَيْدُ بنُ عبدِ الرحمن عن زُهير عن أبي إسحاقَ قال: رأيتُ الحارثَ بنَ أبي ربيعةَ صَلَّى حينَ أرادَ أَنْ يخرجَ إلى ماءِ حِمْيَرَ في الحُجرةِ ضُحىً ركعتينِ وصَلَّى معه نَفَرٌ منهم الأسودُ بنُ يزيدَ.

* * *

قطـع الالتفـات[١]

قبلَ الخطوةِ الأولى خارجَ بيتي إلى بيتِ اللَّهِ، حَضَرَني سؤالٌ يقولُ: ما الدنيا بالنسبةِ لي؟!

أليستْ هي الزوجةُ، وهي الولدُ، وهي الصاحبُ، وهي التجارةُ، وهي ما عندي مِنْ مالٍ، وهي البلدُ..؟!

والجوابُ بغيرِ شكٍّ: نَعَمْ هذه هي الدنيا الَّتي تَعْنيني...

أليستْ هذه هي الَّتي سأتركُها الآنَ وأذهبُ عنها إلى ربِّي... مستغنياً بربِّي عنها، مُتَعَزِّياً بما وَعَدَ اللَّهُ مَنْ وَفَدَ إليه..؟!

نَعَمْ، واللَّهِ...

فما دامَ الأمرُ كذلك، فكيف يَلْتَفِتُ إليها قلبي وأنا أتركُها - الآنَ - وراءَ ظهري..؟!

لا لالتفاتِ القلبِ إلى شيءٍ منها.. إنَّ مَن تَعَلَّقَ قلبُه باللَّهِ، وبما وَعَدَ اللَّه، اشْرَأَبَّتْ عَيْنا قلبِهِ نحوَ ما تَعَلَّقَ به القلبُ، مُتوجِّهاً نحوَ تلكَ الوِجهةِ، مادًّا نحوَها العنقَ، مُطلِقاً لِسَاقَيْهِ الريحَ، وللسانه الذِّكرَ والتَّسبيحَ.

أرأيتَ إبراهيمَ عليه السلام وقد تَرَكَ ولدَه إسماعيلَ وزوجَه، فنادتْه هاجرُ: إلى

(١) كما أن أعظم مزيل للخشوع في صلاة العبد إذا وجّه وجهه للَّه تعالى هو الالتفات لأمور خارج الصلاة من أمور الدنيا، فإن أعظم مُذهب لثمرة الحج والعمرة، وصارف عن بلوغ العبد منزلة الإحسان فيهما هو الالتفات إلى الدنيا، إذْ تَرَكَها الوافد وهو قادم على اللَّه.! ومن ثَمَّ جاءت أهمية هذا الموضوع في أول الوفادة كوقاية.

مَنْ تَتْرُكُنا ؟ وهو لا يَلتفتُ إليها، إلى أن قالتْ له: «**آللَّهُ الَّذي أَمَرَك بهذا؟ قال: نَعَمْ... قالت: إذاً لا يُضَيِّعُنا**»(١).

فإبراهيمُ لم يَلتفِتْ إليها، والزوجةُ لم تَلْتَفِتْ للزَّوجِ إلَّا لتتأكدَ: آللَّهُ أَمَر، أَمْ أنه اجتهادٌ؟ ولَمَّا تأَكَّدَتْ مِنْ ذلك، عادتْ أدراجَهَا واطمأنَّتْ، ولم تَسألْ سؤالًا آخَرَ...

ويومَ عزمَ إبراهيمُ عليه السلام على ذَبْحِ وَلَدِهِ للرُّؤيا الَّتي أَراه اللَّهُ تعالى، أَخَذَه ولم يَلْتَفِتْ إلى كلِّ نداءاتِ الفطرةِ نحوَ الولدِ في داخلِه، ولم يلتفتْ إلى نداءاتِ الشَّيطانِ مِنْ خارجِه، ومَضَى في طريقِه لم يُوقِفْهُ شيءٌ، ولم يَفِلَّ عَزْمَ إصرارِهِ إلا النداءُ الهادرُ من السَّماء: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤- ١٠٥].

وفي اليومِ الَّذي عَزَمَ فيه إبراهيمُ على تحطيمِ الأصنامِ لم يُثْنِهِ التَّفكيرُ بِعُقُوبَةٍ ولا عاقبةٍ، ولم يُحْبِطْهُ تخذيلُ الأهلِ والصَّحبِ والأقرباءِ، ولم يُرْجِعْهُ تخويفُ الأعداءِ، وحَسَم أمرَه، وحَسَم القضيَّةَ حَسْماً عَقَديًّا لا رجعةَ فيه، واستكثرَ أَنْ يلتفتَ فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٨].

وكذلك لم يلتفتْ إلى غيرِ اللَّهِ تعالى حينَ أَلقوه في النَّار...

وهكذا لم يلتفتْ قلبُه إلى قومِهِ، وهو يَتركُهُم ويتركُ بلدَه قاصداً ربه قائلًا: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى

(١) رواه البخاري (٣١٨٤) كتاب الأنبياء باب يزفون.

شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٦ - ٤٨].

ولكنه حين حانت منه التفاتةٌ(١) ثلاثَ مرَّاتٍ ذَكَرَها في حديث الشفاعة، رأى عليه السلام أنَّها خَلَّفَتْه عن منزلة الشفاعةِ العظمى..

إذاً فانتفاءُ التفاتةِ إبراهيمَ عليه السلام في المواقفِ العظمى هي المَزِيَّةُ العُظمى... هي الاستسلامُ دُونَ تردُّدٍ، هي الإسلامُ، وهي ما ذَكَرَ اللَّهُ تعالى عنه فقال مِمَّا قال: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ٤٢١]، وهو من قالَ اللَّهُ عنه: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، وهو من قال اللَّهُ عنه: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، هي سلامةُ القلبِ وإسلام الجوارح.

ولذا كانَ لزاماً على الوافدِ على اللَّهِ: أَنْ يعرفَ السرَّ الأوَّلَ لهذه المناسكِ، السرَّ الباقيَ الواصلَ إلى أعماقِ المناسكِ في التَّاريخِ والتَّشريعِ... إنَّه الاستسلامُ لأمرِ اللَّهِ، إنَّه تجنُّبُ الالتفاتِ إلى الدُّنيا بعدَ أن يودِّعَها، إنَّه القدومُ على اللَّهِ وحدَه، إنَّه المعانِي الحيَّةُ في شِعَارِ الحجِّ: «**لبَّيْكَ اللَّهمَّ لبَّيْكَ، لبَّيْكَ لا شريكَ لكَ لبَّيْكَ، إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لكَ والملك لا شريكَ لك**»(٢).

ولتعلم أيها الوافدُ على اللَّهِ: أن التفاتَ قلبِك هو أشدُّ ما يطلبُه الشيطانُ، ويصارعُ لأجله...

---

(١) نسميها التفاتة نسبة إلى منزلة الخليل عليه السلام ومنزلة الخلة، وإلا فقد سماها الخليل نفسه كذبة فقال: «**لقد كذبت ثلاث كذبات**» - لكنها في ذات اللَّه - رواه البخاري (٤٧١٢).

(٢) رواه البخاري (١٤٧٤) كتاب: الحج، باب: التلبية، ومسلم (١١٨٤) كتاب: الحج، باب: التلبية وصفها ووقتها.

فهو يَنْخَزُكَ بِحَرْبَةِ الأهلِ، ويَطْرُقُكَ بِمِطْرَقَةِ الولدِ على سِنْدانِ المالِ، وَيُلِحُّ على إِلْهَاءِ قلبِك باللَّهوِ، بما يُحِبُّ القلبُ مما يَظهر أمامَ عينيك، وبما يَطرق سمعَك. . .

إنَّ عِلْمَك بهذا وأنت في ابتداءِ الطريقِ لَهُو مِنْ أغلى المعلوماتِ الَّتي تتزودُ بها في هذا السيرِ العظيمِ، وتتقي بها أعظمَ العَوَارِضِ عن بلوغ الإحسان في الوِفادةِ. .

ولكنْ عليكَ أن تتنبهَ إلى أنَّ مجردَ علمِك بضرورةِ قطعِ الالتفاتِ لا يكفي لحمايةِ القلبِ مِنَ الالتفاتِ، فالعلمُ المجردُ لا يكفي، بل لا بُدَّ مِنْ تصاعدِ الإقبالِ على اللَّهِ مع تتابعِ الخُطَى إلى بيتِه، مَعَ تردُّدِ الأنفاسِ، وتعاقُبِ السَّاعاتِ، واقترابِ الوصولِ. . .

إذا سَكَنَ الغديرُ على صَفَاءٍ ... وجُنِّب أن يُحرِّكَه النَّسيمُ
بَدَتْ فيه السماءُ بلا امْتِرَاء ... كذاك الشمسُ تبدو والنُّجومُ
كذاك قلوبُ أربابِ التَّجَلِّي ... يُرى في صفوها اللَّهُ العظيمُ[1]

ومِنَ الصعوبةِ أن يُصدِّقَ أَحَدٌ أَنَّ العبدَ الذاهبَ إلى ربِّه لا يُبتَلى بشاغلٍ يَلْفِتُ قلبَه إلى ما سِوى اللَّهِ تعالى، بل إلى ما لا يُرضِي اللَّهَ عنه، كأَنْ يتعرضَ لفتنةٍ في شهوةٍ، أو غَضْبَةٍ أو نَزْوَةٍ، أو حتَّى تَزكيةِ نَفْسِهِ، وما أعظمَ المُصابَ بِذِكْرِ النَّفسِ وما أكثرَ ضحاياه. .؟!

فإنَّ النفسَ، ورؤيتَها نَفْسَهَا، لَمِنْ أعظم العوارضِ عن اللَّهِ. . ومِنْ أعظمِ أسباب طغيان الإنسان ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]

(١) الصحيح أن يقول: كأنه يرى.

فلربَّما تحتاجُ لأمرٍ ما - في رحلتك هذه - فتطلبه من البشرِ وبإمكانِك ألَّا تطلبَه منهم، وتُلِحُّ إلْحاحاً، مُعَرِّفاً بِنَفْسِكَ عندَ مَنْ لا يَعرفُك، ذاكراً بعضَ سِمَاتِ نفسِك، مُوَرِّياً عن أشياءَ صحيحةٍ عنك وربَّما غيرِ صحيحةٍ، لِيَفْهَمَ الآخرُ ما يستوجبُ قضاءَ حاجتِك لك، والقيامَ بخدمتِك..! وبهذا يلتفتُ قلبُك عن غايته، ويجتهدُ مع المخلوقِ بما لم يَجتهدْ به في دعائه ربَّه الَّذي وَجَّهَ إليه وَجْهَهُ، وعندَه سبحانه حاجَتَهُ!

يا هذا: أَيَلِيقُ بِكَ لو أنَّ مالِكَ المصنع أدخلك مكتبَه الخاص، وقَرَّبَكَ لنفسِهِ، وقد جئتَه لحاجتِك... أَنْ تُوَلِّيَهُ ظَهْرَكَ مُقبِلًا على خادِمِه، تطلبُ حاجتك منه وتتوسَّلُ إليه وهو يراك.. - واللَّهُ أَعلى وأَجَلُّ -؟!

آنَ لك أَنْ تمارسَ اليقينَ عملًا، موقفاً إثر موقفٍ، آنَ لك أن تُغَذِّيَ الثقةَ باللَّهِ في رحلتك... أليس اللَّهُ ناظراً إليك..؟

إنَّ اللائقَ هو ألَّا تلتفتَ لحظةً عن مقام «**كأنَّك تراه**».. فإنْ حانَتِ التفاتةٌ لِطَائفٍ مِنَ الشيطانِ تَذَكَّرْ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

أيُّها القلبُ: استيقظْ فهي أيَّامٌ، ومواطنُ لا ينبغي لك فيها إلَّا أنْ تكونَ يَقِظاً، مُنفتحَ البصيرةِ على أوسعِ مدى..؟!

ألا يكفيك كي تستيقظ أن يخبرَك اللَّهُ الَّذي لا تأخذه سِنَةٌ ولا نَومٌ بأنَّك مَوْضِعُ نَظَرِهِ..؟!

أيُّها القلبُ: انتصرْ للمَلَكِ على الشَّيطان... إذ الصراعُ محتدِمٌ في ساحتِك وأنت لا تدري...!

أيَتها الأُذنُ: إذا لم تعملي اليومَ بقولِ اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [القصص: ٥٥]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢] وقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣] إذا لم تَعملي بهذه الآياتِ الكريمةِ، ولم تَبْلُغي هذا المستوى السامي لك اليومَ، فمتى تَبْلُغِينَه..؟!

نعم: إنَّ اللغوَ مُغْرٍ بالمشاركةِ... ولكنْ ليس لكِ اليومَ إلا أَنْ تقطعي الالتفاتَ إلى كلِّ ما يَدْخُلُ في معنى اللَّغوِ ومفهومِه...

أيَّتها العينُ: سيطوفُ أمامَك مِنَ المناظرِ فيما يطوفُ ما يثيرُ استغرابَكِ، أو يثيرُ استهجانَكِ، أو يثيرُ استهزاءَكِ، وربَّما يثيرُ شهوتَكِ في رحلتِكِ هذه...! عندَها تَذَكَّرِي أنَّ كلَّ تلك المثيراتِ إنَّما هي أسئلةُ اختبارٍ تَطوفُ عليكِ كما تطوفُ على غيركِ، واللَّهُ ناظرٌ ماذا تَقولينَ، وناظرٌ إلى قلبِكِ وقلوبِ الآخرين... فليس لكِ أيَّتها العين إلَّا قطعُ الالتفاتِ حتَّى يَسْلَمَ القلبُ مِنْ أساسِهِ.

أيُّها اللِّسانُ، هنا ينبغي أنْ يكونَ مربطُكَ ومحبسُك، هنا ينبغي أنْ تكونَ تزكيتُك...لا... لن نطلبَ منكَ اليومَ ألَّا تغتابَ أو تسخرَ أو تَمُنَّ، فَحَسْبُ..! **إنَّما هي أيَّامُك**، أيامُ حَرَكتِكَ بالذِّكْرِ المُتواصلِ الَّذي تَغفو عليه، وتتعارُّ مِنَ اللَّيلِ عليه، وتَستيقظُ عليه...

أيامك هذه: أيامُ التَّلبيةِ والتَّكبيرِ، أيامُ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، أيامُ الاستغفارِ والتعويضِ عمَّا سلف.

أيُّها العبدُ، اسْتَحِ مِنَ اللَّهِ أنْ تلتفتَ عنه في الصَّلاةِ، وهو سبحانه ناظرٌ إليك..!

اسْتَحِ أنْ تبسطَ كَفَّيْكَ بدعائِهِ، وكَفًّا قلبِكَ مبسوطتانِ إلى سِواه..!

استحِ مِنَ اللَّهِ أن يأتيَ ببدنِكَ مِنْ بلدِكَ وبيتِكَ إلى بلدِهِ وبيتِهِ، ويجعلَك مِنْ ضِمْنِ وَفْدِهِ... ثمَّ - أنت أيُّها القلبُ - تنصرفَ عنه..!

أيُّها العبدُ، إياكَ أن تَنْفِرَ - بقلبك - مِنْ بيتِهِ إلى بيتِكَ، مِنْ بلدِهِ إلى بلدِكَ، مِنْ ثوابِهِ إلى مالِكَ وعاجلِ مآلِكَ، وتبتعدَ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ بعدَ إذ قَرَّبَكَ اللَّهُ منه! إلى أعدائِهِ من الجنِّ والإنسِ ومخالفةِ أَمْرِهِ! تَفِرَّ مِنْ عظمتِهِ سبحانه إلى تعظيمِ نفسِكَ المُرَائِيَّةِ..!

يَا نفسُ تذكَّري قلوباً قدِ امتلأتْ عليكِ سَواداً وغيظاً، وخُصومةً، وحقداً، تذكَّريهم قبلَ أن تفارقِي البلادَ، وإلَّا فهَاتِفيهم أوِ اصنعِي مَا بدَى لكِ حتَّى ترضِيهم مَا دامَ في ذلكَ مرضاةٌ للَّه حتَّى لوْ قالَ العبادُ عنكِ إنَّكِ ذللتِ أو هنتِ أو اتَّهموك بمَا اتَّهموكِ بهِ، فاليومَ ليسَ يومَ العبادِ إنَّما يومُ ربِّ العبادِ.

ورسولُ اللَّه ﷺ يُطمئنني فيقولُ: «ثَلاثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ... مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ بِصَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عَلَيْهَا، إلا زَادَهُ اللَّه بِهِ عِزًّا، وَلا فَتَحَ بَابَ مَسْأَلَةٍ، إِلَّا فَتَحَ اللَّه لَهُ بَابَ فَقْرٍ»[1].

وفوقَ هذَا فدَمُه الذِي يجرِي فِي بدنهِ منْ حرامٍ وطاقُته من حرامٍ... وأكبرُ من هذا قلبُه الذِي بينَ جَنبيه مُصرٌّ علَى الحرامِ منعقدٌ عليهِ يَأبى عِصيانه، ثمَّ هو يُنادي: لبَّيك اللَّهمَّ لبَّيك!

يا ربِّ أُعلنها لكَ قبلَ التَّلبية التِي فِيها أنَّ المُلك ملكك والمالَ مالك، والحمدُ لك وحدكَ أنِّي تائبٌ إليكَ، مفارقُ الحرامَ من اللَّحظة، نافرُ القلبِ

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٣١)، قال شعيب الأرنؤوط: حسن.

منهُ مُلتجئاً إليكَ وحدكَ، أفعلُ ذلكَ عربوناً لحبِّك علَى كلِّ حبٍّ، وثمناً أَشتري به حجَّة برَّة أعودُ بها كيومِ وَلدتْني أُمي.

يَا نفسُ تذكَّري جَيِّداً حُقوقاً للعبادِ عليَّ فقدْ علَّق اللَّهُ قَبول تَوبتي بردِّ حُقوق العبادِ الَّتي عليَّ إليهم، يَا نفسِي تذكَّري دُيوناً نَسيتُها ومَا نَسيها أصحابُها، فلقدْ قالَ النبيُّ ﷺ في الدَّين: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ»(١).

أيُّها العبدُ، إيَّاك أنْ تحسبَ أنَّ قطعَ الالتفاتِ مُجرَّدُ مشاعرٍ وجدانيَّةٍ وأحاسيسَ إيمانيَّةٍ، ليسَ هذا طبيعةُ الإيمانِ في هذَا الدِّين!

إنَّك إنْ كنتَ تُريد حَجَّةً بَرَّة فلابدَّ لكَ من توبةٍ تَخلع الإصرارَ أوَّلًا عن قَلبكَ، وتُفارق بِها هَوى نفسِك، وتتركُ بها سيئَ خُلقك، وتطهرُ بهَا مالكَ، وتردُّ المظالمَ لأصحابِها.

أرأيتَ عبداً يريدُ أنْ يتوبَ اللَّهُ عليه وهُو لَا يتوبُ إلَى اللَّه؟

أمْ رأيتَ عبداً يريدُ أنْ يعودَ كيومِ ولدتهُ أُمُّه وهُو مصرٌّ على إثمهِ في إحرامهِ ومناسكهِ كما كانَ وقلبهُ لمْ يفارقْ إثمَه لحظةً، وإنْ فارقه ممارسةً لانشغالهِ وبُعده عنْ تجارتهِ، ورُبما تجارته وهُو في حجِّه وعُمرته مستمرةٌ فِي بلدِه علَى الحرامِ من رباً وتأمينٍ محرَّمٍ ومَا إلَى ذلكَ.

أيَّة حَجَّةٍ بَرَّةٍ لعبدٍ مركوبُه من حرامٍ، وإحرامُه من حرامٍ، وطعامُ حجِّه من حرامٍ، وشرابُه من حرامٍ.

---

(١) رواه مسلم (١٨٨٦)، كتاب الإمارة، باب: من قتل في سبيل الله كفرت خحطاياه إلا الدين.

أيُّها العبدُ، لقد خَرَجْتَ مِنْ كلِّ شيءٍ لتلاقيه. . . فهل تُخْرِجُ كُلَّ شيءٍ مِنْ قلْبك إذ تنادِيه أو تناجِيه، وهل تُعطِي هذا اللقاءَ ما يستحقُّ؟

لقاؤُك يا رحمنُ عِيدِي وعُدَّتِي ... ونورُك غَيثي وهْو لي في الورَى أُنسي
أُمتِّعُ أعضائِي بِذِكْرِكَ دائماً ... وهل غيرُ ذِكْرِ اللَّهِ يسْكُنُ في نَفْسِي؟
ومَنْ لا يَرَى إلَّا الإلهَ مُرادَهُ ... حَرامٌ عليه الخوضُ في الجنِّ والإنسِ
حَسِبْتُ الهَوَى سَهلًا فَخُضْتُ عُبَابَهُ ... فَطوْراً به أَطفو وطوراً به غَطْسي
إلى أنْ أَتتْني مِنْ لَدُنْهُ عِنايةٌ ... فَصِرْتُ حليفَ الشوقِ والطُّهرِ والأنسِ

فاللَّهم أَعنَّا على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتك

* * *

العيون الساقية لـ: «قطع الالتفات»

قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦ - ١٩].

عن مَعْقِلِ بنِ يَسَار رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: يقولُ ربُّكم تبارك وتعالى: «**يا ابنَ آدمَ، تَفَرَّغْ لعبادتي أَمْلَأْ قلبَك غنًى، وأَمْلأْ يديْكَ رزقاً، لا تَباعَدْ مني، فأملَأْ قلبَك فقراً وأَمْلأْ يديْكَ شُغلًا**»(١).

عن عَمرو بن شُعيب عن أبيه عن جده: أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**الرَّاكبُ شيطانٌ، والرَّاكبانِ شيطانانِ، والثلاثةُ رَكْبٌ**»(٢)(٣).

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ عز وجل يَبسط يده باللَّيل ليتوبَ مُسيءُ النَّهارِ، ويبسطُ يدَه بالنَّهار ليتوبَ مسيءُ اللَّيل، حتَّى تطلعَ الشَّمسُ من مغربها**»(٤)(٥).

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٩٢٦)، وصححه الذهبي في «التلخيص»، وكذا الألباني، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٦٥).

(٢) ذكرنا هذا الحديث في هذهِ العيون لكي لا يظن البعض أن قطع الالتفات يكون بالوحدة في السفر!

(٣) رواه أبو دواد (٢٦٠٧)، وحسنه الألباني.

(٤) من أعظم ما ينبغي قطعه من أنواع الالتفات هو الالتفات إلى المعاصي وذلك بالتوبة والإقبال على اللَّه تعالى.

(٥) رواه مسلم (٢٧٥٩).

إمامة الركب[١]

إذا حَلَّقَتْ به الطائرةُ، أو جَرَتْ به الفُلْك، أو أَقلَّته الحافلةُ، أو انطلقَ في الركبِ. . . نَظَرَ، وكأنَّه يرى اللَّه سبحانه في عَليائه ينظرُ إلى هذا الركبِ، لا يغيب أحدٌ منهم عنه سبحانه، رَأى أنه لا تَخفَى عليه خافيةُ أَحَدٍ منهم. . . فَعَلِمَ أنَّ الأمر أمرُ سِبَاقٍ إلى اللَّه. . .

هنا وَجَفَ قلبُه، والتجأ إلى ربِّه. . . هَتَفَ من أعماقه:

يا ربِّ، اجعلني أَطْهَرَ هذا الرَّكب، أصدقَ هذا الرَّكب، أحسنَ هذا الرَّكب أخلاقاً، أحبَّ هذا الرَّكب إليك، وأقربَ هذا الرَّكب منك، واجعلْ هذا الرَّكبَ كلَّه ركبَ خيرٍ وعبوديةٍ.

يا ربِّ، أنا واحدٌ مِنْ بينِ هؤلاءِ، تراني يا ربِّ، وتعلم حاجتي، حاجتي قُربُك. . . حاجتي سَبْقُ المقرَّبينَ إليك، حاجتي حُبُّك فلا أرى سواك، ولا أشعر بسواك معك، أسألك صفاءً ونقاءً مِنْ أَيَّةِ ذرةِ شركٍ أو رياءٍ. . . فيا ربِّ،

---

(١) أعظم ما يطلبه المؤمنون، وتشتد عليه منافستهم هو: «الإمامة»، فإذا ما كانوا مجتمعين في سفر أو حضر، كان طلبهم إليها أشد، لكن المنافسة تكون أكبر إذا توجه الركب نحو البيت الذي أنشأه الإمام الذي قال اللَّه له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ٤٤] الإمام الذي دعا لذريته بأعظم إمام ﷺ فأجابه اللَّه حين دعاه عند بيته العتيق فقال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] فالاقتداء بهؤلاء «الأئمة» في طلبهم ورجائهم شَرْعٌ، ومن تشبه بقوم فهو منهم. وإذا كان اللَّه قد أجاب مَنْ أَمَرنَا بالاقتداء به وهو في وضع، وموضع، وموضوع، كان حريًّا أن يجاب من تبعه في ذلك إذا أخلص للَّه، واللَّه عند ظن عبده به. أقول هذا بياناً لأهمية هذا الموضوع هنا، ليحيا طلب الإمامة في نفس كل وافدٍ على اللَّه كأَمَل، مشفوعاً بالممارسة، بل بالمنافسة.

«**إني أعوذُ بك أن أُشْرِكَ بك شيئاً وأنا أَعْلَمُ وأستغفرك لِمَا لا أَعْلَمُ**»[١].

يا ربِّ، هذا رَكْبُنا الصغيرُ يَسيرُ وسطَ الوفدِ الكبير، لا أعرفُ رَقَمي في هؤلاءِ السَّائرينَ المتسابقينَ إليك.. فَكَمْ هو تَرتيبي مِنْ بينِ كلِّ هذه الجموعِ الوافدةِ عليك؟ لا أدري يا ربِّ...! لكنَّني لا أيأسُ من المنافسةِ ما دمتَ مُعيني...

أنت يا ربِّ مَنْ فَتَحَ عيني على هذا الطريقِ، ومَنْ أَلْهمني المشاركةَ في المنافسةِ، ورجائي أَنْ تَفتحَ لي أبوابَ السَّبْقِ إليك... يا ربِّ...

يا ربِّ، أنا أُدْرِكُ أنَّ مِنْ أعظمِ أسبابِ السَّبقِ إليك أن أُحِبَّ السَّبقَ لغيري مِنَ المسلمينَ الوافدينَ عليك.. أفلا أُحبُّ أن تُعبدَ..؟! أفلا أحبُّ أن يُحسِنَ العبادُ شكرَك وذكرَك وعبادتَك ؟!

إنَّ دعائي للوافدينَ بالسَّبقِ، ودعائي لنفسي سبقُ السابقين...

إنَّ خدمتي للسَّابقينَ... سبقٌ لي.

إنَّ تصحيحَ طريقِ الوافدينَ عليك... سَبْقٌ لي.

إنَّ خفائي عَنْ مظاهرِ السَّبقِ والتَّفاخرِ بينَ المتسابقينَ... سبقٌ لي.

يا ربِّ، مَنْ يسبقُ عندَك هو مَنْ تُحِبُّ له السَّبقَ... إنه فضلُك تَصطفِي له مَنْ تشاء..

يا حيُّ يا قيومُ برحمتِك أستغيثُ..

اللَّهم، رحمتَكَ أَرجو فلا تَكِلْني إلى نَفْسِي طَرْفَةَ عينٍ وأصلِحْ لي شأني

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٦)، وقال الألباني: صحيح.

كلَّه لا إله إلا أنت..

يا ربِّ، النَّفْسُ تتساءلُ عن هذه الجموعِ: إلى مَنْ خَرَجَت ... أليس لك وحدك سبحانك؟!

أليسَ اختيارُهم في هذا الوفدِ مِنَ اختيارِك واصطفائِك..؟

أَيُّ شَرَفٍ أعظمُ مِنْ أن تراني وقد جَعلتُ نفسِي خادماً لهم.. وقد نَذَرْتُ رحلتي ذاهباً وآيباً قائماً وقاعداً، مستيقظاً وراقداً... في خدمتهم، لأُرِينَّك يا ربِّ الإيثارَ، كما أراكه أَبو أيُّوبَ وامرأتُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين أطفآ السراجَ فأكلَ الضَّيفُ وباتا وأولادُهما طاوين مِنَ الجوع[1]، فكانا مِنَ المشمولينَ بقولِك: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فيا لحياتي ما أَرْخَصَها إذ مرَّتْ ولم أُشْهِدْكَ مرَّةً مشهدَ إيثارٍ تشملني به الآيةُ..! كيفَ ودواعي الإيثارِ تَمُرُّ عليَّ كثيراً في حياتي، وخصوصاً في مثل هذه الوفادةِ..؟! إنها فرصتي كي أُحَقِّقَه مرَّةً ومرَّةً ومرَّةً... كي يصبحَ الإيثارُ عندي سَجِيَّةً، فأتلذذَ بالخصاصةِ لأجلِك - يا ربِّ - أكثرَ مِنْ تَلَذُّذِ مَنْ آثرتُه بالطعامِ أو الثيابِ أو اللِّحاف أو المالِ أو الدنيا، ويكونُ لي نِعْمَ الخبيئة إذا كُشِفَ مستورُ الصالحاتِ بينَ السَّابقينَ، يومَ تُوضَعُ الموازينُ..؟!

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي رواه البخاري (٣٥٨٧)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: قول اللَّه ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، ومسلم (٢٠٥٤)، كتاب: الأشربة، باب: إكرام الضيف وفضل إيثاره.

مَنْ أَحَبَّكَ يا ربِّ فقد ارتقى منزلةً... لكنَّ مَنْ أَحَبَّ الَّذي يُحِبُّكَ لا لشيءٍ إلا لأنَّه يُحِبُّكَ فقد ارتقَى منزلةً أعلى... وأَيُّ طَمَعٍ لي في هؤلاءِ الكرامِ إلا لأنهم يُحِبُّونَكَ.

يا ربِّ، فَلَأَسقينَّ اليومَ غَرْسَ المحبةِ بِسِقَاءِ الإيثارِ، والصِّلةِ، والكلمةِ الطِّيبةِ والخدمةِ..

نَعَمْ إنَّها رحلةُ العبادةِ.. لكنْ لَأَتَفَرَّغَنَّ لأثقل أنواع العبادةِ في الميزانِ... لأُحْسِنَنَّ أخلاقي لأجلِكَ حتَّى أرتقيَ لمعالِيها.. لآخُذَنَّ النَّفسَ بالعزيمةِ الَّتي لا رخصةَ فيها بإلزامِها الخُلُقَ الأحسنَ..

عن شدادِ بنِ أوسٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إذا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهبَ والفضَّةَ فاكنِزوا هؤلاءِ الكلماتِ: اللَّهمَّ إنِّي أسألُك الثَّباتَ في الأمرِ، والعزيمةَ على الرُّشدِ، وأسألُكَ شُكْرَ نعمتِكَ، وأسألُكَ حسنَ عبادتِكَ، وأسألُكَ قلباً سليماً، وأسألُكَ لساناً صادقاً، وأسألُكَ مِنْ خَيرِ ما تَعْلَمُ، وأعوذ بك مِنْ شرِّ ما تَعْلَمُ، إنَّك أنت علَّامُ الغيوبِ**»[1].

أَيُّ شيءٍ يُمْكِنُ أن يجعلَني مُتخلياً عَنْ أحسنِ الأخلاقِ...؟

النَّفسُ..؟!

لَأَطَأَنَّهَا بِقَدَمِي حتَّى تَتَواضَعَ، وتألفَ التَّواضعَ، بل لو كانَ الواطئُ لها قَدَمَ أفقرِ هؤلاءِ الحجَّاجِ لأحببتُ ذاك لأجلك..

لَأَخْطِمَنَّهَا عَنْ طَلَبِ ما ليسَ لها به حاجةٌ.. مِنْ طعامٍ، وشرابٍ، وفُضولٍ..

---

(١) الحديث رواه أحمد (٤/ ١٢٣) قال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن بطرقه.

لأقطعنَّ لسانَهَا عن التَّذمرِ والتَّذمم لفوات الدنيا وفَوَاتِ منافعِها..

فأنا اليومَ الخدمةُ الجاريةُ للَّهِ... أنا اليوم الناذرُ نَفْسَهُ لوفدِ اللَّهِ..

يا ربِّ، إني لأنظرُ لهذه الجموعِ الَّتي ينقطعُ البصرُ ولا تنقطعُ... إنَّها أَوْسَعُ ساحةٍ، في أعظمِ فرصةٍ تَمُرُّ في العُمُرِ لِلتَّخَلُّقِ بالخُلُقِ الحسنِ، لغرسِ الخُلُقِ الحسنِ...

يا ربِّ، إنِّي أريدُ الخُلُقَ الحسنَ عندي - اليومَ - غيرَ ما كُنْتُ عليه مِنْ قبلُ، إنَّني أريدُه اليومَ: «غَرْساً، ودَرساً»... فهو أحسنُ لغةٍ تفهمُها الجموعُ كلُّها... وإن اختلفتْ أَلْسِنَتُهَا، وإلَّا فَمَنْ يستطيعُ أن يعطيَ هذه الجموعَ كلَّها دروساً ؟ مَنْ يستطيعُ أنْ يعرفَ لغاتِهَا؟ مَنْ يستطيعُ أن يُفهِمَ ضعيفَ العقلِ فيها لكبرٍ أو مرضٍ أو نحوِ ذلك بكلامِه؟

لكنني أستطيعُ بالخُلُقِ الحسنِ أَنْ أُلقيَ دروساً عملية... فالخلقُ الحسنُ ينطقُ بغيرِ لسانٍ وحروفٍ، هو اللغةُ الَّتي لا تُعْجِمُ، وهو غَرْسٌ تَقْبلُه كلُّ أرضٍ، ويَحْفَظُه كلُّ قلبٍ، وينمو في كلِّ جَوٍّ.. ويُنْصِتُ له كلُّ أَحَدٍ.. **هذه أوَّلًا**...

وَمزِيَّة ثانيةٌ للخُلُقِ الحسنِ اليومَ، فلقد كنتُ مِنْ قبلُ أُمارسُه كأعمالٍ أَرجو أجرَها، واليومَ أَرجو ما كنتُ أرجو لكنَّني إذ أُمارسُها مَعَ هؤلاءِ المؤمنينَ أتعبَّدُ لك بها مِنْ منزلةِ الإحسانِ...

فهل يَسَعُ مَنْ حالُه ذاك إلا الإحسانُ في أحسنِ الأخلاقِ..؟

وهل يَسَعُ مَنْ في ذاكَ الحالِ إلا أنْ يكونَ أَبْعَدَ النَّاسِ عن إشراكِ أَحَدٍ مع اللَّهِ في عبادةِ الأخلاقِ..؟

وهل يَسَعُ مَنْ في حاله ذاكَ أَنْ يطلبَ مِنْ أحدٍ جزاءً أو شكوراً..؟

لأرْفُقْنَّ في إنكار كلِّ المخالفاتِ الشَّرعيةِ، فإنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكرِ اليومَ سوفَ يَسرِي في البلادِ، إذْ يحملُه هذا عَنِّي، وهذا، إنَّهم كما يحملون الأمر بالمعروف نفسه فإنَّهم يحملون معه الأسلوب الَّذي قُدِّمَ لهم به... يَرْوِي هذا لأهلِه وقومِهِ في طَرَفِ الأرضِ قائلًا: هذا تَعَلَّمْتُهُ مِنْ تلك الربوع الطَّاهرة، عَلَّمَني رَجَلٌ - جزاه اللَّهُ خيراً - وهذا يَحْمِلُهُ للطَّرفِ الآخرِ مِنَ الأرضِ، وهكذا... إنَّ هذا الرجلَ - المَدْعُوَ له - هو أنا وأنتَ، حتَّى لو رَدَّنا هذا ولم يَقْبَلْ مِنَّا ذاكَ، فالكلمةُ الطيبةُ بَذرةٌ طيبةٌ، ثم هو حَقٌّ لهم عليَّ، فإذا تَنَصَّلَ هذا وذاك عن أداءِ حَقِّ الأمرِ والنَّهي فلا ينبغِي لنا أَنْ نَتَنَصَّلَ عن أداءِ الحقِّ الَّذي علينا لهؤلاءِ... يكفيني ويُشَرِّفُني ويُعْلِيني... مِنك أَنِّي أُرْضِيكَ يا ربِّ، وأنك عَنِّي تَرْضَى... فَأَيُّ شَرَفٍ مِنْ هذا الشرفِ أَعلى..؟!(١).

* * *

(١) لم أختم هذا الباب بعيون ساقية وذلك لترابطه الكبير مع الباب القادم والذي بعده فاتحدت عيونهم الساقية.

ثِقَلُ إمامةِ الرَّكْبِ

ما بينَ غفلةِ الركبِ وذكرِه. . . ما بينَ حركةِ الرَّكبِ وهَجْعتِهِ. . . ما بينَ خُلطةِ الرَّكبِ - بعضِهم مع بعضٍ - وعزلتِهِ. . . ما بينَ هذا وهذا يتطلَّعُ ذاك الرَّاكبُ من قلبِه إلى عظمةِ ربِّه سبحانه، والقلبُ مُحَلِّقٌ في تفكُّرِهِ مع ربِّه، ذاهبٌ بعيداً عن رُفقتِهِ. . . مع معاني كلماتِ اللَّهِ التاماتِ، مع أسمائِهِ وصفاتِهِ الحسنى - سبحانه - الَّتي تَرَطَّبَ بها لسانُه، والقلبُ - يا لَلْقلبِ - يزدادُ قُرباً من ربِّه ويزدادُ، وعينُ البصيرةِ تزدادُ وضوحاً في الرؤيا وتزدادُ. . . حتَّى لكأنَّ ذاك الراكبَ وهو جالسٌ بينَ رفقتِهِ في اهتماماتِهم وهمومِهم، في حياتِهِم وحَيويَّتهم. . . لكأنَّه مِنْ مَقْعَدِهِ بينَهم يَرى ربه سبحانه.

من هذا المقامِ السَّامِي يلتفتُ فَيَرى مَنزِعَ الرَّكبِ إلى الغفلةِ أكثرَ مِنَ الذكرِ، وإلى الانشغالِ عن اللَّهِ أكثرَ من الانشغالِ باللَّهِ، وإلى إسدالِ الحُجُبِ أكثرَ مِنْ كشفِها، فيتنازعُ نفسَه الإنكارُ عليهم والإغلاظُ لهم، أو الإشفاقُ عليهم والرِّفقُ بهم مع السَّعيَ في انتشالِهم !!

فلا يَرَى مجالًا للمقارنةِ بينَ الخيارينِ . . . لا يرى إلَّا الإشفاقَ عليهم والرِّفقَ بهم مع السَّعيِ في انتشالِهم في كلِّ مرَّةٍ يَغفلونَ فيها. . . وقلبُه يهتفُ بربِّه: **ربِّ اهْدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون**، ربِّ ذكِّرهم بك بي، يا ربِّ ارفعْهم إليكَ بي، يا ربِّ اجعلني هادياً مَهْدِيّاً إليكَ، يا ربِّ اجعلني حامياً لهم مِنْ جُيوشِ الغفلةِ، ومِنَ الشيطانِ وجندِه، يا ربِّ أَعِذْني وإيَّاهم مِنَ الشيطانِ الرجيمِ. . .

هنا يَنظرُ هذا الرَّاكبُ الآسفُ في داخلِه، فَيَرى كيفَ تَزْحَفُ جيوشُ الغفلةِ على الرَّكبِ مِنْ حولِه بمساعدةِ بعضِهم بعضاً!!

أيكونُ هذا !؟. . . نَعَمْ واللَّهِ يكونُ!

وصورةُ ذلك المتكرِّرةُ - في كلِّ رَكْبٍ تقريباً -: أنَّه كثيراً ما يكونُ في الرَّكبِ واحدٌ أو أكثرُ من بينِ الرِّجالِ، وواحدةٌ أو أكثرُ من بينِ النساءِ. . . صفةُ هذا الواحدِ أو الواحدةِ هي: القيادةُ في الطُّرفةِ والظَّرافةِ، إذ يقودُ موكبَ الوافدينَ، فيتحوَّلونَ إلى غافلينَ وهُمْ في رحلتهم إلى ربِّ العالمين. . . !

يَراهم - ذاك الرَّاكبُ - كيفَ يَتَحَلَّقُونَ مِراراً وتَكراراً حولَ قائدِ الظَّرافةِ ذاك! ويَرى كيفَ يَتَلاعبُ في نفوسِهِم هنا وهناك، كيف يَلُفُّ قلوبَهم بلفائفِ الظُّلمةِ لَفًّا، ثمَّ يَحْزِمُها بالضَّحَكَاتِ حَزماً، ثم يربطُ عليها بيدِه رَبطاً، لا يَملكونَ له فِكاكاً. . . !

يَراهم - بعدَ ذلكَ - كيفَ يَتَقَلَّبُونَ بأنفسِهِم في مجالسِ الغفلةِ، فتتساقطُ الساعاتُ مِنْ أَشجارِ أعمارِهم بينَ يديهِ وهم لا يَشعرونَ، إذ هم بِضَياعِ أَغلى السَّاعاتِ في أعظمِ الحرماتِ في سُرورٍ بالغٍ، سواءً كانتْ تلكَ الساعاتُ بعدَ العشاءِ، أو بينَ الصلواتِ، أو أوقاتِ إجابةِ الدعوات!

عندَها ! يَعودُ ذاك الرَّاكبُ الذَّاكرُ إلى نفسِه آسِفاً: يقولُ كيف أُنقذُ الذَّاكرينَ قبل أن أُنقِذَ الآخرين. . ؟!

هنا يَكتشفُ سرَّ التقصيرِ. . فيقولُ: ليتني اتَّقَيْتُ هذه الغفلةَ فيهِم قبلَ وقوعِها عليهم، إذْ كان ذلك مِنْ تفريطي أَوَّلَ الرحلةِ، وتَركِي الأمورَ أَوَّلَ مرةٍ حتَّى كَبُرَتِ المهمَّةُ عَليَّ، فَلَمْ أَمْلِكْ لها الآنَ قِياداً. . . !

كَيفَ أَسلمْتُهم لأنفسِهم ظَنًّا مِنِّي أَنَّ مُجردَ العُنوانِ يكفِي، وأنَّها بِكونِها رحلةَ حَجٍّ وعمرةٍ رادعٌ، ووازعٌ للنُّفوسِ عن التجاوزِ. . .؟ كيفَ لم أُعَرِّفْهُم حُكْمَ الإمارةِ في السَّفرِ، وغايةَ التأميرِ، وإحسانَ التعبدِ للَّهِ من خلالِ إحسانِ طاعتهِ. .

كيفَ أسلمتُهم لجيوشِ الغفلةِ وقادتِها، فَلَمْ أَعْقِدْ عَقداً معهم على الالتزامِ وفْقَ منهجِ رسولِ اللَّه ﷺ في أَوَّلِ الرحلةِ؟!

كيفَ لم أُعرِّفْهم بِزَحْفِ جُيُوشِ الغفلةِ وأَبُيِّنْ لهم صورَها حتَّى يتَّقُوها، كقصصٍ تافهةٍ يسمعونَها فتثيرُ في نفوسِهم مَثيلاتِها مِنَ القصصِ فيتذاكرون بها ويتجاوبون، كأنَّهم الصدَى لكلِّ حادٍ. .

كيفَ آخذُ قادةَ الظُّرفة هؤلاء علَى انفرادٍ فَأحِّولهم بالرِّفق والمَوعظةِ الحَسنةِ إلَى قادةِ خيرٍ لأَصْحابِهم. . . أُرغِّبهم وأُرهِّبهم، أُعطيهم البدائلَ النَّافعةَ وأُقنعهم، فيتحوَّلوا وتتحوَّل بتحوُّلهم الجُموعُ.

ليتني أَعْدَدْتُ لهذه المواقفِ المختلفةِ عُدَّتَهَا بكلِّ واقعيةٍ، فَجَعَلْتُ فيها المُزاحَ كالمِلْحِ للطعام، وجَعَلْتُ سُدَاها حُسْنَ الخلقِ، والرِّفْقَ واللِّينَ للأنام، وجَعَلْتُ المحبَّةَ الخالصةَ للَّهِ هي الرباطُ المَكِينُ، وقَرَّرْتُ أنَّ المرجِعَ عندَ الاختلافِ هو الاحتكامُ لسيِّدِ المرسلينَ ﷺ، وجَعَلْتُ على الجميعِ عَهْداً بقَبولِ النَّصيحةِ ما دامتْ حقاً، وجَعْل السباق في كلِّ اللحظاتِ إلى اللَّهِ يزدادُ إسراعاً، وأقررتُ للجميعِ مَنْهجاً في ترطيبِ اللسانِ بذكرِ اللَّه وخصوصاً في أوقاتِ الفراغ والعُزلةِ، حتَّى لو كانَ في طابورِ الانتظارِ على دوراتِ المياهِ لقضاءِ الحاجةِ. . .![1]

(١) تضيع على الكثير من الحجاج ساعات طويلة عند الانتظار في الطوابير الطويلة وخصوصاً =

يا ربِّ، عَفْوَكَ فَكَمْ نَعتِبُ على غيرِنا ونحنُ السببُ في غفلتِهم عنك..!

يا ربِّ، كَمْ نَذْكُرُ أنفسَنا عندَ أصحابِنا وننساكَ ولا نذكِّرُ مَنْ يَنساك..!

يا ربِّ، كم نَنْسَاقُ سريعاً نحوَ مُنْزَلَقِ الغفلةِ الهابطِ وأنت تدعونا إلى دارِ السلامِ وإلى الصراطِ المستقيم...!

يا ربِّ، فإنما أرجو لطفَكَ بي وعفْوكَ عني، فكم أستشعرُ الفارقَ هائلًا ومُخيفاً هذه اللحظاتِ وأنا أرفع إليك هذه الكلماتِ الَّتي أرفُعها إليكَ، وبينَ لحظاتِ الغفلةِ الَّتي مَرَّتْ بي قبلُ فانحدرتُ بها في ظلمةٍ لم أَشْعُرْ بها، ولم أَستحضرْ أنك تَراني، وذُهِلْتُ حتَّى عن عظمتِكَ.. يا ربِّ عفوك.

يا ربِّ، عفوَك... فلقدْ ساعدتُ جموعَ الركبِ على الهَوَى وأنا لا أقصدُ ولا أدرِي.

يا ربِّ... لو صَدَقَتْ منَّا النَّوايا، وصَفَتْ منا الطَّوايا، وكانتْ قلوبُنا حاضرةً، إذْ حَضَرْنا مَعَ الناسِ... لَمَا سَهُلَ اختطافُها وأنت فيها حاضرٌ، وإليها ناظرٌ، فكيف تُخْتَطفُ لو كانتْ كأنها إليكَ ناظرةٌ..؟!

فاللَّهمَّ أعِنّا على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتِك...

* * *

= عند دورات المياه في عرفات، ومزدلفة، ومنى، وهم في غفلة، وهمهم القلبي همٌّ واحدٌ هو متى يأتي دوره فيدخل الحش؟ هل سيتأخر هذا الداخل قبله إلى الحش كثيراً أم لا؟ كم سيطيل..؟ فالقلب غافل، والذهن في العفن شارد، واللسان إما صامت أو متذمر..! وأما الذاكرون فإنهم يعدون هذا الانتظار خلوة وفرصة، فيلهج لسانهم بذكر اللَّه تعالى.. حتى عند الانتظار خارج دورات المياه إنه التميز في عين اللَّه سبحانه حيثما كنت.

ما بينَ التقديمِ عندَ الناسِ والتقديمِ عندَ اللَّهِ

يا ربِّ: كَمْ هي الأمانةُ ثقيلةٌ على مَنْ فَوّضَهُ النَّاسُ ليكونَ حُجَّةً بينَهم وبينَك، ومَنِ ارتضاهُ النَّاسُ مُبَلِّغاً عنك، فَقَبِلُوا حُكْمَه، ورَجَعُوا لحكمتِهِ، واستَمَعُوا نُصْحَه، وَرَدُّوا اختلافاتِهِم إليه !!

كم هي ثقيلةٌ يا ربِّ أَنْ يستفيقَ هذا العبدُ من شرابِ سَكْرَتِهِ، الممزوجِ بتبجيلِ الصَّحْبِ له، وعَدَمِ التقدُّمِ عليه، والقيام بِخدمتِهِ، وحسنِ التأويلِ لجميعِ تصرفاتِهِ، وتَتَبُّعِ أثرِهِ، والاحتجاجِ بقولِهِ وفِعلِهِ، والتلقِّي منه، والحفظِ والروايةِ عنه !!

والمصيبةُ أن يَرَى هذا الشيخ أو المفتي أو الإمام هَذَا فَرْضاً عليهم، وأَنَّ المزيدَ له عليهم لازمٌ، وأَنَّ المُقصِّرَ بجهلِهِ في حَقِّه غيرُ معذورٍ..! بدليلِ أَنَّه لو انتَقصَ أحد الرَّكب شيئاً مِمَّا كانَ يُقَدَّم له لعدَّ ذلكَ مِنَ النَّقائصِ، ولَأَنْكَرَ ذلكَ في نَفْسِهِ، وتَغَيَّرَ لأجلِها وَجْهُهُ وسلوكُه تُجَاهَ مَنْ وَقَعَ منه ذلكَ مرَّةً، فكيفَ لو تَكَرَّرَ ذلكَ مِراراً لربَّما عَدَّ ذلك مما يُغْضِبُ اللَّهَ تعالى، فَيَروي عَنِ اللَّهِ وعنْ رسولِهِ ﷺ ما يَزْجُرُ ذلك المقصِّرَ في حَقِّه، وما ذلكَ إلا استخدامٌ لقولِ اللَّهِ وقولِ الرسولِ ﷺ وأكلٌ بهما وتَسخيرٌ للنَّاسِ لخدمةِ نَفْسِهِ !!

نَعَمْ، إنَّه في الظاهرِ يُؤدِّي واجباً شَرعيًّا وهو من أهلِ العلمِ والفَتوى والنُّصْحِ والتذكيرِ وربَّما لا يأخذ على راحته منهم أجراً، لكنَّه يَقْبِضُ - في مقابلِ ذلكَ - التَّقديمَ مِنَ البشرِ، ومِنْ خَدَماتِهِم الَّتي يأخذُها على أنَّها إحسانٌ

منهم أَوَّلَ مَرَّةٍ، ثم تستقرُّ فَرَضِيَّتُها عليهِم بعدَ ذلك !!!

يا ربِّ كيفَ أَجْمَعُ بينَ التَّقدمِ في العلمِ والتَّقدمِ في خدمةِ النَّاسِ؟

كيف أجمع بينَ الإمامةِ في التَّذكيرِ، والإمامةِ في التَّواضعِ والخلقِ الحسنِ؟!

كيف أَجْمَعُ بينَ القُربِ منك، وبينَ القُربِ لقلوبِ عبادِك ؟!

بل كيفَ أكونُ بينَ هؤلاءِ في ظاهرِي كما تُحِبُّ وتَرضَى، وأكونُ في قلبي معك كأنَّني أَراك؟

آكُلُ كما يأكلونَ وأشربُ كما يشربونَ، وأذْكرُ كما يَذكرونَ، وأُصلِّي كما يُصلُّون، وأَحُجُّ كما يَحجُّون، وأَنام كما ينامون، وأتقلَّبُ معهم حيثُ يتقلَّبون. . . وأنا إذ ذاك كأَنَّني أَراك وهم لا يَشعرونَ، إذ إنَّني أَحَقُّ الرَّكبِ ظاهِراً بذلكَ، فإذا ارتقى منهم أَحَدٌ لهذا المقام السَّامي، طَمَعْتُ فيكَ أَنْ ترفعَني في هذا المقامِ مقاماً، حتَّى أَفترقَ عنهم في مَقامِ الإحسانِ، كما افْتَرَقْتُ عنهم فيما ظَهَرَ مِنَ العِلم والعَمَل للعَيَانِ. . .

لقد بقيَتْ أعمالُ الصَّالحينَ السَّابقينَ في السَّفرِ حاضرةً مُدَوَّنَةً في التَّاريخِ أكثرَ مِنْ تَدوينِ كلامِهِم في أسفارِهم. . . ولو تَحَدَّثَتْ مراكبُ الرجالِ وهوادجُ النساءِ عمَّا حَمَلَتْ على أَظْهُرِهَا في أسفارِها، وشَهِدَتْ من أعمالِهم وأحوالِهم، وإحيائِهم ليلَها وهي تَجري بهم في مسارِبِ وِفادتِهِم، لَأَظْهَرَتْ أسراراً رُفِعَتْ إلى اللَّهِ في غفلةٍ مِنَ الآخرينَ، فيا لَسعادةِ مَنْ أَظْهَرَتِ القيامةُ خُبيئاتِهِ الصَّالحةِ . . . كيفَ لا وحادِي مراكبِ الوافدينَ ﷺ على اللَّه يواظبُ على قيامِ الليلِ على راحلتِه في أسفارِه كلِّها، ويُوتِرُ عليها. .فما أعظمَ

تلذُّذَهم بالصَّلاةِ في السَّفرِ إذ سفينةُ الطَّريقِ البريَّةِ أو الجويَّةِ أو البحريَّةِ تَتَهادَى إلى بيتِ اللَّهِ الكريم، والقَلْبُ إلى غيرِ اللَّه غيرُ مُلتفتٍ، مستغرقٌ في غَمَرَاتِ الخشيةِ، وكأنَّه الهائمُ على وَجهِهِ لا يدرِي عن المكانِ ولا الزَّمانِ شيئاً. . . اللَّهمَّ إلا أنَّه بينَ يديكَ سبحانك وكأنَّه يراك. . .

كم يحتاجُ المُقَدَّمُ بينَ يَدَيِ الناسِ أن يُعيدَ حساباتِهِ، ويعيدَ، ويعيدَ، ثمَّ يعيدَ. . ؟!

ما فَيْدُ مَيْلِ قلوبِ العَالَمينَ إلَيَّ إنْ كَانَ لم يَرْضَ ربُّ العالمينَ عَلَيَّ
ما فَيْدُ جُنْدٍ إذا كان اللقاءُ غَدًا لم يُغْنِ عنك مِنَ أهوَالِ القِيامَةِ شيْ

كم يحتاجُ المُقَدَّمُ بينَ النَّاسِ أن يَتَقَدَّمَهُم عَمَلًا إلى اللَّهِ. . . ؟

كَمْ يَحتاجُ المُتَعَرِّضُ لِنَظَرِ النَّاسِ أَنْ يُكْثِرَ التَّعرضَ لنظرِ اللَّهِ بالوقوفِ بينَ يديه. . ؟!

كم يَحتاجُ المُبْتَلَىٰ بالظُّهورِ إلى المزيدِ مِنْ زَادِ الخَلوةِ. . ؟!

كم يَحتاجُ أن يُرِيَ اللَّهَ مِنْ عَملِهِ وقلبِه كما أَرَىٰ النَّاسَ مِنْ قولِهِ وقالَبِهِ. . ؟!

كم يَحتاجُ من اضطُرَّ أَنْ تكشفَ شمسُ النَّهارِ عَمَلَهُ عادةً، أن يَستترَ بظلمةِ اللَّيلِ مَعَ اللَّهِ عِبَادَةً: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢١٩].

كَمْ يَحتاجُ أَنْ يُعيدَ النَّظرَ في سَعَةِ مَسَاحةِ الفارقِ ما بينَه وبينَ إتمام الاقتداءِ بالرسولِ ﷺ فَيُضَيِّقَ الفارقَ بالتزامِ سُنَنٍ جديدةٍ في الأذكارِ، في الأَخلاقِ، في الجهادِ، في الدَّعوةِ، في الإيمانِ. . في كلِّ ما يستطيع، فلعلَّ تَضييقَ الفارقِ في الاقتداءِ يُثْمِرُ الاقترابَ منه يومَ اللقاءِ. .

ومَنْ يَدْرِي لعلَّ بعضَنا في عبادتِه يَأْثَمُ - وهو يَحْسَبُ نفسَه القدوةَ - إذ يريدُ بها الأجرَ. . .يأثمُ بِعَدَمِ استنزاهِهِ مِنَ البولِ. . !يأثمُ لإسرافِهِ في ماءِ الوضوءِ وإصرارِه كلَّ مرَّةٍ على ذلكَ الإسرافِ. . ! يأثمُ بإصرارِهِ على عَدَمِ الخشوعِ، وعَدَمِ الأخذِ بأسبابه. . ! يأثمُ بتكريسِهِ الغفلةَ مع الأصحابِ والسعيِ فيها. . . وهو لا يَدرِي. . !يأثمُ بالإصرارِ على هَجْرِ القرآنِ. . يأثم باستمراء السكوت على المخالفات الشرعية؟!

كم يَحتاجُ من أجل أن يتقدمَ المحسنينَ إلى اللَّهِ سبحانه، في اقترابِهِ وقُربِهِ مِنَ اللَّهِ، في صَفَاءِ بصيرتِهِ، في إحسانِهِ وهو يَعْبُدُ اللَّهَ. .

* * *

العيونُ الساقيةُ لـ: «الثلاثة الماضية»

قال تعالَى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٨٢].

عَنْ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنَّ للَّهِ عز وجل أهلينَ مِنَ الناس، فقيلَ: مَنْ أَهْلُ اللَّهِ منهم؟ قال: أهلُ القرآنِ، هم أهلُ اللَّهِ وخاصته**»(١).

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبيُّ ﷺ: يقولُ اللَّهُ تعالى: «**أنا عندَ ظَنِّ عَبدِي بي، وأنا معه إذا ذَكَرَني، فإنْ ذَكَرَني في نفسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسي، وإنْ ذَكَرَني في ملإٍ ذَكَرْتُه في مَلإٍ خيرٍ منهم، وإن تَقَرَّبَ إليَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إليه ذِراعاً، وإنْ تَقَرَّبَ إليَّ ذراعاً تَقَرَّبْتُ إليه بَاعاً، وإنْ أَتَاني يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»(٢).

عن معاذِ بنِ جبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ: أيُّ الأعمالِ أَحَبُّ إلى اللَّهِ تعالى؟ قال: «**أن تموتَ ولسانُك رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ**»(٣).

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٢٧)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) رواه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٨١)، وحسن إسناده الألباني، انظر صحيح الترغيب (١٤٩٢).

عن ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أنَّ رَجُلًا جاءَ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللَّهِ! أَيُّ الناسِ أَحَبُّ إلى اللَّهِ؟ وأَيُّ الأعمالِ أَحَبُّ إلى اللَّهِ؟ فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إلى اللَّهِ تعالى أَنْفَعُهُم للنَّاسِ، وأَحَبُّ الأعمالِ إلى اللَّه تعالى سُرورٌ تُدْخِلُه على مُسلم، أو تَكْشِفُ عنه كُربةً، أو تَقْضِي عنه دَيْناً، أو تَطْرُدُ عنه جُوعاً، ولَأَنْ أَمْشِي مع أخٍ في حاجةٍ أَحَبُّ إلي مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ في هذا المسجدِ - يعني مسجدَ المدينةِ - شَهْرا، ومَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّه عَوْرَتَهُ، ومَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ ولو شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يومَ القيامةِ، ومَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ في حاجةٍ حتَّى تَتَهَيَّأَ له أَثْبَتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَومَ تَزُولُ الأَقدامُ، وإنَّ سُوءَ الخلقِ يُفْسِدُ العَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ**»[(١)].

عن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «**كُلُّ معروفٍ صنعْتَهُ إلى غَنِيٍّ أو فقيرٍ فهو صدقةٌ**»[(٢)].

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**يا عائشةُ إنَّ اللَّهَ رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كُلِّه**»[(٣)].

عن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**ما مِنْ جَرْعَةٍ أعظمُ أجراً عندَ اللَّه مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عبدٌ ابتغاءَ وجهِ اللَّهِ**»[(٤)].

عَنْ جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: كُنَّا مَعَ النبيِّ ﷺ فارتفعتْ ريحُ جيفةٍ

---

(١) رواه الطبراني (١٣٦٤٦)، وصححه الألباني، انظر «الصحيحة» (٩٠٦).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «الجامع» (١/ ٣٨٥)، وحسن إسناده الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥٥٨).

(٣) رواه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٥٩٣).

(٤) رواه ابن ماجه (٤١٨٩)، وصححه الألباني.

مُنْتنةٍ، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أتدرون ما هذه الرِّيحُ؟ هذه ريحُ الذين يَغْتَابُونَ المؤمنين**»(١).

عن الزُّبيرِ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**دَبَّ إليكم داءُ الأمم قبلَكم البغضاءُ والحسدُ، والبغضاءُ هي الحالقةُ، ليس حالقةَ الشَّعرِ، لكنْ حالَقةُ الدِّين**»(٢).

عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: عَنِ النبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ طَلَبَ العلمَ لِيُمَارِيَ به السُّفهاءَ، أو ليباهِيَ به العلماء، أو ليصرفَ وجوهَ النَّاسِ إليه، فهو في النَّارِ**»(٣)(٤).

عن عبدِ الرحمنِ بنِ عليٍّ يعني ابنَ شيبانَ عن أبيهِ قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ باتَ على ظهرِ بيتٍ ليسَ له حِجَارٌ فقد بَرِئَتْ منه الذمةُ**»(٥)(٦).

* * *

(١) رواه أحمد (٣ / ٣٥١)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) رواه البزار (٢٢٣٢)، قال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٩٥): حسن لغيره.

(٣) رواه ابن ماجه (٢٥٣)، وحسنه الألباني.

(٤) يجتهد بعض طلاب العلم في الإعداد العلمي المبكر للحج والعمرة لا لشيء إلا ليُظْهر أحدهم أنه أعلم مَنْ في القافلة، أو ليصرف إليه وجوه الناس فيكون هو المرجع، فيَصْدُقُ عليه هذا التحذير الشديد.! فليس المقصود الذهاب على جهاله إنما المقصود طلب العلم بإخلاص، ولا يلتفت طالب العلم لوساوس الشيطان.

(٥) رواه أبو داود (٥٠٤١)، وصححه الألباني.

(٦) الغاية من ذكر هذا الحديث العظيم هنا هو الإشارة لتساهل بعض الوافدين على اللَّه في حياتهم أو حياة الناس لدرجة المجازفة، كمن يقود مركبته بسرعة جنونية، علماً بأن نحواً من ٩٠٪ من نزيف الصدر في حوادث المرور ممن لا يلبسون حزام الأمان، والمبيت على ظهر بيت لا يسبب عُشْر هذهِ النسبة من الوفيات ومع هذا فقد برئت منه ذمة محمد ﷺ! ومن يتزاحمون في أعلى الحافلات وهي تسير بهم على خطر أعظم ممن يبيتون على ظهور بيوت مثل هذهِ.

الإعداد المنسي

يُعِدُّ الحاجُّ والمعتمرُ كلَّ عُدَّةٍ قبلَ كلِّ موقفٍ من مواقِفِهِ، ويحاولُ استحضارَ كلِّ وسائلِ الخشوعِ، فيأخُذُ السَّواكَ، والقرآنَ، والكتبَ العلميَّةَ والإيمانيَّةَ معه، وهذا جيدٌ لو أَنَّ البعضَ لم يَنْسَ أعظمَ سَببٍ ذاك الَّذي إذا حَضَرَ: حضرَ الجميعُ مِنْ بَعْدِهِ.. إنه «القلبُ»، لكنَّ هذا القلبَ لا يأتِي به السواكُ، ولا الكتبُ، ولا الكلامُ، إنَّما يأتِي به اللَّهُ - إنْ شاءَ - أليسَ القلبُ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرَّحمنِ يُقَلِّبُهُ كيفَ يشاءُ؟ أليسَ اللَّهُ تعالى يَحُولُ بينَ المرءِ وقلبِهِ؟

لذلكَ فإنَّ نسيانَ السَّببِ الأكبر لإحضارِ القلبِ هنا هو السَّببُ الأكبرُ في تَخَلُّفِهِ عادةً... أَلا إنَّه: الدعاءُ..!

فبالدعاءِ يُؤْتَىٰ بالقلبِ راغماً وخاشعاً، رَاغباً وراهباً..

لأنَّ الدعاءَ استنجادٌ منك بِمَنْ بيدِه الحَوْلُ والقوةُ، ممَّا لا حولَ لك به ولا قوَّةَ..

والدعاءُ هنا: شَكْوَىٰ تَرفَعُها مِنْ نَفْسِكَ على نفسِك لِمَنْ هو أحبُّ إليكَ مِنْ نَفْسِكَ، تُخْرِجُها مِنْ قلبِك على قلبِك إلى ربِّك..

أيُّها الوافدُ على اللَّه، إنَّك حينَ تدعو اللَّهَ لنفسِك في حَجِّكَ إنَّما تَشكو نفسَك... لِمَنْ هو أَحَقُّ بها منك... تَشْكُوها لِمَنْ بيدِهِ ناصيتُها أكثرَ منك... تَشكُوها للذي خَلَقَها وسَوَّاهَا وأَلْهَمَهَا فجورَها وتقواها... تسألُه أن يؤتيَها تقواها، ويُزَكِّيَها لأنَّه خيرُ مَنْ زَكَّاها، إنَّه وَلِيُّها ومَولاها...

تسألُه أَنْ يجعلَها حجةً - وعمرةً - بَرَّةً، وذَنباً مغفوراً، وصَحيفةً طاهرةً كصحيفةِ المولودِ..

كم يوكِّلُ العُبّادُ أَمْرَ العبادةِ للأسبابِ، فَيُخْذَلُونَ مِنْ حيثُ لا يَشعرونَ، حيثُ تَبْقَى صورةُ عبادتِهم كما هي، لكنَّهم لا يَتَجاوَزُونَ منزلةَ المجاهدةِ في الحضورِ والخشوعِ، ولا يرتقونَ إلى منزلةِ الإحسانِ..؟!إنَّ غايةَ الأسبابِ هي تحقيقُ تَوَجُّهِ القلبِ مِنَ الانشغالِ بالشواغلِ إلى إشغالِه باللَّهِ تعالى، بينَما الدعاءُ في أصلِهِ انعطافُ القلبِ - ذاتِهِ - نَحْوَ اللَّهِ.. هو طَلَبُ القلبِ مباشرةً ذلك الأمرَ الَّذي مِنْ أجلِه أُحْضِرَتِ الأسبابُ، لذا فإنَّ الشَّيطانَ يَسعَى أن يَصْرِفَكَ عن اللَّهِ وعن السَّببِ الشرعيِّ جميعاً، فإنْ لم يستطعْ ذلك كلَّه صَرَفَ قلبَك وتركَ السَّببَ الشَّرعيَّ صورةً، وهذا ما يَحْدُثُ لِمَنْ يُصَلِّي صورةً، ويَحُجُّ صورةً، وَيقرأُ القرآنَ صورةً..

كم يَغْتَرُّ العُبَّادُ بالعلم، والإعدادِ بالأسبابِ المنظورةِ... فإذا عبادتُهم خُوَاءٌ مِنَ الرُّوحِ، وخُلوٌ من الخشوعِ، وفَرَاغٌ منَ الحقيقةِ، وربما عادَ صاحبُها بغيرِ الأجرِ المأمولِ، فينظرُ في نفسِهِ يَبْحَثُ عن السَّببِ، لكنَّه يقعُ في الخطأ نفسِهِ حينَ يبحثُ ثانيةً فيما نَسِيَ من الأسبابِ المماثلةِ وهكذا ! فَتَمُرُّ عليه دورةٌ من الحياةِ، وربَّما حياتُهُ كلُّها ولم يُدْرِكِ السَّببَ الأساسَ... إنَّه دعاءُ اللَّهِ لقلبِهِ بالهدايةِ، لنفسِهِ بالتَّزكيةِ، أن يَستعيذَ باللَّهِ ملتجئاً مضطراً مِنْ قلبٍ لا يخشعُ، فإذا دَعا جاءَهُ قلبُهُ يَسعى إلى صدرِه كأنَّ سائقاً يسوقُه، فيعودُ ليسوقَ صاحبَه إلى الهُدى، فتتفتَّحُ له أبوابُ اللذَّةِ بالعبادةِ والمعرفةِ، ويَصعدُ معارجَ القربِ حتَّى يعبدَ اللَّهَ سبحانه كأنَّه يراه..

كم يكونُ السَّببُ الشَّرعيُّ حِجاباً عن بلوغِك الغاياتِ العظيمةِ، وهو سببٌ

شرعيٌّ.. وذلك حينَ يتوجَّه الاعتقادُ الخفيُّ منك بنفعِ السببِ ودفعِهِ بذاتِه..؟!

يصلِّي المُصلي خلفَ إمامٍ ذي صوتٍ حَسَنٍ فيخشعُ في صلاتِه أيَّما خُشُوعٍ، فَيقصِدُهُ في اليومِ التَّالي لكنَّه لا يَجِدُ الخشوعَ الأوَّلَ! وما ذلك إلَّا لأنَّه ذَهَبَ معتقداً أنَّ الخشوعَ جاءَ بِحُسْنِ صوتِ القارئ ذاهلًا عن عظمةِ القرآنِ، غيرَ ذاكرٍ أنَّ الخشوعَ مِنَ اللَّهِ، وأنَّ القلوبَ بيدِ اللَّه، لذا كانَ النبيُّ ﷺ يطلبُ مِنَ اللَّهِ وحدَه الخشوعَ، وإن شئتَ قلتَ: يطلبُ القلبَ والخشوعَ معاً فيقولُ كما وَرَدَ عن عبدِ اللَّه بنِ عمرٍو رضي الله عنهما قالَ: كانَ رسولُ اللَّه ﷺ يقول: «**اللَّهم إني أعوذُ بك مِنْ قلبٍ لا يَخْشعُ، ونداءٍ لا يُسْمَعُ، ومن نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، ومِنْ علمٍ لا ينفعُ، أعوذُ بك منْ هؤلاءِ الأربعِ**»[1]. وقِسْ على هذا كلَّ الأسبابِ الشَّرعيَّةِ...

كما كان جهابذةُ العلماءِ يَدْعُونَ اللَّهَ دعاءَ المضطرِ لحلِّ مسألةٍ فقهيَّةٍ ومُعضلةٍ علميَّةٍ؟ وكم يحتاجُ أحدُنا لذلك الإعدادِ العظيمِ في حِفظِهِ للقرآنِ والسنَّةِ ومُتُونِ العلمِ، وفَهْمِ الدينِ، وتحقيقِهِ في الحياةِ؟

فإياك أَنْ تتعدَّى بالأسبابِ مقامَها الَّذي وُضِعت فيه، فتُحْرَمَ بلوغَ مقامِكَ الَّذي تَرجوه..

إنَّ أبعدَ النَّاسِ عن رؤيةِ السَّببِ وتعظيمِه هو المحسنُ، إذْ كيفَ تَعْظُمُ الأسبابُ في عَيْنِ مَنْ كأنَّه يرى اللَّه..؟!

يا ربِّ مَنحتني القدرةَ على أن أَحْمِلَ بَدَني فآتي به إلى بيتِكَ، ولا طاقةَ لي

(١) رواه الترمذي (٣٤٨٢)، كتاب: الدعوات. وصححه الألباني.

أَنْ أحمِلَ قلبي فأضعَهُ بينَ يديك.. لا طاقةَ لي أن أُدْخلَ فيه الهدايةَ الحقَّ، والخشوعَ، والخشيةَ، والمهابةَ..

«فاللَّهم اهدِني فيمن هديتَ وعافني فيمن عافيتَ، وتولَّني فيمنْ تولَّيتَ، وبَارك لِي فيمَا أَعطيتَ، وقِني شرَّ مَا قضيتَ، إنَّك تَقضِي ولَا يُقضَى عليكَ، وإنَّه لا يذلُّ مَنْ وَاليتَ وَلا يعزُّ مَنْ عاديتَ تباركتَ ربَّنا وتعاليتَ»[(١)].

«اللَّهم آتِ نَفسي تَقواهَا، وزكِّها أنتَ خيرُ مَنْ زكَّاها، أنتَ وليُّها ومَولَاها..»[(٢)].

لَا شكَّ أنكَ أدركتَ - الآنَ - السرَّ في ترديدِنا الدائم في ختام أكثرِ مِنْ موضوعٍ من مواضيعِ كتابِ الوفادة **«اللَّهم أعنِّي علَى ذِكرِكَ وشُكرِكَ وحُسنِ عِبادتِكَ»**..فإن المنزلةَ المرجوةَ ليستْ لذةَ لحظةٍ في عبادة، وتنتهي بانتهاءِ العبادةِ، إنَّ المرجوَّ أَنْ تشمل اللذة تلك العبادة ثم تتعدى اللذةُ تلكَ العبادةَ إلى العبادةِ المقبلة، إلى ما بينَ العبادتينِ، إلى الحياةِ كلِّها.. كُلُّ هذا لنْ يحصلَ إذا لم يُعِنَّا اللَّهُ وحدَه على تحقيقه.. أليسَ هو مُعلِّمَ رسولِ اللَّهِ ﷺ أن يقولَ بعدَ كلِّ صلاةٍ: «اللَّهم أعنِّي على شكركِ وذكرِك وحسنِ عبادتِك» نَعَمْ بعدَ كل صلاة..

«فاللهم أَعنَّا على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتك».

* * *

(١) رواه أبو داود (١٤٢٥) كتاب: سجود القرآن، باب: القنوت في الوتر، من حديث الحسن بن علي وصححه الألباني.

(٢) جزء من حديث، رواه مسلم (٢٧٢٢) كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

العيون الساقية لـ: «الإعداد المنسي»

قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّهَ عز وجل يقولُ: أنا عندَ ظنِّ عبدِي بي، وأنا معه إذا دعانِي**»(١).

عن النعمانِ بنِ بشيرٍ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «**الدعاءُ هو العبادةُ**» ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠](٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «**من سَرَّه أن يستجيبَ اللَّهُ له عند الشَّدائدِ والكربِ فليُكْثِرِ الدُّعاءَ في الرَّخاء**»(٣).

عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنَّ الدعاءَ ينفعُ ممَّا نزل، وممَّا لم ينزلْ، فعليكم عبادَ اللَّه بالدعاءِ**»(٤).

* * *

(١) رواه مسلم (٢٦٧٥).
(٢) رواه أبو داود (١٤٧٩) وصححه الألباني.
(٣) رواه الترمذي (٣٣٨٢) وحسنه الألباني.
(٤) رواه الترمذي (٣٥٤٨) وقال الألباني: حسن لغيره، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٣٤).

ما ألذَّ الأذكارَ عندَ وقتِها وظَرْفِها[١]

في زَحمةِ الحياةِ المدنيَّةِ، والإضاءاتِ الليليَّةِ. . . . الَّتي جَعَلَتْ مِنَ اللَّيلِ نهاراً، يَفقدُ الكثيرونَ معايشةَ الفكرِ والقلبِ لأذكارِ الصَّباحِ وأذكارِ المساءِ، وأذكارِ المكانِ، وأذكارِ المناسباتِ. .

فَمَنْ يقولُ دعاءَ الرِّيح وهو يسمع صريرَها، ويعاني هبوبَها، ويشاهدُ آثارَها بنفسه في صحرائِهِ وبَحْرِهِ. . . يختلفُ عن مَن يقولُ الدعاءَ نفسَه ولا ريحَ تَهُبُّ، ولا رَعْدَ ولا برقَ. . . ! ومَنْ نَزَلَ منزلًا في سفرِه هذا أو غيرِه، وشَعَرَ بخطورةِ دَوَابِّ الأرضِ، ووحوشِ الصَّحارَى والغاباتِ، وأشياءَ لا يراها مِنَ المخلوقاتِ، وشَعَرَ بمخاطرِ وسائلِ السَّفرِ اليومَ وكثرةِ ضحاياها. . . ثمَّ نَظَرَ فلم يَجِدْ حمايةً، وشَعَرَ أنَّ الحمايةَ تفتقرُ إلى حمايةٍ هنا! أدركَ واقعياً أنْ لا ملجأَ مِنَ اللَّهِ إلا إليه، وأدركَ مِنْ أَثَرِ هذه الكلماتِ ما أدرك، إذْ إنَّه يعيشُ معانِيهَا بقلبِهِ وأحاسيسِهِ مِنْ داخلِهِ ومِنْ خارجِهِ، ثمَّ يَرَى تأثيرَها وعظمتَها في نفسِه وما حولَه. .

مَنْ خافَ قوارعَ الطَّريقِ، وطوارقَ اللَّيلِ والنَّهارِ، ولم يرَ سبيلًا للأمانِ منها إلا بالدعاءِ الواردِ. . . لجأَ إليه وهو يعيشُ كلَّ كلمةٍ من كلماتِهِ: «**أعوذُ بكلماتِ اللَّه التَّامَّاتِ الَّتي لا يُجاوِزُهُنَّ بَرٌّ ولا فاجرٌ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ وذَرَأَ وبَرَأَ،**

---

(١) لا يعني وضع هذا الموضوع في هذا الموضع ضرورة ترتيبه هنا، بل لو وضع في أي موضع من البحث لكفى، لكن لا ينبغي أن تخلو رحلة الوفادة عن لذة تذوق أذكار الليل والنهار، وبيان طريق الإحسان فيها.

ومن شرِّ ما ينزلُ من السَّماءِ، ومِنْ شَرِّ ما يَعْرُجُ فيها، ومن شرِّ ما ذَرأَ في الأرض وبَرَأَ، ومن شرِّ ما يَخرجُ منها، ومن شرِّ فِتَنِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ومن شرِّ كلِّ طارقٍ إلا طارقاً يَطْرُقُ بخيرٍ يا رحمنُ»[1].

أيستوِي - عندَ اللَّه - هذا الخائفُ الطَّالبُ للأمان الفوريِّ والدَّائم، مَعَ مَنْ يُرَدِّدُهُ كُلَّ يَوْمٍ من غيرِ أن يدرِكَ خطورةَ طوارقِ الشرِّ، وخطورةَ الغيوبِ بما تَحْمِلُهُ...؟

إنَّ مَنْ دَخَلَ عليه اللَّيلُ وهو في سَفَرٍ كسفرِ الحجِّ والعمرةِ، ورأَى ما فيه مِنْ ظلمةٍ مطبقةٍ على مساحاتٍ هائلةٍ من الوجودِ، كُلُّها تَصْطَبِغُ بالسَّوادِ، ولم يَرَ ما اختفى تحتَ تلكَ الظُّلمةِ الهائلةِ... عاشَ الحاجةَ العظمى لأدعيةِ المساءِ، وأدركَ قيمةَ سؤالِه خيرَهَا وخيرَ ما فيها، واستعاذتِهِ مِنْ شِرِّها وشَرِّ ما فيها، ورَأَى تأثيرَ عظمةِ اللَّهِ الَّتي تجعلُ كلَّ صاحبِ شَرٍّ يَكُفُّ شرَّه عَمَّنِ استعاذَ باللَّهِ، ورأى تأثيرَ عِلْمِ اللَّهِ وبَصَرَه وسمعَه وقدرتَه سبحانه الذي لا تُخفِي عن عينِهِ تلك الظُّلمةُ بسوَادها ما تحتها أبداً: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

وهكذا الشَّأنُ في أدعيةِ الصَّباحِ بعدَ ذهابِ ذلك اللَّيلِ.. فالقلبُ مُعلَّقٌ بمقلِّبِ اللَّيلِ والنهارِ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

وبهذه المعايشةِ الداخليَّةِ والخارجيَّةِ، القلبيَّةِ والعقليَّةِ، تحيا معاني الأذكارِ الَّتي أَطارت المدنيَّةُ الحديثةُ والماديَّةُ الغليظةُ من تجلياتِها العظيمةِ ما

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤١٩) وصححه الألباني، انظر «السلسلة الصحيحة» (٨٤٠).

أطارتْ.. فإنَّ الحقيقةَ العظمى ليستْ في تلك التقلُّباتِ، إنَّما الحقيقةُ العظمى في الأذكارِ ذاتِها، فما تلكَ التقلُّباتُ إلَّا العاملُ المساعدُ للمعايشةِ، وإلَّا تبقى المعايشةُ الحقيقيةُ في ألفاظِ الأذكارِ ذاتِها..فما رأيتُ مشهداً للإحسانِ مثلَ الحياةِ في كلماتِ الذكرِ، من خلال ظَرْفِ الحياةِ الَّتي شُرِعَ الذكرُ لأجلِها..

تَأَمَّلْ كُلَّ ذِكْرٍ مِنْ هذه الأذكارِ، وسَترى أنَّ اللَّهَ تعالى شَرَعَه في موطنِه لِيُحْيِيَهُ، ويُخْرِجَ مِنْ موطنِهِ الحياةَ، وسترى كيفَ أنَّ اللَّهَ سبحانه، وهو العليمُ بارتقاءاتِ العبيدِ في مراتبِ العبوديةِ والإحسانِ، العليمُ بالفروقاتِ الإيمانيةِ الشاسعةِ ما بينَ منزلةٍ ومنزلةٍ قرباً إليه سبحانه، كيف أنه جَعَلَ في كلماتِ الأذكارِ لكلِّ تلك الدرجاتِ الإيمانيةِ المتباعدةِ منازلَ ومقاماتٍ لا حدود لها.. فلكلِّ ذاكر مقامُهُ المعلومُ في الذكرِ الواحدِ، ومَهْمَا علا ذاك الذاكر في مَقامِه فإنَّ في ذِكرِه – الَّذي ارتفعَ مِنْ خلالِه – المذخورِ مِنَ الطاقةِ الَّتي تَرْعَاهُ وتُعْلِيهِ أكثرَ وأكثرَ..

فما أعظمَكَ – يا ربَّنا – إذ شَرَعْتَ لنا مدارجَ الإحسانِ هذه، وقليلٌ مَنْ يَرتقِيها، بل مِنَّا مَنْ يَحِيدُ عن السُّلَّم يميناً أو شمالاً وهو يَتَوَهَّمُ أنه يرتقِي، بينَما هو لم يَضَعْ رِجْلًا على سُلَّمِ العُروجِ... اللَّهمَّ إلا سُلَّمَ أحرفِ الألفاظِ. وعَبدٌ ينثرُ الذَّكرَ نَثراً، وعبدٌ تَعيش روحُهُ كلماتِ الذِّكرِ، ويَقشعرُّ جِلدُهُ ويتحرَّكُ شعْرهُ خشيةً... مع حركةِ اللسانِ والتلفُّظِ بالأذكارِ..، وعبدٌ يَصعدُ ويَصعدُ، وكأنَّه يَطيرُ ببدنِهِ وراءَ رُوحِهِ المنطلقةِ كالومضةِ، عُرُوجاً في القرباتِ على معارجِ كلماتِ الأذكارِ النَيِّرَاتِ، حينَ انْفَلَتَ القلبُ مِنْ قُيودِ الغفلةِ لحظاتٍ، وتَمَكَّن مِنَ السَّيرِ مع تلكَ الكلماتِ، فسارَ وطارَ، وحلَّقَ

وارتقَى، فإذا الحياةُ شيءٌ آخرُ، وميدانٌ آخرُ، وإذا القلبُ سابحٌ، والذاكرُ في الوجود سائحٌ، وإذا هو مع الموجوداتِ له زَجَلٌ مِنَ التسبيحِ غادٍ ورائحُ، فهل يَعِي القلبُ هذا الإحسانَ الحقَّ القريبَ اللائحَ؟! وهل يسلكُ سبيلَ هذا الميدانِ في هذه الحياةِ، ليتذوقَ شيئاً حقيقياً مِنْ نعيمِ الجنةِ الَّذي يَجري مع أنفاسِهم إذ يُلْهَمون التسبيحَ إلهاماً..؟

فَمِنْ صُنوفِ النَّعيم الأخرويِّ ما يُؤتى به متشابهاً مع صُوَرِ النَّعيم في الدنيا، أما هذا الذِّكرُ فهو عينُ ذاكَ الذِّكرِ، وهذا التَّسبيحُ هو عينُ ذاك التَّسبيحِ، وهذا التَّمجيدُ هو عين ذاك التَّمجيدِ.. ثمَّ ما يفتحُ اللَّهُ به على من يشاء...

واللَّه إنَّ البعض ليبقَى يذكرُ اللَّهَ بخشوعٍ وخشيةٍ، يَشْعُرُ بنَفَسِهِ يصعدُ مَعَ لذَّةِ الذِّكرِ كَمَا لم يشعرْ بلذَّته تلك طُوالَ حياتِهِ، نفساً مَهِيباً، سَهلًا، لذيذاً، وقد تَفَتَّحَتْ بصيرتُه على أنوارٍ من العظمةِ لم يكنْ يَراها مِنْ قبلُ، وسَمَتْ روحُهُ إلى سماواتٍ مِنَ الأفهامِ لم يَعْهَدْهَا من قبلُ، فإذَا به يزدادُ مع الذِّكرِ ويزدادُ، ويزدادُ مِنَ الذِّكر.. وكأنَّه يُلْهَمُه إلهاماً.. فيقولُ عندَها: الآنَ فَهِمْتُ بعضَ السرِّ في إلهامِ أهلِ الجنةِ التَّسبيحَ... كفاهم به نعيماً ولذةً.

واللَّهِ إنَّ جنَّةَ الدنيا هُنا، وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهي الحيوانُ لو كانوا يعلمون..

تعالوا أيُّها الذَّاكرونَ وادخلُوا هذه الجنَّةَ... ادخلُوها لتتذوقوا بعضَ ما في تلك الجنَّةِ..

فالذِّكرُ محفوظةٌ كلماته الكريمة عندَكم، وما بَقِيَ إلَّا أَنْ ترتقوا بتلك الألفاظِ إلى منزلةِ الإحسانِ، لتشاهدُوا من مَقامِها عندَ كلِّ ذِكْرٍ مِنْ أذكارِها مَشهداً يجعلُكُم عندَ كلِّ ذكرٍ كأنكم تَرون اللَّه سبحانه وتعالى...

إنَّ مادةَ الإحسانِ مذخورةٌ في كلِّ ذِكْرٍ شرعيٍّ من الأذكارِ . . . فبهدايةِ اللَّهِ وتوفيقِه، ثمَّ بقليلٍ مِنَ التَّأملِ تُدْرَكُ . . . فيا لحظوةِ مَنْ أدركَ الإحسانَ في ألفاظِ أذكارِه، فلا تُذْهِبَنَّها عنك الغفلةُ مِنْ مَركبِ العجلةِ في أداءِ الذِّكرِ والعادةِ، في كلِّ مرةٍ.

إنَّ حياةَ الإحسانِ والذِّكرِ - هذه - هي الحياةُ الَّتي عاشَها - وأحْسِنْ بها عيشاً! - رسولُ اللَّهِ ﷺ، ومن سارَ على طريقِه مِنْ سَلَفِ هذه الأمةِ في ليلِهم ونهارِهم، في أذكارِهم وأورادِهم. .وإلَّا فهل يُعقلُ أَنْ يكونَ مجردُ القعودِ في المسجدِ هو الغايةُ مِنَ اعتكافٍ يدومُ عَشَرَةِ أيامٍ، أو عشرينَ يوماً. .؟! أو حتَّى جَلسةً بينَ المغربِ والعشاءِ. .؟! أو مِنْ بعدِ صلاةِ الفجرِ حتَّى الشُّروقِ، وذلك كلَّ يومٍ. .؟! هذا المسجدُ هو موقعُ الجسدِ، فأينَ منزلُ الرُّوحِ، وأينَ مقامُ القلبِ، وماذا أبصرَ أو كادَ يُبْصِرُ إذْ هو يَلْهَجُ بالذِّكرِ وكأنَّه النَّفَس، ويُقيمُ في موطنِ ملائكةِ اللَّهِ الذَّاكرينَ.

أيُّها القارئُ - عالماً كنتَ أم طالبَ علمٍ أم عاميًّا - إيَّاكَ أَنْ تُحْرَمَ منزلةَ الإحسانِ بالتَّرددِ في قبولِها، أو التردِدِ في دخولِها، فَيُحَالُ بينَكَ وبينَ أعظمِ ما يَشتهيهِ المؤمنونَ. . . أو تُحْرَمها بِوَهْمٍ باطلٍ يقولُ لك: هذه المنزلةُ ليستْ لك ! إنَّها خاصَّةٌ لخاصَّةِ الخاصَّةِ أو نحوَ تلكِ المصطلحاتِ. . ! إنَّها منزلتُكَ فلا تتنازلْ عنها. . . إنَّك مِنْ أهلها - بإذنِ اللَّهِ - ولك فيها مقعد، فهو قلبُك إنْ لم تسع في رفعه إلى مقعد المحسنين فَمَنْ يَرْفَعُهُ لكَ مِنَ المخلوقينَ. . واللَّهِ إنَّ جنوبَهم تكونُ على الوسائدِ - وهم يذكرونَ اللَّهَ عندَ المنامِ - إلّا أَنَّ صدورَهم في عالمِ الإحسانِ، فإذا سَنَتْ عيونُهم مع الذِّكر فنِعِمَّا الَّذي سَنَتْ عليه، وإذا أَطَارَ الذِّكرُ نومهم فَنِعِمَّا ما طارتْ إليه. . ولو تَحَدَّثَتْ وسائدُ

المحسنينَ لَنَافَسَتْ سجاجيدَ العابدينَ. لابدَّ لك مِنْ أورادٍ تمارسُها، وأوقاتٍ تُحيِيها..

لابدَّ لك مِنْ صناعةِ قدرةِ استحضارِ الإحسانِ وأنتَ بينَ الخلقِ تَسرحُ، تأكلُ وتشربُ وتمرحُ، بينما خَطَفَ لُبَّكَ الذِّكرُ حين جرى على اللسانِ، أو جرى به الجَنَانُ..

❊ ❊ ❊

العيون الساقية لـ:
«ما ألذ الأذكار عند وقتها وظرفها»

قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانَ رسولُ اللَّه ﷺ يسيرُ في طريقِ مكةَ، فَمَرَّ على جَبَلٍ يُقَالُ له جُمْدَانُ، فقال: «سِيرُوا، هذا جُمْدَانُ، سَبَقَ المُفَرِّدُونَ، قالُوا: وما المُفَرِّدُونَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: الذاكرونَ اللَّهَ كثيراً والذاكراتُ»[١].

عن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**إنَّ أهلَ الجنةِ يأكلونَ فيها ويَشربونَ، ولا يَتْفُلُونَ، ولا يَبُولُونَ، ولا يَتَغَوَّطُونَ، ولا يَتمخَّطُونَ، قالوا: فما بالُ الطعامِ؟ قال: جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ المِسْكِ، يُلْهَمُونَ التسبيحَ، والتحميدَ كما تُلْهَمُونَ النَّفَس**»[٢].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: يقول اللَّه تعالى: «**أنا عندَ ظَنِّ عبدِي بي، وأنا معه إذا ذَكَرَني، فإنْ ذَكَرَني في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَني في مَلأٍ ذَكَرْتُهُ في مَلأٍ خَيْرٍ منهم**»[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦).
(٢) رواه مسلم (٢٨٣٥).
(٣) رواه البخاري (٦٩٧٠) ومسلم (٢٦٧٥).

الفصل الثاني
منازل المحسنين
في مدينة سيد المرسلين ﷺ

* الاقتراب من رسول اللَّه ﷺ.
* طعم الإيمان به، من أذان مسجده ﷺ.
* ادخل الروضة.
* الصلاة على الطفل... يرحمكم اللَّه.
* في ركب نعش أخينا نمشي.
* المقصران في حق رسول اللَّه ﷺ.
* ما بين مدينتي والمدينة.
* هياج القلب عند وداع المدينة.

الاقترابُ مِنْ رسولِ اللَّه ﷺ[١]

إيهِ يا نفسُ[٢]. . إنها طيبةٌ، إنها طابةٌ، إنها المدينةُ. . . !

ها نحنُ الآنَ فيها. . ! اللَّه. . !

هذه أرضُها، هذه سماؤُها، هذه أجواؤُها المفعمةُ بالأمنِ والإيمانِ. . .

امْشِ نحوَ المسجدِ. . . اقتربْ مِنَ المركزِ شيئاً فشيئاً. . . اطوِ التاريخَ في لَمْحِ البصرِ. . . قروناً إِثْرَ قرونٍ. . . احمِلْ نفسَك إلى المدينةِ الأولى. . . هأنذا وكأني أحملُ حسَّ واحدٍ منَ المهاجرينَ الذينَ وصَلُوا منْ بلادِهم الآنَ. . . الذينَ شَهِدُوا لرسولِ اللَّهِ ﷺ بالرسالةِ ولمَّا يَروْه. . .

أسيرُ مُتجهاً نحوَه ﷺ لِأُحققَ الحُلمَ، وكأنني أريدُ أنْ أحوزَ الشرفَ الأعلى برؤيتِه بعدَ قليلٍ، حينَ أدخلُ مسجدَه ﷺ. . لحظاتٍ - ويا لَطولِها من لحظاتٍ -!

قالَتِ الرِّجْلُ: لو تُرِكَ الأَمرُ لي لَطِرْتُ بِكَ مع الريحِ، مُتخطيةً بِكَ حُجُبَ الزمنِ، فلم أتوقفْ لحظةً واحدةً إلا وأنتَ بين يديِ المصطفى ﷺ. .

قال اللسانُ. . . لَنْ تَسبقِيني أيَّتُها الرِّجْلُ إلى الحبيبِ، فسوفَ أَسْبِقُ خُطاكِ

---

(١) ابتدأنا بذكر المدينة وذلك لأن رحلة وفادتنا كانت بدايتها المدينة في حجتنا الأخيرة عام ١٤٢٦هـ ليس إلا.

(٢) ليس المقصود في أي خطاب أوجهه عن النفس أو من النفس - كما هنا - هو نفس كاتبه، إنما هي نفس قارئه، فلتكن نفسك معجونة في هذا الخطاب صدقاً ومعايشة، وحياة وحيوية إيمانية. . . وإياك أن تشغل بنفس الكاتب عن نفسك، أو تشغل بصدقه المظنون عن صدقك المتيقن، فيفوتك الإحسان في أعز مواطنه في الدنيا.

الثقيلةَ بالصلاةِ والسلامِ عليه، ولنْ أتوقفَ عَنِ الصلاةِ عليهِ حتى أَقِفَ بينَ يديهِ، فَأُسَلِّمَ عليه سلاماً مباشراً مشافهاً، قائلًا: «السلامُ عليكَ يا رسولَ اللَّهِ»...

قال القلبُ: قُولوا ما شِئْتُم، وافعلوا ما شئتم، فَلَنْ يَسبقَني أحدٌ منكم.. فأنتَ يا بَدَني خِلْوٌ مِنِّي الآن، وإِنْ بَقِيَتْ عَضَلتِي في صدرِكَ تتحركُ.. فأنا عندَ الحبيبِ بانتظارِ دخولِكم المسجدَ..

نعم أنا القلبُ أنا المَلِكُ... ولذا فسوفَ أجعلُ كلَّ شعرةٍ في حالِ وقوفٍ، وكلَّ خليةٍ في حال قَشْعَرِيرةٍ... حتى أصلَ إليه بِكُلِّيَّتي وكَيْنُونَتِي وأُسلِّمَ عليه، وهناكَ، هناكَ أُداوِي لَهْفِي عندَه...

قالت الروحُ: لَأتَعزَّينَّ الآنَ بالصلاةِ عليه ﷺ حتى أَصِلَ إليه، ولَتُخَالِطَنَّ الكلماتُ الروحَ فتَخْرُجَ الصلاةُ عليه مِنْ أعماقِي وكأنَّها النَّفَسُ... لأستشيرَنَّ فضائلَه - عليه الصلاةُ والسلامُ - من الذاكرةِ، فتخرجُ كلُّ فضيلةٍ أستحضرُها بصلاةٍ عليه أُردِّدُها... كلُّ وصفٍ من أوصافِه الكريمةِ -عليه الصلاةُ والسلامُ- بصلاةٍ عليه.. فتتتابع فضائله وذكره وعلو مقامه مع الصلاة عليه، مع الخطى إليه، مع الاقتراب منه أكثر فأكثر «**اللَّهم صَلِّ على محمدٍ، وعلى آلِ محمدٍ، كما صليتَ على إبراهيمَ، وعلى آلِ إبراهيمَ إنك حميدٌ مجيدٌ، وبارِكْ على محمدٍ، وعلى آلِ محمدٍ، كما باركتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنك حميدٌ مجيدٌ**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٠) كتاب الأنبياء، باب: يزفون: النسلان في المشي، ومسلم بنحوه (٤٠٦) كتاب: الصلاة، باب: الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

اللَّه أكبرُ طَلَعَ علينا مسجدُه..! طلعَتْ مَناراتُه تُنيرُ ليلَ المدينةِ بضوئِها وبياضِها...

يقول قلبي: أَحقّاً هناكَ رسولُ اللَّه ﷺ..؟!

إِي وربي إنه لحقٌّ...! فاصنعْ يا قلب ما بَدَا لكَ صُنْعُه، فلقد اقتربتَ كثيراً...!

ووالـلَّهِ لـو أَنَّ الأسنَّـةَ أُشْـرِعَـتْ ... وقامتْ حروبٌ دونه ما تركناهُ
ولو أَنَّنا نمشي على الرُّوْس دونه ... ومِنْ دونِه جفنَ العيونِ فرشناهُ
وتُـمْـلَكُ منـا بـالـوصـولِ رقـابُـنـا ... ويُسلبُ منَّا كلُّ شيء مَلَكْناهُ
لكانَ يسيراً فـي محبـةِ أحمـدٍ ... وبالروحِ لو يُشرَىٰ الوصالُ شَرَيْنَاهُ
وكَمْ جبلٍ جُزْنَـا ورَمْـلٍ وحاجـزٍ ... وكـم دونه وادٍ وشِعْـبٍ عَبَرْنَـاهُ
تُرَنِّحُنا الأشـواقُ نحـوَ محمـدٍ ... فنَسْرِي ولا ندرِي بما قد سَرَيْنَاهُ
ولما بـدا جَـرْعُ العقيـق رأيتُـنا ... نَشَاوَىٰ سُكارَى فارِحيـنَ بِرُؤيـاهُ
شَمَمْنا نَسيماً جاءَ من نحوِ طيبةٍ ... فأهلًا وسهـلًا يا نَسيماً شَمَمْناهُ
فقد مُلِئَتْ منّا القلـوبُ مَسـرَّةً ... وأيُّ سرورٍ مثلُ ما قَـدْ سُرِرْنـاهُ
فوا عجبـاهُ كيـفَ قَـرَّتْ عيونُـنا ... وقد أيقنَـتْ أنَّ الحبيـبَ أتينـاهُ
ولُقْيـاه مِنَّا بَعـدَ بُعـدٍ تقاربـتْ ... فـو اللَّهِ لا لُقْـيا تُعـادِلُ لُقْيـاهُ
وصلنـا إليـه، واتَّصلنـا بقربِـهِ ... فلِلَّه ما أحلى وُصـولًا وصلنـاهُ
وَقَفْنَـا وسَلَّمْـنـا عليـه وإنـه ... لَيَسْمَعُنَـا مِنْ غَيـرِ شَكٍّ فَدَيْناهُ
وردَّ علينـا بالسـلامِ سلامَنـا ... وقد زادنا فوقَ الـذي قـد بدأنـاهُ

كذا كان خُلْقُ المصطفى وصفاتُهُ بذلك في الكُتْبِ الصِّحاحِ عرفناهُ[١]

هناكَ... عندَ تلكَ المنارةِ البيضاء، صاحبُ صحيفةٍ لو وُزِنَتْ بأعمالِ الثقلينِ الصالحةِ منذُ بَعثتِهِ إلى يومِ القيامةِ لَأَثْقَلَتْ جميعَ صالحاتِهم، ومعها أبدانُهم، وأثقالُهم، وآثارُهم...!

هناكَ... حبيبُ اللَّهِ تعالى.. هناكَ رسولُ اللَّهِ ﷺ...!

هناك بُقعةٌ ستَنْشَقُّ عنها الأرضُ أَوَّلَ ما تنشقُّ للبعثِ والنشورِ، فيكون أوّلَ الخارجينَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى ذاك العالمِ الجديدِ.

تخطّت الرِّجْلُ بابَ مسجدِهِ... رَدّدَ اللسانُ ألفاظَ الدعاءِ، وإذا فيها ذكره ﷺ بعد ذكر الله تعالى: «بسمِ اللَّهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسول اللَّه»... اشْرَأَبَّ العُنُقُ نحوَ مكانِ رسولِ اللَّهِ ﷺ... استشرَفَت العينُ إلى الأمام... إلى الأعلى نحوَه... ثم طَأْطَأَت الأهدابُ والجُفونُ حَياءً وأَدَباً...!

آه.. ها هو رسولُ اللَّهِ ﷺ..!

وصلْتُ...؟ نعم وصلتُ..!

يا لَلْهَوْلِ..! أينَ رسولُ اللَّه ﷺ..؟! كأنه - اللحظةَ - ماتَ!

وكأنني المهاجرُ الذي سَبَقَ دفنُ رسولِ اللَّه ﷺ وصولَه بلحظةٍ..!

فأيُّ لَوعةٍ مثلُ لوعةِ هذا المهاجرِ القريبِ الذي كان يطمحُ للنَّظْرةِ ؟ بل أيُّ

---

(١) قصيدة للصنعاني يذكر رحلته إلى طيبة وزيارة المدينة، من كتاب «الرياض النضرة في فضائل وفتاوى الحج والعمرة».

لوعةٍ مثلُ لوعتي بعدَما عِشْتُ الحُلمَ لحظةً بلحظةٍ، وخُطْوةً بخطوةٍ وكأنه الحقيقةُ..؟

السلامُ عليكَ يا رسولَ اللَّهِ... نعم «**عليكَ**» بهذه المباشَرَةِ في الخِطابِ، ولْيَسمعْ ربي عني مِنْ رسولِهِ ﷺ الجوابَ..فأيُّ مَعْنًى عظيم من معانِي «**الإحسانِ**» مع اللَّهِ ومع رسولِهِ ﷺ إذْ شَرَعَ لنا أعظمَ صلاةٍ وسلامٍ عليه في أعظمِ ركنٍ عَمَليٍّ مِنْ أركانِ الإسلامِ ألا إنه التشهد في الصلاةِ!، وشرَعها بهذه الكيفيةِ المحددةِ: «**السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه، السلامُ علينا وعلى عبادِ اللَّهِ الصالحينَ..؟..**»[1].

«**فالسلامُ عليكَ**» تحديداً بهذه الصيغةِ المباشِرةِ مع رسولِ اللَّه ﷺ في الحضورِ، كاللَّفظِ الذي جاءَ بعدَها «**السلامُ علينا**» في المباشَرَةِ بمُخَاطَبَتِنَا نفوسَنا في هذا التشهدِ العظيمِ، فلكأنَّ حضورَك - أيها المُسَلِّمُ عليه المتشهد - من خلالِ المباشَرَةِ بصيغةِ السلام: «**السلامُ عليك أيها النبي**» كحضورِك أنتَ المُمَثِّلُ لعبادِ اللَّهِ الصالحينَ في قولِك: «**السلامُ علينا**» نحنُ - أَيْ الحاضرين.

ثم انظرْ كيف فَرَّقَتِ الصيغةُ بينَ المباشرةِ في السلامِ عليه، وبينَ الغَيبةِ بالسلامِ على عبادِ اللَّهِ الصالحينَ..

فأينَ «**السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ**» مِنْ «**وعلى عبادِ اللَّه الصالحينَ**»؟ إذ لم يَقُلْ: «**السلامُ عليكم يا عبادَ اللَّهِ الصالحينَ**» كلُّ ذلكَ في تشهدِ الصلاةِ من

---

(١) رواه البخاري (٧٩٧) كتاب: صفة الصلاة، باب: التشهد في الآخرة، ومسلم (٤٠٢)، كتاب: الصلاة، باب: التشهد في الصلاة، من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

أيِّ مكانٍ تقولُه فِي الأرضِ، فكيفَ بحضورِ القلبِ في السَّلام المُباشر عليه وقد طَوى اللَّهُ لي الأرضَ، ولم يعدْ بيني وبينَ الحبيبِ ﷺ إلَّا خطوتينِ أوْ ثلاثةً وكأنَّ الملَكَ القائمَ علَى قبرِهِ أمامِي يتلقَّى سلامِي فيبلغهُ باسمِي رسول اللَّه ﷺ..

عنِ أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ما مِنْ أَحدٍ يُسَلِّمُ عَليَّ إلا رَدَّ اللَّهُ عليَّ رُوحي حتَّى أَرُدَّ عليهِ السلامَ**»(١).

وعن عمارِ بنِ ياسرٍ رضي الله عنه قالَ: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنّ للَّهِ تباركَ وتعالَى مَلَكاً أَعطاهُ أسماءَ الخلائِقِ، فهو قائمٌ على قَبْري إذا مِتُّ، فليسَ أحدٌ يُصلي عليَّ صلاةً إلا قال: يا محمدُ، صلَّى عليكَ فلانُ بنُ فلانٍ، قالَ: فيُصلّي الربُّ - تباركَ وتعالى - على ذلكَ الرَّجُلِ بكلِّ واحدةٍ عَشْراً..**»(٢).

فيا ربِّ اجعلْها بَيْعةً لكَ على لُزومِ مقامِ الإحسانِ عندَ الصلاةِ على رسولِك ﷺ، والإحسانِ عندَ كلِّ صلاةٍ عليه ﷺ، وبلوغِ الإحسانِ باتِّباعِه ﷺ وكأنني أَراهُ ﷺ... حتى أَراهُ حقيقةً يومَ لقائِهِ ﷺ.

يا رب عهداً أن أُصبِّحه وأُمسِّيه كلَّ يومٍ إلَى يومِ القيامةِ سواءٌ كنتُ في المدينةِ أو غيرِها بأنْ أصلِّي عليه كلَّ يوم عشرَ مراتٍ كأنَّني أَراك.

يا ربِّ، عهداً أن أجعلَ صلاتِي عليهِ كلَّ يوم جُمعةٍ تتردَّد معَ تردُّد النَّفَس لَا يقطعُها شيءٌ اللَّهمَّ إلَّا نومٌ أو طعامٌ، حتَّى النوم فلأغفونَّ وأنَا أصلِّي عليهِ

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٤١) وحسنه الألباني.

(٢) أورده الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢/ ١٩٣).

ولأستيقظنَّ وأنَا أصلِّي عليهِ أليسَ هُو مَنْ طالبنَا بالإكثارِ فَقالَ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الجُمْعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ؛ فَإِنَّ صَلاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ»[1].

ولابدَّ أنَّ الصلاةَ عليهِ من غُروب شمسِ الجُمعةِ وذلكَ للأحاديثِ الواردةِ.

* * *

(١) رواه أبو داود (١٠٤٧)، كتاب: الصلاة، باب: فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، وصححه الألباني.

العُيونُ السَّاقيةُ لـ:
«الاقتراب من رسول اللَّه ﷺ»

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤].

عن عائشةَ رضي الله عنها قالَتْ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أنا خاتَمُ الأنبياءِ، ومسجدِي خاتمُ مساجدِ الأنبياءِ، أَحَقُّ المساجدِ أَنْ يُزارَ وتُشدَّ إليه الرواحلُ المسجدُ الحرامُ ومَسجدي، وصلاةٌ في مَسجدِي أفضلُ مِنْ ألفِ صلاةٍ فيما سواهُ مِنَ المساجدِ إلا المسجدَ الحرامَ**»(١).

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «**كُنْتُ مع النبيِّ ﷺ بمكةَ، فَخَرَجْنَا في بعضِ نواحِيها، فما استقبلَه جَبَلٌ ولا شجرٌ إلا وهو يقولُ: السلامُ عليك يا رسولَ اللَّه**»(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتي لي حُباً نَاسٌ يكونونَ بَعْدِي يَوَدُّ أحدُهم لو رآني بأهلِه ومالِه**»(٣).

* * *

(١) رواه البزار، قال الألباني: صحيح لغيره، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٧٥).
(٢) رواه الترمذي (٣٦٢٦) والحديث ضعفه الألباني في «سنن الترمذي»، ثم صححه بعد ذلك في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٧٠) لوجود طريق أخرى وشواهد يتقوى بها، وكذلك جعله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٠٩) وقال: صحيح لغيره.
(٣) رواه مسلم (٢٨٣٢).

طَعْمُ الإيمان به مِن أذان مسجده ﷺ(١)

حينَ تكونُ - قبلَ قليلٍ- قد دَخَلْتَ مسجدَ النبيِّ ﷺ، وتكونُ قد حَيَّيْتَ المسجدَ بركعتينِ، وسلَّمتَ على المصطفى ﷺ، ودارتْ عيناك في جَنَبَاتِ الحرمِ، ودارَ معه فِكْرُكَ..! فَترى - في نظراتِك - الأثرَ أمامَ عينيك في المسجدِ مِن هنا، وتَسْتَرْجِعُ التاريخَ من هنا، وتُنْصِتُ لأصداءِ صنائعِ رجالِ هذا المسجدِ الأُوَلِ تتردُدُ في جنبات المسجد بل في جنباتِ الدنيا هنا وهناك.

سبحانَ اللَّهِ! أَكُلُّ هذا التغييرِ في هذا العالمِ من هذا المسجدِ الصغيرِ الحَجْم...؟!

لو نطقَتْ أرضُ هذا المسجدِ لقالَتْ: هنا جَلَسَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، وهنا قامَ، هنا خَطَبَ وهنا صَلَّى، هنا وَقَفَ على الحلقاتِ، وهنا وَعَظَ، هنا.... هؤلاءِ الصحابةُ ﷺ يَصْطَفُّونَ للصلاةِ خَلْفَه ﷺ... يُحَدِّثُهم فيبكُونَ ويَبكُونَ... يُوَجِّهُهُم فَيُسْرِعُونَ ويتسابقُونَ... وهكذا، وهكذا يَذْهبُ الفِكْرُ إلى هناك، إلى تلك الصفوة المختارة مع سيد المرسلين ﷺ... **وفي لَمْحَةٍ** يعودُ فكرك مِن رِحْلتِه، على صوتٍ هادرٍ... يَشُقُّ سكونَ الأجواءِ، ويخترقُ رحلةَ التفكيرِ هذهِ، إنه صوتُ الأذانِ ينادِي من مسجدِ رسولِ اللَّه ﷺ، فَتُفِيقُ... وإذا بك بِجِوَارِ رسولِ اللَّهِ ﷺ!

---

(١) للأذان معان عظيمة وكثيرة، لكننا أردنا هنا أن نظهر ارتباط الأذان بالإيمان به ﷺ، وتحقيق درجة الإحسان في ذلك، إذ الظرف الزماني والمكاني والعبادي لا نظير له في ترسيخ هذه العقيدة، وتذوق لذة الإيمان له ﷺ، وبلوغ منزلة الإحسان.

أيُّ نداءٍ هذا... أيةُ كلماتٍ عظيماتٍ هذه... إنها ذاتُ الكلماتِ التي سَمِعْتُها في بلادِي.. لكنَّ رحلةَ الروح في أجملِ تاريخٍ، وخاصيةَ المكانِ وتجاوبَ الأصداءِ مع الأركانِ جَعَلَتْ من هذا الأذان شيئاً آخرَ..

تَتلقَّى النفسُ اليومَ الأذانَ بعدَما اصطبغَتْ بأجواءِ المدينةِ يومذَاك، وقد سَقَتْ ظمأَ الاشتياقِ لرسولِ اللَّهِ ﷺ بحياةِ الروحِ - مَعَ أَحَبِّ خَلْقِ اللَّهِ إليها - في هذه اللحظاتِ.

أيُّها القارئُ: هل مِنْ أَحدٍ يَجلسُ في هذا المكانِ لأولِ مرةٍ، أو بعدَ انقطاعٍ طويلٍ لا يذهبُ فِكرُه هذا المذهبَ...؟! لا يرحلُ هذه الرحلةَ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ والذينَ معه؟!

إذاً، فليست هذه الرحلةُ ضَرْباً مِنَ الخيالِ... بَلْ هي رِحْلةٌ قائمةٌ في ذِهْنِ كلِّ مُسلمٍ ومسلمةٍ حتى تقومَ القيامةُ مادامَ هذا المسجدُ قائماً، أدامَ اللَّهُ شُموخَهُ..

فَلْنَعُدِ الآن إلى الرحلةِ... يعيشُهَا المُتفكِّرُ حتى الأعماقِ لحظةً بلَحْظةٍ...

لِنَعُدْ إلى الرحلةِ التي شَقَّ سُكونَها هذا الأذانُ العظيمُ، وكأنه الصوتُ المُنْبَعِثُ من تاريخِ هذا المسجدِ... الباقي كما هُو وإِنْ تَغَيَّرَتْ أَحْجارُ المسجدِ وجُدْرَانُه... فما تغيرَتْ كلماتُ الأذانِ ولا أحرفُهُ، ولا مَوْقِعُ المسجدِ ومدينتُهُ وبركتُها.

طِيري أيَّتُها الروحُ وحَلِّقِي مَعَ كلماتِ الأذانِ الخارقةِ للسكونِ، المُحَلِّقةِ في جَوِّ السماءِ..

تَذكَّرْ أيُّها المشتاقُ وأنْتَ في جوارِه الآن تاريخَ ما قَبْلَ تشريع هذه الكلماتِ التي تسمعُها الآنَ، حينَ لَمْ تكنْ معروفةً قَبْلَه ﷺ لَهُ ولا لِغيرِهِ.

عُدْ بِذاكرتِكَ التصويريةِ لتلك الفترةِ.. ها هي الأُمَمُ الأولى تَتنادَى لصَلاتها بطرائقَ مُخْتلفةٍ، فمِنْها الناقوسُ ومنها البوقُ، ومنها النارُ.. أشكالٌ وألوانٌ..

لكِنَّ صَلاتَنا بَقِيتْ في المدينةِ مِنْ غيرِ أذانٍ...!

بَقِيَ الصحابةُ يُوقِّتونَ قُلوبَهم للصلاةِ مِنْ غَيرِ استماعٍ إلى شيء، ولا رؤيةِ شيءٍ اللَّهم إلا معرفتَهُم بحركةِ الشمسِ والقمرِ والنجومِ..!

وبقيَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُ الأمرَ على أصحابِهِ، لاختيارِ طريقةٍ تُناسبنا كأمةٍ جديدةٍ ولَا تُشبه طرائقَ الأُمم... بقِي الأمرُ فترةً والمقترحاتُ تصلُ إليهِ فلَا يوافقُ عليهَا.

الجميعُ يَبْحَثُونَ ويبحثونَ... ولكِنْ لا جوابَ شافياً، ولا وسيلةَ مُقْنِعةً، حتى كانَتْ رُؤْيا عبدِ اللَّهِ بنِ زيدٍ رضي الله عنه، فكانَ الأذانُ الذي نَسْتَمِعُ إليهِ الآنَ.. إنَّهُ هُوَ هُوَ لَمْ يتغيرْ ولَمْ يَتبدلْ..!

ارفعْ بلالُ هذهِ الكلماتِ عالياً بصوتِك النَّدِيِّ.

لكِنْ مَنْ كانَ يَحْلُمُ - مِنْ بَينِ الخلائقِ جميعاً - أَنْ يُذْكَرَ اسْمُهُ ﷺ معَ اسمِ اللَّهِ تعالى في أعلى نِداءٍ، وأبقَى نداءٍ..؟!

اسمه في النداءِ الذي يَجْمعُ المسلمينَ لِرُكْنِ الإسلامِ العمليِّ الأَعْظَمِ..

إنَّهُ اختيارُ اللَّهِ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ خَلْقِهِ، لاسمِ مَنْ يشاءُ أَنْ يُرافقَ اسمَهُ، وأيُّ اسمٍ غيرُ اسمِ محمدٍ ﷺ؟

حقاً، إنَّ الفضلَ للَّهِ أولًا وآخراً، ظاهراً وباطناً. . . حقاً، إنَّ الوحدانيةَ لَهُ وحدَه، ومَعاذَ اللَّهِ أَنْ نُشْركَ بهِ شيئاً، ولكِنْ: يبقى ذوقُ الإيمانِ بهِ ﷺ تَسْتَرْوحُ بهِ القلوبُ مِن كلماتِ الأذانِ العظيمةِ الصاعدة، وتُحِسُّهُ إِذْ يَملأُ أجواءَ المدينةِ شَذًى مُمْتداً على امتدادِ هذا الأذانِ.

تبقى أنتَ تَسْتَمِعُ إلى كلِّ عبارةٍ من عباراتِ الأذانِ، فلا تَمْلِكُ إلا أَنْ تربِطَها بِمَنْ شَرَعَ اللَّهُ لهُ الأذانَ ﷺ، ورَفعَ ذِكْرَهُ في الأذانِ، إنه الذي أنتَ بجوارِهِ الآنَ. . .

- «**اللَّهُ أَكْبَرْ اللَّهُ أكبرْ**»: فمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ مثلُ محمدٍ ﷺ. . .؟

مَنْ علَّمَ الناسَ أَنَّ «اللَّه أكبر» مِثْلما علَّمَهُم رسول اللَّه ﷺ. . .؟

مَنْ حقَّقَ علَى الأرضِ أَنَّ «اللَّه أكبر» مِثلُ رسول اللَّه ﷺ؟

مَنْ حقَّرَ وحطَّمَ مَنْ لَمْ يُكَبِّر اللَّهَ مِثْلُ رسول اللَّه ﷺ؟

والفضلُ للَّهِ تعالى أولًا وآخراً.

وهكذا تَتَتابعُ الأفكارُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ على الذِّهْنِ معَ تَردُّدَاتِ «اللَّهُ أكبرْ. اللَّهُ أكبرْ. اللَّهُ أكبرْ. اللَّهُ أكبرْ. .» في هذا الفضاءِ الكبيرِ.

- «**أشهدُ أَنْ لا إلهَ إلّا اللَّهُ**». . . أرادَ اللَّهُ وحدَهُ أَنْ يكونَ تحقيقُ مُقْتَضى كلمةِ التوحيدِ الأعظمِ على يدِ محمدٍ بنِ عبدِ اللَّهِ ﷺ. . خيرِ مَنْ نَطقَ بِها مِن خَلْقِهِ، وخيرِ مَنْ دَعا لها مِن خلْقِهِ، وخيرِ مَنْ عَلَّمَها لِخَلْقِهِ، وخير مَنْ عَمَّمَها على خَلْقِهِ. .

لكنَّني أَسْتمعُ لها اليومَ مِنْ جوارِه، فأشعرُ لها بِطَعْمٍ آخرَ. . . طَعْمٍ لا

يُمْكنُ أن يُغْفِلَ محمداً ﷺ، صاحبَ المسجدِ حينَ أستمعُ مِنْ مسجدِه: «أشهدُ أَنْ لا إلهَ إلّا اللَّهُ» إِذْ كيفَ كانَتْ شهادةُ الناسِ بها قَبْلَهُ، وكيفَ أصبحَتْ بَعْدَهُ.. ؟!

أَفَيُمْكِنُ أَن أُغْفِلَ كُلَّ هذا وأنا هُنا في المدينةِ، في المسجد، في الجوار.. كَيْفَ ؟!

مِنْ هذا المكانِ وَصَلَتْ شهادة التوحيد إلى كلِّ مكانٍ؟ مِنْ هذا المكانِ وصلَتْ إلى بَلَدِي، وبَلْدَتي، وقَرْيَتي، إلى آبائي وأَجْدادِي؟!

بَلْ مِنْ هُنا... مِنْ هَذا المكانِ وَصلَتْ إلى الكعبةِ، إلى البيتِ الحرامِ!

إِذَنْ، كيفَ لا أَتَذَوَّقُ حلاوةَ الإيمانِ بها - وللإيمانِ حلاوةٌ - ولِلْقلبِ تَذَوُّقٌ؟

- «**أشهدُ أنَّ مُحمداً رسولُ اللَّهِ ﷺ**» يا ربِّ لا أَدْري كيفَ أَشْكُرُكَ، وقَدَ اصْطَفَيْتَنِي إذ جَعَلْتَني واحداً مِمَّنْ يَستمعُ لها مُؤمناً بِها..؟ واصطفيتَني فأتيْتَ بي إلى مسجدِه، أستمعُ لها مِن جوارِه ﷺ ؟!

اخترْتَني فجعلْتَني من أُمَّتِهِ ﷺ، ولَمْ تَجعلْني واحداً مِن المؤمنين في الأُمَمِ السَّابقةِ.. لا أَدْري كيف شَكَرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ نِعْمةَ اللَّهِ عليه وهو يستمعُ إليها..؟!

واللَّهِ، إني لا أَشُكُّ أَنَّ لِـ «أشهدُ أَنَّ محمداً رسولُ اللَّهِ» تَجاذُباً مَخْصُوصاً على أُذُن رسول اللَّهِ ﷺ وهوَ يستمعُ لَها... لكِن ماذا يصنع - وهو يستمعُ إليها - أكثرَ مِن أَنْ يقولَ من خالص قلبه وعظيم شكره لربه: وأنا أشهدُ أنَّ محمداً رسولُ اللَّهِ ﷺ..

عَنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ كانَ إذا سَمِعَ المؤذِّنَ يَتَشهَّدُ قالَ: «**وأَنا وأَنا**..»[1].

لا أَدْري أيَّ درجةٍ مِنَ الإيمانِ بَلَغَ أولئك الرجالُ العظماءُ - صحابةُ رسولِ اللَّهِ ﷺ - عِنْدَ سماعِهِمْ لهذهِ الشهادةِ، مُؤمنينَ بِها، وهُمْ إِذْ يَشْهدونَ أَنَّ محمداً رسولُ اللَّهِ ﷺ بآذانِهم يُشاهدون رسولَ اللَّهِ ﷺ بأَعْيُنِهِمْ؟!

أَليسَ في هذا اجتماعُ عِلْمِ اليقينِ، وعَيْنِ اليقينِ..؟!

لا أَدري كيفَ احْتَملَ أولئكَ الرجالُ الذِّكْرى وهُمْ يستمعونَ إليها لأولِ مَرَّةٍ بعدَ وفاتِه ﷺ...؟وكيفَ كانَ وقعُها العظيمُ على قلوبِهِمْ، كُلَّمَا استمعوا لَها بقيةَ حياتِهِمْ..؟!

يا مَنْ يُذكِّرني بَعَهْدِ أَحِبَّتِي ... طابَ الحديثُ بِذِكْرِهِمْ ويَطِيبُ
أَعِدِ الحديثَ عليَّ مِنْ أَطْرافِهِ ... إِنَّ الحديثَ عَنِ الْحَبيبِ حَبِيبُ
مَلأَ الضُّلوعَ وفاضَ عَنْ جَنَباتِها ... قَلْبٌ إِذا ذُكِرَ الْحَبيب يَذوبُ
ما زالَ يَخْفِقُ ضارباً بِجَناحِهِ ... يا لَيْتَ شِعْري هل تَطِيرُ قُلوبُ

- «**حَيَّ على الصّلاة... حَيَّ على الفَلاح...**» وأنا في هذا الجوِّ العظيم كَأَنَّ الصحابةَ - رضوانُ اللَّهِ عليهِم - أمامَ ناظِريَّ الآنَ.. يَنْفضونَ أيديَهُمْ مِن الدنيا، ويَأتونَ، يَتَّبِعونَ هذا الداعيَ، طاهرين ظاهراً وباطناً وعليهم السكينةُ والوقارُ إلى هنا، إلى هذهِ البقعةِ تَحْديداً، البقعةِ التي ينطلقُ منها الأذانُ الآن.. والتي أنا فيها الآن..!

يأتونَ للصلاةِ خَلْفَ هذا الحبيبِ ﷺ... يَصْطَفُّونَ للصلاةِ... يستمعونَ

(١) رواه أبو داود (٥٢٦) كتاب: الصلاة، باب: ما يقول إذا سمع المؤذن، وصححه الألباني.

القرآنَ مِمَّنْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ القُرآنَ بِقُدْرَتِهِ وحِفْظِهِ ولُطْفِهِ ورَحْمَتِهِ. . في صَدْرِه، فأصبحَ يعيشُ في داخلِه، ويعيشُ هُوَ معَ القُرآن. . . القُرآنُ خُلُقُه وقراءَتُه، والقرآنُ مَنْهَجُهُ ومِعْراجُه، ثُمَّ هُوَ الآن يُخْرِجُهُ مِنْ صَدْرِه إليهم، وهُو وإيَّاهُم أمامَ اللَّهِ تَعالَى في صفوفِ الصلاةِ. .

فأيُّ «حيَّ على الصلاةِ. حيَّ على الفَلاح» تِلْك؟ وأيُّ مُجِيبينَ أُولئك؟ وقائلُهم يَتذكَّرُ - بَعْدَ وفاتِهِ ﷺ - ويقولُ: «**ولقَدْ رَأَيْتُنا وما يَتخلَّفُ عنها إلا مُنافِقٌ مَعْلومُ النّفاقِ. . .**»[1].

- «**اللَّهُ أَكْبرْ اللَّهُ أكبرْ، لا إله إلا اللَّه**» كَمْ تكرَّرَتْ وتَتكرَّرُ هذهِ الكلماتُ على مسامِعِنَا طِوالَ حياتِنا، ولكنَّنِي اليومَ أَسْتمعُ لَها مِنْ مَقْعَدِي في هذا المسجدِ، وقَلْبي لا يعرفُ مِنْ هذا المنادي إلا الصوتَ ومَعْناه، ولا يَشْعُرُ إلا بأَنَّهُ دعوةٌ مِن اللَّهِ لي ولإِخْواني المُسْلِمين، أَنْ هَلمُّوا إلى هذا المسجدِ. . هَلمُّوا إلى مَساجدِكُم حَيْثُما كُنْتُم، مُؤْمنين بها، مُتَفكِّرينَ في عَظَمتِها، مُحْسِنين في الاستماع لَها، والتَّجَاوب مَعَها، ذاكرينَ فضلَ اللَّهِ عليكُم عامةً، وفَضْلَهُ عليكم بهذا النبيِّ ﷺ خاصةً، مُخْلِصينَ لهُ بالدُّعاءِ. . فاللَّهُ لَنْ يَرُدَّ دُعاءَ أُمَّةٍ بِأَكْمَلِها، تَرْفَعُهُ لِرَجُلٍ واحدٍ فَحَسْبُ، وذَلكَ في كلِّ لحظةٍ[2] بأَنْ

---

(١) رواه مسلم (٦٥٤) كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: صلاة الجماعة من سنن الهدى، والقائل هو ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) «في كل لحظة» إشارة إلى المواقع التي يرفع فيها الأذان على هذه الأرض من مساجد وغيرها والتي لو حسبت مع حركة الليل والنهار لوجد أنه في كل لحظة يذكر اسم رسول اللَّه ﷺ ويذكر له الدعاء خلف الأذان، إذ ما تتحرك الشمس من هنا إلا وتتحرك إلى الآخرين من بعدهم، وهكذا حتى تمسح الأرض، ولا تزال في ساحتها تلك إلى أن تستأذن فلا يؤذن لها، فهل مثل هذا الرفع بالذكر رفعٌ!.

يَجْعلَ نبيَّها الأَرْفعَ بينَ الخَلائقِ جميعاً، يوم يَجْمعُ اللَّهُ الخلائقَ جميعاً.

يا ربِّ: أيَّ شيءٍ أَرْفَعُهُ لَكَ - يا رفيعَ الدَّرَجَاتِ ذَا الطَّوْلِ - بَعْدَ رَفْعِ هذا الأذانِ... تُوصِلُهُ عنِّي لِرَسُولِكَ وحبيبِكَ محمدٍ ﷺ، كَعُنْوانِ صِلةٍ ووَفاءٍ يَبْقَى لِي عندَه، بِه أحُوزُ رِضاك، وبِه أَقْتربُ مِنْه، وبه أحوزُ شفاعتَهُ ﷺ؟

هاكَ هذا الدعاءَ الذي يقولُ فيهِ النبيُّ ﷺ: «**مَنْ قالَ حينَ يَسْمعُ النِّداءَ: اللَّهمَّ ربَّ هذهِ الدعوةِ التَّامةِ، والصلاةِ القائِمةِ، آتِ محمداً الوَسيلةَ والفَضِيلةَ، وابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً الذي وعدْتَهُ، حَلَّتْ لهُ شَفاعتِي يومَ القِيامةِ...**»[(١)].

أَيليقُ بي أَنْ أقولَها اليومَ -كما تعوَّدْتُ مِنْ قَبْلُ- ذاهلًا عَنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلينا برسوله محمدٍ ﷺ؟! ذاهلًا عَن خصائصِ المصطفى ﷺ؟! ذاهلًا عَن المَقامِ المحمودِ الذي يرجوهُ رسول اللَّه ﷺ..؟!

ألستُ أُحِبُّهُ أَكْثَرَ مِن نَفْسِي..؟ إذاً، فَلْيَكُنْ إِخْلاصِي في دُعائِي لَهُ ﷺ أَكْثرَ مِن إخلاصي في دعائي لِنَفْسي..

أَلَيْسَ المَقامُ الذي أَدْعو اللَّهَ لَهُ بِهِ أَعْلَى وأَعْظَمَ مِن المقام الذي أَتمنَّاه لنَفْسي ولِكلِّ الخَلْقِ؟ إذاً، فَلْيَكُنِ الإخلاصُ في دُعائي لَهُ أَعْلى مِنْ كُلِّ إخلاصٍ.

وهَلْ مِن مقامٍ أَرْتَقيهِ لأُحَقِّقَ ذلكَ الإخلاصَ والصدقَ في الدعاءِ إلا أَنْ أدعوكَ يا ربِّ لِعَبْدِكَ ورسولِكَ محمدٍ ﷺ كأَنَّني أراكَ سُبْحانَكَ..

---

(١) رواه البخاري (٥٨٩) كتاب: الأذان، باب: الدعاء عند الأذان، من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

فَيَا أُمَّة محمدٍ ﷺ أَحْسِني إِذْ تَدْعِينَ بِهذا الدعاءِ لِأَعْظَمِ الناسِ شَفَقةً عَلَيْكِ ﷺ . . .

ادْعِي لهُ وكأنكِ تَرينَ اللَّهَ وأنتِ ترفعينَ لهُ: «**اللَّهمَّ ربَّ هذهِ الدعوةِ التَّامَّة، والصَّلاةِ القائمةِ، آتِ مُحمَّداً الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعثهُ مقاماً محموداً الذي وعدتهُ**»(١).

أَسْتَشْعِرُ اليوم كلماتِ الأذانِ وفيها القربُ الجَسَدِيُّ، والتَّجاوُرُ الحِسِّيُّ، فيها التجاذبُ النَّفْسِيُّ. . . فيها التاريخُ الحاضرُ، في البقعةِ التي انطلقَ منها أَوَّلَ ما انطلقَ، وعَلا على الوجودِ أوَّلَ ما علا. . . كلمات عليها خَتْمُ الأذانِ الأَوَّلِ - أَذانِ بلالٍ - . . .

أستمعُ لها اليوم مُستَشْعِرًا - ولأول مرة - أنَّ كُلَّ عبارةٍ من عباراتِ الأذانِ أمانةٌ ورسالةٌ يجبُ أن أحملَهَا للخلقِ، كما حَمَلَهَا أشرفُ الخلقِ ﷺ إلى النَّاس كافة، أعِدِ العبارةَ - أيها المستمع للأذان - وسترى أنَّ كلَّ فقرةٍ من فقراتِ الأذانِ أمانةٌ ورسالةٌ لا يَسَعُكَ إلا تبليغها ما دُمتَ على طريقةِ من قالَ اللهُ لهُ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

أَسْتمِعُ إليها اليومَ مِن الْمَسْجدِ نفسِهِ، مِن مسجدِهِ ﷺ، فلا حُجُبَ، ولا حواجزَ دونَ الأذانِ اليومَ، إلا موتُ رسولِ اللَّه ﷺ. . .

نَعَمْ، رُبَّما يكونُ بعضُ المُسْتمعِينَ المُؤمنينَ مِنْ بَعِيدٍ، أَعْظَمَ حُضوراً مِن بَعْضِ المستمعينَ من مسجدِهِ الآنَ.

---

(١) رواه البخاري (٥٨٩)، كتاب: الأذان، باب الدعاء عند النداء.

أَقُولُ: نَعَمْ، وهذا راجعٌ لليقينِ... لكِنْ أيكونُ حضورُ هذا المُوْقِنِ مِن بَعيدٍ كَحُضورِهِ إذا كانَ بِجوَارِهِ ﷺ، وفي مسجدِهِ؟!

لَا غرابةَ أنْ يكونَ البعضُ بجوارهِ أو فِي مسجدهِ ولَا يشعرُ بالقُربِ معَ الحبِّ معَ أنَّ الأصلَ في أمتهِ كلِّهم محبتهُ، لكنْ إنْ كانَ اللَّهُ قالَ فِي أناسٍ كَانوا معَ الأوَّلين ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أفلَا يكون في الآخِرينَ منهُم رجالٌ، ولذا يبقى ممَّن بجوارِ مَنْ لا يشعرُ بالقُربِ معَ الحبِّ، كيفَ لَا، وقَد اسْتمعَ إليه في عصرِهِ - مِنْ بِلالٍ نَفْسِهِ- مَنِ استمعَ، ولَمْ تَتحرَّكْ لَهُمْ شَعْرَةُ خُشوعٍ ولا إيمانٍ... وقَدْ قالَ اللَّهُ فِيهم: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨] وقال: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]. إنَّما الحديثُ عَنْكَ - أنتَ أيُّها المؤمنُ - وأنتَ في مسجدِهِ، وهو ﷺ مجاورٌ لَكَ..

مَتى استوى الحضورُ والغَيْبةُ؟ متى استوى الغيبُ والشهادةُ..؟!

مَتى استوى الجارُ الجُنُبُ، والجارُ المُلَاصِقُ؟!

متى استوى مَنْ رأى، بِمَنْ سَمِعَ ؟!

واللَّهِ، لَوْ كُنْتُ شاعراً.. لَصَبَبْتُ مِن الشِّعْرِ على هذا الوَرَقِ ما أَسْكُبُهُ مِن قَطَرَاتِ العَيْنِ، وأَخُطُّهُ بِسِنَانِ القَلَمِ، مَمْزُوجاً بِقِطَعٍ مِنَ الْفُؤادِ مُذَابةٍ... عَلَّ أُمَّتي تُدْرِكُ ما أُريدُ، حينَ تَرى حُشَاشَةَ فُؤادٍ على وَرَقٍ، تَنْبِضُ بها رُوحُ المُحِبِّ... فَتَدُبُّ مِنْها الحياةُ لِكُلِّ مَنْ نَظَرَ في أَحْرُفِها... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

العُيون الساقيةُ لـ:
«طَعْمُ الإيمانِ به من أذانِ مسجدِه ﷺ»

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

عَن عبدِ اللَّهِ بنِ زيدٍ رضي الله عنه قالَ: لمَّا أَمرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بالنَّاقوسِ يُعْمَلُ لِيَضْرِبَ به للناسِ لِجَمْعِ الصلاةِ، طافَ بي - وأنا نائم - رَجُلٌ يَحملُ ناقوساً في يدِهِ، فقلْتُ: يا عبدَ اللَّه، أَتبيعُ الناقوسَ؟ قالَ: «وما تَصْنعُ بِه؟» فقلْتُ: نَدْعو به إلى الصلاةِ. قال: «أَفلا أَدُلُّكَ على ما هُوَ خَيرٌ مِن ذَلكَ»؟ فقلْتُ له: بلى، قال: تقول: «اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبرُ، اللَّهُ أكبرُ، اللَّهُ أكبرُ، أشهدُ أَن لا إلهَ إلا اللَّه، أَشْهدُ أن لا إله إلا اللَّه، أشهدُ أَنَّ محمداً رسولُ اللَّه، أشهدُ أَنَّ محمداً رسولُ اللَّه»، - فَذَكَر الأذانَ كاملًا إلى أَنْ قال: «لا إله إلا اللَّه» قال: ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عنِّي غيرَ بعيدٍ، ثُم قال: «ثُم تقولُ إِذا أَقَمْتَ: اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبرُ، أَشْهدُ أَن لا إله إلا اللَّه، أشهد أَنَّ محمداً رسولُ اللَّه، حيَّ على الصلاةِ حيَّ على الفلاح، قَدْ قامَت الصلاةُ قد قامَت الصلاة، اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبرُ، لا إله إلا اللَّه» فلمَّا أَصْبَحْتُ: أَتَيْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُه بِما رَأَيْتُ، فقال: «**إِنَّها لَرُؤْيا حَقٍّ إِنْ شاءَ اللَّهُ، فَقُمْ معَ بلالٍ فَأَلْقِ عليهِ ما رأيْتَ، فَلْيُؤَذِّنْ بِه، فإِنَّه أَنْدَى صوتاً منك**»، فقُمْتُ معَ بلالٍ، فجعلْتُ أُلقِيه عليه ويُؤَذِّنُ بِه، قالَ: فسَمِعَ ذلك عمرُ بنُ الخطابِ وهُوَ في بيتِه، فخرجَ يجرُّ رداءَهُ يقولُ: والذي بعثَكَ بالحقِ يا رسولَ اللَّهِ، لقَدْ رأيْتُ مِثْلَ ما رَأى، فقالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**فَلِلَّهِ الْحَمْدُ**»[1].

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٩) قال الألباني: حسن صحيح.

عَنْ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سمِعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**إذا سمعتُم المؤذِّنَ فقُولُوا مِثْلَ ما يقولُ، ثُمَّ صَلُّوا عليَّ، فإنَّه مَنْ صلَّى عليَّ صلاةً صلَّى اللَّهُ عليه بها عَشْراً، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ ليَ الوسيلةَ، فإنها مَنْزِلةٌ في الجنةِ لا تَنْبَغي إلَّا لعبدٍ من عبادِ اللَّهِ، وأَرْجُو أَنْ أكونَ أنا هو، فمَنْ سأَلَ لِيَ الوسيلةَ حَلَّتْ لَهُ الشفاعَةُ**»(١).

عَنْ سهلِ بن سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**ثِنْتانِ لا تُرَدَّانِ أَوْ قَلَّمَا تُرَدَّان: الدعاءُ عِندَ النداءِ، وعندَ البَأْسِ حينَ يَلْحَمُ بعضُهُم بعضاً**»(٢).

* * *

(١) رواه مسلم (٣٨٤).

(٢) رواه أبو داود (٢٥٤٠) وصححه الألباني.

اُدْخُـل الرَّوضَـةَ

سيعرفُ الناسُ إذا دَخلُوا الْجنَّةَ، أيَّ مكانٍ مُمَيزٍ في جنةِ اللَّهِ دَخلُوا حينَ دَخلُوا الرَّوْضةَ - يومَ كانُوا في الدنيا - وصَلَّوا فيها، وقَامُوا، ورَكَعُوا، وسَجَدُوا.

أَفَيَهَبُ اللَّهُ لحبيبه محمدٍ ﷺ رَوْضةً مِن عامَّةِ رِياضِ الجنةِ، وكلُّ رياضِ الجنةِ كِرَامٌ؟!

إنَّه تخصيصٌ بالهديَّةِ والمُهدَىٰ لهُ.. فالهديةُ هنا مِنَ اللَّهِ.. والمُهدَى لهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ، والهديةُ هي: هذهِ الروضةُ..!

فيا ربِّ، لا تَجعلْ نَصيبي مِن الجنَّةِ دُخولي هذه الروضةَ في الدنيا فَحَسْبُ..

يا ربِّ، إذا كانَتْ هذهِ الروضةُ ما بينَ البيتِ والمِنْبَرِ، فأنا يا ربِّ على طريقةِ صاحبِها ما بينَ الولادةِ حتى الممات، لا أحيدُ عَنْ ذلك حتى أَصِلَ إليهِ ﷺ بِإِذْنِكَ وفَضْلِكَ.. لا أحيدُ عنْ ذلكَ لَا فيمَا يخصُّ المنبرَ وهُو رمزُ العبادةِ، ولَا فِيما يخصُّ الحياةَ ورمزُها البيتُ... فأنَا علَى طريقتهِ فِي صلاتِي ونُسكي ومَحيايَ ومَماتِي.

يا ربِّ، لمْ أَدْخُلْ هذه الروضةَ إلا بإِذْنِكَ وفَضْلِكَ، ولَنْ أدخلَ تلكَ إلا برحمتِكَ، فكَما أَدْخَلْتَني هذه - بفضلِكَ - أَدْخِلْني تلكَ برحمتِكَ..

يا نَفْسُ، هذه روضةٌ حقيقِيَّةٌ مِن رياضِ جنَّةِ اللَّهِ العُظْمى... ما بَيْنَكِ وبينَ رؤيةِ حقيقتِها وما فيها إلا حجابُ اليقينِ، ولو كُشِفَ الحجابُ لرأَيْتِ الأنهارَ

والأشْجارَ والثِّمارَ وأرضَ المِسْكِ والزَّعْفَرانِ، ورأيْتِ الملائكةَ المكرمينَ... فدَعِي الدنيا جانباً ولو لِفَتْرةِ بقائِكِ هذه اللحظاتِ في هذه الروضةِ الحقَّةِ..

يا نَفْسُ: «**ما بَيْنَ بَيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**»(١).. أو ليستِ البُقْعةُ التي كان يُراوِحُ فيها رسولُ اللَّهِ ﷺ؟ إنها خيرُ بُقْعةٍ غَرَسَ فيها الغارسونَ في عُمُرِ هذه الأرضِ، ومِن هذه البقعةِ أُخِذَتِ الحبوبُ والفَسائلُ لغَرْسِ الأرضِ كلِّها، لغراسٍ باقيةٍ في الدنيا والآخرة.

يا قَلْبُ، تأمَّلِ النسبةَ في قولِه: «**بَيْتي، مِنْبَري**» والصلةَ ما بينَ النِّسْبَتَيْنِ، إنهما له ﷺ فهذا بَيْتي أنا، وهذا مِنْبري أنا، وهي على كوثرِي أنا، واللَّهُ يقولُ له: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]. والنبيُّ ﷺ يقولُ: «**قَوائمُ مِنْبري رَوَاتِبُ في الجنةِ**...»(٢).

نَعَمْ، إنَّ المساجدَ خَيْرُ بقاعِ اللَّهِ في أرضِ اللَّهِ، وفي كلِّ المساجدِ خيرٌ عظيمٌ، وخيرُها المسجدُ الحرامُ... ولكِنْ، هَلْ في مسجدٍ من المساجدِ روضةٌ إلا هذه الروضةُ؟ فَلْتَشرُفِ الأَرْضُ كلُّها بهذهِ الروضةِ.

سيَبْقى الحَجَرُ الأسودُ - على صِغَرِ حَجْمِه - حَجَراً مُباركاً مِن أحجارِ الجنةِ.. ولكِنْ ستَبْقى الروضةُ بأَكْمَلِها مِن الجنةِ...

سيبقى الحَجَرُ الأسودُ مُنْذُ أَنْ كانَ البيتُ لجميعِ مَنْ آمن مِن المؤمنينَ،

---

(١) رواه البخاري (١١٣٧) ومسلم (١٣٩٠).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٢٨٩) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، وكذا صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٥٠).

وستبقى الروضةُ خاصةً برسول اللَّه ﷺ وصحابته ﷺ وخيرِ أمةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ..

سيبقى نصيبُ الحَجَرِ قُبْلةً ولَمْسةً وإشارةً، ويبقى نصيبُ الروضةِ أجواء، وهواء، ووَقْفةً وسَجْدةً وجَلْسةً..

أيُّ شُعورٍ يَخْتَلِجُ في قَلْبِ مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ فأصبحَ الآن ما بينَ البيتِ والمنبرِ؟ ورأى نفسَهُ وإذا بهِ بجوارِ رسولِ اللَّهِ ﷺ! نَظرَ فرأى حدودَ بدنِهِ مِنْ كلِّ جِهَةٍ هيَ حُدودُ روضةٍ مِن رياضِ الجنةِ! ورأى سماءَ المكانِ مِن فَوقِه هيَ السماءُ التي كانَ يَتَنزَّلُ بها جِبْريلُ عليه السلام.. رأى كلَّ ذلكَ، ورأى أنه خارجٌ مِن هذه الروضةِ بَعْدَ قليلٍ... فماذا يَمْلِكُ هذا إلا أن يلحَّ في دعائِه، ويَشْتَدَّ في ضَراعتِهِ والتِجائِه إلى مَنْ بِيدِه الدنيا والآخرةُ، والجنةُ والنارُ، وهو يَهْتِفُ بِربِّهِ مِن أعماقِ الأعماقِ، يا ربِّ أسألُكَ الجنةَ... الجنةَ يا ربِّ... يا ربِّ الجنةَ، وأعوذُ بِكَ مِن النارِ...

اللَّهُ أكبرُ! أيُّ عُذْرٍ لِمَنْ أَدْخَلَه اللَّهُ الروضةَ في الدنيا بِرِجْلَيْه، ثُمَّ هُو لَمْ يَدْخُلْها في الآخرةِ؟!

يا مُقلبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلوبَنا على دينِك، اللَّهمَّ إنا نسألُكَ الجنةَ ونعوذُ بكَ مِن النارِ..

يا ربِّ، أيَّ مَبْلغٍ بَلَّغْتَنا حينَ أَدْخلْتَنا الجنةَ ونحنُ على الأرضِ..؟

يا ربِّ، إلى أيِّ مَقامٍ رَفَعْتَنا حينَ خَصَصْتَنا بِبُقْعةٍ أَكرمْتَ بها رسولَكَ الكريمَ ﷺ في الجنةِ..؟

فاللَّهمَّ كَما خَصَصْتَنا بذلكَ هُنا، فارْزُقْنا زيارتَه في مَقامِهِ الخاصِّ في

الجنةِ، ارْزُقنا يا ربِّ مُرافَقَتَه فيها..

يا ربِّ، لَكَأَنَّ اليقينَ تحوَّلَ هُنا مِن شعورٍ إلى عَيانٍ، وتَحوَّلَ الجزاءُ مِن مَوْعودٍ إلى مَقْبوضٍ..

فأنا أَدعوكَ يا ربِّ وكأَنَّني أراكَ سبحانَكَ في علىائِكَ، وكأنني أرى رسولَكَ ﷺ إِذْ أنا بجوارِهِ الآن، وفي روضته هذه التي هي روضته في الجنةِ.. فأنْتَ أنْتَ سبحانَكَ الذي تقولُ لِأَهْلِ الجنةِ: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦].

وتقولُ لَهُم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

فاللَّهمَّ إني أسألُكَ يا ربِّ النظرَ إلى وجهِكَ الكريمِ برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ..

يا ربِّ، لَأَبْقَينَّ على العهدِ بَعْدَ خُروجِي اليومَ - بِإِذْنِكَ - على العودةِ إليها بعد هذه الحياةِ..

يا ربِّ، لَأُصْبِحَنَّ وأُمْسِيَنَّ ما حَييتُ وأنا أدعوكَ بالجنةِ دُعاءَ المُشْفِقِ على نَفْسِهِ أَنْ تَفُوتَه الجنةُ، كما كان يدعوكَ رسولُ اللَّهِ ﷺ سبعاً في كلِّ يومٍ[1].

أَدعوكَ بها وكأَنَّني أراها بَعْدَ أَنْ دَخَلْتُها اليومَ..

---

(١) في الحديث: «**ما استجار عبد من النار سبع مرات في يوم إلا قالت النار: يا رب، إن عبدك فلاناً قد استجارك مني فأجره، ولا يسأل اللَّه عبد الجنة في يوم سبع مرات إلا قالت الجنة: يا رب، إن عبدك فلاناً سألني فأدخله الجنة**». رواه أبو يعلى رقم (٦١٩٢) من حديث أبي هريرة، قال ابن القيم في «حادي الأرواح» (ص٦٥): إسناده على شرط الصحيحين، وكذا الألباني، انظر «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٥٠٦).

أقولُها والإحسانُ إِذْ أَدْعو بها هُوَ مَشْهَـدِي..

فاللَّهمَّ إني أسألُكَ الجنةَ..

اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ الجَنَّةَ..

اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ الجَنَّةَ..

اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ الجَنَّةَ..

اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ الجَنَّةَ..

اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ الجَنَّةَ..

اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ الجَنَّةَ..

اللَّهمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ منَ النَّارِ..

اللَّهمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ منَ النَّارِ..

اللَّهمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ منَ النَّارِ..

اللَّهمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ منَ النَّارِ..

اللَّهمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ منَ النَّارِ..

اللَّهمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ منَ النَّارِ..

اللَّهمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ منَ النَّارِ..

يا ربِّ، أيُّ شيءٍ يَتَعزَّى به المؤمنونَ في دُنْياهم إلى أَنْ يَدْخُلوا الجنةَ – حقيقةً – أَعظمُ مِن حُسْنِ الظنِّ بِكَ والدُّعاءِ بها..؟!

يا ربِّ، كَمْ بينَنا وبينَ الجنَّةِ ..؟!

مَوْتَةٌ كأنَّها إِغْفَاءَةٌ. . . ثُمَّ نَدْخُلُ؟! نَزْعَةٌ لِلرُّوحِ كَأَنَّها قَرْصَةُ نَمْلَةٍ . . . ثُمَّ نَدْخلُ. . ؟!

يا ربِّ، فاجْعَلْها شَهادةً في سبيلِك مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ بعدَ طولِ حياةٍ على طاعتِكَ مع العافيةِ. . .

* * *

العيونُ الساقيةُ لـ: «اُدْخُـل الرَّوْضَـة»

قالَ تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

عَن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**ما بَيْنَ بَيْتي ومِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِن رِياضِ الجَنَّةِ، ومِنْبَرِي على حَوْضِي**»(١).

❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري (١١٣٨)، ومسلم (١٣٩١).

الصلاةُ على الطِّفْلِ... يَرْحَمُكُم اللَّهُ

«**الصلاةُ على الطِّفلِ... يَرْحَمُكُم اللَّهُ**» بهذا هَتَفَ المُنادِي في الحرمِ المدنيِّ بعدَ صلاةِ الصُّبْح..

يا لَه مِن طِفْلٍ[1] لَمْ يَكْتَمِلْ حتَّى يَشِبَّ ويَأْخُذَ مِن مُتَع الدنيا كما يَأخذُ بَقِيةُ الأطفالِ!

إنَّهُ طِفْلُ الاخْتِبَارِ، فَبعْدَ ما أحبَّتْهُ قُلوبُ أهلهِ وتعلَّقَتْ به... نُزِعَ منهم بالموتِ نَزْعاً!

يا لَهُ مِن طفلٍ يُنادي على الأطفالِ: بُلوغُ الشبابِ ليسَ مَضْموناً!

طفلٌ يُنادي على الأحياءِ - شيباً وشباباً: اِحْمَدُوا اللَّه، فَلقدْ تعدَّيْتُم مَرْحلةَ الطفولةِ، إِذْ لَمْ يتعدَّها الكثيرُ مِنْ أَمْثالي!

طفلٌ: رَحَلَ قَبْلَ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ سِجِلُّ التَّكْليفِ، ويَجْرِيَ لهُ أَوْ عليهِ قَلَمُ التَّسْجيلِ..!

طفلٌ: سَلِمَ مِن فِتَنِ الزمانِ، وجاهليَّاتِ هذا القَرْنِ..

لكِنْ، كيفَ كانَتْ معاناةُ هذا الطفلِ الصغيرِ، وقدْ نُزِعتْ البارحةَ رُوحُه مِن كُلِّ عُضْوٍ مِن أعضائِهِ نَزْعاً..؟!

كيفَ عانَتْ أمُّهُ المُبْتلاةُ، وكيفَ هانَتْ مُصيبتُها حينَ علمَتْ أنَّها قدَّمَتْ

---

(١) تذكَّر أنَّ كل بداية سطر مكبرة في بداية كل سطر جديد إنما تعني فائدة جديدة، وفكرة غير مكررة، فلا تشغلنك الصياغة الأدبية عن الأفكار العلمية والمنازل الإيمانية.

وِقايتَها مِن النارِ، وهي في الدنيا ؟

يا لَأبيهِ المُحْتَسِبِ وقد قَدَّمَ ثمَنَ بيتِ الحَمْدِ حينَ حَمِدَ اللَّهَ واسْتَرْجَعَ؟

فيا ربِّ، كَمْ مِن مُعذَّبٍ في الآخرةِ سيقولُ: يا لَيْتني مِتُّ وأنا في عُمُرِهِ، مِتُّ قَبْلَ أَنْ يُفْتَحَ لي سِجلُّ التكليفِ.. أيُّ إِرْثٍ وَرِثْتُه حينَ كانَ عاقبةُ تفريطِ أُنْسٍ ما بعدَ التكليف عذابَ القبرِ وشِدَّتَه ؟

أيُّ غَيْبٍ عظيمٍ هذا الذي يُخْفي عنِ الوالدينِ أَجَلَ طِفْلِهِما، وموتِ نَفْسِهما..؟!

يالَها مِن أُمَّةٍ عظيمةٍ هذه التي تقفُ الآن مُصْطَفةً في الحرمِ للصلاةِ على طفلٍ ميتٍ؟

اِحْمِلُوه، وادْفِنوه ولا تَجْزَعوا... فخليلُ الرّحمنِ إبراهيمُ بانتظارِه؟!

إيه... أيُّ أيامٍ عظيمةٍ ستمرُّ على هذا الطفلِ حتى يحتاجَ أَنْ يُصلَّى عليه؟

أيُّ دارٍ عظيمةٍ هذهِ التي يحتاجُ فيها الطفلُ الصغيرُ للصلاةِ عليه؟

ألا يكفي أَنَّ وراءَهُ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦٓ﴾ [المزمل: ١٧- ١٨].

ألا يكفي أنَّ مِنْها ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

أيُّها المُسْتَكْثِرُ على الطفل أَنْ يتأثَّرَ بما سيمرُّ عليه، ألا ترى كيف يتأثَّرُ الأطفالُ لو غضب الأبُ في البيتِ ولَوْ لَمْ يكُنِ الغَضبُ عليهِم مباشرة؟ -

ولِلَّهِ المَثَلُ الأَعْلَى - كيفَ والخبرُ الصحيحُ يذكرُ عن الأنبياءِ اعتذارَهم عن الشفاعةِ معَ بيانِ السَّبب بِقَوْلِهم: «**إنَّ ربي قَدْ غَضِبَ اليومَ غَضَباً لَمْ يَغْضبْ قَبْلَه مِثْلَهُ، ولَنْ يَغْضَبَ بعدَه مِثْلَهُ**»(١).

ثُمَّ أيُّ حاجةٍ لنا نحن المصلين مِن الأَجْرِ لذلك اليومِ العظيمِ حتى نجتمعَ على الصلاةِ على طفلٍ طاهرٍ مُطَهَّرٍ؟

كَمْ أَشْعُرُ بالتَّفْريطِ إِذْ صَلَّيْتُ مِراراً وتَكْراراً على أطفالٍ لَمْ يَبْلُغوا، وأنا في غَفْلةٍ عَن حاجتِهم وحاجَتِي، بِحُجَّةِ أَنَّهم لا يحتاجونَ شَفاعتي...؟

كَيْفَ لَمْ يَحْتاجوا وقَدْ شُرِعَ الدُّعاءُ لهم ؟

هَبْ أَنَّهم لَمْ يحتاجوا، أَفلا يحتاجُ أهلُهم التعزيةَ بالصلاةِ على صغارِهم ودَفْنِهم؟

هَبْ أَنَّهم لَمْ يحتاجوا، أفلا نَحتاجُ نحنُ أَجْرَ هذهِ الصلاةِ، ليومٍ عظيمٍ إِذْ جَعَلَ اللَّهُ في الصلاةِ على الشخصِ الواحدِ ودَفْنِه جِبالَ الحسناتِ؟!

أفلا نحتاجُ أن نُشْهِدَ ربَّنا على عُبوديَّتِنا بِمَوْتِ طفلٍ مِن أطفالِ أُمَّتِنا العَظيمةِ؟

أفلا نحتاجُ أَنْ نُريَ رَبَّنا - سبحانَهُ - كَيْفَ نَتودَّدُ إليه حتى في مصائِبنا، ونَترضَّاهُ في أَتْراحنا كَما في أَفْراحنا، في صغارِنا كَما في كبارِنا، في مواليدِنا كما في عجائزنا؟

---

(١) رواه البخاري (٤٤٣٥) كتاب: التفسير، باب: سورة بني إسرائيل (الإسراء)، ومسلم (١٩٤) كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كلُّ هذه الحاجيَّاتِ مجتمعةً، مع توديع هذهِ الرُّوح الحبيبةِ، يَدْعونا لصَلاةِ ودَاع، وصَلاةِ مُودِّع، صلاةِ مَنْ يَشْهدُ الطفلَ الصغيرَ مُسَجَّىً أَمَامَهُ، صلاةِ مَنْ كأنَّهُ يَرى أَرْحَم الراحمينَ يَنْظُرُ إليه مِن فَوْقِه ويَسْمَعُ دعاءَه، ويرى حُزْنَ قَلْبِه على الصغيرِ، ويرى صِدْقَ قلبهِ معَ ربِّه العليِّ الكبيرِ. كيفَ وصلاةُ الجِنازةِ في مَسْجدِه ﷺ بألف صلاةِ جِنازةٍ فيما سِواهُ.. وصلاةِ جِنازةٍ في المسجدِ الحَرامِ بمائةِ ألفِ صلاةِ جنازةٍ فيما سِواهُ.. ومِصْداقُ ذلك في قولِه ﷺ: «.... **وصلاةٌ في مسجدِي أَفْضلُ من أَلْفِ صلاةٍ فيما سِواهُ من المَساجِدِ إلا المسجدَ الحَرامَ**»(١).

والتَّنْكِيرُ هنا يَشْمَلُ صلاةَ الفريضةِ والنَّفْلِ وصَلاةَ الجنازةِ، وكُلَّ ما يُسَمَّى شَرْعاً «صلاة».. أليسَتْ هذِه الصلواتُ المُسْتَمِرَّةُ على الجَنائزِ بعدَ الفرائضِ أَحْسنَ غنيمةٍ لِهؤلاءِ القادمينَ..؟!

الصلاةُ على الطفلِ إنَّهُ نِداءٌ مَسْمُوعٌ، لكِنْ ثَمَّةَ نِداءٌ يُنادي بصوتٍ أعلى منه وأَعَمُّ، في كلِّ وقتٍ وحينٍ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ونداءٌ آخرَ يقولُ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

أرأيتم أيَّ بلاغٍ بلَّغَكُم هذا الطفلُ إيَّاه، هَلْ وَصلَتْكُم الرسالةُ جيداً..؟!

هل عرَفْتُم - جيداً - مَن المَعْنيُّ مِن بعدِه..؟!

الصلاةُ على الرَّجُلِ.. الصلاةُ على المرأةِ.. الصلاةُ على الطفلِ.. يَرْحمُكُم اللَّهُ، إنها دَعْوةٌ للصلاةِ، ونحنُ المُسْتجيبونَ، نحنُ الدَّاعون، وربُّنا السميعُ المُجيبُ..

---

(١) تقدم تخريجه.

فيَا أخانا الميتَ، والميتَةَ، ويا ولدَنا: خُذْهُ دُعاءً، صادقاً، خَالِصاً.. خُذْهُ خَاشعاً، ضَارِعاً إلى اللَّهِ تعالى...

يا لَها مِن دَعَواتٍ شَرَعَها لَنا رسولُ اللَّهِ ﷺ كأنها الدواءُ والغِذاءُ، لِكلِّ مَن وُضِعَ ليُصَلَّى عليه..

يا لَها مِن دعواتٍ لَوْ تَفَكَّرَ الناسُ فيها لوجدُوا أَنَّ فيها غُنْيةً لهذا الميتِ عَن كلِّ مَطلوبٍ آخرَ، وغُنْيةً للباقينَ كَذلِكَ.

إنَّهُ النذيرُ يَصْرُخُ بِكُم على العالمينَ، في أَعزِّ عزيزٍ عندَكُم.. إنه النذيرُ يُبَلِّغُكم بأنَّ الخَطرَ عَلَيْكُم، على صِغارِكم، فأيُّ نذيرٍ أَبْلَغُ، وأَخْطرُ، وأَعْلَى، وأَعَمُّ، وأَطَمُّ، وأَتَمُّ مِن هذا النذيرِ..؟!

فهَلْ لَنا يا ربَّنا أن نُفَضِّلَ على اختيارِكَ اختيارَ أَحدٍ..؟! اللَّهم إلا الصَّبْرَ على بلوائِكَ والرِّضا بقضائِكَ، وحُسْنَ الظنِّ بِك، وانتظارَ لقاءِ الراحلينَ مِنَّا صِغاراً وكِباراً في البرزخ ويومَ لقائِك، في ظلِّ عَرْشِكَ الكريمِ، وفي دارِك دارِ النعيمِ بِفَضْلِكَ ورَحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ..

* * *

العيونُ الساقيةُ لـ:
«الصلاةُ على الطفلِ.. يَرْحَمُكم اللَّه»

قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١ - ٢].

عَن أبي موسى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «**إذا ماتَ وَلدُ العَبْدِ، قالَ اللَّه لملائِكَتِه: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي! فيَقُولونَ: نَعَمْ، فيقولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرةَ فُؤادِه! فيقولونَ: نَعمْ، فيقولُ: ماذا قالَ عبدِي؟ فيقولونَ: حَمِدَك واسْتَرْجَعَ، فيقولُ اللَّهُ: أُبْنُوا لِعَبْدي بيتاً في الجَنَّةِ وسَمُّوه: بيتَ الحَمْدِ**»[(١)].

عنْ أبي سَعِيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قالَ: قالَ النِّساءُ للنبيِّ ﷺ: غَلَبَنَا عَليكَ الرِّجالُ، فاجْعلْ لَنا يَوْماً مِن نَفْسِكَ، فوعدَهُنَّ يوماً لَقيَهُنَّ فيه، فَوَعَظَهُنَّ وأَمَرهُنَّ فكانَ فيما قالَ لَهُنَّ: «**ما مِنْكُنَّ امرأةٌ تُقَدِّمُ ثلاثةً مِن وَلدها إلا كانَ لَها حِجاباً مِن النار**» فقالَتِ امرأةٌ: واثنين؟ فقال: «**واثنين**»[(٢)].

عَن أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: دَخَلْنا معَ رسولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أبي سَيْفٍ القَيْنِ[(٣)] وكان ظِئْراً[(٤)] لإبراهيمَ عليه السلام، فأَخذَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إبراهيم فقَبَّلَهُ

(١) رواه الترمذي (١٠٢١) وحسنه الألباني.
(٢) رواه البخاري (١٠١) ومسلم (٢٦٣٣).
(٣) القين: الحداد، ويطلق على كل صانع.
(٤) ظئراً: مرضعًا لإبراهيم ولد النبي ﷺ أطلق عليه ذلك لأنه كان زوجًا للمرضعة التي أرضعته...

وشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنا عَلَيْهِ بَعدَ ذلكَ وإبراهيمُ يَجُود بِنَفْسِه، فجعلَتْ عَيْنَا رسولِ اللَّهِ ﷺ تَذْرِفانِ، فقالَ لهُ عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ رضي الله عنه : وأنْتَ يا رسولَ اللَّهِ؟

فقالَ: «**يا ابْنَ عَوْفٍ، إنَّها رحمةٌ**» ثُم أَتْبَعها بِأُخْرَى، فقالَ ﷺ: «**إنَّ العَيْنَ لَتَدْمَعُ، والقَلْبَ يَحْزَنُ، ولا نقولُ إلا مَا يُرْضِي ربَّنا، وإنَّا بِفِرَاقِكَ يا إبراهيمُ لَمَحْزُونونَ**»(١).

قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: «**يُقْرَأُ عَلَى الطِّفْلِ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ لَنَا فَرَطاً وَسَلَفاً وَأَجْراً**»(٢).

* * *

(١) رواه البخاري (١٢٤١) ومسلم (٢٣١٥).
(٢) رواه البخاري معلقاً عن الحسن بصيغة الجزم.

في رَكْبِ نَعْشِ أَخِينا نَمْشِي

أَيْنَ يَهِيمُ الفِكْرُ إذا راحَ الأَخُ يَمْشي على الأرضِ وراءَ أَخِيهِ المَحْمُولِ ميتاً على الرُّؤوسِ، الآنَ...؟

كَمْ يَسْتَتْبِعُ الفِكْرُ مَنازلَ الرُّوح، في رحلةِ الإيابِ والحسابِ العظيمةِ الطويلةِ هذهِ ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦]...؟

أينَ روح أخي هذا الذي بَقِيَ بِلا رُوحٍ؟ أينَ وصلَتِ الآنَ بعدما نُزِعَتْ مِن بَدَنِه...؟

أَهي علَى أبوابِ السمواتِ، أَمْ أنَّها تجاوَزَتْ؟! أَمْ على هذا النَّعْشِ تُرَفْرِف، وتُنَادِينَا بالإسراعِ الآنَ، ونحنُ لا نَسْمَعُ[١]؟

أَيُّها المَاشونَ في مَوْكِبِ نعشِ أخيكم: ما الفارق بَيْنكُم وبينَ أخيكم المحمولِ..؟!

إنَّهـا موعـظةٌ حيَّةٌ، مُتَحـرِّكةٌ، صـادقةٌ، ناطقةٌ يُترْجِمُـها **الحسنُ البَصْرِيُّ** رَحِمَهُ اللهُ تعالَى فيقولُ: «يا لَها مِن مَوْعظةٍ! ما أَبْلَغَها وأَسْرعَ نِسْيانَها! يا لَها مِن موعظةٍ لَوْ وَافَقَتْ مِن القلوبِ حياةً! ثُمَّ قالَ: يا غَفْلةً شاملةً لِلْقومِ، كأنهم يَرَوْنَها في النَّوْمِ، مَيِّتُ غدٍ يَدفِن مَيْتَ اليوم»[٢].

---

(١) هذه الحالات المذكورة قد وردت فيها نصوص وآثار صحيحة.

(٢) العاقبة في ذكر الموت والآخرة، للإمام أبي محمد عبد الحق الإشبيلي، تحقيق الشيخ محمد خضر (ص١٥٣).

أَنْزِلُوهُ... **هَيِّئُوه**... بِسْمِ اللَّهِ وعلَى مِلّةِ رسول اللَّه، اِسْحَبُوه... أَدْخِلُوه مِن رَأْسِه... وَسِّدُوه على جَنْبِه... حُلُّوا عُقَد كَفَنِه... اِفْسَحُوا قليلًا قليلًا عن جانبِ وَجْهِهِ... غَطُّوهُ بالحِجارَةِ في لَحْدِهِ... اُحْثُوا عليه التُّرابَ ثم أهيلوه... خُطُواتٌ سريعةٌ... أَنْفاسٌ سريعةٌ... اُنْفُضُوا أيديَكُمْ مِن تُرابِ أَخِيكم...! وانتهى كلُّ شَيءٍ..

يا أيُّها المُتَحلِّقُون حَوْلَ قبرِ أخيكم: طُوفوا بالفِكْرِ هُنا وهناك.. غُوصوا الآنَ في هذهِ الحُفَر.. تَعمَّقوا بالفكرِ أَكثرَ في حُفْرةِ أخيكم... عَلَّكُم تتصورون أيَّ لحظاتٍ يَمُرُّ بها..؟!

عَلَّ حقيقةَ الحدثِ، تُلامِسُ قلوبَكُمْ، إذا تَصَوَّرَتْ ما يَحْدُثُ الآنَ في هذا الجَدَثِ..

هُنا تَحْديداً قال ﷺ لِمَنْ كانوا مَعَهُ، بعدَما صَلَّوا ودَفَنُوا: «**اِسْتَغْفِرُوا لِأَخيكم وسَلُوا لهُ بالتَّثْبيتِ؛ فإنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ...**»[1].

هِي لِأَخيكمْ لحظاتٌ مِن الدَّارِ الآخرةِ... وهي لكُمْ لحظاتٌ في دارِ الدُّنْيا... وليسَ بينَ الدنيا والآخرةِ إلا هذا الحجابُ مِن الغَيْبِ، وإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: مِن أكوامِ الترابِ..!

هي لأخيكم أَوَّلُ لَحظاتِ الحسابِ..!

وهي مِنْكُم لحظةُ إِمْدادٍ لأخٍ لَمْ تَبْلُغْ بِه الحاجةُ منذُ أن خلقَهُ اللَّهُ تعالى مثلما بلَغَتْ به الآن..

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٢١) كتاب: الجنائز، باب: الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف، وصححه الألباني.

إِنَّ العظمةَ تُخْتَزَلُ كُلُّها في حرفٍ واحدٍ قالَهُ النبيُّ ﷺ: «**الآنَ**» . . . «**فإنَّه الآنَ يُسْأَلُ**» . . !

لَو كَشَفَ يَقينُكُم بَعْضَ الحُجُبِ . . ونَظَرْتُمْ بِعَيْنِ النبيِّ ﷺ أو أَخَذْتُم ما أخبرَ بِه بعِلْم اليقينِ، لَرَأيْتُم أَنَّ السؤالَ قد ابتدَأ «**الآن**» . . . فلا مَجالَ لِتَأجيلِ الدعاءِ لحظةً واحدةً بعدَ «**الآن**» . .

«**الآنَ**» جِدُّوا في الدعاءِ له والاستغفارِ «**الآنَ**» قبلَ أَنْ تُغَادروا قبرَ أخيكم، قبلَ أن تُعَزُّوا أهلَهُ بمَوْتِه . . فهَلْ ستكونُ جِدِّيَّةُ دعائِكُمْ كجِدِّيَّةِ المَوْقِفِ والسُّؤالِ الذي ابتدَأ «**الآنَ**» . . ؟!

أيُّها الجالسونَ حَوْلَ القبرِ بأَبْدانِكم، الغائصونَ بالفكرِ بإيمانِكم مِن خِلال صَحيحِ أخبارِكُم . . لا تَذْهبوا بعيداً في تَصَوُّرِ احْتياجاتِه، تعالَوْا فقَدْ دَلَّنَا المُصطفى ﷺ على حاجتِه بشَيْئَيْن: («**اِسْتغفروا**» **لأخيكم، وسَلُوا له** «**بالتَّثْبيتِ**» . .) .

«**استغفروا**» شَكْوى الذنوبِ هي شَكْواه في قبره . . خَوْفُ العِقَابِ مِن الذنوبِ لِمَن حَضَرَتْهُ الذنوبُ هي نُقْطةُ ضَعْفِه في بَرْزَخِهِ، هذا وهُو غيرُ قادرٍ على الاستغفارِ، فاحْمَدُوا اللَّهَ أَنَّ استغفارَكُم لَهُ ينفعُه وبه يُغْفَرُ له - بإذنِ اللَّهِ - فدونَكم هذا الاستغفارَ فاصْدُقوا فيه . .

أيُّها الجالسونَ هُنا، أُقْرُنوا الاستغفارَ بسُؤالِ التثبيتِ، فلو سَلِمَ صاحبُكم مِن الذنوبِ لم تَنْتهِ حاجتُه . . فثَمَّةَ زلزالٌ مَهُولٌ في القبرِ يَحْدُثُ الآن، إنَّه زِلزالُ الفَتَّانَيْنِ . .

فَمَنْ مِنَّا مَعاشرَ الحضورِ يُقدِّرُ لِصاحِبنا مَوْقِفَهُ؟

كَمْ بينَ نَفْضِ اليَدَيْنِ مِنْ تُرابِه وَبَينَ إِطْباقِ القبرِ عليه مِن جَنَباتِه..؟!

كَمْ بينَ نفضِ اليدينِ مِن ترابهِ، وبينَ قُدومِ الفَتَّانَيْنِ مِنْ حيثُ لا يَدْري..؟!

يا ربِّ لكَ الحمدُ أَنْ جَعلْتَ لَنا شفاعةً لِأَخينا، وفَتَحْتَ لَنا طريقاً نُوصِلُ بهِ الإنقاذَ والمدَدَ إليه..

يا ربِّ لكَ الحمدُ، ذَكَّرْتَنَا بأَقْوى الْأَرْبِطَةِ ما بينَنا وبينَ أخينا، إِذْ قالَ لَنا رسولُكَ ﷺ: «**استغفِرُوا لِأخيكُم وسَلُوا له بالتثبيت**» فلم تَبْلَ حِبالُ أُخَوَّته بالْمَوْتِ بَلِ ازدادَتْ، ولَمْ تَضْعُفْ بِفِراقِ الآخرةِ الطويلِ، بَلِ اشتدَّتْ وقَوِيَتْ..

يا أيُّها الجالسونَ حولَ القبرِ، إذا لَمْ يَشُكَّ أحدٌ مِنكُم بما يَحْدُثُ لأخيه الآنَ.. فَمَنْ مِنَّا سَيُفْلِتُ مِنْ هذا الموقفِ إذا شَقَّ الملَكَانِ سُكونَ الموتِ عليهِ في وَضْعِهِ هذا.. ومَن مِنَّا سَيَثْبُتُ إذا دَاهَمَهُ في قبرِهِ هذانِ المَلَكَان..؟!

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٧٢].

فاللَّهمَّ لكَ الحمدُ أَنْ دَلَلْتَنَا عَليْكَ حتَّى نَدْعُوَكَ، إِذِ التثبيتُ إليكَ، وناصيةُ الفتَّانَيْنِ بِيَدَيْكَ، والأمرُ أولًا وآخراً إليكَ...

اللَّهمَّ إيماناً بِكَ وتصديقاً برسولكَ نَهْتِفُ بك يا مَنْ يرانا وَيرى أخانا ولا نَراه.. يا مَنْ نَدْعُوه ونهتِفُ بهِ كأَنَّنا نَراه... يا ربِّ اغْفِرْ لأخينا وثَبِّتْهُ..

سَلُوا الميِّتَ - إِنْ قَدَرتُم - وماذا صنَعَتْ له هذه الدعوات وأمثالها...؟ أو انتظِرُوا حتى تَرَوْا مَفْعُولَها.. إذا حضرَ الصادقونُ دَفْنَكم، فاللَّهمَّ استجِبْ.

أيها العائدُ مِن دَفْنِ أخيهِ، لا يَفُوتَنَّكَ تَحقيقُ أعظمِ أمانيِّ أخيكَ الآنَ، وأمانيِّك... يومَ تُغْلَقُ صَحيفَتُكَ وتمكُثُ في هذا المكانِ: «الصدقةُ الجاريةُ... الصدقةُ الجاريةُ» ونصيحةُ كلِّ واحدٍ من حولِكَ في هذهِ الأَجْداثِ لَكَ - لو نَطَقُوا: «**أَنْشِئْ لِنَفْسِكَ صدقةً تَجْرِي عليكَ يومَ تكونُ هُنا... أَنْشِئْهَا الآنَ فَوْرَ عودتِكَ قَبْلَ أَنْ تَشْغَلَكَ الأحداثُ فَتَنْسَى**».

أيها العائدون من دفن أخيهم، لو تكلم بعض هؤلاء المعذبون هنا في هذا البرزخ لقالوا: لم تغلق أبواب العذاب عنا بذنوبٍ عملناها فأغلقت أبوابها يوم أغلقت صحائفنا، إنما المصيبة الكبرى أنها أشجار سوء غرسناها في حياتنا فلا تزال حية وَوَرثتُنا من بعدنا يسقونها ويرعونها وهي لا تزال تلقي بثمارها عليهم وتلقي بزقومها علينا في قبورنا!

إنها السيئات الجارية المتمثلة ببنوكٍ ربوية أسسناها، أو شركات تأمين محرمة أنشأناها أو أَسْهَمْنَا فيها، أو فنادق وأماكن سياحة فيها ما حرم اللَّه، أو عقود حرام لم يمهلنا الموت حتى نتوب منها، أو مفسدين في البلاد كفلناهم، أو مبانٍ للبدع في الدين، أو كتب ضلال وخرافة طبعناها، أو صحف ومجلات فيها ضلال الفكر، ودعوة الكفر، أو رعاية الفجور وإشاعة الفاحشة من خلال الصورة الفاتنة أو المقالة الماجنة أو نحو ذلك.

فيا اللَّه عليكم يا أبناءنا، ويا ورثتنا، إن كنتم صادقين في حبنا ومُضحِّين لأجلنا وأوفياء لنا، أغلقوا أبواب العذاب عنا... خذوا رسالتنا بجد وإلا فوالله إنها علينا وعليكم إن تركتموها، وإن أغلقتموها فهي لنا ولكم.

* * *

العيونُ الساقيةُ لـ:
«في رَكْبِ نَعْشِ أَخِينا نَمْشِي»

قالَ تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠].

عَنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ الجنازةَ حتَّى يُصَلِّي فَلَهُ قِيرَاطٌ، ومَنْ شَهِدَ حَتَّى تُدْفَنَ كانَ لَهُ قِيراطانِ**»، قِيلَ: وما القِيراطانِ؟ قالَ: «**مِثْلُ الجَبَلَيْنِ العظيمَيْنِ**»(١).

عن أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إذا وُضِعَت الجنازةُ فاحْتَمَلَها الرجالُ على أعناقِهِمْ، فَإِنْ كانَتْ صالحةً قالَتْ: قَدِّمُوني قَدِّمُوني، وإِنْ كانَتْ غيرَ صالحةٍ قالَتْ: يا وَيْلَها! أَيْنَ يذهبونَ بِها، يَسْمَعُ صوتَها كلُّ شَيْءٍ إلا الإنسانَ، ولو سَمِعَها لَصَعِقَ**»(٢).

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إذا ماتَ الإنسانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلا مِن ثَلاثةٍ، إلا مِنْ صَدَقةٍ جَاريةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِه، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (١٢٦١)، ومسلم (٩٤٥).
(٢) رواه البخاري (١٣١٤).
(٣) رواه مسلم (١٦٣١).

عَن ابن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: اطَّلَعَ النبيُّ ﷺ على أَهْلِ القليبِ، فقالَ: «**وجدْتُم ما وَعَدَ ربُّكم حَقاً؟**» فقيلَ لَهُ: تَدْعو أمواتاً؟ فقال: «**وما أَنْتُم بأَسْمعَ مِنهم ولكِنْ لا يُجيبونَ**»(١).

* * *

(١) رواه البخاري (١٣٠٤).

المقصِّرانِ في حقِّ رسولِ اللَّهِ ﷺ(١)

تَتدَاورُ الخَوَاطِرُ وتَتوارَدُ على ذِهْنِ الْمُتيَّمِ بجِوارِ حبيبِ اللَّهِ تعالى.

يَطيرُ التفكيرُ نَحوَ التعظيمِ إِثْرَ التعظيمِ... يَسْري سريعاً نحوَ مَقامِه ﷺ في الإسراءِ إلى إمامتِه الأنبياءَ، إلى تقريبِه في المعراجِ... تَثورُ الأفكارُ مِن الذهْنِ، تَنْبعثُ كالومضةِ إلى السماءِ، إلى الآفاقِ والأجواءِ.. تَسْتَشْرِفُ مقاماتِ عظمتِهِ ﷺ، تتَتَبَّعُ كراماتِه ﷺ في الأرضِ وفي السماءِ... لكنَّ عُنُقَهَا يَنْقطِعُ عَطَشاً، ويَفْنى عُمُرُها سريعاً وهي لَمْ تمضِ بَعْدُ بعيداً في إدراكِ مقاماتِهِ العليَّةِ عِنْدَ ربهِ سبحانَهُ.

قُلْ ما تشاءُ، فَكِّرْ كيفما تَشاءُ... فإِنَّ عظمتَهُ مَرْبوطةٌ بكلماتِ اللَّه التاماتِ، بالقرآنِ الكريمِ... وكفاهُ!

يا أَحِبَّتَنَا في اللَّهِ تعالى، يا أهلَ الجوارِ: اسْتَشْعِروا عظمتَهُ وأنتُمْ بجوارِه، وأنتُمْ تُسلِّمونَ عليه، وأنتم تُصلُّون في رَوْضَتِه، وأنتم تَقُومونَ في مسجدِهِ.

كيفَ يحتملُ الحاضرُ - هنا - خطابَ اللَّهِ لرسولهِ ﷺ في القرآنِ، والقرآنُ كلُّه خطابٌ مباشرٌ إليهِ بقولِ اللَّهِ تعالى «**قُلْ**» ونحوها، أو خطابُ العالمينَ من خِلالِه... ﷺ.

---

(١) كل فرقة تتهم الأخرى بالتقصير في حق رسول اللَّه ﷺ، وهذا خطاب لجميع المقصرين في حقه ﷺ من كل فرقة، علّ فيه ما فيه من الخير. وأهل الحق وإن كانوا من كل طرف فهم فريق واحد، وإن تناءت ديارهم، وهم بحمد اللَّه كثير، والخطاب هنا لأهل الحق جميعاً.

يا إخوانَنا، هذا القرآنُ عندَكم مَشاهِدُه ومَواقعُ نُزولِه، وهذا رسولُه ﷺ عندَكم بِنَفْسِه. . . فماذا بَقيَ؟

فهنيئاً لكُم يا أهلَ الحَرَمَيْنِ، هنيئاً بالشاهدِ والمشاهد. . !

يا أَهْلَ الحَرَمَيْنِ، رِفْقاً ثم رِفْقًا، فلا تَحْسَبوا كلَّ مَن خالَفَكم دخلَ في الغَالِينَ مِن المُبْتدِعِين، وأَصْبَحَ مِن المُشْركين القُبورِيِّين، وأصبح العَدُوَّ الأوَّلَ والأخيرَ، ولَبِسْتُم له قُفَّازَ التَّحدِّي. . !

يا أهل الحرمَيْنِ الكريمين، لا تَحْسَبوا الحقَّ مَحْصوراً في أرضِ الحَرَميْن الكريمينِ الشريفين، فقدْ خالَفَ العلماءُ مالكاً في الاحتجاج بقول أهلِ المدينةِ، وما أَدْراكَ ما أَهْلُ المدينةِ آنذاك. . . لكُم واللَّه - يا أهلَ الحرمَيْنِ - في القلوبِ المقامُ المُعلَّى بينَ سُكَّانِ هذهِ الدنيا على مُخْتَلَفِ مَساكِنِهم الجغرافية، فنحنُ مُؤْمنونَ بأنكم اختيارُ اللَّهِ لحَرَمِهِ، ونحنُ نحمدُ اللَّهَ على اختيارِه.

بَاللَّهِ عليكُم وسِّعُوا الصدورَ لِنحْتملَ الأخَ المُخالِفَ، ونُبقيهِ أخاً وإن خالَفَ، مادامَ يشهدُ الشهادتَيْنِ غيرَ مُرْتَكِبٍ لِناقضٍ من نواقضِهما عالِماً عامداً.

وَسِّعُوا الصدورَ لِتَشْمَلَ الراجحَ عندَهم كما تشملَ الراجحَ عندنا، فليسَ الحقُّ محصوراً في راجحنا، مادام الخلافُ مُسْتَساغاً. .

وَسِّعُوا الصدورَ لِيدْخُلَ فيها إمكانيةُ أن يكونَ راجحاً غيرُ رَأْيِ أئمتنا الذين اعتمدنا ترجيح أقوالهم، سابقين ولاحقين، رَحِمهم اللَّهُ أجمعينَ. . !

يا إخوانَنا، لو عُدْنا إلى أصولِ أقوالِ مَنْ يُخالِفُنا في العديدِ مِنَ المسائلِ

ونظَرْنا فيمَنْ قالَ بها لوجَدْنا أنَّ فيهم أئمةً أعلاماً كالإمام أبي حنيفةَ وجَمْهَرَةٍ مِن أهلِ العلم مَعَهُ في مجموعةِ مسائلَ، وكذا الإمامُ مالِكٌ، والشافعيُّ، بَلْ والإمامُ أحمدُ بنُ حنبل كذلك، وأئمةٌ مِنْ أهلِ الحديثِ والفِقْهِ. . .

ولا نِقاشَ بأنَّ الحقَّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ، ولَكِنْ هَلْ نستطيعُ أَنْ نُطْلِقَ مِن الأحكام على أولئكَ الأئِمَّةِ كما أطلَقْنا على هؤلاءِ الأتباع، والقَوْلُ هو القولُ، وفي هؤلاءِ المخالفينَ علماءُ كذلك أجلَّةٌ. . .؟

إنَّ مجردَ استحضارِ أَنَّ مُخالِفينا - في مسألةٍ مَا - مِن أمثالِ الإمام أحمدَ أو النَّووِيِّ وابنِ قدامةَ المَقْدِسِيِّ وغيرهم مِن الأئمةِ - في مسألةِ كذا وكَذا مثلًا - يُعطي القولَ وَجَاهةً، ويَلْزَمُ المُنْكِرُ عليه أَدَباً ورِفْقاً، وَمزيدَ استحضارٍ لِلْأدِلَّةِ مع مَزيدِ حُسْنِ ظَنٍّ بالمُخالِفِ، وهذا هُو الأصلُ في المُسْلِمِينَ فضلًا عن عُلَمائِهم. .

يا أهلَ الحَرَمين، إنَّ مَنْ أَدْرَكَ أَنَّهُ قُدْوَةٌ، وأَنَّ الناسَ ناظرون إليه نَظَرَ الطيرِ إلى طعامِها، أَلْزمَ نَفْسَه الرِّفقَ في الأمرِ والنَّهْيِ، وجَعَلَ التزامَ الخُلُقِ النَّبوِيِّ عندَه ليسَ مِن قبيلِ الفُضُولِ أو المُسْتَحَبَّاتِ، فالناس يتلقَّون الدليل مع أسلوبه، والحكم مع أدبه.

يا أهلَ الحَرَمَيْنِ الكريمين، إنَّ هذا كافٍ أَنْ يُلْزِمَنا أَنْ نُنْكِرَ - أَوَّلًا - على بَنِي قومِنَا مِن أهلِ الحَرمين ممَّن لا يلتزمون الرِّفقَ في الإنكارِ، ولا يلتزمونَ الاقتداءَ بالنبيِّ ﷺ في خُلُقِه، فهؤلاءِ القِلَّةُ مِن باعةٍ، وسُوَّاقِ أُجْرةٍ، ابتداءً مِن المطارِ وانتهاءً بالحدودِ. . . هُمْ ممَّنْ يُشَوِّهونَ صورةَ الأكثريةِ. . !

لَسْتُم في أعينِ الناسِ كعامَّةِ أهلِ الخليج، وفي كلٍّ - إن شاء اللَّه - خَيرٌ، وليسَ في هذا استِنْقاصٌ لِبَلَدٍ منهم. . لكنَّ المُسْلمينَ عُموماً ينظرونَ لَكُم

هكَذا، ويُفَضِّلونَكم إِجْمالًا حتَّى على أهلِ بلدِهم خاصةً، أَفَلا ينبغي أَنْ تكونوا خيراً مما يظنُّونَ، لِيَغْفِرَ اللَّهُ لَكُم ما لا يعلمونَ..

هذا الالتزامُ، وهذا الخلقُ العظيمُ يَنبغي أَنْ يكونَ إِرْثَنا لأبنائِنا في الحرمينِ وسَجِيَّتَنا، وهو من شُكْرِنا لِنِعْمةِ الجِوارِ والاختيارِ، فوَاللَّهِ إنَّكم لا تَسَعُونَ الناس بأموالِكم ولكنْ تَسَعُونَهم بأخلاقِكم..

يا أهلَ الحرمين الشريفينِ، هناك فَرْقٌ بينَ ترك الحِكْمةِ وبينَ تَركِ الأمرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَن المُنْكرِ.. فَتَرْكُ الأمرِ والإنكارِ حَرامٌ، والتزامُ الحِكْمةِ فيهما واجبٌ..

كَمْ سِحْنا في هذِه الدنيا فوجَدْنا في بلادِ الإسلامِ رجالًا يُحْسنونَ الوضوءَ والصلاةَ واتِّباعَ السُّنَّة بَينَ الناسِ، فإذا سأَلْناهم عن سِرِّ ذلك قالوا لنا: إنَّهم تعلَّمُوا ذَلكَ بِذَهابِهِمْ للْحَجِّ أو العمرةِ مِن خِلال دَرْسِ شيخٍ في أرضِ الحَرمَيْنِ، أو سائقِ سيارةٍ أُجْرَةٍ، أو بائعٍ في بقَّالةٍ، أو ناصِحٍ في سِكَّةٍ مِن سِكَكِ مكةَ والمدينةِ، أو عندَ المياضِئ، أو مُصَلٍّ في مسجدٍ كذا أو في الحرمِ، أو مُلاقٍ لهم في الطريق ما بينَ مكةَ والمدينةِ، فحفِظَ ذلكَ العِلْمَ مِن موقفٍ واحدٍ، وجاءَ يُعَلِّمُه أهلَه وقَوْمَهُ...

فإيَّاكُم أن تَتْرُكوا الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ، وإياكم أَن تَتْرُكوا الحكمةَ..

والكلمةُ الأخرى لَكَم يا أهلَ الآفاقِ القادِمِينَ إلى الحَرميْنِ، الناقدينَ لنا[1]

(١) عددت نفسي من أهل الحرمين لأمرين الأول: هو دراستي في الجامعة الإسلامية، والثاني: شرف الانتساب إلى رسول اللَّه ﷺ.. ولا فخر.

نحنُ أهل الحرمين في تَشَدُّدِنا في قضايا التوحيدِ والإشراكِ والابتداعِ، ويُهوِّلُ بَعْضُكم في ذلك كثيراً: **ألا ترونَ أنكم في حقيقةِ الأمر تَفْرِضونَ** قضايا لَيْسَ عليها دليلٌ ثُم تُحَاكِمونَنا إليها، وتُفَاصِلُونَنا عليها، ثم تَحْكمونَ علينا أشدَّ الأحكامِ...

تَفْرضونَ قضايا معينة وتجعلونها حداً فاصلًا بيننا وبينكم، ودليلًا لا يقبل النقاش على أن من يفعلها يحب رسول اللَّه ﷺ ومن لا يفعلها لا يحبه!

قليلًا مِن الإِنْصافِ... فهل لنا إلا الاحتكامُ لكِتابِ اللَّهِ وسُنَّةِ رسولِه ﷺ، ولَسَوْفَ نَتوافَقُ، ثُم نَتَّفِقُ بِإِذْنِ اللَّهِ تعالَى.. وهل من مسلم لا يحب رسول اللَّه ﷺ؟

فلماذا نضخم هذه القضايا الصغيرة حتى نحولها إلى أخطر قضية؛ محبة اللَّه ورسوله ﷺ؟!

ذلك هو ما لا يحبه رسول الله ﷺ.

يا إخوانَنا، أيُّ خَطيئة فِي حقِّ رسولِ اللَّهِ ﷺ أعظَمُ مِن أَنْ يَسعى السَّاعِي في نَقْضِ التوحيدِ الذي جاءَ به رسولُ اللَّهِ ﷺ، حينَ يُبيحُ ما نَهى عنهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ كالحَلِفِ بِغَيْرِ اللَّهِ تعالَى! ويُسَوِّغُ التسمياتِ الشِّرْكِيَّةَ! ويُبيحُ الذَّبْحَ عبادةً لغيرِ وَجْهِ اللَّهِ تعالى! ويُبيحُ دعاءَ غيرِ اللَّهِ تعالى! ويُبيحُ التَّقَرُّبَ إلى اللَّهِ تعالَى بِمَنْ ماتوا! ونَحْوَ ذَلِكَ مِن أمورٍ هِيَ مُناقِضَةٌ تمامَ المُناقَضَةِ لِمَا جاءَ بِهِ رسولُ اللَّهِ ﷺ واللَّهُ تعالى يقول: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

يا إِخْوانَنا، أيُّ خَطِيئةٍ في حقِّ رسولِ اللَّهِ ﷺ أعظمُ مِن أَنْ يُصْبِحَ خَصْمُنا مَنْ يُصَحِّحُ حديثَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، ويلتزمُ بالحديثِ الصحيحِ قَوْلًا وعَمَلًا وحُكْماً، ونُواجِهُه بما لَمْ يَصِحَّ عَنِ رسولِ اللَّهِ ﷺ. . . أَيُمْكِنُ أن نُواجِهَ هذا بهذا. . . ولِأَجْلِ ماذا؟!

يا إخوانَنا: ألا تَرَوْنَ أين بلَغَ بكم الجفاءُ لَنا، وسُوءُ الظنِّ بنا. . . . فأنتُمْ تَقْتَرِبونَ ممَّنْ دِينُهم الكذِبُ على آل البيتِ، ولا تَقْتَرِبون مِنَّا وأنتُمْ تَعْلَمونَ أَنَّ دِينَنا هو الدفاعُ عَن رسولِ اللَّهِ ﷺ وعَن سُنَّتِهِ وآلِ بيتِهِ الكرامِ الذين هم وصية رسول اللَّه ﷺ لأُمَّته: «أذكركم اللَّه في أهل بيتي»[1] وكرَّرها ثلاثاً. .

إنكم تَفْرضُونَ شِقاقاً بينَ أهلِ مكةَ - اليومَ - وبينَ أهلِ المدينةِ. . . . مَبْناه على ما جاءَ مِن نُصوصِ مُفَاضلَةٍ بينهما قاصدِينَ الفُرْقَةَ والانتقاصَ!

يا إخوانَنا في اللَّهِ، تَصَوَّرُوا لَو أَنَّ هذه الأرضَ - أرضَ الحرمينِ وما حولَها - التي أَوْرَثَنا اللَّهُ تعالى إيَّاها كانَتْ تحتَ يَدِ غَيرِنا مِمَّنْ تَعْرفونَ في بلادِ المسلمينَ الأُخْرى. . . تَصوَّرُوا ماذا سَيَصْنعونَ مِن التعظيم لهذهِ الآثارِ . . . سوفَ تُصْبحُ هذه الأرضُ كُلُّها قِباباً وأضرحةً؛ لأَنَّهُ ما مِن بُقْعةٍ هنا إلا وفيها أَثَرٌ وتاريخٌ. .؟!

أَلَيْسَ اختيارُنا لهذهِ الأرضِ من آياتِ اللَّهِ تعالَى في حِراسةِ التوحيدِ؟

يا إخوانَنا، لِمَ تُديمونَ اتَّهامَنا بالتَّعَصُّبِ والتَّشَدُّدِ، وأنتم لا تُطيقونَ الحوارَ حولَ أيِّ قضيةٍ تُخالفُونَنا فيها. .!

وأنتم لا تُطيقونَ سماعَ قولِنا: ما دليلُكم مِن الكتابِ والسُّنةِ؟!

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

لا تُطيقونَ قولَنا: هَلْ فَعلَ هذا الأمرَ الذي تَفْعلونَ رسولُ اللَّه ﷺ؟!

لا تطيقونَ احتجاجَنا بقولِ النبيِّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عليه أَمْرُنا فهو رَدٌّ**»(١) وقولِهِ: «**كُلُّ بِدْعةٍ ضَلالةٌ**»(٢).

هل كان الحَرَمان عندَ المسلمينَ إلا المنهلَ الذي يَرِدُه العلماءُ فينهلونَ مِنه ثُم يَرْجعونَ إلى قومِهم مُنذرينَ...؟!

اِرْجِعوا وانظروا إلى أَعْلَم علمائِكم الأجِلَّةِ في مُخْتَلَفِ بِقاعِ الأرضِ، وستجدونَ أَنَّ أعظمَ أمانيِّهم كَانَ بلوغَ الحرمينِ، وأنّ عِلْمَ أكثرِهم كان بِرِحْلةٍ إلى الحرمينِ..

يا إخوانَنا، ألا ترونَ كيفَ جَمعَ اللَّهُ بينَ وِجْهَتَي العبادةِ والعِلْمِ في قِبْلةٍ واحدةٍ... في الحرمينِ، فهَلْ يُفْلِحُ مَنْ يُحاولُ التفريقَ بينَ ما جَمعَ اللَّهُ..؟!

يَكادُ إذا مرَّ الحجازُ بِذِكْرِه ... وجِيرتِه مِنْ صدرِه يَتوثَّبُ
بِلادٌ بهَا الرحمنُ ألقَى ضِياءَه ... عَلَى لَابتَيْها والعَوالمُ غَيْهبُ
يُجلّلها قُدس مِنَ اللَّه سَابغُ ... وينفُحهَا نَشْرٌ مِنَ الخُلْدِ طيّبُ
إذَا نَسَبَ الناسُ البلادَ رأيتَها ... إلَى جنةِ الفِرْدوس تُعْزى وتُنْسبُ
وَإِنْ نَضَبَت أنهارُها فَبِحسْبهَا ... من الدِّين نَهرٌ للهُدى ليسَ ينضبُ

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨) كتاب: الأقضية باب: نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) جزء من حديث، رواه مسلم (٨٦٧) كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

يَفيضُ علَى الأقْطارِ يُمناً ورحمةً ويَزأرُ في أُذن العُتاة ويصخبُ
تَفجّرَ مِنْ نَبْع النُّبوَّةِ مَاؤهُ له الحقُّ وردٌ والسَّماحةُ مَشْربُ

* * *

العيونُ الساقيةُ لـ:
«المقصِّرانِ في حقِّ رسولِ اللَّهِ ﷺ»

قالَ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ رضي الله عنه يقولُ على المِنْبرِ: سمعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**لا تُطْروني كَما أَطْرَتِ النَّصارى ابنَ مَرْيمَ، فإنَّما أنا عبدُهُ، فقُولوا: عبد اللَّهِ ورسوله**»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخلُون الجَنَّةَ إلّا مَنْ أَبى**» قالُوا: يا رسولَ اللَّهِ: ومَنْ يَأْبَى؟ قالَ: «**مَنْ أَطاعني دَخَلَ الجنةَ، ومَنْ عصاني فقَدْ أَبى**»(٢).

عن السائِبِ بنِ خَلَّادٍ أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**مَنْ أَخافَ أَهْلَ المدينةِ ظُلْماً أَخَافَهُ اللَّهُ، وعلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ والملائكةِ والنَّاسِ أجمعينَ، لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنهُ يومَ القيامةِ صَرْفاً ولا عَدْلًا**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦١).

(٢) رواه البخاري (٦٨٥١).

(٣) المسند (٤/ ٥٥) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

ما بين مدينتي والمدينة..!

هَفَتْ نَفْسي إلى الإقامةِ في مدينةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ بعدَ انقطاعٍ قاربَ الخَمْسةَ والعِشْرينَ عاماً، إِذْ ذُقْتُ قَبْلَها لَذَّةَ الجِوارِ في سِنِي الدراسةِ الأربعِ في جامِعَتِها - المُبارَكَةِ (الجامعةِ الإسلاميَّةِ).

وهأنذا الآنَ أجد نفسي في مسجدِ الحبيبِ ﷺ ثانيةً، أُجدد ذاكَ المذاقَ في قلبي... المذاقَ الذي لا يُوجدُ إلا في هذهِ البُقْعةِ تحديداً...! اشْتدَّ حَنيني والتصاقي بها وكأنه التصاق الصغير في صدر أمه إذا وجدها بعد فراقٍ طويلٍ وتيهٍ... إنه يحتضن أمه بقوة ويشمها بشغف، عندها تَمَّنيْتُ أبنائي وأهلي معي، يأتون مِن مدينتي حالًا لِنَسْتقرَّ - الآن - في المدينةِ.. نَعَمْ: الآن، ثُمْ لا نَتْرُكها حتَّى نُدْفَنَ في بقيعِها..

آهٍ على المدينةِ، ثُم آه، ثم آه !

وفوقَ هذا إنَّها الهجرةُ مِن مَدينتي- وما أَدْراكَ ما مدينتي- أسألُ اللَّهَ العليَّ العظيمَ لها الحفظَ، والعِزَّ، والعودةَ إلى دينِ اللَّهِ وإلى حِماه..

لَكِنَّني حينَ عُدْتُ إلى نَظَرِ الشَّرْعِ أَسْتَلْهِم الحِكَمَ- كما أَراها - قُلْتُ: سَأُكْثِرُ مِن زيارَتِك أيَّتُها المدينةُ الطيِّبةُ المُنَوَّرةُ المُكَرَّمةُ، أما السُّكْنى فيكِ فلم تَحِنْ بعدُ!

إنني لَأَرْجو بالخُطْبةِ التي أَخْطُبها - بعدَ رحمةِ اللَّهِ - أَنْ تكونَ نُقْطةَ نُورٍ في مدينتي المُتَزَيِّنةِ المُتَزَخْرِفةِ، تَمْنعُ إطباقَ الظُّلْمةِ عليها، مع نقاطِ نورٍ كثيرةٍ هنا، وهناك... هي أعظمُ نوراً، وأكبرُ أَثراً مِن خُطْبتي..

وإنَّني لَأرجو بها دَفْعَ عَذابٍ عاجلٍ لِمَا في الخُطْبةِ وغيرِها مِن أمرٍ ونهيٍ، وفي غيرِ خُطبتي أكثرُ..

إني لأرجو بها مِن اللَّهِ البركةَ، التي تنزلُ في قلوبِ نَشْءٍ يَحْملون الرايةَ مِن بعدِنا، ويكونونَ خيراً مِنَّا، وتكونُ أعمالُهم - بإذن اللَّه - لنا...

إنني لَأرجو بكلِّ عِبادةٍ، وكلِّ أَمْرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عن مُنْكَرٍ - لي ولغيري مِن المسلمينَ الناصحينَ - أَجْرَ عِبادةٍ في الهَرْجِ، وثَباتاً على الحقِّ وقت الفتنة..

إنني لأرجو مِن اللَّهِ تحويلَها إلى حِصْنٍ مِن حُصونِ الإسلامِ، فَيَخيبَ أَمَلُ أهلِ الكُفْرِ الطامعِ فيها...

أمّا جوابي عَن كونِ مدينتي فِتنةً، وأنِّي أتركُها لهذا السَّببِ خشيةَ الوقوعِ في الفتنة... فأنا لازِلْتُ في مدينتي منذُ زَمَنٍ ولَمْ أَقَعْ في الفتنةِ، ولا في كبيرةٍ، بفضلِ اللَّهِ تعالى وحدَه، فهَلْ سألتَ نَفْسكَ يا هذا: بِم حَفِظَكَ اللَّهُ تعالى طُولَ هذه الفترةِ؟!

وهَلْ سألْتَ نَفْسَكَ: كيفَ يُضَيِّعُكَ الآنَ، وقَدْ حَفِظكَ مِن قَبْلُ..؟!

وهل سألْتَ نَفْسَك وقلْتَ: ما يُدْريني أَنْ أُفْتَنَ بِدُنْيا إذا جئْتُ المدينةَ، أو أَرْكنَ وأحيدَ بتقريبِ سُلْطانٍ، أو شهوةِ إنسانٍ، أو تقلُّباتِ أهواءِ الزمانِ، أو نحوِ ذلك؟

ما يُدْرِيني أَنَّ أبنائي يَسْقُطون هُنا إِذْ لَمْ يَسْقُطوا هُناك؟!

ما يُدْريني ما عاقبةُ تَرْكِ ذاكَ الثَّغْرِ مِن دُخول الفِتَنِ على الناسِ، وما عُقوبتي عندَ اللَّهِ تعالَى لَو أنِّي تَرَكْتُهُ؟!

وما يُدْريني أَنَّ كُلَّ ما سَيَدْخُلُ مِن ذاك الثغرِ السائب بعدَ ذلكَ مِن شُرورٍ...

سيكونُ بابَ إثمٍ يَصُبُّ عليَّ إلى يومِ القيامةِ، إِذْ لَمْ أَكُنْ أَحْسِبُ لَه حِساباً . . ؟!

فَلْنَثْبُتْ يا عبادَ اللَّهِ، يا أهلَ العلم والدعوةِ، كلٌّ على ثَغْرِه في بلدِه . . ما نفَع اللَّهُ بِبقائِه، ودَفَع . .

رضِيَ اللَّهُ عن الصَّحابةِ، فَبَعْدَما أَسْلَموا وتعلَّموا عادُوا مِن مكةَ - أو المدينةِ - إلى بُلْدانِهم، هذا وهي المدينةُ أو مكةُ وفيهما رسولُ اللَّهِ ﷺ، وأخبارُ الوَحْيِ عَن اللَّهِ عِنْدَهم صباحَ مساءَ، بينما الكفرُ في بُلدَانِهم غالبٌ بل مطبقٌ.

رضيَ اللَّهُ عَن الإمامِ مالك، فحينَ أَرْسلَ له مِن إخوانِه مَنْ يَدْعُوه إلى التَّفَرُّغِ للعبادةِ . . . كَتَبَ لَه مالِكٌ كما رَواهُ ابنُ عبدِ اللَّهِ، فقالَ: «إنَّ اللَّه قَسَمَ الأعمالَ كَما قسمَ الأرزاقَ، فرُبَّ رَجُلٍ فُتِحَ لَه في الصلاةِ، ولَمْ يُفْتَحْ له في الصوم، وآخرُ فُتِحَ له في الصدقةِ ولَمْ يُفْتَحْ له في الجهادِ، فَنَشْرُ العِلْمِ مِن أفضلِ أعمالِ البرِّ، وقَدْ رضِيتُ بِما فُتِحَ لي فيه، وما أظُنُّ ما أنا فيه بدونِ ما أنْتَ فيه، وأرجو أن يكونَ كِلَانا على خيرٍ وبِرٍّ»[1].

ورضيَ اللَّهُ عنِ ابنِ المبَارَكِ . . . فقَدْ أَرْسلَ له الفُضَيْلُ - كذلكَ - رسالةً يدعوه فيها إلى تَرْكِ المُرابطةِ على الثُّغورِ والمجيءِ إلى حَيْثُ المُراوحةُ ما بينَ المَسْجدَيْنِ، ما بينَ صلاةٍ في مسجدِ رسولِ اللَّهِ والروضةِ، وبينَ صلاةٍ في المسجدِ الحرامِ، واعتكافٍ فيهما، وبينَ العمرةِ إلى العمرةِ . . . فكانَ جوابُ ابنِ المباركِ على هذه الدعوةِ هو ما رواه مُحمدُ بنُ إبراهيمَ ابنِ أبي سكينة أنَّ ابنَ المبارَك كَتَب سَنَةَ سَبْعٍ وسبعينَ ومائةٍ، وأَنْفَذَها مَعي إلى الفُضَيْلِ بن عِياضٍ مِن طَرَسُوس:

---

(١) «سير أعلام النبلاء» تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (٨/ ١١٤).

يا عابدَ الحرمينِ لو أَبْصَرْتَنا ... لَعَلِمْتَ أَنَّكَ في العبادةِ تَلْعبُ
مَنْ كانَ يَخْضِبُ جِيدَهُ بِدُموعِهِ ... فَنُحورُنا بِدِمائِنا تَتَخَضَّبُ
أو كانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ في باطلٍ ... فَخُيولُنا يومَ الصَّبيحةِ تَتْعَبُ
رِيحُ العبيرِ لكُمْ ونَحْنُ عَبِيرُنا ... رَهَجُ السنابِكِ والغبارُ الْأَطْيَبُ[1]
ولقَدْ أتانا مِن مَقالِ نَبيِّنا ... قولٌ صَحيحٌ صادِقٌ لا يَكْذِبُ
لا يَسْتوي وغبارُ خيلِ اللَّهِ في ... أَنْفِ امرئٍ ودُخانُ نارٍ تلهبُ
هذا كِتابُ اللهِ يَنْطِقُ بَيْنَنا ... لَيْسَ الشهيدُ بِمَيِّتٍ لا يُكذَبُ

فلقِيتُ الفُضيلَ بكتابِه في الحَرَم، فقرَأَهُ وبَكى، ثُم قالَ: صَدقَ أبو عبد الرحمن ونصَحَ[2]...

شَتَّانَ بينَ المُرابطِ في الحَرمينِ لنفسِهِ، وبينَ المُرابِطِ عن الإسلامِ والمسلمينَ في أيِّ مكان لربِّه سبحانهَ وتعالَى..

شَتَّانَ بينَ مُسْتَسْلِمٍ لِلْخَبَثِ إذا كَثُرَ وبَدَأ بالظهورِ في بَلَدِه، وبينَ مُغَالبٍ له بالأمرِ والنهي، مُكَاثِرٍ له بالصالحاتِ العامَّةِ، ولسانُ قَالِه وحَالِه: بِئْسَ حامي الدينِ أنا إنْ نزلَ العذابُ على بلدي وأنا فيها حيٌّ.. بِئْسَ حاملُ الدينِ أنا إنْ مُتُّ ولَمْ أصنع لهذا الدينِ حُرَّاساً، ولبلدي مِن نزول العذابِ وقاية.

شَتَّانَ بينَ مَنْ يَتَوهَّمُ حِراستَها بِحَرسِه وأَمْنِهِ مِن مَخاطرِ اليمينِ والشِّمالِ، وبينَ مَنْ يَحْميها اللَّهُ مِن عذابِه المحدق النازلِ لكرامتِهِ على اللَّه تعالَى...

* * *

(١) الرَّهَج والرَّهْج: الغبار، والسنابك جمع سنبك: طرف حافر الخيل وجانباه من قُدام.
(٢) المرجع السابق (ص ٣٦٤).

العيون الساقية لـ:
«ما بين مدينتي والمدينة»

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: سمعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «**عينانِ لا تَمَسُّهُما النارُ: عَيْنٌ بكَتْ مِن خَشْيةِ اللَّهِ، وعَيْنٌ باتَتْ تَحْرُسُ في سبيلِ اللَّهِ**»(١).

عن عُمَرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه قال: سمعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «**إنَّما الأعمالُ بالنِّياتِ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُه إلى اللَّهِ ورسولِهِ فَهِجْرَتُه إلى اللَّهِ ورسولِهِ، ومَنْ كانَتْ هِجرتُه إلى دُنيا يُصِيبها أو امْرَأة يَنْكِحُها، فَهِجْرته إلى ما هاجَرَ إليه**»(٢).

عن مَعْقِلِ بنِ يَسَارٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**العِبادةُ في الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إليَّ**»(٣).

* * *

(١) رواه الترمذي (١٦٣٩) وصححه الألباني.
(٢) رواه البخاري (٦٣١١) ومسلم (١٩٠٧).
(٣) رواه مسلم (٢٩٤٨).

هياج القلب عند وداع المدينة[١]

يا ربِّ حَبِّبْ إلينا الذهابَ إلى مكَّةَ كما حَبَّبْتَ إلينا جِوارَ النبيِّ ﷺ في المدينةِ. . .

الآن أَشْعُرُ ببعضِ الحُرْقَةِ التي اعْتلَجَتْ في قلبِ مَنْ قالَها أوَّلَ مرةٍ عَن نَفْسِه وعن صحابتِه ﷺ وهو يَدْعو اللَّهَ عندَ فراقِ بلدِه مكةَ: «**اللَّهمَّ حَبِّبْ إلينا المدينةَ كَما حببْتَ إلينا مكةَ أو أَشدَّ**. . .»[٢]. ولا شك أنه أجابه وأعطاه ما أراد وزاده من فضله.

يا ربِّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّني أَكْرَهُ الخُروجَ مِن المدينةِ، لولا أن يوم عرفة قَدِ اقتربَ . . .

يا ربِّ، فحببْ إليَّ الحَجَّ، واجْعَلْ حُبِّي حيثُ تُحِبُّ، واجْعَلْني أُقْبِلُ على حَجِّي بقَلْبي. . . ولا أتْرُكُ قلبي في المدينةِ، وأدخلُ الحجَّ بِبدَني. . .!

هذا عناء الرُّوحِ في أعماقِها. . . هذا عَصْفُ القَلْبِ في جَنباتِه كُلَّما تَذَكَّرَ أنه راحلٌ عن المدينةِ. . . إنه أَنينُ القَلْبِ يتصاعدُ أَكْثرَ فأَكْثَرَ، كُلَّما اقْترَبَتْ ساعاتُ فِراقِها. . .

ألا يَحِقُّ للولدِ أَنْ يَحْزَنَ إذا اقترَبَ مَوْعِدُ فِراقِ أبيهِ وأمِّهِ وأهلِهِ. . .؟!

---

(١) كان ذلك عندما أردنا ترك المدينة لبدء مناسك الحج.

(٢) رواه البخاري (٦٠١١)، كتاب: الدعوات، باب: الدعاء برفع الوباء والوجع، ومسلم (١٣٧٦)، كتاب: الحج، باب: الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها. من حديث عائشة رضي الله عنها.

هذا رسولُ اللَّه ﷺ وهو أحبُّ إلينا مِن الآباءِ والأبناءِ والأهلِ والعَشِيرةِ... فكيفَ أَجْعلُ خُروجي من المدينةِ وفراقِي لها كأيِّ فِراقٍ؟

ألا يحقُّ لِمَنْ ذاق الأمانَ في أَجْوائِها، أَنْ يَحْزَنَ إذا فَكَّرَ بالخُروجِ منها؟!

كيفَ لا وأنا أشعرُ بالأمانِ في حَنايَايَ مِن حَنايَاها، وفي صدري من صدرِها... أشعرُ بقلبي يَحِنُّ ويئن حسرةً على المدينةِ، ولسان الروحِ يقولُ: أَنَّى لي بجوارٍ مثلِ جوارِك يا رسولَ اللَّهِ ﷺ..؟

المدينة حَاضِنةُ رسولِ اللَّهِ ﷺ في سُوَيْدَائِها... حَاضِنةُ أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وكلِّ العَشَرَةِ، حاضنةُ أُمَّهاتِ المؤمنين وخَيْرِ مَن خَلَق اللَّهُ بعدَ الأنبياءِ - عليهِمُ السلامُ - ورضي اللَّه عن الصحابة أجمعين.

أنّى لي بذكرياتٍ كذكرياتِ التاريخِ الأعلى على صفحاتِ المدينةِ؟! أنى لي برجال جبال كأولئك الذين غادروا عند سفح أحد: حمزة أسد اللَّه، والنقيب سعد ابن الربيع، ومُشتم ريح الجنة أنس بن النضر، ومكلم ربه كفاحاً عبد اللَّه والد جابر... أليس أولئك هم من أنزل فيهم وفي أمثالهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

أنَّىٰ لي برجالٍ أعلى وأعظمَ وأكثرَ وأكبرَ احتَوَتْهُم بُقْعَةٌ في هذه الأرضِ الكُبْرَى مِثْلَ المدينةِ؟

أنَّى لي بأَجْواءٍ قد تَنَزَّلَت بها الملائكةُ مِثْلَ أجواءِ المدينةِ؟

لو شاءَ اللَّهُ أن تُريَ صورةُ الأمانِ شَذًى عَبقاً يَشْتَمُّه الناسُ، لطابَتْ أجواءُ الدنيا إلى السمواتِ مِن مَرْكزٍ اسْمُه «طيبة»..

لو شاءَ اللَّهُ أن يَشْتمَّ الناسُ رائحةَ الصالحينَ والشهداء مِن قبورِهم، لأصبحَتْ رائحةُ تُرْبةِ المدينةِ هي المِسْكُ الذي لَمْ يشتمَّ الناسُ مثلَهُ، ولطابَ ما حولَها إلى آخرِ الأرضِ مِن طِيبها حتى جميعِ أطرافِها، إلى منتهى بحارها.

يا ربِّ، ماذا جَعَلْتَ في المدينةِ، حتى لا يستطيعَ الداخلُ فِراقَها...؟!

أيُّ سكينةٍ بقيَتْ في أجوائِها، أيُّ مَحبةٍ قَلْبيةٍ هذه التي تجعلُ المَرْءَ لا يستطيعُ منها فِكاكاً...؟

ولولا هذا الرابطُ الإيمانيُّ الذي وَثَّقَهُ اللَّهُ ما بينَ المدينةِ والقلوبِ لَمَا جاءَ أحدٌ المدينةَ إلا قليلًا، فإنَّ الناسَ سوف يُهْرَعونَ لِمَكَّةَ لِمَا فيها مِن عظيمِ الثوابِ... ولكِنْ هنا رابطُ الأمانِ، والإيمانِ، والأَرْزِ القلبيِّ، إلى جوارِ النبيِّ ﷺ...

شهادةُ الأمانِ هي شهادةُ الشَّرْعِ، شهادةٌ يُقدِّمُها كلُّ قلبٍ مؤمن عاش في المدينة ولو قليلًا.

وشهادةٌ تُوَقِّعُ العيونُ بها دموعاً على صفحاتِ الخُدودِ عندَ مغادرةِ المدينةِ، وشهادةٌ تُفْصِحُ بها الألسُنُ إذا عادَتْ إلى ديارِها من بينِ ديارِ الدنيا جميعاً...

إذاً، أيُّ صِيغةٍ لِلْوَفاءِ يُمْكِنُ أَنْ أُصَدِّقَها بِلِساني أَفْضلَ مِن الإكثارِ مِن الصلاةِ عليه ﷺ عندَ القُدُومِ إليها، وعندَ المُقامِ فيها، وعندَ وَدَاعِها..

كَمْ رأى اللَّهُ تعالى على أرضِ المدينةِ مِن مُحْسنينَ في عبادتِهم، مِن صادقينَ في مَحَبَّتِهم لَهُ سبحانه ولِرَسولهِ ﷺ.

اليومَ سَوْفَ أُري اللَّهَ أني وإِنْ تأخَّرَ بي الميلادُ حتى هذا الزمان، أَنِّي في حُبِّي لربي واشتياقي لِرسولي ﷺ كأنِّي مِن أهلِ ذاكَ الزمانِ...

اليومَ سوفَ أُرِيهِ الإحسانَ في الحبِّ - بإِذْنِه وفَضْلِه - أُريهِ مَدَى حُبِّهِ في قلبي الذي لا أعرفُ له حَدّاً..

أحبه كأنني أراهُ في عظمتِه وعَلْيَائه سُبحانَه..

أُريهِ فِدائي لرسولهِ ﷺ لو اقْتَضَى الأمرُ فداءَه، أو إهداءَهُ الرُّوحَ، ولَكَ يا ربِّ المِنَّةُ والفضلُ لو قَبِلْتَها مِنِّي فِداءً له..

إنها آخرُ صلاةٍ، صلاةِ الظهرِ - واللَّهُ أعلمُ - في هذه الرحلةِ، ولا أدري ماذا بقيَ من الرحلةِ الكُبْرى على هذه الأرضِ...

آخرُ العهدِ بالمدينةِ الوداعُ لرسولِ اللَّهِ ﷺ في هذه الرحلةِ، وحُقَّ للوَداعِ أن يكونَ حاراً بقدْرِ ما يكونُ المَوَدَّعُ حبيباً... فهلْ أحبُّ وأقربُ مِن حبيبِ اللَّه ﷺ إلى قلوبنا..

ولَمَّا بلَغْنَا مِن زِيارةِ أحمدَ ... مُنانا حَمِدْنا ربَّنا وشَكَرْناهُ
ومِن بعدِ هذا صاحَ بالبَيْنِ صائحٌ ... وقال ارْحَلُوا يا لَيْتنا ما أَطعْناهُ
سَمِعْنا له صوتاً بتَشْتِيتِ شَمْلِنا ... فيَا مَا أمرَّ الصوتَ حينَ سمِعْناهُ
وقُمْنا نَؤُمُّ المصطفى لِوَداعِه ... ولا دمعَ إلا للوداعِ صَبَبْناهُ
ولا صبرَ كيف الصبرُ عند فِراقِه؟ ... وهَيْهَاتَ إنَّ الصبرَ عنه صَرَفْناهُ
أَيَصْبِرُ ذو عَقْلٍ لفُرْقةِ أحمدٍ ... فلا والذي مِنْ قابِ قَوْسينِ أَدْناهُ
فَواحَسْرَتَاه مِن وداعِ مُحمدٍ ... وأوّاهُ مِن يومِ التَّفَرُّقِ أوَّاهُ
سأَبْكي عليهِ قَدْرَ جَهْدِي بِناظرٍ ... مِن الشَّوْقِ ما تَرْقَى مِن الدمْعِ غَرْباهُ
فَيا وَقْتَ توديعي له ما أَمرَّهُ ... ووقتُ اللَّقا واللَّهِ ما كانَ أحلاهُ

عسى اللَّهُ يُدْنيني لِأحمدَ ثانياً ... فيا حبذا قربُ الحبيبِ ومَدْنَاه
فيا ربِّ فارْزُقْني لمَغْنَاهُ عَوْدةً ... تُضاعِفْ لنا فيها الثوابَ وتَرْضاهُ
رَحَلْنا وخلَّفْنا لَدَيْهِ قُلوبَنا ... فكَمْ جَسدٍ مِن غيرِ قلبٍ قَلَبْناهُ
ولَمَّا ترَكْنا رَبْعَهُ مِن وَرائِنا ... فلا ناظرٌ إلا إليه رَدَدْناهُ
لِنَغْنَمَ مِنهُ نَظْرةً بعدَ نَظْرةٍ ... فلَمَّا أَغَبْناه السرورَ أَغَبْناهُ
فلا عيشَ يَهْنَى مع فراقِ مُحمدٍ ... أَأَفْقِدُ مَحْبوبي وعيشيَ أَهْناهُ
دَعُوني أَمُتْ شَوْقاً إليه وحُرْقَةً ... وخُطُّوا على قَبْري بأنيَ أهواهُ[1]

فاللَّهمَّ اجْعَلْها تَتَكرَّرُ أعواماً مَديدةً بِرَحْمتِك يا أرحمَ الراحمين، وفَضْلِكَ يا ذا الفضلِ العظيم، لكِنْ مَهْما طالَ الأمدُ وطال، فثَمَّةَ لِقاءُ الحياةِ الحقيقيَّةِ مع رسولِ اللَّهِ ﷺ بفضلِ اللَّهِ ورحمتِه.

* * *

(١) أبيات شعر للصنعاني.

العيونُ الساقيةُ لـ:
«هِياجُ القلبِ عندَ وداعِ المدينةِ»

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٩، ١٠].

عن أبي هُرَيْرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ الإيمانَ لَيَأْرِزُ إلى المدينةِ، كما تَأْرِزُ الحيةُ إلى جُحْرِها**»(١).

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسولَ ﷺ قال: «**اللَّهم بارِكْ لنا في مدينتِنا، اللَّهم اجعلْ مع البَركةِ بَركتينِ، والذي نفسي بيدِه ما مِنَ المدينةِ شِعْبٌ ولا نَقْبٌ إلا عليه مَلَكانِ يَحْرُسَانِهَا**»(٢).

وعن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**اللَّهم اجعلْ بالمدينةِ ضِعْفَيْ ما جَعَلْتَ بمكةَ مِنَ البرَكةِ**»(٣).

عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنِ استطاعَ مِنْكم أَنْ يموتَ**

---

(١) رواه البخاري (١٧٧٧)، ومسلم (١٤٧).
(٢) رواه ابن ماجه (٣١١٢) وصححه الألباني.
(٣) رواه مسلم (١٣٧٤).

بالمدينةِ فَلْيَفْعَلْ فإني أَشْهَدُ لِمَنْ ماتَ بها»[١]. وفي رواية: «**فإنّي أَشْفَعُ لِمَنْ ماتَ بها**»[٢].

* * *

(١) رواه البخاري (١٧٨٦) ومسلم (١٣٦٩).

(٢) رواه ابن حبان (٣٧٤١)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

الفَصْلُ الثالثُ
منازل المحسنين في مناسك العمر

* ياربِّ هَأنَذَا أَغْتَسِلُ لإحْرَامِكَ.
* ضَبْطُ القَلْبِ عندَ الميقاتِ.
* اللَّهمَّ حَجَّةً لا رِياءَ فيها ولا سُمْعَة.
* لبَّيْكَ اللَّهمَّ لبيكَ.
* كَمْ في لبسِ الإحرَامِ مِنْ تَرْبيةٍ؟!
* عَيْبٌ... غَطِّ عَوْرَتَك.
* إذا فَترتِ الهِمَّةُ.
* هُنا الكعبةُ البيتُ الحرامُ.
* طَهِّرْ بيتيَ.
* ماذا يَرْتَفِعُ مِن الصحْنِ؟
* ماءُ زَمْزمٍ في المَسْعى.
* المَرضُ في الوِفادةِ.
* كَمْ في الحَلْقِ مِن مَعانٍ!!

يا ربِّ: هأنذا أغتسلُ لإحرامِك

ما أَعْظمَ حديثَ القَلْبِ الداخليِّ بحديثِ الإحسانِ الخفيِّ، يرتفعُ مِنَ القلبِ إلى اللَّهِ تعالى[١]، حديثٌ تكادُ الآذانُ تَتَبيّنُهُ، وتسمعُ أحرفَهُ وتفهمُه لكنها لا تُظْهِرُ كلماتِهِ. . . . إنه نداءُ القلبِ الواضحُ الصريحُ الصاعدُ مِنْ قلبِ هذا العبدِ المغتسلِ إلى ربِّه سبحانَه، دونَ الشعورِ بأيِّ واسطةٍ أو غَبَشٍ أو شَرَاكةٍ. . . الماءُ يَسيلُ على الجِسْمِ، والقلبُ خاشعٌ ضارعٌ مُجَلّلٌ بالمهابة ، يرفعُ نَجواهُ، ويَبُثُّ هُتَافَهُ إلى اللَّهِ، يتحدَّثُ بخفاءٍ واضحٍ، والبدنُ مغمورٌ بالماءِ. . مُقْشَعِرٌّ مِنَ التعظيم إِذْ هو ما بينَ عظيمِ الخوفِ وعظيمِ الرجاءِ. . . أفكارُ تعظيمِ اللَّهِ تَنهمِرُ على قلبِه كما ينهمرُ الماءُ على بدنِهِ وتغمرُهُ كما يغمرُه، وكلَّما غَشِيَتْه صورةُ عظمةٍ تَرَدَّدَ في قلْبِه صوتٌ يُدَوِّي بينَ الأضلاعِ يقولُ: يا ربِّ، يا ربِّ. . . ! يكادُ ينفجرُ به اللسانُ لولا الحياءُ مِنَ اللَّهِ. . . فَيَرْتَجِفُ منه البدنُ، ويقشعرُّ الجلدُ، ويَرْبُو الشَّعرُ ثم يلين وهكذا . .

هذا نَشِيجُ القلبِ منْ أعماقِهِ. . . هذا إفضاءُ القلبِ إلى ربِّه القريبِ القريبِ. . . السَّميعِ البصيرِ، هذا حديثُ النَّفْس يَجري بحديثِ الإحسانِ مَعَ تصاعُدِ النَّفَسِ:

تَصاعُدُ أَنفاسي إليكَ جَوابُ وكلُّ إشاراتي إليكَ خِطَابُ

---

(١) أيها القارئ: اجعل قلبك يمارس هذا النوع من الحديث في هذا الحال، ليس في غسل الإحرام فحسب، إنما في كل غسل، وكل وضوء حتى يصبح هتاف الإحسان عندك في كل غسل، وفي كل وضوء وعند كل عضو وفي كل حال. . فيا لها من لذة.

فكيفَ تَوَانى الخَلْقُ وقد بَدا جَمالٌ بِه قَد هامَتِ الألْبابُ

هَأنَذا يا ربِّ أغتَسلُ للإحرامِ كَمَا اغتسلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، فاجْعلْه يا ربِّ غُسْلًا لظاهرِي وباطِني، غُسلاً لصحيفتِي وسيِّئاتي، غُسْلًا يَغْسِلُ ذنوبي فلا يُبْقِي منها شيئاً. . .

ليستْ هذه أحاديثَ أوهامٍ، ولا وساوسَ في جَنَانٍ. . . إنَّما هي لُغةُ المُتَفكِّرينَ الفَصِيحةُ إذْ قلوبُهم صَاعدةٌ في مَنْزلةِ الإحسانِ. . لغةٌ تَجعلُ القلبَ - حينَ الغُسْلِ - يقولُ ويقولُ، وممَّا يقولُ:

يا ربِّ، إذا طَمَعَ الوافدونَ عليكَ اليومَ بِالمغفرةِ في خِتامِ رِحْلتِهم، فأنا يا ربِّ رَاجٍ مِنْ فضلِك أن تجعلَ هذا الغسلَ غاسلًا لكلِّ ما سَبَقَ مِنْ ذُنوبي، كي أَقْصِدَكَ إلى بيتِك، إلى حيثُ أَمَرْتَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، أدخل أرض الإحرام طاهراً . . أقصدَكَ ذاكراً شاكراً ملبياً. . . والفضلُ منك وَحْدَكَ لا شريكَ لك. .

فاللَّهم اجْعَلْهُ غُسْلًا يُزيلُ أَدْرَانَ صحيفتي، كما يُزيلُ هذا الماءُ أَدرانَ جَسدي. .

يا ربِّ، يا مَنْ خَلَقْتَ هذا الماءَ الشَّفَّافَ، فلا طعمَ ولا لونَ ولا رائحةَ، تَقبَّلْ مني غُسْلي فأنا يا ربِّ أرجو الطهارةَ لِقَلْبي والفوزَ له حتَّى يُصْبحَ طاهراً مُطَهَّراً سليماً مُنيراً.

يا ربِّ، كما مكَّنتني من غسل بَدَني بِيَدِي وإزالةِ أَدْرانِه، فأنا أُوْكِلُ إزالةَ كلِّ شهوةٍ مُحَرَّمةٍ، وشُبْهَةٍ، واستلالَ كلِّ سَخِيمةٍ مِنْ قَلبي إليكَ يا ربِّ. . . .

يا رب، لِأَنَّ أمرَ الوِفادةِ عليكَ عظيمٌ، والحدثَ كبيرٌ، كانت البدايةُ هنا عظيمةً، فلم تكنْ بدايةً بالوضوءِ، إنَّما بالماءِ الذي يَعُمُّ الجسدَ كلَّه، ومِنْ

بعدِهِ الصَّلاةُ. . . فنقطةُ الانطلاقِ. . . نُقْطَةُ النُّور الأُولى، نقطةُ المغفرةِ الأولى هو هذا الغُسْلُ، فاجعلْه اللَّهم مِفتاحَ أحسنِ وِفادةٍ لي عليكَ منذُ أن خَلَقْتَني إلى هذا اليومِ. .

أنا لا أَسْتَشْعِرُه يا ربِّ مُجَرَّدَ ماءٍ يَعُمُّ جَسدي، إنَّما هو نورٌ يتغلغلُ إلى القلبِ، ومَغْفِرةٌ تُخَفِّفُ عنِّي أثقالًا وأثقالًا. .

فلْيَفِضِ الماءُ على كلِّ عضوٍ، وقلبي معه يتحسَّسُهُ، يتحركُ معه، ولكلِّ عضوٍ يَمُرُّ عليه الماءُ هُتَافُهُ، وهو مشدودٌ باللَّهِ يناديه ويناجِيه يا ربِّ، يا ربِّ، يا ربِّ. . . وربِّي لَا تخفى عليه خافية . . . .

يا ربِّ، أسألُك ألا تُحْرِقَ هذه الأعضاءَ بالنَّارِ، فأنا يا ربِّ ضعيفٌ لا أَقوَى على عذابِك. .

يا ربِّ، هذا وجهِي الذي يَفيضُ عليه الماءُ - الآنَ - لَمْ ولَنْ يَتَوَجَّهَ لغيرِكَ بفضلِكَ، فاجعلْه بفضلِكَ ممن قُلْتَ فيه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

يا ربِّ، هاتانِ يَدَايَ. . اغسِلْهما منَ الذنوبِ، واجعلْ عَمَلَهُمَا مُقْتَصِراً على طاعتِك بفضلك. .

يا ربِّ، هذا بَطْنِي لا تَجعلْه وعاءً للحميمِ، ولا مِنَ البطونِ التي يَغْلي بها الزَّقُّومُ فيصهر ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد.

يا ربِّ، هذه رِجْلِي وذاكَ الصراطُ فاجعلْني يا ربِّ مِنَ العابرينَ عليه كالبرقِ إذا خَطَفَ.

يا ربِّ، هذا الغُسْلُ لأجلِكَ، وهذا البَدَنُ أَغْسِلُه وأَدْلُكُه لأجلِكَ. . .

فاجْعَل خيرَ غُسْلٍ لي يومَ أُغسَّلُ ولا أَغْتَسِلُ، ويُهْرَاقُ عليَّ الماءُ ولا أَتَحَرَّكُ . . .

واخوفاه مِنْ ذلكَ اليومِ، فاللَّهمَّ الإحسانَ بِحُسْنِ الخاتمة . .

يا ربِّ، إني لا أسألُكَ ذلكَ! لا أسالُك غُسْلًا ولا أكفاناً . . أسألُك شهادةً في سبيلِك مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، بعدَ طولِ حياةٍ مع العافية على طاعتِك وحُسْنَ عَمَلٍ .

يا ربِّ، اجعلْ في هذا الغسلِ تهيئةً حقيقيَّةً لي لأَدْخُلَ في إحرامِ الوِفادةِ عليكَ، مُسْتحقًّا وَصْفَ المُحْرِم الوافد على أَكْمَلِ وُجُوهِهِ . .

لنْ تُدْرِكَ أيُّها القارئُ، ما لِلَذَّةِ الإحسانِ في الاغتسالِ، ما لَمْ تُمارِسْها حقيقةً، ما لَمْ يتحركْ قلبُك نحوَ ربِّك بالخِطابِ الصَّادقِ، الخطابِ القريبِ القريبِ، الخطابِ الذي لا يحتاجُ إلى أَحرفٍ، إذ القلبُ يرفع الرِّسالةَ والحديثَ، واللَّهُ به أعلمُ سبحانه . . .

جرِّب حديث القلب يرفعه لرِّبه صادقاً خاشعاً مع هذا الغسل وكلِّ غسل مع كلِّ وضوءٍ وسوف يتعوَّده قلبك شيئاً فشيئاً، يتحدَّث مرَّةً وينسى مراراً، يتحدَّث بمثلِ هذَا الَّذِي ذكرَ أو بغيرِهِ، يقول جملًا وتصعب عليه الجُمل، وصناعة الأحاديث والتَّعبير عن عظيم تعظيمك للَّه في قلبك وعظيم قربه منك، كما هو الطفل في ابتداء كلامه، لكنَّه كلَّما تحدَّث تعود أكثر وأكثر حتَّى يتفتَّق لسانه فينطلق طبيعيًّا يتحدَّث متى أراد، وهكذا هو لسان القلب مع اللَّه، إنَّ التَّعظيم موجودٌ في القلب ولكن رَفْع تعظيم اللَّه للَّه في خطاب ترفعه للَّه حسب الموقف يُمكِّنك في منزلة الإحسان ويحولك إلى هذه المنزلة .

جَرِّبْهُ وسَتَرَاهُ يجرِي به النَّفَسُ، بل يَجرِي هو جَرَيانَ النَّفَسِ، وحديثُ قلبِك الذي شَهِدَ مَشْهَدَ الإحسانِ وَقْتَهَا يقولُ: يا ربِّ إنَّك تَعلمُ ما في نَفْسي، وأنا لا أملِكُ إلَّا أن أرفعَه مع نَفَسِي إليك، وكأنَّني أراك سبحانك.

اللَّهُ يعلمُ ما في النَّفْسِ جَارِحةٌ إلا وذِكْـرُكَ فيها نيلَ ما فِيها
ولا تَنَفَّسْتُ إلا كُنتَ في نَفَسي تَجري بكَ الروحُ مِنّي في مَجارِيها
إن كنتَ أضمرتَ غدراً أَو هممتَ بِهِ يَوماً فَلا بلغت روضى أمانِيهَا

جَرِّب الإحسانَ في الغُسْلِ، جَرِّبْهُ في الوضوءِ.. جَرِّبْهُ في الحياةِ... جَرِّبْهُ وانظرْ لَذَّةَ القلبِ...

فليسَ للغفلةِ في عُمُرِ المُحسنِ استقرارٌ ولا قرارٌ.. وما أطيبَ الاغتسالَ وأحسنَه، إذا وافَقَه الإحسانُ ورافَقَه.

وكأنَّ أجنحةَ الملائكِ عانَقَتْ أرواحَهُم بالبِرِّ والطاعاتِ
فَتَنَزَّلَتْ بينَ الضلوعِ سكينةٌ عُلْوِيَّةٌ مَوْصولةُ النَّفَحاتِ

فاللَّهم أعِنَّا على شكرِكَ وذكرِك وحسنِ عبادتك...

* * *

العيونُ الساقيةُ لـ:
«يا ربِّ: هأَنذا أَغْتسلُ لإِحْرَامك»

قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء ٤٨ - ٥٠].

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**كانَتْ بنو إسرائيلَ يَغْتَسِلونَ عُراةً يَنْظُرُ بَعْضُهم إلى بعضٍ، وكان موسى يغتسلُ وحدَه، فقالوا: واللَّهِ ما يَمْنَعُ موسى أَنْ يغتسلَ معنا إلا أَنَّه آدَرُ**[1]**، فَذهبَ مَرَّةً يغتسلُ، فوضعَ ثوبَه على حَجَرٍ، ففَرَّ الحَجرُ بِثَوْبِه، فخرجَ موسى في إِثْرِه يقول: «ثَوْبِي يا حَجَرُ، حتَّى نظرَتْ بنو إسرائيلَ إلى موسى، فقالوا: واللَّهِ ما بِموسى مِن بَأْسٍ، وأخذَ ثوبَه فطَفِقَ بالحجرِ ضَرْباً، فقال أبو هريرة** رضي الله عنه: «واللَّهِ إنه لَنَدَبٌ بالحَجَر سِتَّةٌ أو سَبْعةٌ ضَرْباً بالحَجَرِ»[2].

عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**مَن اغتسلَ يومَ الجُمعةِ فأَحْسنَ الغُسْلَ ثم لَبِسَ مِن صَالحِ ثيابِه، ثم مَسَّ مِن دُهْنِ بيتِه ما كُتِبَ أو مِن طِيبه، ثُمَّ لَمْ يُفَرِّقْ بينَ اثنين، كَفَّرَ اللَّهُ عنهُ ما بينهَ وبينَ الجُمُعةِ**»[3].

عن زيد بن ثابتٍ رضي الله عنه **أنه رأى النبيَّ ﷺ تَجرَّدَ لإهلالِه واغْتسلَ**[4].

---

(١) آدر: الأُدْرَةُ بالضَّمِّ: نَفْخةٌ في الخُصْيَة، يقال: رجل آدَرُ بَيِّنُ الأدَر بفتح الهمزة والدال، وهي التي تُسَمِّيها الناسُ القيلةَ «النهاية في غريب الأثر».

(٢) رواه البخاري (٢٧٤) ومسلم (٣٣٩).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ١٨٠) قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٤) رواه الترمذي (٨٣٠) وصححه الألباني.

ضَبْطُ القلبِ عندَ الميقاتِ

خَفَقَ القلبُ حين قَلَّبَتِ العينُ النَّظرَ فيما حولَها عندَ الميقاتِ، بعدَ دخولِ حدودِه بخُطواتٍ، نظرَتِ العينُ - في حدودها الجديدة - ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ..! نظرَتْ في السماءِ مِن هَا هُنا، ومِن هَا هُنا...! قالَ القلبُ لصاحبِه: لا فارق في المعالم الجغرافيَّة ولا الجويَّة بين ما قبل الميقاتِ وبينَ ما أنْتَ عليهِ بعدَ الميقاتِ، إنَّ الأرضَ هي الأرضُ! لا فاصلَ، لا شَقَّ، لا جَبلَ... السَّماءُ هِي السماءُ، النُّجومُ هي النُّجومُ، ما الفارق إذاً..؟!

أيُّها القلبُ، لا تَبْحَثْ عَن الفارقِ فيما حولَك، بَلِ الفارقُ في داخلِك، فإنْ لَمْ تَسْتَشْعرْ - أنتَ - الفارقَ فلا فارقَ..!

أيُّها الوافدُ، أَيْقِظِ القلبَ هُنا... فلَقَدْ تَبايَنَ الجَوُّ عن الجوِّ، واختلفَتِ الأرضُ عن الأرضِ، تَغيَّرَ الزمانُ عن الزمانِ، اختلفَ المَقامُ عن المقامِ، وما ذلك إلَّا لأنَّ اللَّهَ الذي له الخلقُ والأمْرُ، خالَفَ بين هذهِ وبين تلك في أحكامِه سبحانَه وتعالى، ولك أنت وحدك..

أيُّها المحرم خاصَّةً قِفْ هنا، واعْرِفْ ما ستقولُه الآن...!

اِعْرِفِ العهدَ الذي ستعاهدُ اللَّهَ - سبحانَه وتعالى - عليه الآن.

فما أوقفكَ اللَّهُ تعالى هنا إلا لِحِكْمَةٍ...! وما سمَّاه اللَّهُ «مِيقاتاً» إلا لحكمةٍ...!

فهَلْ أدركْتَ أيُّها القلبُ الحِكْمةَ...؟!

هلْ أَمَرَكَ اللَّهُ بإِلْقاءِ دَرَنِكَ بالاغتسالِ إلا لحكمةٍ..؟!

هل أَمَرَكَ اللَّهُ هنا أَنْ تخلعَ ثياباً وتلبسَ ثياباً أخرى إلا لحكمةٍ..؟!

هل أدخلَكَ اللَّهُ في هذا العالمِ الجديدِ، إلا لِيُخْرجَكَ مِن عالَمِك المُعْتادِ - أيًّا كان - إلا لحكمةٍ؟

إنَّكَ على أبوابِ عالمٍ جديدٍ! جديدٍ حتَّى على مَن كانوا قَبْلَه مِنَ الذَّاكرينَ الشَّاكرينَ الأتقياءِ... فَمَنْ أَتْقى مِن رسولِ اللَّهِ ﷺ..؟ ومَنْ أَتْقى مِن صَحابَتِه الكرام مِن بَعْدِه؟ ومع هذا فقدْ كانَ دُخولُ هذا الميقاتِ لهم دخولَ عالَمٍ جديدٍ: حُكْماً عَمَلِيًّا، والتزاماً فِعْلِيًّا، وذِكْراً قَلْبِيًّا، وهُتافاً وجُوديًّا، وسلُوكاً أخلاقيًّا، وإحساناً باطنيًّا وظاهريًّا...

تَوقَّفْ هنا، لِتُوقِّتَ قَلْبكَ مِن جديدٍ عندَ الميقاتِ، أَرْأَيْتَ كيفَ أيقظَ اللَّهُ بدنَك، وهِمَّتكَ بالاغتسالِ عندَ الميقاتِ....؟!

أرأيْتَ كيفَ أيقظَ اللَّهُ قلبَك ورُوحكَ بركعتين[1]...؟

هَا هِي التَّلْبيةُ بكلماتِها العُظْمَى، اِرْفَعْها، وبصوتٍ عَالٍ منكَ كصوتِ المُؤذِّنِ في الوجودِ...

أُدْخُلْ أيُّها القلبُ في هذا العالمِ... أُدخلْ أيُّها البَدنُ في هذا العالمِ، حينَ تَدْخُل هذا الميقاتَ..

ادخلْ أيُّها العبدُ، وأَقْبِلْ، واقتَرِبْ، ثُمَّ اقتربْ، ثُمَّ اقتربْ، فَوادِيك الذي وَطِئَتْهُ رِجْلاك الآن، غيرُ واديك الحلالِ الذي غادَرْتَه بخُطُواتٍ... فلقَدْ أصبحْتَ الآن مُحْرِماً !

أَقْبلْ... ولا تَخَفْ، أقبلْ ولا تَتوقَّفْ، أقبلْ فإنَّك الآنَ بِعَيْنِ اللَّهِ وعِنايتِهِ،

(١) أخذاً بالأصل ، وبما عليه أكثر أهل العلم من أن ركعتي الإحرام سُنَّة.

ومَحَطِّ نَظَرِه ورحمتِه. أَقبلْ... ولِتَتَوافَقْ قُواكَ كلُّها نحوَ الإقبالِ فقَدْ سلَك بكَ الاصطفاءُ هذا المَسْلكَ، لِتكونَ الآن ضِمْنَ وَفْدِ اللَّهِ حقيقةً..

أَقبلْ... ولِتَنْطَلِقْ ساعياً نحوَ بيتِه، ولْيُقْبِلْ لسانُكَ بالتلبيةِ إليه سبحانَه وحدَه..

إذاً: أَقْبلْ بِكُلِّيتك ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٧-٢٠٨].

يا لَقَلْبي ما أَحْظاهُ، يا لَسَعْدي ما أَهْناهُ، يا لَربِّي ما أكرَمَه..! فأيُّ داخلِين في حِمَى قُرْبٍ وتَقْريبٍ مِثْلِنا - الآن - إِذْ نَدْخلُ أرضَنا هذه، في قُرْبِنا هذا.؟

كيفَ لا وهُنا يَنطلقُ هُتافُ الإحسانِ المباشرِ، وخِطابُ مَن يعبدُ اللَّهَ كأنَّه يراه مِن خلالِ أَحْرُفِها الكريمةِ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ في رِحلةِ الوفادةِ على اللَّهِ....

«**لَبَّيْكَ اللَّهمَّ لبَّيْكَ، لبَّيك لا شريكَ لكَ لبَّيكَ، إِنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لك والمُلْكَ، لا شريك لك**» **أَهِيَ نُقْطةُ الميقاتِ**، أَمْ أنَّها نقطةُ انطلاقِ السِّباقِ في سَيْرِ المُحْسنينَ إلى اللَّهِ بخُطُواتِ القَدَمِ على الأرضِ، وخُطواتِ القلبِ في مَعارجِ الإحسانِ..

أُحِبُّ لقاءَ اللَّهِ لَسْتُ مُفَسِّراً ... أُفسِّرُ ماذا؟ حُبُّهُ لا يُفسَّرُ
ويَأْبَى بَياني أَنْ يَفيضَ مُعَبِّراً ... لأنَّ عميقَ الحُبِّ ليسَ يُعَبَّرُ
وتأبى جِراحي أَنْ تَضُمَّ شِفَاهَها ... كأنَّ جِراحَ الحُبِّ لا تَتَخَثَّرُ[1]

(١) «السبيل المورود قصة رحلة الخلود»، د.عبد السلام مقبل المجيدي (ص ٧٣).

العيونُ الساقيةُ لـ:
«ضَبْطُ القلبِ عندَ الميقاتِ»

قالَ تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بينَما رَجُلٌ واقفٌ بعرَفةَ، إِذْ وقعَ عن راحلتِه، فَوَقَصَتْهُ، أو قالَ: فأوْقصتْهُ، قال النبيُّ ﷺ: «**اِغْسِلوه بماءٍ وسِدْرٍ، وكَفِّنُوه في ثَوْبينِ، ولا تُحنِّطُوه، ولا تُخَمِّروا رأسَهُ، فإنَّه يُبْعَثُ يومَ القيامةِ مُلَبِّياً**»(١).

عن الضَّحاكِ بنِ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: إنَّ اللَّه تَبارَكَ وتعالى يقولُ: «**أنا خيرُ شريكٍ، فمَنْ أَشْرَكَ معي شَريكاً فهو لشريكي، يا أيُّها النَّاسُ: أَخْلِصوا أعمالَكم لِلَّهِ، فإنَّ اللَّهَ تَبارك وتعالى لا يَقْبلُ مِن الأعمالِ إلا ما خَلَصَ لَهُ، ولا تَقُولوا: هذهِ لِلَّه ولِلرَّحِم فإنَّها لِلرَّحِم، وليسَ للَّهِ منها شيءٌ، ولا تقولوا: هذا للَّهِ ولِوُجُوهِكُم فإنها لِوُجُوهِكُم وليسَ للَّهِ فيها شيءٌ**»(٢).

عن واثلةَ بنِ الأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ سنَّ سُنَّةً حَسنةً فلَهُ أَجْرُها ما عَمِلَ بها في حياتِه وبعدَ مماتِه حتَّى تُتْرَكَ، ومَنْ سَنَّ سُنَّةً سيئةً، فعليْهِ إِثْمها حتَّى تُتْرَك، ومَنْ ماتَ مُرَابِطاً في سبيلِ اللَّهِ جَرى له أجرُ المُرَابِطِ حتَّى يُبْعثَ يومَ القيامةِ**»(٣)(٤).

---

(١) رواه البخاري (١٢٠٦) ومسلم (١٢٠٦).

(٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٧٩) رواه البزار، قال الألباني: صحيح لغيره، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٧).

(٣) رواه الطبراني (١٨٤) وصححه الألباني، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٥).

(٤) وسر الرابط ما بين الباب وبين هذا الحديث هو أنه إذا دخل المحرم في هذهِ السُّنَّة =

اللَّهم حَجَّةً لا رِياءَ فيها ولا سُمْعَةَ[١]

بهذهِ الكلماتِ الكاملاتِ خاطبَ النبيُّ ﷺ عندَ إحرامِه ربَّه، مُعْلِناً، ومُعاهِداً..

«**لا رياءَ فيها ولا سُمْعةَ**»: فهَلْ مِن عنوانٍ للإخلاصِ مِثْلَ هاتَيْنِ الكَلِمتَيْنِ، وهَلْ مِن ضَابطٍ لِلْحَجِّ الخالصِ أو العُمْرَةِ الخالصةِ، مِثْلَ هَذينِ الضابِطَيْنِ؟

«**لا ريــاءَ فيهــا، ولا سمعة**»: فمَنْ عَمِـل بهـذَيْن الشَّـرْطَيْنِ مِثْـلَ محمـدٍ رسـولِ اللَّهِ ﷺ؟

«**لا رياءَ فيها ولا سُمْعةَ**»: فإذا كانَتْ حَجَّةٌ - أو عمرةٌ - لا سمعةَ فيها ولا رياءَ، فماذا سيكونُ فيها غيرَ الإخلاصِ والإحسانِ..؟!

وإذا لَمْ يكن فيها نَصيبٌ لِأَحَدٍ من المَخْلوقينَ، فَلِمَنْ غيرُ اللَّه ستكون؟

«**لا رِياءَ فيها ولا سُمْعة**» ظاهراً وباطناً.

«**لا رياءَ فيها ولا سُمْعة**» قَوْلًا وفِعْلًا، وقَبْلَ ذلكَ نِيّةٌ.

«**لا رياءَ فيها ولا سمعة**»... وكفى..!

= العظيمة - الإحرام - ورأى حشود المحرمين التي لا تنقطع طوال العام وإلى آخر الدنيا عَلم أن أجرها لمن سنّها اللَّه على يديه، عندها تثور هِمّة المحرم أملًا ودعاءً أن يجري اللَّه على يديه سُنَّةً حسنةً يتتابع الناس عليها، ويجري له أجرها، ولو في بلده.

(١) جزء من حديث رواه ابن ماجه (٢٨٩٠) كتاب: المناسك، باب: الحج على الرحل، من حديث أنس بن مالك، وصححه الألباني.

أَنْزِل - أيها العبد - هَذينِ الضابطينِ على وِفادَتِكَ. . . أَعْلِنِ الضابطينِ مُعَاهداً ربَّكَ سبحانَه. .

أَلغِ الحديثَ عن نَفْسِكَ، عن مناقِبِكَ، عن أُسْرَتِك وآلِكَ، عن صفاتِك، عن تاريخِك.

إيَّاكَ اليومَ أَنْ تقولَ: «**أنا**» في أيِّ حديثٍ مُتَفاخراً مُعْتدًّا، إلا في مَقامِ التَّذَلُّلِ الصَّادقِ، ومَزيدِ العبوديَّةِ الحقَّةِ، لا العبوديةِ التمثيليَّةِ، وفي مَقامِ السَّبْقِ في الخِدْمةِ، وتَحمُّلِ المزيدِ مِن التَّكاليفِ. .

يَتجلَّى في هذا الخِطابِ من النَّبيِّ ﷺ أعلى مَعاني الإحسانِ. . . إِذْ هو خِطابٌ خَالصٌ صادقٌ، يرفعُه العبدُ إلى ربِّه سبحانَه. . وهو إِذْ ذاكَ يُخَاطِبُهُ خِطابَ مَنْ كأنَّه يراهُ سبحانَه فيقولُ لَهُ: **اللَّهمَّ**. .

يُعْلِنُها النبيُّ ﷺ **أمامَ الناسِ**، ولا يضرُّ إعلانُها أمامَ النَّاسِ في الإخلاصِ. . .

ويُعْلِنها كلُّ مَنْ وَقَفَ ذلكَ الموقِفَ مِمَّنْ سلَكَ طريقةَ سيِّدِ المُرْسلينَ ﷺ. .

يُعْلنُها من مَقامِها فَيَرْتَقي على سُلَّمِ أَحْرفِها الذي وُضِعَتْ له «**اللَّهم**» إلى مقامِ الإحسانِ. .

لكِنْ، أَيَحِقُّ لِمَنْ لَمْ يَسْتَشْعِرْ ما فيها من عظمة الإحسان أَنْ يُنكِرَها أو يُنْكرَ على مَنْ عاشَها، وقالَها في مقامِها وكأنَّه يرى اللَّهَ سبحانَه. .؟!

يعلنُها الحاج أمامَ الخلق غيرَ مُبالٍ بأَحدٍ ولا عَابئٍ برِياءٍ ولا سُمْعةٍ. . إِذْ مَن يَسْتحقُّ هنا التفاتةً وقد تَجلَّتْ له منزلةُ «كأنَّي يا ربِّ أراك». .؟

«**لا رياءَ فيها ولا سمعةَ**»: إنَّ النَّفْسَ حِجابٌ دونَ الإخلاصِ، وإلَّا: فلماذا التَّسْميعُ إلَّا محبَّةَ السُّمْعةِ، ولماذا المُراءاة بعملها إلَّا محبَّة رؤية عملها وجَعْلَ العملِ الخفيِّ على مَرْأى الناسِ ومَسامعِهم؟

لكنَّني اليومَ أتجاوزُ هذا الحجابَ.. لَنْ أُبالي به.. فـ«**لا رياءَ**» لكِنْ ثَمَّةَ نقطةٌ هي في غايةِ الدِّقةِ، وطالَما غَفَلَ المُتناولونَ لهذا الأمْرِ عنها، تلكَ هي: أَنَّ إخلاصَ النَّبيِّ ﷺ كان سِمَته الدائمة، في كلِّ عملِه وحاشاه أن يُسمِّع ويرائي في عملِه... بينما هو اليومَ يُعلِّمُنا معنىً جديداً للإخلاص، إنَّه ﷺ لا يُخْفي شيئاً مِن عملهِ الصالحِ، لا يُخْفي هَيْئَتهُ المُتَواضعةَ، لا يُخْفي زَامِلَتَهُ وزادَه، لا يُخفي صوتَه المُرْتفعَ، لا يُخْفي دعاءَهُ الطويلَ، لا يُخْفي ولا يتخفَّى، بل هو ظاهرٌ على ناقتِه بين النَّاسِ، مُظْهرٌ عملَه أمامَ أَعْينِ النَّاسِ.. وعلى هذا كان هَدْيُ أصحابِه مِن بَعْدِه، وهَدْيُ السَّلفِ في الحَجِّ على الأخصِّ..

فالإخلاصُ اليومَ لا يعني إخفاءَ العبادةِ، إنَّ العبد لا يَعْبأُ، أَظَهَرَ العملُ أمامَ النَّاسِ أَمْ لَمْ يَظْهَرْ، بل هو إعلانُ الإخلاصِ في الظَّاهرِ كما هو مُسْتقرٌّ في الباطنِ، كَما وَرَدَ في الحديثِ، وما ذلكَ - واللَّهُ أَعْلَمُ - إلَّا لأمورٍ عِدَّةٍ مِن أَعْظمِها: أَنَّ الإخلاصَ قَدْ تَرَسَّخَ بمُرورِ العَبْدِ في شهرِ رمضانَ - شهرِ التقوى ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٣] - فلَكأنَّ رمضانَ قد رَبَّى المسلمَ على التَّقوى الباطنيَّةِ. والصَّومُ سرٌّ خالصٌ، والصَّومُ لِلَّهِ وحدَه، والصَّومُ نِيَّةٌ دائمةٌ لا يَعْلمُ بِنَقْضِها لو نُقِضَتْ إلا اللَّهُ ثُمَّ صاحبُها، وربُّ العالمينَ يقولُ: «**الصَّومُ لي**»[1]

---

(١) رواه البخاري (٧٠٥٤) كتاب التوحيد: باب: قول اللَّه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ ومسلم (١١٥١) كتاب: الصيام باب: فضل الصيام.

وبهذا، ترسخ قدم العبد في الإخلاص ويرسخ الإخلاص في باطنه، ثمَّ يأتي الحجُّ بعدَه لِيُصْبِحَ الإخلاصُ عَلَناً، ابتداءً بالنيةِ، ومروراً بكل مَنْسَكٍ مِن المَناسِكِ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

فالإخلاصُ شجرةٌ غُرِسَتْ في رمضانَ وترسَّخَتْ، ثمَّ عَلَتْ في الحجِّ وأثمَرتْ..

وعليه فإنَّ إعلانَ الإخلاصِ - هنا - لا يُنافي الإخلاصَ كما يَتوهَّمُ البعضُ... إذ إنَّه إعلانُ العملِ أمامَ النَّاسِ، مِن غيرِ أيِّ فَخْرٍ أو رِياءٍ أو كِبْرٍ أو نَحْوِ ذلك.. هنا إعلانُ الإخلاصِ اتِّباعاً لسيِّدِ المخلصينَ ﷺ...

هنا لا التفاتَ إلى تخويفاتِ الشَّيطانِ وَوَساوِسِه بالرياءِ والسُّمْعةِ، هنا الإقدامُ على العبادةِ... هنا يُصْبِحُ الخائفُ والمُحْجِمُ والمُتَصاغِرُ هو: الشيطانُ نعوذُ باللَّهِ منه..

كُنْتُ يا ربِّ قبلَ اليومِ أَتَخوَّفُ الرِّياءَ فأَخْتَفي عن أعينِ النَّاسِ، وأنا اليومَ يا ربِّ لا أَتَخفَّى عن أعينِهم على كَثْرتِهم لأنِّي لا أرى مَعْبوداً سِواكَ، فقَلْبي يَهْتِفُ مع لساني: «لَبَّيْكَ اللَّهمَّ لبَّيْكَ، لَبَّيكَ لا شريكَ لكَ لبَّيكَ، إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لَكَ والمُلْكَ، لا شريكَ لَكَ».

يا ربِّ لَو حاولْتُ اليومَ التَّخَفِّيَ عن أعينِ النَّاسِ فربَّما لَنْ أستطيعَ، وذلكَ لأنَّ النَّاسَ مَلَؤُوا السَّهلَ والجبلَ، والبرَّ والبحرَ، فهلْ أختارُ تَرْكَ العملِ على إظهارِه؟! لا واللَّهِ، فَلْيَظْهَرِ العَمَلُ أمامَ النَّاسِ، ولْيَبْقَ الإخلاصُ حقيقةً للَّهِ وحدَه سبحانَه.

يا ربِّ إنَّ الذي يُمْكنُ أن يُظْهِرَهُ العبيدُ أمامَ العبيدِ اليومَ ليسَ إلا إظهارَ التذلُّلِ،

والتَّواضعِ، والبَذَاذَةِ، والخَشْيَةِ. وهَلْ أدلَّ على الإخلاصِ مِن هذهِ الأمورِ..؟

يا ربِّ هل تُوجدُ ساحةٌ لسِباقِ العبيدِ إليكَ في هذهِ الأرضِ مِثْلَ ساحاتِ المَناسكِ وما حولَها...؟ فهلْ يَتَخَفَّى المُتسابقُ عن أعينِ المُتسابقينَ إذا انطلقَ السِّباقُ، وازْدحَمَ المَطَافُ، واشْتَدَّ السَّعْيُ، وانبسطَتِ الأكُفُّ بالدعاءِ، وتسابقَتِ الأيدي بالعَطاءِ، وانحنت الظهور للخِدْمةِ، بينما تَسابُقُ القلوبِ أكبرُ..؟!

هُنا لا اهتمامَ بالنَّاسِ، ولا تخوُّفَ مِن رياءٍ ولا سُمْعةٍ عندَ الصَّادقينَ..

هُنا لا اعتبارَ لقَوْلِ النَّاسِ بأنَّكَ مُرَاءٍ، ولا اعتبارَ لقولِ النَّفْسِ وتَشْكِيكِها، ولا اعتبار للمز المشكِّكين في المطوِّعين بالإنفاق من المؤمنين..

هُنا الإعلانُ أمامَ حُشود المؤمنين أمامَ وفدِ اللَّه، وسينزوي الشَّيطانُ خاسئاً باكياً وهو حسيرٌ...

قال ابنُ القيِّم: كان بعضُ الصحابةِ يُكْثِرُ التَّلبيةَ في إحرامِه ثم يقولُ: **لو كان رياءً لاضْمَحَلَّ**[1].

قال الإمامُ أحمدُ في «الزهدِ»: كان ابنُ أبي نعيم يُحْرِمُ من السَّنَةِ إلى السَّنَةِ ويقولُ في تلبيتِهِ: لبيكَ، لو كان رياءً لاضْمَحلَّ، لبَّيك..

لا يتوهَّمْ أحدٌ أن المرادَ أَنْ يتفاخرَ الرَّجُلُ بِعَمَلِه أو يقولَ عن نَفْسِه، ويُسمِّعَ ويُرائي فهذا مُناقضٌ لكلِّ عَمَلٍ، كما أنَّه مُنافٍ لقولِه: «**لا رياءَ فيها ولا سمعةَ**».. ومِثْلُ هذا الوهم يَنْبُعُ مِمَّنْ رَبَط الإعلانَ عن العملِ مع الإخلاصِ رَبْطاً عكسيًّا، وكأنَّ كُلَّ عملٍ مُعْلَنٍ هو عملُ رياءٍ...لا، بَلْ إنَّ

(١) مدارج السالكين (٣/ ٩١).

القويَّ لا يُظهِرُ اليوم على الضِّعافِ قُوَّتَه كما أوصى النبيُّ ﷺ عُمَرَ رضي الله عنه ، بل يُشْرَعُ له إظهارُ ضَعْفِه ولينه ورِقَّتِه، وهذا هو الإخلاصُ..

والغنيُّ لا يُظْهِرُ غناه بل يُنْفِقُ ولا يُبالي بإظهارِه، كما قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ لك مِن الأجرِ على قَدْرِ نَصَبِكِ ونفقتكِ**»(١).

كان حكيمُ بنُ حزام رضي الله عنه يَقِفُ بعرَفةَ ومعَهُ مِائةُ بَدَنَةٍ مُقَلَّدَةٍ، ومِائةُ رَقَبةٍ فَيُعْتِقُ رقِيقهُ فَيَضِجُّ النَّاسُ بالبُكَاءِ والدُّعاءِ، يقولونَ: ربَّنا هذا عبدُك قد أعتقَ عبيدَه ونحنُ عبيدُك فأَعْتِقْنا، «وجَرى للنَّاس مرَّةً معَ الرشيدِ نحوُ هذا»(٢).

يا ربِّ، قَدْ عرفْتُ اليومَ أَنَّ مزيدَ الإحسانِ يدفعُ العبدَ لمزيدِ الإخلاصِ، فَمَنْ عبدَ اللَّهَ كأنَّه يراهُ لَمْ يَعْبَأ بما يراهُ من البَشَرِ، إذْ هو كأنَّه يرى اللَّه تَعالى..! بل هو دافعٌ لمزيدٍ مِن الإحسانِ..

فلا يزيدُني عِلْمُ الناسِ بقراءتي وتَحْسِينهم لِصَوْتي إلا مزيدَ التزيينِ لَهُ وتَجْميلَه كما قال أبو موسى رضي الله عنه : «**لو عَلِمْتُ بِكَ لحَبَّرْتُهُ لَك تَحْبيراً**»(٣).

ومَنْ كان خَطيباً دَفَعه اتِّهامُ الشَّيطانِ له بالرِّياءِ لمزيدِ إحسانٍ لِلَّهِ وحدَه، غيرَ عابِئٍ بِوَساوِسِ الشَّيطانِ وتَخْذِيلاتِه، فهذا الخطيب يزيدُ الخُطْبةَ حُسْناً،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١٧٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٦٠).

(٢) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي ص ٢٨٨ .

(٣) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: استمع رسول اللَّه ﷺ قراءتي من الليل، فلما أصبحت قال: «**يا أبا موسى استمعت قراءتك الليلة، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**». قلت: «يارسول اللَّه، لو علمت مكانك لحبرت لك تحبيراً»، رواه ابن حبان (٧١٩٧)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده على شرط مسلم.

ويَنْتقي أبلغَ العباراتِ تأثيراً، ويُخْرجُها في أَحْسنِ حُلَّةٍ إِخْراجاً، وما ذلكَ إلا إِحْساناً في تبليغِ رسالةِ الإسلامِ، ومزيدِ تعبيدِ الناسِ لربِّهم وتَحْبِيبهم إليه سبحانَه.. وفي كلِّ هذهِ وَرَدَتِ النصوصُ صحيحةً.. وربُّنا سبحانَه وتعالى يقولُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

* * *

العيونُ الساقيةُ لـ:
«اللَّهمَّ حَجَّةً لا رِياءَ فيها ولا سُمْعةَ»

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**الحاجُّ الشَّعِثُ التَّفِلُ**»(١).

عن أَنَسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: حَجَّ النبيُّ ﷺ على رَحْلٍ رثٍّ، وقطيفةٍ خَلِقَةٍ تُساوي أربعةَ دَراهم، أو لا تُساوي، ثمَّ قال: «**اللَّهم حَجَّةً لا رِياءَ فيها ولا سُمْعة**»(٢).

عن جابرٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**الحَجُّ المَبْرورُ ليس لهُ جَزاءٌ إلا الجنَّةَ**» قيل: وما بِرُّهُ؟ قال: «**إطعامُ الطَّعام وطيبُ الكلامِ**»(٣).

عن عائشةَ رضي الله عنها، أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال لَها في عُمْرَتِها: «**إنَّ لَكِ من الأَجْرِ على قَدرِ نَصَبِكِ ونفقتكِ**»(٤).

* * *

(١) رواه ابن ماجه (٢٨٩٦) وضعفه الألباني في «السنن»، لكن قال في «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٣١): حسن لغيره.

(٢) رواه ابن ماجه (٢٨٩٠) وصححه الألباني.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٨٤٠٥)، وقال الألباني: صحيح لغيره، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٠٤).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٧٣٣) وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١١١٦)، النصب: هو التعب وزناً ومعنى.

كم في لبس الإحرام من تربية[١]؟!

فلأجل الإنابة والإخلاص لك ربنا تخلصنا من كل الثِّياب حتَّى السَّراويلِ وَالأحْذيةِ. . . كَشفنَا لكَ الرُّؤوسَ فلَا غطاءَ ولا زينةَ ولا عقالَ ولا عِمامةَ، فتساوتِ الرُّؤوسُ سَواءً منها الرئيسُ والمَرؤوسُ أمامكَ ربَّنا سبحانكَ. . . توحيدٌ فِي المظهرِ لابَّد أنْ ينطبعَ فِي المَخبرِ. . تَجرَّدَنا لكَ مِنْ كلِّ مَا سلفَ مِنْ ملابسِ الأقوامِ، ومَا وجدنَا عليهِ الآباءَ لنعلنَ لكَ بَرَاءتنا مِنْ كلِّ مألوفٍ نهيتَ عنهُ، أو نهَى عنهُ حبيبُك ﷺ، اتباعاً لنبيك ﷺ في كلِّ شيءٍ؛ حتَّى لوْ كانَ ذلكَ ألصقَ شيءٍ بأجسادِنا بَلْ لوْ كانتْ عمائمُنا الَّتي علَى رُؤوسنا. . . حتَّى لوْ كانَ زيَّ آبائِنا وأجدَادِنا. . . فَإنَّا إذَا مَا نفرنَا مِنهَا اليومَ لَنحنُ أقدرُ علَى التَّخلصِ ممَّا هُو دُونها من المَظاهِرِ.

تصَّور أيُّهَا العبدُ نَفْسَك بهذَا المظهرِ فِي بلادِكَ، بينَ قومِكَ فِي عملِكَ. . . أَلَا تكونُ غَرِيباً. .؟ أتستطيعُ أنْ تمشِيَ بينَ النَّاسِ؟! لكنْ لمَّا أمرَ اللَّهُ به؛ كُشفتْ لأجلِهِ الرُّؤوس، وخُلعتْ الأَنعُلُ، واستُبدلَت السَّراويل والقُمُصُ.

سبحان اللَّه! كيف ذابت شارات الأوطان في زي حجَّاج وعمَّار بيت اللَّه الحرام. .؟!

كيف نُسفت الوطنيَّة والقوميَّة في هذه الحالة التشريعيَّة وهذه البقعة من الأرض؟

---

(١) تأمَّل جيداً حكم لبس الإحرام ثم حكم كشف الرأس.

سبحان اللَّه! كيف ارْتَدت الأمَّة زيًّا واحداً رغم تباعد أطرافها، وأن القادمين جاؤوا من كلِّ فجٍّ عميقٍ؟!

حتَّى الطِّيب باختلاف أنواعه وألوانه وأثمانه على الإحرام ممنوع.. أما على البدن فلا بأس قبل الإحرام بل هو سنَّةٌ؟

هل رأت البشريَّة عدلًا برضاً، ومساواةً بِمَحبَّةٍ، وتواضعاً برغبةٍ في تاريخها كلِّه مثل هذه الحالة؟!

رسالةٌ عظيمةٌ لو استطعنا أن نجعل غير المسلمين يقرءونها قراءةً صحيحةً لربَّما كان نصر اللَّه والفتح بالدُّخول إلى دين اللَّه في أيَّام الحجِّ، وذلك من صورة الإحرام خاصَّة والمناسك عامَّةً؟

يَا ربِّ، ألمحُ حكمةً عظيمةً وَراءَ هَذهِ العَظَمةِ التَّشريعيَّةِ بكشفِ الرُّؤوس واسْتبدِالِ الثِّيابِ؛ تلكَ هِيَ تَجريدُ الاتِّباعِ لنبيِّكَ ﷺ، والتَّخلص مِنْ كلِّ تشبهٍ للذِينَ نَهَى نبيُّكَ ﷺ عَنِ التشبُّه بِهم... فَمنِ اتَّبع رسولَ اللَّه ﷺ في مَظهرِه كلِّه، وبلبسهِ المُباح لهو أقدر أنْ يتجنَّبَ التشبُّه بِمَنْ نُهِي عَنْ التَّشَبُهِ بِهِمْ في بَقيَّةِ حَياتِهِ.

يا ربِّ سُبحانكَ مَا أعظمَ حكمتَك بكلِّ شيءْ! فِي هذَا المَلبسِ، وحكمتكَ تَحْديداً فِي اسْتبدالِ ثيابٍ أخرى بهذِهِ الثِّياب إلَّا الرأسَ، فحقُّه الكشفُ وأيُّ غِطاءٍ مباشرٍ لهُ فَحقُّه عقاب صاحبه بمَا شرعتَ ربَّنا.

فسُبحانكَ ربَّنا يَا مَنْ ذلتْ لهُ الرُّؤوس وخَضَعتْ وَأَذْعَنَتْ وهِيَ مرتفعةٌ مِنْ غيرِ سُجودٍ...

فَلو غُطِّيتْ هَذِه الرُّؤوس أوِ استبدلَ بغِطَائُها غيره مِنَ الأغْطيةِ لبقِيَ فِي

اسْتجابتِها بقيةٌ لمْ تبلغْ مرحلةَ التَّجردِ، وَلَبقِي السُّجود مَظْهراً فَريداً في ذلِّ الرُّؤوس للَّه ربِّ العَالمِينَ، ولبقِيَ ذلُّ الرُّؤوس مُقتصراً علَى حالِ وَضْعهَا فِي الأرضِ عندَ السُّجودِ للَّه ربِّ العَالمينَ، لكنْ أَبَى اللَّهُ إلَّا أَنْ تعلنَ خُضوعَها لهُ بهذَا الإحْرامِ وبإزالةِ الأغْطيةِ عنهَا دُون بقيَّةِ أعْضاء الإنْسانِ في الإحْرام، حتَّى وإن كانت والرؤوس مَرفوعةٌ كعَادتِها علىَ البدَنِ كلِّه، مُتذللةٌ للَّه ربِّ العَالمِين... وهيَ قاعدةٌ... وهِيَ متوسدةٌ... وهِيَ مستيقظةٌ... وهِيَ نائمةٌ... وهِيَ مَاشيةٌ... وهِيَ متوقفةٌ... فِي كلِّ حَالاتِها وكلِّ تقلباتِها... لَا لَا يجوزُ تغطيتُها.

حتَّى العبادَ الذينَ عُرْفُهم كشفُ الرُّؤوس فِي أَقْوامِهم اليومَ يكشفونَ رؤوسهم لكَ يَاربِّ تَعبُّداً وَرِقًّا لا كشف عادةٍ وعرفٍ... يكشفونهُا وينقطعُ خيارُهم الَّذي كانَ لديهمْ مِنْ قبلُ لوْ أرادُوا تغطيَتها...

يَا ربِّ، أرى نفسي وأنا في إحرامي أصلِّي.. واقفاً بين يديك كاشفاً لك عن رأس.

إنَّها عبادةٌ فوق عبادةٍ؛ ذَلُّ الوُقوفِ بين يديك معَ ذلِّ كشفِ الرَّأسِ، ذلُّ الانحناءِ لك بالرُّكوع معَ ذلِّ كشفِ الرُّؤوس، ذلُّ السُّجود لك بوضعِ الرُّؤوس بالأرضِ مع ذلِّ كشفِها لله ربِّ العَالمينَ.

فأيُّ رفعةٍ ينتظرُها عبدٌ أكملَ تذلُّله، وضاعفَ تذلُّله للَّه ربِّ العَالمينَ... ياربِّ تقبلْ.

يَا ربِّ: إنَّ القلبَ لكَ أعظمُ تذلُّلًا وهُو فِي هذَا الحَالِ؛ فلقدْ زالَ عنهُ الغبشُ وزادَ ذلّاً لكَ وحدَك علَى ذلِّ الظَّاهرِ، وأصبحَ من مقامِ ذِلته كأَنَّهُ يراكَ سُبحانكَ وأنتَ العليُّ الأعلَى في عليائكَ لا إلهَ إلا أنتَ سُبحانكَ ربَّنا:

استجابتِ النُّفوسُ فكشفتِ الرُّؤوسَ لتعلنَ النُّفوسُ استسلامَها فِي الرُّؤوس وفيما تَحْتَها، وكلُّ تسليمٍ واستسلامٍ فِي البدنِ عندَ البشرِ دُونِ استسلام الرُّؤوس. . . استجابتُها هذه إشارةٌ واضحةٌ إلى استجابتها حتَّى لوِ اقتضَى الأمرُ إزالةَ الرُّؤوس في ذاتِ اللَّه فلنْ يكونَ عندَ المؤمنِ إلَّا كإزالةِ مَا عَلى الرُّؤوس من أغطيةٍ، إذِ العبرةُ فيمنَ أمرَ، وليستِ العبرةُ فِي مَا بِه أمَرَ. . . ولِذَا جاءَ بعدَ الأمرِ بِكشفِها الأمرُ بحلقِها أو تَقصيرِها - واللَّه أعلم.

سبحانكَ ربَّنا. . . سُبحانك: أيُّ عظيمٍ من عظماءِ الدُّنيا اليومَ يستطيعُ أنْ يدخلَ فِي الإحرامِ ويَأبى أنْ يكشفَ رأسَه من غيرِ مرضٍ في بدنهِ إلَّا لمرضِ القلبِ بالكِبْرِ؟! ومَنْ يستكبرْ علَى أمرِ اللَّه فليخرجْ مِنْ إحرامهِ ولا يحلُّ لهُ أنْ يدخلَ الحرمَ أصلًا؛ لأنه بكِبْرِه على اللَّه هذَا خرجَ أصلًا مِنْ دِين اللَّه.

سبحانكَ ربَّنا! رُبما اختلفَ العبادُ وتَفاوتُوا حتَّى فِي الإحرامِ لوناً ونوعاً، طولًا وعرضاً، غَلاءً ورُخصاً، أما حِينَ جاءَ الكشفُ عنِ الرُّؤوس فَقدْ تَساوَى الجميعُ دُون استثناءٍ. . . توحَّد الخلقُ بكشف رُؤوسهمْ للخَالقِ تَوحداً من غيرِ أدْنى شَارةِ مظهرٍ، أوْ ريشةِ فخرٍ، أوْ تاجِ عسكرٍ، أوْ علامةِ وظيفةٍ، أو متجرٍ.

سُبحانك ربَّنا كيفَ جعلتَ كَشْفَ هذِه الرُّؤوس أمراً تُحبه الرُّؤوس أكثرَ من محبَّتها لِزِينتِها المألوفةِ لهَا طِوالَ حَياتِها، وَعِزًّا أكثرَ منِ اعْتزَازِها بِنَياشِينَ تُميزها عَنْ جِنْسهَا، ورغبةً في تَواضعٍ أكبرَ عندَها من أكبرِ مظاهرِها وأعْلاها، وتذللًا أحلَى مِنْ أحلَى أَشْرِبَتِها.

هَذا - واللَّهِ - هو العزُّ وهذِه هيَ العُبوديةُ. . . فلكَ الحمدُ يارَبِّ أنْ أمرتنِي بكشفِ رَأسِي لكَ، اتِّباعاً وتَذللًا، وأَنا أحلفُ بكَ وحدَك أن ذلكَ أحبُّ إليَّ مِنَ الدُّنيا ومَا فِيهَا.

العيونُ الساقيةُ لـ:
«أيُّ تربيةٍ هذه بلبس الإحرام؟!»

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لقد مرَّ بالرَّوحاء سبعون نبياً فيهم نبي اللَّه موسى حفاةً عليهم العباء، يؤمُّون البيت العتيق»[١].

* * *

(١) انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٢٨).

لَبَّيْكَ اللَّهمَّ لَبَّيْكَ

لا تَقُلْ: كيفَ أُخاطِبُ ربي - الآن - مباشَرةً..؟!

لا تَقُلْ: كيفَ أُلغِي تأثيرَ النَّاسِ، والحضورِ والحُجُبِ وشواغلي عن مُشَاغلَتي حالَ خِطابي لكَ يا ربِّ..؟!

لا.. لا تَتكلَّفْ، لا تَبْعُدْ فقد أتاك اللَّه بالجواب.. في كلماتِ التَّلبيةِ ذاتِها، فهي تُعْطيكَ ما تُريدُ.. إنَّها ألفاظٌ تَكْشِفُ الحُجُبَ، تَصْرِفُ الصَّوَارفَ، تفتح الطَّريق فإذا بها سالكةٌ آمنةٌ نيِّرةٌ، وإذا الصَّوارفُ مَصْروفةٌ، وإذا القلبُ صافٍ، وإذا الخطى واصلةٌ، وإذا بك كأنَّك أمامَ ربِّك سبحانَه، وكأنَّك ترى اللَّهَ وأنت تردد هذه الكلماتِ.. هاكَها... قُلْها... وانظُرْ.. هَلْ مِن ذِكْرٍ لِأَحدٍ غيرِ اللَّهِ في هذه التلبيةِ..؟

هل من مخاطبٍ غير اللَّه هنا؟ هل من ألفاظٍ أوضح وأحرف في الخطاب من ألفاظ التَّلبية؟

«لبَّيكَ اللَّهمَّ لبَّيكَ، لبَّيكَ لا شريكَ لكَ لبَّيكَ، إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لك والمُلْكَ، لا شريكَ لك».

يا طريقُ، يا سَفَرُ، يا سَهْلُ، يا جَبلُ، يا طائرةُ، يا مَرْكبةُ، يا باخرةُ، يا كلَّ شيءٍ، يا أيُّها الكونُ.. ما أنتَ اليومَ عندي إلا محرابٌ أَتعبَّدُ لربِّي فيه كأنَّني أراه..

يـــا مـــالـــكـــاً مـــا أعـــدلَك مَـــلِيـــك كُـــلِّ مَـــنْ مَـــلَكْ

لبيك إن الحمدَ لَكْ والمُلْكَ لا شريكَ لَكْ
عبدُكَ قَدْ أَهَلَّ لَكْ أنتَ لَه حيثُ سَلَكْ
لولاك يا ربِّ هلَكْ لبيك إنَّ الحمدَ لَكْ
والمُلْكَ لا شريكَ لكْ والليلُ لَمَّا أَنْ حَلَكْ
والسابحاتُ في الفَلَكْ على مَجاري المُنْسَلَكْ
كلُّ نبيي وَمَلَكْ وكلُّ مَنْ أَهَلَّ لكْ

سبِّح أو لَبِّى فَلَكْ
لبيك إن الحمدَ لك والملكَ لا شريك لك

يا مُخْطئاً ما أجهلَكْ عصيتَ ربًّا عَدَلكْ
وأَقْدَركْ وأمْهَلَكْ عَجِّلْ وبادِرْ أَمَلَك

واخْتِمْ بخيرٍ عَمَلَكْ
لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك[1]

أيُّ طاقةٍ ستدَّخِرُها لغيرِ اليوم أيُّها البدنُ؟!.

أيتها الحَنْجَرةُ والبُلْعُوم واللِّسانُ... لا مجالَ إلَّا أَن تُطْلِقَ كلَّ قُواكَ من أعماقِكَ، وأنتَ تهتِفُ بربِّك مباشَرةً: «**لبَّيكَ اللَّهم لبَّيكَ. لبَّيك لا شريك لك لبَّيك إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لك والملكَ لا شريك لك**».

سَرى الشوقُ حرارةً وطاقةً، وحركةً وانطلاقةً، ولَكأنَّها الروحُ نُفِخَتْ في

(١) أبو نواس الحسن بن هانئ الحكمي الأديب شاعر العراق، قال أبو عبيدة: كان أبو نواس للمحدثين من مثل امرئ القيس للمتقدمين.

جَسَدِ الماءِ والطينِ. . .

يا ربِّ هأَنذا أصرخُ بالتَّلبيةِ صُراخاً لا أريد بخطابها سواك وكأنِّي أراكَ، وأنت سبحانَك بلا شكٍّ تراني وتسمعني. .

فلكأنَّني عرفْتُ الآن مِن أسرارِ رَفْعِ الصوتِ بالتَّلبيةِ إلى درجةِ الصُّراخِ بها، دونَ غيرِها من الأذكار. .

عرفْتُ من أسرارِها وأنا أصرخُ بها - الآن - اتِّباعاً لسيِّدِ الأوَّلينَ والآخرينَ ﷺ. .

إنَّه التجاوبُ الكُليُّ مع مشهدِ الإحسانِ العظيمِ، إِذْ أَشْرقَ به القلبُ أثناءَ التَّلبيةِ. .

كيفَ لا وقدِ اجتمعَ المَطْلَبُ الشَّرعي برفع الصوت بها، مع قُوَّةِ الألفاظِ، مع قوَّةِ الإحسانِ، مع قوَّةِ الحالِ. . فهو التَّوافقُ - إذاً - ظاهراً وباطناً، وإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: إنَّ في هذا الصُّراخِ بثًّا لوجْدٍ يَشتعلُ، ونورٍ لا يُحتملُ. .

إنَّ في الصُّراخِ رحمةً لِعبدٍ لم يُطِقِ السُّكوتَ أو الخُفوتَ مع ما يشعرُ به ويراهُ أو يكادُ يراهُ، فكأنَّه قيلَ له: قُلْ هذه الألفاظَ مُعَبِّراً مُنفِّساً بها عن حُمَمٍ تموجُ في نفسِك، لعلَّ فيها لك سلوةً عمَّا تريدُ، وعزاءً عمَّا تفتقِدُ، وشفاءً لما تَجِدُ. . .

صلى اللَّه وسلم على نبي اللَّه يُونُسَ إِذْ لَمْ يُسِرَّ باستغاثتِه في موقفِهِ العظيم ذاكَ فقالَ عنه سبحانه: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وما قال ربُّنا: «**ناجى**»، فيا ربِّ، لو كانت المناجاةُ هي الموافِقةُ لحاله لهدَيْتَه لها، لكنَّه «نادى» فأجبته . . .

فسبحانَك ربي إِذْ جمعْتَ لنا قوَّةَ الحالِ، وقوَّة المعاني، وقوَّةَ النِّداءِ. . .

«لبَّيكَ اللَّهمَّ لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك، إنَّ الحمد والنِّعمةَ لك، والمُلْكَ لا شريك لك».

ويبقى السُّؤالَ هنا هو. . . أينَ ذِكْرُ العبدِ المُلَبِّي في هذا الذكرِ؟! أين العبيدُ الغائبونَ والحاضرونَ، الأحياءُ والميتونَ؟

لا ذِكْرَ لَهُم. . .

لِمَنِ الوحدانيةُ كلُّها، لِمَنِ المُلْكُ كلُّه، لمَنِ الحمدُ كلُّه، لمُنِ الذِّكرُ كلُّه، لِمَنِ الثناءُ كلُّه. .؟

مَنْ ذَا الذي يُذْكَرُ ها هنا وحدَه. .؟!

إنَّه اللَّه. . . اللَّه الأحد.

«لبَّيكَ اللَّهم لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك، إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لك، والمُلْكَ لا شريكَ لك».

إنَّني لا أقولُ في تلبيتي: أنا المُلَبِّي، ولا أقولُ: لَبَّيْتُ لكَ يا ربِّ، وإنَّما أقول «**لبَّيْكَ**». .إنَّه الإحسانُ كلُّه في صورةِ ألفاظٍ. . . في حرفِ «**الكاف**» المُتكرِّرِ المُؤكَّدِ، وإِنْ شئْتَ سمَّيته حرفَ الإحسانِ الثَّابتِ. .

فيا ربِّ: كيفَ أُطيقُ تَحمُّلَ هذه الألفاظِ، وهذه الألحاظِ معاً. .؟!

كيف أطيقُ تحمُّلَ المَعْنى والمَبْنى حيث اجتمعا على قلبي الآن. .؟

لا واللَّهِ، لا أطيق إلا بإعانتِكَ إيَّاي على مُوَاصلَةِ العبادةِ في مَنازلِ الإحسانِ. . .

فاللَّهمَّ أعنِّي على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبادتِكَ...

للَّهِ دَرُّهُمْ من رجالٍ، كيفَ احتملَتْ قلوبُهم حِينَ أَشْرقَتْ مُنزلةُ الإحْسانِ عَليهِمْ مِن ثَنايا الألفاظِ، لمَّا هَتفُوا بِهَا مِنْ أَعْماقِ قُلوبِهم لكَ يا ربِّ...

أَتُرى رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «لبَّيكَ اللَّهمَّ لبَّيك، لبَّيكَ لَا شَرِيكَ لكَ لبَّيكَ، إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لكَ، والمُلكَ لَا شَرِيك لكَ» وهُو لَا يعيشُ الخِطابَ المُباشَر فِيه لربِّهِ علَى أكملِ وُجوه الإحْسانِ، وَأعلَى دَرجَاتِه..؟!

بَل إنَّهُ فوقَ ذلكَ... إنَّه ولِمُجردِ المرُورِ بالأَوْديةِ تلكَ، تَحْضرُه صُورُ مَواكبِ الأنبياءِ الَّتي مرَّتْ مِن تلكَ الأوديةِ شُخوصاً ظاهرةً واضِحةً كأنَّها أمامَ عَينيهِ ﷺ، فعَنْ أبي مُوسَى الأشْعَريِّ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: **«لقَدْ مرَّ بالصخرةِ مِنَ الرَّوْحَاءِ سبعون نبيًّا، مِنهم موسى نبيُّ اللَّهِ حفاةً عليهم العَباءُ، يَؤُمُّونَ بِيتَ اللَّهِ العَتيقِ»**[(١)].

يغيب أحدهم عن صحبه ونفسه بربه طوال رحلة وفادته يلهج لسانه بذكر اللَّه وقلبه كأنه يرى اللَّه في عليائه سبحانه.

يقولُ الإمامُ ابن كثير: قال الجريريُّ: «أَحْرمَ أنسُ بنُ مالكٍ مِنْ ذاتِ عِرْقٍ فما سَمِعْناه مُتكلِّماً إلَّا بذِكرِ اللَّه عزَّ وجلَّ حتَّى أحَلَّ، فقال لي: يا ابنَ أخي هكذا الإحرامُ...»[(٢)].

يا ذاهباً إلى بيت اللَّه سبحانه، يا راكباً بَرَّهُ وبحره وجَوَّه... يا ماشياً فوقَ

---

(١) رواه أبو يعلى (٧٢٣١) وقال الألباني: حسن لغيره، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٢٨).

(٢) «البداية والنهاية» (٩/ ٩٠).

أرضِه وتحتَ سماواتِه. . . يا مستطيعاً بمَالِك، ودابَّتِك، وقُوَّتِك. . . بل قُوَّتِهِ. . .

بَلْ ذاتُك وما حولَك ما يَحْمِلُكَ وما فوقَه وما تحتَه كلُّه لهُ سبحانَه. . . ليس معه شريكٌ يملكُ ذرَّةً، بل هذه النِّعمة التي أنت فيها الآن من دون النَّاس. . والحمد الذي تحمده على هذه النِّعمة كلُّ ذلك له سبحانه: ليست النِّعمة فحسب، إنَّما الحمد والنِّعمة «إنَّ الحمد والنِّعمة لك».

يا ربِّ، أَفتَتَقدَّمُ رِجْلي إلى بيتِك، ويبقى قلبي مَغلولًا مَعْقوراً. .؟!

أفيتألَّقُ بَصري نحو بيتك، ويَعْمَهُ قلبي عن النَّظرِ صوبَ عرشِك. .؟!

كَمْ بينَ الدماءِ التي تسيلُ عند بيتك، وبَينَ الرِّجْل التي تسيرُ نحو بيتِك من قَاسِمٍ مُشْترَك. .؟!

فكلا الاثنين يتوقَّف عند حدِّه فالذَّبائح لن ينال اللَّه لحومها ولا دماؤها، والأرجلُ تتوقَّفُ عن المَسيرِ عندَ بيتِ اللَّه تعالى. .

لكنَّ مقصودَ الاثنين المُشْتركَ هو: اللهُ الأحدُ الصَّمدُ الذي لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ ولم يكُنْ له كُفُواً أحدٌ. .

فيا ربِّ، هل يليقُ بي أن أتوقَّف عند مشهدِ الدماء التي تسيلُ، وعندَ مشهدِ البيتِ الذي ينتهي إليه المسيرُ - وما أحسنَها مِن مَشاهدَ - دونَ بلوغِ المقصودِ. .؟

وهل يكونُ بلوغُ المقصودِ بمجرَّدِ استحضارِ النِّيةِ وهي أنَّها للَّهِ تعالى؟ حقًّا إنَّ سلامةَ النيَّةِ هي الأصلُ في عملِ كلِّ مُسْلمٍ من المسلمينَ، لكنَّ بلوغَ مشهدِ الإحسانِ مع اللَّهِ شيءٌ آخرَ. .

فيا ربِّ، لَأَعْبُدَنَّكَ كأنَّني أراكَ.. لأَفِدَنَّ عليكَ كأنني أراكَ..

لَأطوفَنَّ ببيتِكَ وكأنَّني أراكَ حالَ طَوافي، لَأَلْبِسَنَّ الإحرام ولَأخلعنَّهُ كأنَّني أراكَ..

لأتحركَنَّ بين المناسِك، بين النَّاسِ وقلبي كأنَّه يراكَ سبحانكَ..

لا لَنْ تغيبَ عن قلبي، ومتى غُمَّ على قلبي لَأسْتغفرنَّكَ، لكنَّ يقيني يا ربِّ أنَّني لَن أبلغَ هذا المقامَ إلَّا أن ترفعَني إليه بفضْلِكَ..

فيا ربِّ، العروجَ، **يا ربِّ،** العروجَ لمُشْتاقٍ مُلْتاعٍ لا يستحقُّ..

يا قلبُ، اليومَ أَكْنُسُكَ مِن كلِّ ما شغلَني طوالَ حياتي عن ربِّي فلا يبقى فيك أحدٌ إلا اللَّهُ الواحدُ الأحدُ..

يا نفسُ، اليومَ أُحقِّقُ التوحيدَ فيكِ على أكملِ ما أستطيعُ - بفضلِ اللَّهِ وحدَه - قالعاً نوازعَ الشِّركِ الباطنةِ وليسَ عندي أبلغُ ولا أسمعُ من كلمةِ التَّلبيةِ أصرخُ بها وأصيحُ:

«لبَّيك اللَّهم لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك، إنَّ الحمد والنِّعمة لك، والملك لا شريك لك»[1].

يا ربِّ، يتجاذبني أهلي، وأولادي... وأنا أنزع نفسي عنهم وأَنْزِعُهم مِن قلبي وأهتِفُ مِن أعماقي:

«لبَّيك اللَّهم لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك، إنَّ الحمد والنِّعمة لك، والملك لا شريك لك».

---

(١) راجع «آخر العهد بالتلبية» في هذا الكتاب.

يا ربِّ، يتجاذبُني مُلْكِي ومالِي ودُنْياي، وأنا يا ربِّ أَنْفِرُ عنها جميعاً وأهتِفُ بكَ وحدَكَ، مِن خالصِ قلبي وبأعلى صَوْتي **يا ربِّ** . .

«لبَّيك اللَّهم لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنِّعمة لك، والملك لا شريك لك».

يا ربِّ يتجاذبُني قومي، وصُوَرُ كُبَراءِ قومي طُموحاً وطَمَعاً وإِعْجاباً وانْشِغالًا. . . وأنا يا ربِّ أطرُدُهُمْ عَن قلبي، لأُفرِّغَه لكَ وحدَك وأهتفُ بكَ بأعلى صوتي:

«لبَّيك اللَّهم لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك، إنَّ الحمد والنِّعمة لك، والملك لا شريك لك».

* * *

العيونُ الساقيةُ لـ: «لبيك اللَّهم لبيك»

عن عبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ تلبيةَ رسولِ اللَّهِ ﷺ: «**لبَّيك اللَّهم لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك، إنَّ الحمد والنِّعمة لك، والملك لا شريك لك**»(١).

عن زيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أتاني جبريلُ فقال لي: إنَّ اللَّهَ يأمرُكَ أَنْ تأمرَ أصحابك أَنْ يَرْفعوا أصواتَهم بالتَّلبيةِ، فإنَّها من شِعارِ الحجِّ**»(٢).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أمرني جبريلُ برفعِ الصوتِ في الإهلالِ، فإنَّه مِن شِعارِ الحجِّ**»(٣).

قال أبو حازم: «كانَ أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ إذا أَحْرَموا لم يبلغوا الرَّوْحاءَ حتَّى تُبَحَّ أصواتُهم»(٤).

* * *

(١) رواه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١١٨٤).
(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥١٧٢)، وانظر «صحيح الجامع» (٦٧).
(٣) رواه ابن خزيمة (٢٦٣٠) قال الأعظمي: إسناده صحيح.
(٤) رواه سعيد بن منصور بسند جيد، قاله الألباني في «مناسك الحج والعمرة» (ص١٦).

عَيْبٌ ... غَطِّ عَوْرَتَكَ!

«**عيبٌ - غطِّ عورتَك..!**»... هذهِ هيَ الكلمةُ التي يُخفيها الحاجُّ في نفسِه كُلَّما رأى مُحْرِمًا جالساً أو نائماً قد نَسِيَ نَفْسَه فانكشفَ إحرامُه عن عورتِه... وما أكثرَ ما يحدثُ هذا ويتكررُ مع أكثر الحُجَّاجِ، وخَصُوصاً الصغارُ منهم، لكنَّ أشدَّ ما يكونُ الأمرُ حين يكونُ الرَّجُلُ بين النساءِ ولو كُنَّ أَخَواتِه، وحقٌّ على كلِّ مسلم أن يَسْتُرَ عورتَه، ويَتعلَّمَ لُبْسَ إحرامِه قبلَ ذلكَ، وحق على المسلم أن يأمرَ أخاهُ بسَترِ عورَتِهِ إن انكشفَت فذلكَ من النصيحةِ، والمؤمن مرآةُ أخيه.

انكشافُ العورةِ أمرٌ ظاهرُ النَّكارةِ لا يشكُّ فيه أحدٌ، **ولكنْ** ثمَّةَ أَمْرٌ هو من الشُّيوعِ بحيثُ لا يكادُ يَنْجُو منه أحدٌ، ذلك هو انكشافُ العورةِ في أطهرِ مكانٍ: في القلبِ..!

أيُّ عيبٍ أعظمَ مِن أَنْ يتلقَّى الذِّهنُ تصاويرَ حيَّةً مُتحرِّكةً، يَطْلبُ الشَّيطانُ عَرْضَها على مرآةِ قلبِه فيعرضُها... يعرضُها كاشفاً عورتَه، وربَّما وهو يفعلُ الحرامَ، ويتقلَّبُ على الحرام..! بلْ أيُّ عيبٍ أعظمُ مِن أَنْ يَعْرِضَ تلك التَّصاويرَ القبيحة، وهو بَيْنَ يَدَي اللَّهِ تعالى في صلاتِه، واللَّهُ ناظرٌ إليه حتَّى لو كانَ أَصْلُ المشهدِ حَلالًا كأَنْ يكونَ ذلك المعروضُ هو ما فعلَه مع أهلِه..؟!

إنَّ ما تعرِضُه على مرآةِ قلبِك من صُوَرٍ إنَّما هو معروضٌ أمامَ اللَّهِ، واللَّهُ ناظرٌ إليه، فاعْرِضْ ما تشاءُ كيفما تشاءُ، ففي الحديثِ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ:

«**إنَّ اللَّهَ لا ينظرُ إلى صورِكُمْ ولا إلى أموالكُم ولكِنْ ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالكِم**. . »[١].

يا مفتاحَ التَّشغيلِ لِمِرْآةِ القلبِ، تَنَبَّهْ! فالعَرْضُ هنا مكشوفٌ!

يا مفتاحَ التَّحويلِ، في القلبِ، تَحرَّكْ، فلا تَتْرُكَنَّ أيَّ عَرْضٍ سوءٍ في مرآةِ القلبِ إلا قطعْتَهُ وحَوَّلْتَهُ. .

يا أيُّها القلبُ، اجعلْ أرضَكَ حَرَماً مُقَدَّساً لا يَدْخلُه أحدٌ إلا هَجَرَ رُجْزَه، وخلَع نعلَه. . . فضلًا أنْ يدخلَه أحدٌ بمعصيةٍ، أو يستحوذ عليه شيطانٌ. .

يا أيُّها القلبُ، اِجْعلْ لك حِمىً، واجعلْ غيرتك مِن الأرجاسِ كَغَيْرةِ الغَيُورِ على عِرْضِه، أو غَيرةِ الشُّجاعِ على أرضِه. . .

واعلمْ أنَّه ما دامَ لكَ قلبٌ واحدٌ فهو لا يحتملُ صورتَيْنِ. . فإمَّا صورَةٌ يَجْلِبُها إبليسُ، وإمَّا صورةُ الباقياتِ الصالحاتِ، وكُلَّمَا طَهُرَ وزَكَا زادَ حَظُّه مِن النُّورِ وقويَتْ بصيرتُه واتَّضحَتْ عنده الرُّؤْيا. . . حتَّى يرقى لمقامِ الإحسانِ الذي يعبدُ اللَّهَ فيه كأنَّه يراهُ. .

مِن هنا جاءَتْ خطورةُ تلكَ الصُّوَرِ المُلَوَّثَةِ فهي غبارٌ وترابٌ وضَبابٌ يُخشى إنْ كَثُرَتْ أَنْ تُصْبحَ غِشاءً . . . ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]. فَلْتَكُنْ حراستُكَ لقلبِكَ أعظمَ مِن حِراسةِ الحُرَّاس لَمَلِكِهم، فأنتَ تحرُسُه لأنَّكَ تريدُه للَّهِ خالصاً مُخْلصاً. .

إنَّها نُقْطةٌ مِنْ أكثر النِّقاطِ أهميةً لاختصاصِها بالقلبِ، ولكَثْرةِ عُدْوانِ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، من حديث أبي هريرة.

الشيطانِ عليها، ولِمَا لَها مِن أثرٍ بالغٍ على بقيَّةِ الأعضاءِ، وعلى الوِفادة كُلِّها، **ولأنَّها النُّقطةُ التي إذا ضُبِطَتْ** كانَتْ سبباً في ضبط الحياةِ كلِّها، فَلْتُضْبَطْ في الوفادةِ لِتُضْبطَ الحياةُ كلُّها بإذْنِ اللَّهِ. . ذلكَ أنَّها قاعدةُ الانطلاقِ التي إذا سَلِمتْ سَلِمَ العروجُ إلى أعلى مراتبِ الإحسانِ، فَلْيَسْلَمِ القلبُ مِن ذلكَ. . .

* * *

العيونُ الساقيةُ لـ:
«عَيْبٌ... غطِّ عورتَك»

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ١٨- ٢٠].

قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣-١٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّهَ لا ينظرُ إلى صُوَرِكُمْ وأموالِكُمْ ولكِنْ يَنْظُر إلى قلوبِكُمْ وأعمالِكم**»(١).

عن بَهْزِ بنِ حَكِيم عن أبيه عن جدِّه قالَ: قُلْتُ: يا رسولَ اللَّهِ، عَوْراتُنا ما نَأْتي مِنها وما نَذَرُ؟ قالَ: «اِحْفَظْ عورتَك إلا مِن زَوْجتِك أو ما مَلَكَتْ يمينُكَ» قال: قلْتُ: يا رسولَ اللَّهِ، إذا كانَ القومُ بعضُهم في بعضٍ قال: «**إن استطَعْتَ أن لا يَرينَّها أحدٌ فلا يَرينَّها**» قال: قلْتُ: يا رسولَ اللَّهِ، إذا كان أحدُنا خالياً قال: «**اللَّهُ أحقُّ أنْ يُسْتَحْيَا منه مِن الناسِ**»(٢).

* * *

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٠١٧). وحسنه الألباني، ونصيحتي لكل مغتسل أن يغتسل ساتراً ولو لعورته المغلظة فحسب استحياء من اللَّه الذي لا يجب أن يراك على ذلك.

إذا فَتَـرَتِ الهِمَّـةُ

لَحظاتٌ تَمرُّ بالوافدِ تَفْترُ فيها نَفْسُه عن التَّلبيةِ. . . تفترُ عن الدُّعاءِ، تشعرُ بالخُمولِ. . .

يا نَفْسُ، ما لَكِ؟ أفي مِثْلِ هذا الموقفِ تَغْفَلينَ، وعن الذِّكْرِ تَغْفُلينَ، ومن الحضورِ تهرَبينَ. . ؟

يا نفسُ، قد كُنْتِ تقولينَ: لِئِنْ أَشْهدَني اللَّهُ ذاكَ المشهدَ لَأكونَنَّ - بإذْنِ اللَّهِ - مِن المُحْسنينَ، فأينَ أنتِ مِن منازلِ المُحْسنينَ. . ؟

يا نَفْسُ، لقد اجتمعَ لكِ طهارة الظَّاهر باللِّباسِ، وطهارة البَدَنِ بالاغتسالِ، وطهارة اللِّسانِ بالتَّلبيةِ العظيمةِ. . فلِمَ الغَفْلةُ. . . لِمَ الفتورُ. . . لِم الملَلُ؟

أنا أعلمُ - يا نفْسُ - كيفَ آخُذُ بناصيتِكِ إلى الحقِّ، راغبةً ومُرْغمةً. . !

لأَشْكُونَّكِ إلى اللَّهِ العليِّ الأعلَى، لَأَطْلُبنَّ مِنه - سبحانَه - المددَ عليك. . !

فيا ربِّ، أَدْرِكْني ولا تَتْرُكْني. .

يا ربِّ، هذا حالي لا يَخفى عليكَ، وهذهِ نَفْسي بينَ يدَيْكَ، «**اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشَّهادةِ، لا إلهَ إلَّا أنتَ، ربَّ كُلِّ شيءٍ وَمَلِيكَهُ، أعوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي ومن شرِّ الشَيطانِ وَشِرْكِهِ، وأنْ أقترِفَ على نفسي سوءًا أو أَجُرُّهُ إلى مسلمٍ**»[١].

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٩) كتاب الدعوات، وصححه الألباني.

«اللَّهمَّ آتِ نَفْسي تَقْواها وزَكِّها أنْتَ خيرُ مَن زَكاها أنتَ وليُّها ومَوْلاها»[١].

أعوذُ بربِّي شاكياً نَفْسِي، شَكْوى المُعنَّى، شكوى المُسْتعيذِ المستجيرِ بربِّه من شَرِّ نَفْسه، يشكو إليه عَجْزَها، وكَسَلَها، وطلَبَها الدنيا، يشكوها وهو يَرى الوقتَ يَنْفَدُ وهي غيرُ آبهةٍ، والطريق يُطْوَى وهي غافلةٌ..!

يا نَفْسُ، كَمْ تَرْتيبُكِ قُرْباً مِن اللَّهِ بينَ هذه الجموعِ؟!

أَلَمْ تسمعي عَن السَّابقينَ وكيفَ كانوا يقطعونَ الطُّرُقَ الطَّويلةَ بوَسائِلهم البطيئةِ.. لياليَ وأياماً، بل أشهراً سائرينَ مُلَبِّينَ... وهُمْ يَعيشونَها بأرواحِهم، ويُرجِّعُ الوجودُ مِنْ حولِهم صدى لحنِهم إِذْ يرفعونَ بالتلبيةِ أصواتَهم؟!

يا هذا، دَعِ النَّفْسَ وهواها جانباً، نَوِّعِ الذِّكْرَ إن فترَتْ عن التلبية، فلَعلَّها تَنْشَطُ بالتنويعِ ويذهبُ عنها الملَلُ..

أُدْعُ اللَّهَ تعالى لَها فأنْتَ مسافرٌ، وأنت وافدٌ، والكريم يُكرِمُ مَنْ وَفَدَ عليه، وهَلْ أكرمُ مِن اللَّهِ؟

ثُم ارْجِعْ سَريعاً إلى التَّلبيةِ فَزِدْ مِنها وَردِّدْها بصوتِكَ الأَقْوى، فهِي أحبُّ الأذكارِ إلى اللَّهِ وأنْتَ على هذه الحالِ، وكَرِّرْها فلَنْ يأتي أحدٌ بأفضلَ مما جئْتَ بهِ إلا رجلٌ قال مِثلَما قلْتَ أو زادَ.

يا هذا، إيَّاكَ أَنْ يُداخلَ قَلْبَكَ احتقارُ عبادةِ بعضِ الوافدينَ بما تعرفُهُ مِن

---

(١) مرَّ تخريجه.

مظاهرِ بعضِ أصحابِك المتواضعةِ البَذَّةِ، أو يغرَّك تشابُهُ مَناظرِ الحُجَّاجِ والمُعْتمرينَ فتظنَّ لنفسك فضلًا أو لها قرباً من اللَّه أكثر، فلَعلَّ مِن أصحابِك مَنْ لا يفترُ قلبُه عن ذِكْرِ ربِّه في هذا المَوْطنِ وإِنْ فترَ لسانُه، وإِنْ لَمْ تَشْهد ذلكَ على مظهرِه.. لعلَّ مِنهم مَن لا يكادُ يغيبُ مشهدُ الإحسانِ عن قلبِه وأنتَ تَحْسَبُ أنَّ الإحسانَ إعلانٌ بالكلامِ، أو أنَّ حقيقةَ الإحسانِ في حُسْنِ التَّعبيرِ والكتابةِ..

لعلَّ منهم مَنْ لا ينقطعُ عروجُه - في هذه الحالِ - وإِنْ غفَتْ عيناهُ، وسكَنَ لسانُه بنَوْمِه..

يارَبِّ، كلَّما همَّت نفسي بالفتور عن التَّلبية نظرت فيما حولي من جبالٍ ووديانٍ، من صخورٍ وجدرانٍ، من كراسي وأشجار وعيدان، فقلت: لا واللَّه لأُلبينَّ، فإنَّ شهادة هذه لي يوم القيامة مربوطةٌ بسماع تلبيتي منِّي، فالأستكثرنَّ شهودي ليومٍ أنا أحوج ما أكون فيه لشهودٍ، وفوق هذا لأشهدنَّها توحيدي لك واستجابتي لدعوتك ومحبَّتك.

لحظاتٌ وسينقطعُ لَحْنُ التَّوحيدِ الخاصِّ هذا، لِتبدأَ بغيرِه.. فخُذْ زادَك منه قبلَ أَن يُحالَ بينكَ وبينَه بِذِكرٍ آخرَ: «**لبَّيك اللَّهم لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك، إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لك والمُلْكَ لا شريك لك**».

واللَّهِ ما طَلعَتْ شمسٌ ولا غربَتْ ... إلا وحبُّكَ مقرونٌ بأَنْفاسِي
ولا جَلَسْتُ إلى قومٍ أُحَدِّثُهم ... إلا وأنْتَ حَدِيثي بين جُلَّاسِي

* * *

العيون الساقيةُ لـ: «إذا فَترَتِ الهِمَّةُ»

قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١].

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

عن عبدِ اللَّه بن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**لكلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، ولكلِّ شِرَّةٍ فَتْرةٌ، فمَنْ كانَتْ فَتْرتُه إلى سُنَّتي فقَدْ أفلحَ، ومَن كانَتْ إلى غيرِ ذلكَ فقَدْ هلَكَ**»(١).

عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: «**نَحَرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يومَ الحُدَيْبِيَّةِ سبعينَ بدنةً، فيها جملُ أبي جهلٍ، فلمَّا صُدَّتْ عن البيتِ حَنَّتْ كما تَحِنُّ إلى أولادِها**»(٢).

* * *

(١) رواه أحمد (٢/ ١٢٠) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه البيهقي في «سننه» (٩٣٩٩) ورواه أحمد (١/ ٤١٣) قال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

هنا: الكعبةُ البيتُ الحرامِ

لا أَتصوَّرُ الإحسانَ في مَوْقعٍ على هذهِ الأرضِ مِثْلَ الإحسانِ في هذا المكانِ المخصوصِ، أليست هذه القِبْلةَ؟ أليست هذه الكَعْبةَ؟

أليسَ هذا هو المكانُ الذي تتوجَّهُ إليهِ قِبْلةُ كلِّ بيوتِ اللَّهِ ربِّ العالمينَ؟

أليسَتْ هي النُّقْطةَ التي تَهْفُو إليها كلُّ القلوبِ المؤمنةِ باللَّه ربِّ العالمين؟

إنَّ المَرْءَ لَيَشْعرُ بانجذابٍ شديدٍ نحوَ هذه النقطةِ في هذه الدُّنيا يومَ أَنْ كان بَعيداً عنها، وكأنَّها مركزُ المِغْناطِيسِ الأكبرِ الذي يَجْذِبُ إليه ما هو من معادِنه، وهذا مِن الهَدْيِ الذي يَجِدُه المؤمنُ في قلبِه، فإذا اقتربَ اشتدَّ الانجذابُ، فإذا رآه كان جَذْبُ البيتِ العتيقِ له أَشَدَّ وأشدَّ، لدَرَجةِ الالتصاقِ بالأبوابِ... أَلَمْ يكُنِ النبيُّ ﷺ يلتصِقُ بالملتزمِ ويتعلَّقُ به[1]!!

يا ربِّ، كَمْ هالَني السِّرُّ القويُّ الخَفِيُّ وأنا أُلَبِّي لكَ وحدَك طُولَ طريقِ الوفادةِ عليكَ... حتَّى إذا طلعَ بيتُك العتيقُ أُمِرَ اللسانُ بالتوقُّفِ عن التَّلبيةِ؟

لماذا التوقُّفُ عن التَّلبيةِ عند البيتِ الحرامِ؟ أَلَمْ يَكُنِ المتوقعُ أن تزدادَ التَّلبيةُ أكثرَ وأكثرَ عند رؤيةِ البيتِ، ويعلو بها الصُّراخُ أكثرَ وأكثرَ..؟! هنا ينكشفُ أعظمُ الأسرارِ التي كأنَّها تقولُ: قد وصلْتُم لِمَنْ لَبَّيْتُم... فقد انتهى

---

(١) كما في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «**رأيت رسول اللهَ ﷺ يلزق وجهه وصدره بالملتزم**» رواه البيهقي في «سننه» (٩٥٤٦)، وحسنه الألباني، انظر «صحيح الجامع» (٥٠١٢) من السنة الالتصاق بالملتزم عند الاستطاعة اتباعاً لفعله ﷺ ولا يشرع ذلك لباقي أجزاء البيت لعدم فعله ﷺ.

دورُ تَلْبِيَتِكُمْ، وجاءَ دَوْرُ لقائِكم ربَّكم. . .فقد وصلْتُم ووصلَتْ تلبيتُكم غايتَها.

إنَّ توقُّفَ التَّلبيةِ هنا إنَّما يعني - والله أعلم - تحقُّقَ الإجابةِ مِن سؤالِ التلبيةِ المُضْمَرِ فيها، فمِنْ عادةِ كلِّ مُلَبٍّ ألَّا يسكتَ حتَّى يجابَ، فالسُّكوتُ إنَّما يعني أنَّ المُلَبِّي سمِعَ الجوابَ فاكتفى وسكَتَ، وإلَّا فما قيمةُ التَّلبيةِ بعدما أجابَهُ مَنْ لَبَّاه. . .

نَعَمْ: سكتَ اللِّسانُ عن التَّلبيةِ، وهاجَ القلبُ إِذْ بلغَ الهتافُ مَدَاه، وبلغَ البصرُ مُناه، ولمَّا يبلغِ القلبُ مُنْتَهاه، ولا سبيلَ إلَّا أن يطوفَ بالبيتِ كأنَّه يرى اللَّه. .

لقَدْ وصلْتَ فاقْطَعْ، لقَدْ رأيْتَ فاسمعْ، لقد لاقيتَ فاخشعْ. . .

يا ربِّ، أنا العبدُ الذي حنَّ وأَنَّ، وتوجَّعَ. . . حتَّى بلغَ هذا البيتَ، فماذا في هذا البيتِ؟!

يا ربِّ، أَذكرُ الآن كليمكَ موسى عليه السلام إذ أَدْخلْتَه الوادي المقدَّسَ فكَلَّمْتَه فيه. . . فأنا في المكانِ الذي هو أبقى قُدْسِيَّةً من الوادي المقدسِ وأنتَ ربي سبحانَك؟

هيه أيُّها الوافد، ماذا تريدُ - أيُّها القادم - على ربِّك سبحانه؟

كلُّ شيءٍ هنا أصبحَ قريبًا وأصبحتَ قريبًا منه!

تريد الجنَّة؟

هذه الجنَّةُ أصبحت قريبةً ممَّثلةً بالحَجَرِ الأسودِ الذي هو من الجنَّةِ حقيقةً

إذ يقول المصطفى ﷺ، كما روى ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما مرفوعاً: «**نزلَ الحجرُ الأسودُ مِن الجنَّةِ وهو أشدُّ بياضاً من اللَّبَنِ فسَّودَتْهُ خطايا بني آدمَ. . .**»[(١)].

ليس بياضُ الحجرِ هو بياضُ اللونِ فحَسْبُ، بلْ هو بياضُ اللونِ وبياضُه بالنورِ المُتلألِئ مِن نورِ الجنَّةِ، فعَنْ عبدِ اللَّه بن عمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما مرفوعاً: «**إنَّ الحجرَ والمقامَ ياقُوتتانِ من ياقوتِ الجنةِ، طمسَ اللَّهُ نورُهَما، ولولا ذلك لَأضاءَا ما بينَ المشرقِ والمغربِ**»[(٢)].

فماذا يصنعُ أهلُ الجنَّةِ بالشمسِ إذا كانَتْ هذه أحجارُ الجنَّةِ. .؟!

ولِمَ يحارُ - بعضُ أهلِ العلمِ - بنورِ الجنَّةِ لِعَدَمِ وجودِ الشمسِ إذا كان هذا نورُ بعضِ أحجارِها؟

ليسَتْ علاقتي بهذا الحجرِ منتهيةً عند هذا اللقاءِ، فالنبيُّ ﷺ يقول: «**واللَّهِ، لَيَبْعثنَّهُ اللَّهُ يومَ القيامةِ - يعني الحجرَ - له عينانِ يُبْصِرُ بهما، ولسانٌ ينطِقُ به، يَشْهَدُ على من استلَمَه بحقٍّ**»[(٣)].

أيُّها الوافدُ، تريدُ لقاءَ الملائِكةِ؟ وأيُّ موقعٍ في الأرضِ فيه من الملائِكةِ كما في هذا المكانِ الكريم؟

أيُّها الوافد، تريد أن تُعانِقَ الرَّحمةَ، **وتريد أن تَغمُرَكَ الرَّحمةُ** . .؟

---

(١) رواه الترمذي (٨٧٧) كتاب: الحج، باب: في فضل الحجر الأسود والركن والمقام، وصححه الألباني.

(٢) سيأتي تخريجه إن شاء اللَّه.

(٣) رواه الترمذي (٩٦١) كتاب: الحج، باب: الحجر الأسود، من حديث ابن عباس وصححه الألباني.

فعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ اللهَ تعالى يُنْزِلُ في كلِّ يومٍ وليلةٍ عشرينَ ومائة رحمةٍ، ينزلُ على هذا البيتِ سِتُّونَ للطَّائفينَ، وأربعون للمُصَلِّين، وعشرون للنَّاظرينَ**»(١).

أيُّها الوافدُ، تريدُ لقاءَ اللَّهَ تعالى..؟

نعَمْ، وهلْ لقاءُ اللَّه تعالى هنا عندَ البيتِ العتيقِ كلقاءِ اللَّه تعالى في أيِّ بيتٍ من بُيوتِه سبحانَه؟

لقاءُ اللَّهِ في الطَّوافِ كلقاءِ اللَّه في الصَّلاةِ، وإن كانت الحركة في هذا الطواف مشروعةً، والكلامُ مُقيَّدٌ بالخير.. والنبيُّ ﷺ يقول: «**الطَّوافُ حولَ البيتِ مِثْلُ الصلاةِ إلَّا أنَّكم تتكلَّمون فيه، فمَنْ تَكلَّمَ فيه فلا يتكلمَنَّ إلا بخيرٍ**»(٢).

إذا أردت أن ترى صورةً تقريبيَّةً لطوافِ الملائكةِ حولَ العرشِ يومَ العرضِ فلن تجد مثل صورةِ هؤلاءِ الوافدين على هذه الأرضِ... تسبيحاً وتعظيماً وإجلالاً.. حين تشاهدُ الخلائقَ يومذاك بأَعْيُنِها ذاك الطَّوافَ الحافَّ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

حقًّا إنَّ الطَّوافَ بالبيت صلاةٌ.. إي واللَّهِ صلاةٌ..

صلاةٌ دخلْتَ فيها من غير تكبير... دخلْتَ فيها بمجرَّدِ الدُّخولِ في حلقة

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٤٧٥) وحسن إسناده المنذري والعراقي، قاله العجلوني «كشف الخفاء» (٣٢٣٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب».

(٢) رواه الترمذي (٩٦٠) كتاب: الحج، باب: الكلام في الطواف، وصححه الألباني.

الدَّوَران على البيتِ بنيَّةٍ، وخُطْوةٍ.

ليست الكعبةُ مَرْمى[١] بصري ... أو مَدى قلبيَ في خَفْقَتِهِ
هي صَرْحٌ شامِخٌ من حَجَرٍ ... عِزَّةُ التاريخ مِن عِزَّتِهِ
أَثَرٌ يُبْرِزُ مَجْدَ الأَثَرِ ... مِحْورُ الإسلامِ في دَوْرَتِهِ
مَوئِلٌ يَرْمُزُ عبْرَ الدَّهْرِ ... لِهَوى المُؤْمِنِ في وِجْهَتِهِ
وهْي لِي مُنْطَلَقٌ للنَّظَرِ ... يتعالى ثَمَّ مِنْ ذُرْوتِهِ
مُصْعِداً خَلْفَ حُدودِ البَشَرِ ... مُشْرَئِبَّ الغَوْرِ في صَعْدَتِهِ
يتخطَّى فِكَرَ الْمُفْتَكِرِ ... هائماً يَسْرحُ في بَهْجَتِهِ
نائياً عن ساحِ دنيا الصُّورِ ... باحثاً للرُّوحِ عَن جَنَّتِهِ
دائِراً فوقَ مَدارِ القَمَرِ ... والنجومُ الزُّهْرُ في رِحْلتِهِ
بَصَرٌ قد فاق كُنْهَ البَصَرِ ... إذْ سما للَّه في نَظْرَتِهِ
حَائماً حولَ شِعابِ القَدَرِ ... يتصدَّى لِسَنَا بَسْمَتِهِ
بُؤَرُ النُّورِ ونُورُ البُؤَرِ ... مَنْجَمُ الإشراقِ في نَبْعَتِهِ
نَظَرٌ يَنْفُذُ عَبْرَ السُّتُرِ ... ويرى الحقَّ على فِطْرَتِهِ
مِنْ مَرائِيه التِماعُ الظَّفَرِ ... وائْتِلافُ النور من وَهْجَتِهِ

إن الإحسانَ هنا أن تطوفَ ببيتِ اللَّه كأنكَ ترى ربَّكَ سبحانَه، وأن تطوفَ بالبيتِ كما طافَ رسولُ اللَّه ﷺ وكأنَّك ترى رسولَ اللَّه ﷺ.

سبحانَ اللَّه! أيُّ صُوَرٍ تَتزاحمُ أمام ناظِري المُحْسنِ كأنَّه يراها منذُ آدم

(١) بل هي «مرمى بصري» ولكنها ليست منتهاه.

عليه السلام إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ، إلى أناسٍ لا أعرفُهم طافُوا بهذا البيتِ..؟

يطوفُ أمامَ ناظريَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ وكأنَّني أراه وصحبَهُ الكرامَ رضي الله عنهم في طوافِهم الأَوَّلِ بعد العودةِ إلى مكةَ.. كما في الصُّورةِ التي وصفَها ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: إذ قال: «**قَدِمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ وأصحابُه، فقالَ المشركونَ: إنَّه يَقْدُمُ عليكم وقد وَهَنَهم حُمَّى يَثْرِبَ. فأمرَهُم النبيُّ ﷺ أن يَرْمَلُوا الأشواطَ الثَّلاثةَ وأن يَمْشوا ما بينَ الرُّكنينِ، ولَمْ يَمْنَعْهُ أن يأمَرهم أن يرملُوا الأشواطَ كلَّها إلَّا الإبقاءَ عليهم**»(١).

وكأنَّني أراهُ ﷺ في حَجَّتِه يطوفُ حولَ هذا البيتِ كما روى ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «**طافَ النَّبيُّ ﷺ بالبيتِ على بعيرٍ، كُلَّما أتى الركنَ أشارَ إليه بشيءٍ كان عندَه وكبَّرَ**»(٢).

وعن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: «**قَدِمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ فطافَ بالبيتِ سَبْعاً، ثم صلَّى خلفَ المقامِ ركعتينِ**»(٣).

وهل ترى اللَّه تَعالى يُعْطي هذه المكانةَ لمكانٍ في هذه الدُّنيا، ويُوجِّهُ له الوجوهَ... ثمَّ هو لا يُميِّزُه بفضائلَ لا تعدُّ ولا تُحصى..؟!

كم أتساءَلُ في نفسي فأقول: لماذا أخبرنا النَّبي ﷺ عن فضل الصَّلاةِ

---

(١) رواه البخاري (١٥٢٥)، كتاب: الحج، باب: كيف كان بدء الرمل، ومسلم (١٢٦٤)، كتاب: الحج، باب: استحباب الرمل في الطواف والعمرة.

(٢) رواه البخاري (١٥٣٥)، كتاب: الحج، باب: التكبير عند الركن، ومسلم بنحوه (١٢٧٢)، كتاب: الحج، باب: جواز الطواف على بعير وغيره.

(٣) رواه البخاري (١٥٤٤)، كتاب: الحج، باب: صلى النبي ﷺ لسُبُوعه ركعتين، ومسلم (١٢٣٤)، كتاب: الحج، باب: ما يلزم من أحرم بالحج.

هنا.؟! لمَ قال ﷺ: «**صلاةٌ في المسجدِ الحرامِ أفضلُ من مائةِ ألفِ صلاةٍ فيما سِواهُ**»(١)؟

هل أخبرَنا بهِ إلا لنَزيدَ ونُكْثِرَ من الصَّلواتِ النَّافلةِ إذا وصلْنَاه..؟!

هل أخبرَنا إلَّا لِيُؤكِّدَ على حضورِ جماعةِ هذا المسجدِ المباركِ، أو ما لَه حُكْمُه وأجْرُه؟!

هل أخبرنا به إلَّا لِنُحْسِنَ ما نستطيعُ في الصَّلاةِ، وللصَّلاةِ هنا... مِن وضوءٍ، وخُشوعٍ، وطُمَأْنينة، إذْ إنَّ المضاعفاتِ إلى المائةِ ألفٍ تكونُ نُسْخةً مِن جِنْسِ الأصلِ في هذا المسجدِ المباركِ - واللَه أعلم .

إذاً فهل من فُرْصةٍ - يجب أن يَهْتَبِلَها المُقَصِّرُ والسَّابقُ - مثلُ هذه الفرصةِ...؟!

فِقيامُها بمائةِ ألفِ قيامٍ، وركوعُها الواحدُ بمائة ألفِ ركوعٍ، وسجودُها بمائةِ ألفِ سجودٍ.

يا ربِّ، أيُّ تَمْكينٍ لَنا مِن تعويضِ غَفَلاتِ الصَّلاةِ في بلادنا مثلُ هذا التَّعويضِ..؟

وأيُّ جَبْرٍ لكُسورِ صلواتِنا الفائتةِ والمتروكةِ مِثْلَ هذا الجُبْرانِ..؟ وأيُّ كفَّارةٍ مثلُها؟ وأيةُ رِفْعةٍ كَرِفْعَتِها؟

فدونكِ الحَرَمُ - يا نَفْسُ -، قبلَ أن تفارقيه إلى بلدِكِ، فاركعي واسجدي ما شئْتِ...

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٣٤٣) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

كيف لا، ولا نَهْيَ عن الصَّلاةِ هنا في أيِّ وقتٍ من الأوقات؟ والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**لا تَمْنعوا أحداً طافَ بهذا البيتِ وصلى أيَّةَ ساعةٍ شاءَ مِن ليلٍ أو نهارٍ**»(١).

فيا ربِّ أعنِّي اليومَ لِتكونَ صلاتي هذه صلاةَ المحسنين...

أُصَلِّيها لكَ كأنَّني أراكَ.. كأنَّني أراكَ في قيامِها وفي القراءةِ، كأنَّني أراكَ في تحرُّكي مِن الوقوفِ إلى الرُّكوعِ، كأنَّني أراكَ وأنا في الرُّكوعِ لكَ، كأنَّني أراكَ في تحرُّكي من الرُّكوعِ إلى الاعتدالِ... كأنَّني أراكَ هاوياً نحوَ السُّجودِ، كأنَّني أراك -يا قريبُ- حالَ السُّجودِ، كأنَّني أراكَ في كلِّ شؤونِها حتَّى السَّلامِ، لتكونَ المضاعفاتُ بإِذْنِك مضاعفاتٍ من صنف صلاة المحسنين ومنزلة الإحسانِ...

* * *

(١) رواه النسائي (٥٨٥) كتاب: المواقيت، باب: إباحة الصلاة في الساعات كلها بمكة، من حديث جبير بن مطعم وصححه الألباني.

العيونُ الساقيةُ لـ: «هنا: الكعبةُ البيتُ الحرامُ»

قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣].

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: «**صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألفِ صلاةٍ فيما سِواهُ إلَّا المسجدَ الحرامَ، وصلاةٌ في المسجدِ الحرامِ أفضلُ من مائةِ ألفِ صلاةٍ فيما سِواه**»(١).

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**الطَّوافُ حولَ البيتِ مثلُ الصَّلاةِ، إلَّا أنَّكم تتكلَّمونَ فيهِ، فمَنْ تكلَّمَ فيه فلا يَتكلَّمَنَّ إلا بخيرٍ**»(٢).

عن ابن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قالَ ﷺ: «**الطوافُ صلاةٌ، فأقِلُّوا فيه الكلامَ**»(٣).

عن ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ طافَ بهذا البيتِ أُسْبوعاً، فأحصاهُ، كان كَعِتْقِ رَقَبةٍ، لا يضعُ قَدَماً، ولا يرفعُ أخرى، إلا حَطَّ اللَّهُ عنه بها خَطيئةً، وكَتَبَ له بها حَسنةً**»(٤).

* * *

(١) رواه ابن ماجه (١٤٠٦) وصححه الألباني.
(٢) رواه الترمذي (٩٦٠)، وصححه الألباني.
(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٧٣٧٠) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٩٥٦).
(٤) رواه الترمذي (٩٥٩) كتاب: الحج، باب: استلام الركنين وصححه الألباني.

طَهِّرْ بيتي

قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

اللَّهمَّ إنَّكَ تعلم أنِّي أُحِبُّ أَنْ أُطَهِّرَ بيتَك لأنَّه بيتُك... فأنتَ نَسَبْتَهُ لِنَفْسِك سبحانك في كتابِكَ الكريمِ فقلْتَ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾.

لكِنْ: ماذا بقيَ لي من خِدْمةِ هذا البيتِ بعدما ذهبَ خليلُ الرَّحمنِ إبراهيمُ - عليه الصلاةُ والسلامُ - ببنائِه.. ما الذي أستطيعُ عملَه..؟ كيف أُشارِكُ..؟!

لا، لَنْ أنسحِبَ.

هأنذا أقرأُ اليوم أَمْرَكَ -يا ربِّ-لإبراهيمَ قراءةً جديدةً، أقرؤه وكأنَّني أراك ربِّي سبحانَك - وأنتَ تراني وأنا في بيتِك العتيقِ، وما أنا صانعٌ إذْ حَملْتَني مع هذهِ الخلائقِ مِن بينِ أهلِ الأرضِ إلى بيتِكَ، وكأنَّني أقرؤهُ لأوَّل مرَّةٍ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾.

لا، لَن تَشْغلَني هذه الجموعُ المُخاطَبة معي، ولا الجموعُ السَّابقةُ، ولا اللَّاحقةُ إلى يوم القيامةِ عن هذا الفهمِ الخاصِّ بي... إذْ مَنْ يُعْفيني - أنا خاصَّةً - لو أنَّني تَخَلَّفْتُ عَن تنفيذِ هذا الأمرِ «وطهِّرْ بيتي»؟!

يكفيني حافزاً أنَّ اللَّهَ حينَ أمرَ إبراهيمَ بتطهيرِ بيتِهِ سبحانَه فاستجابَ، طَهَّر قلبَه وسلَّمه ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤].

يالَلَّهُ! ما أعظمَ فضلَه على خليلِهِ عليه السلام إذْ ما اكْتَفى بتشريفِه برفعِ البيتِ وبنائِه، وإنَّما كلَّفَهُ بتطهيرِ البيتِ بَعدَ ذلكَ. . .

يا لَلَّهُ! ما أكرمَ اللَّهَ إذ أَبْقَى لنا هذا الشَّرفَ العظيمَ نتعزَّى به، ونتقرَّبُ به، ونتشرَّفُ به، وتَسْلَمُ قلوبُنا به، ووسَّعَ مفهومَ تطهيرِ البيتِ حتَّى شملَ إخراجَ مَن أكلَ بصلًا أو ثوماً منه، أو نفخَ دُخاناً من نَفَسه فيه، أو رفعَ أصغرَ أذىً من هذا البيت العتيق أو مِنْ أصغرِ مسجدٍ من المساجدِ، كلُّ ذلكَ تطهيراً لبيوتِ اللَّهِ تعالى. .

فيا للَّه كَمْ مِن مُصَلٍّ في هذا البيتِ العتيقِ. .؟! كَمْ مِن راكعٍ؟! كمْ مِن ساجدٍ؟! كمْ مِن قائمٍ؟! كمْ مِن دَاعٍ؟ كم مِن ضارعٍ؟! كم من طائفٍ؟! كم من عاكفٍ؟!

كلُّ بقعةٍ فيه مشغولةٌ بالقائمينَ والراكعينَ والساجدينَ والعاكفينَ. .

فلو أن كلَّ واحدٍ من هؤلاءِ طهَّرَ مكانَه الذي يُصلِّي فيه، ورفَع القَذى مِن تحتِه، من جوارِه، ووضعَه في موضعِه الخاصِّ، أو في جيبِه، أو أخرجَه مِن المسجدِ لكان ذلكَ تطهيراً ذاتياً. . . لكن متى يتحققُ ذلك؟!

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾: لو عَمِلَ بها المسلمونَ حقيقةً لأصبحتْ مكةُ أنظفَ مدينةٍ في العالمِ كلِّه، وليستْ مدينةَ كذا أو كذا، من مدائنِ الغَرْبِ أو الشَّرقِ.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾: لو عمِلَ بها النَّاسُ لما أصبحَتْ «**مِنى**» مِن أكثرِ الأماكنِ قذارةً في وقت الحجِّ . .

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾: لَمْ يَقُلِ اللَّهُ تعالى اُكْنُسْ بيتي، ولا اِغْسِلْ بيتي، ولا نَظِّفْ بيتي، ولا جمِّر بيتي، ولكِنَّه قالَ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ ليشْمَلَ كلَّ سُبُلِ

الإزالةِ والتنظيفِ، وفوقَ ذلك معاني التَّطهيرِ والتَّطييبِ - واللَّهُ أعلم - إنَّها عبادةُ الخليلِ عليه الصلاة والسلام. . . .

فما مكافأَتُها؟!

البيتُ مُطَهَّرٌ سليمٌ مِن الأقذارِ، والقلبُ سليمٌ مِن الإشراكِ، سلامةٌ بسلامةٍ، وتطهيرٌ بتطهيرٍ، فأيُّ مكافأةٍ هذه؟

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

يا ربِّ أَحْمَدُك إذ فتحْتَ لنا بابَ الشَّرفِ هذا، ليس على بيتِك المُحرَّمِ وحدَه، وإنما على كلِّ بيتٍ نُسِبَ لكَ، في أيِّ أرضٍ من أرضِكَ، بأيِّ شكلٍ كان، حمايةً، وتطهيراً، وبناءً. . . فلكَ الحمدُ ولك الشكرُ.

* * *

العيونُ الساقيةُ لـ: «طَهِّرْ بيتي»

قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

عن حذيفةَ بْنِ أُسَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**مَنْ آذى المسلمينَ في طُرُقِهم وَجَبَتْ عليه لَعْنتُهم**»(١).

عن جابرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إيَّاكم والتَّعْرِيسَ على جَوادِّ الطريق، فإنَّها مَأْوَى الحيَّاتِ والسِّباعِ، وقضاءِ الحاجةِ عليها، فإنَّها المَلَاعِنُ**»(٢).

عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ لِمَكَّةَ: «**ما أطيبَكِ مِن بلَدٍ وأحبَّكِ إليَّ، ولولا أَنَّ قومي أَخْرَجوني مِنْكِ لَمَا سَكَنْتُ غيرَكِ**»(٣).

عن أبي الدَّرْدَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَن أخرجَ مِن طريقِ المسلمينَ شيئاً يؤذيهم كتبَ اللَّهُ لَهُ بِه حسنةً، ومَنْ كتبَ له عندَه حسنةً أَدْخلَه بها الجنَّةَ**»(٤).

* * *

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٣٠٥٠) وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٨).
(٢) رواه ابن ماجه (٣٢٩) وحسنه الألباني.
(٣) رواه الترمذي (٣٩٢٦) وصححه الألباني.
(٤) الطبراني في «الأوسط» (٣٢) وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٠٦).

ماذا يَرْتَفِعُ مِن الصَّحْنِ؟

نَظْرَةٌ واحدةٌ إلى هؤلاءِ الطَّائفينَ تَحْبِسُ العَيْنَ عن الالتفاتِ هنا، أو هناكَ!

إنَّها نَظْرةٌ مِن على سَطْحِ البيتِ الحرامِ، مِن الدَّوْرِ الثَّالث !

ما هذا الذي أراه الآن؟! فَلَكأنَّها قطعةٌ واحدةٌ مِن الجموعِ المُلْتَحِمةِ، المُتَلاصِقَةِ، المُوَحَّدةِ... تدورُ.... ليس بينها نَشازٌ، ولا اضطرابٌ، ولا اختلالٌ... إنَّهم يطوفونَ حولَ مركزِ المحورِ..

وكَعْبةُ الـرُّوحِ بالتَّوْحـيدِ شاهِـدةٌ كالشَّمـس تَسْطَـعُ نوراً وهْيَ مَنْبعُهُ

يااللَّه: هَل الصحنُ الشَّريفُ هو الذي يدورُ بهم، أَمْ أنَّ عيني قد أخطأتا، أم ماذا؟

إنَّني مِن هذا المقامِ لا أرى إلَّا رؤوسَهم..

دَعْكَ مِن هذا، وأصْغِ سَمْعَك قليلًا... إنَّها هَمْهَمةٌ، بل هُو دَوِيٌّ قويٌّ، أكادُ أُحِسُّ وَهَجَهُ الصَّاعدَ بوجهي قبل أن تسمعَهُ أُذُناي، أُحِسُّه يَعْلُو مِن هذا الصَّحنِ الشَّريفِ...

هُنا السَّمواتُ تَبْدو قُرْبَ طالِبِهـا هنا الرِّحابُ فضاءٌ حينَ يُلْتَمَـسُ
هنا النُّبُـوَّةُ تَحْيا فـي أماكِنهـا لا الطيبُ يَبْلى ولا الأصداءُ تَنْدَرِسُ
هنا الصَّحابةُ مِن حولِ النَّبيِّ هنا أبو هُرَيْرةَ يَـرْوي عَنْـه أو أَنَـسُ

سبحانَك ربي ما أعلمَكَ...! ما أقربَكَ...! ما أسمعَكَ وأَبْصرَكَ...! ما أكرمَكَ...! ما أعلاك...!

سبحانك اللَّهمَّ وبحمدِك، سبحانَ اللَّهِ العظيم.

لَكَأنَّ الفراغَ بينَ طائِفٍ وطائفٍ مَعْدومٌ، فما يكادُ يخرجُ واحدٌ مِن الصحنِ إلا دَخلَ واحدٌ دخولًا ذاتياً مكانَه، بلْ أكثرُ مِن واحدٍ، ولا تزالُ الجموعُ في طوافٍ دائم واحدٍ، كالشخصِ الواحدِ، لكنَّ الحقيقةَ أَنَّ كلَّ شَخْصٍ مِنهم عَالَمٌ في داخِلِه، وسَعْيُهم شَتَّى، فما أعظمَك ربنا سبحانك..؟

أكُلُّ هؤلاءِ يدْعونَك في هذه اللحظةِ، وفي كلِّ لحظةٍ، وبهذه الاستمراريَّةِ، وبهذا التنوُّعِ..؟!

ما أعظمَكَ - ربَّنا - حتَّى أَسَرَتْ عظمتُك كلَّ هذِه القلوبِ ولَكأنَّها تقولُ:

يكفينا مِنكَ إعانتُك لنا على شُكْرِك وذِكْرِكَ ودُعائِكَ والطَّوافِ حولَ بيتِك... فنحنُ المُتَطَلِّعونَ إلى معرفتِكَ... الرَّاجونَ نَظْرتَك... الطَّالبونَ بِإلحاحٍ قبولَنا عباداً لك، وقبولَ عبادَتِنا.

فإعانتُك لنا هي رجاؤنا كي نَذْكرَك كثيراً، ونشكُرَك كثيراً... إذ كُنْتَ بنا بصيراً حين أَعَنْتَنا وأَحْضَرْتنا إلى بيتِك.

يكفينا مِنك ربَّنا أن تملأَ قلوبَنا بمهابتِك فذلكَ خيرُ جزاءٍ نرجوه... يكفينا منك أن تَهْديَ قلوبَنا لِتَعْرِفَك، وتفتحَ بصائرَنا لتعبُدَك كأنَّها تراك؟!

إنَّها الجموعُ البشريَّةُ المُتواصلةُ تُعْلِنُ من هذا الصَّحن المُشرَّفِ، مِن البيتِ العتيقِ، من خالصِ قلوبِها وكاملِ إرادتِها وتَمامِ وَعيها للأمم الشِّرْكِيَّةِ كلِّها: أنْ إذا كُنتم أيها البشرُ تَفِرُّون من العُبوديةِ فاشهدوا أنَّنا من هذا المقامِ نطلبُها، نرجوها، نَبْكي خوفَ ردِّها، وخيرُنا أعلانا درجةً في العبوديَّةِ.. لكنَّها العبوديَّةُ للَّهِ...

العبوديَّةُ التي تحملُ حرِّيَّتها فيها، ثمرتُها العزةُ والعلُوُّ والرفعةُ...

أرأيْتَ عبداً حقيقيًّا من هؤلاءِ الطَّائفينَ، من طُلَّابِ العبوديَّةِ هؤلاءِ يعتقدُ أنَّ غيرَ اللَّهِ يستحقُّ أن تُطْلَبَ منه حاجةٌ من دُنيا أو آخرةٍ؟

يا ربِّ، نحنُ نُعْلِنُ للنَّاسِ عبوديَّتَنَا لكَ وحدَكَ مِن هنا، ومِن كلِّ مكانٍ وزمانٍ، ونُفاخِرُ بها، ونعتزُّ بها...

فنحنُ إذ نطلُبُ إحسانَنا في عبادتِك فإنَّ قلوبَنا - يا ربِّ - أعظمُ ما تكونُ نفْرةً من عبوديَّةِ سواكَ، أو الطَّلبِ منه، أو رجائِه، أو الميلِ إليه...

أيُّ مُنْكَرٍ أعظمُ مِن الشِّرْكِ؟ إننا نعدُّ ذلكَ من الشِّرْكِ فيكَ يا ربِّ.. ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

إنَّنا نعوذُ بك مِن أَن نُشْرِك بك شيئاً ونحنُ نعلَمُ، ونستغفرُك لِمَا لا نَعْلمُ.

يا ربِّ، إنَّ رِفعةَ مقامِنا إنما تكونُ في عبوديَّتِنا لك، وإن مزيدَ رفعتِنا هي مزيدُ درجةٍ في عبوديتِنا، لكنَّنا نرجوكَ أن تجعلَنا - إذ ذاكَ - نعبدُك كأننا نراك، فهَلْ مَنْ أصبحَ قلبُه قريباً منك حتَّى لكأنَّهُ يراكَ يُمْكِنُ أن يلتفتَ ولو لِلَحْظةٍ لمعبودٍ سِواكَ..؟ لا، واللَّهِ لا..!

سبحانَك مِن رَبٍّ شهيدٍ... إذ تُبْقي قلوبَنا شاهدةً على أنَّكَ عليمٌ قريبٌ، سميعٌ، بصيرٌ، شهيدٌ... ولولا أنَّ ذلك الاعتقادَ حقٌّ لما دَعَتْكَ هذه الجموعُ راغبةً، راهبةً، مُجْتمعةً هنا.. فأيُّ شهادةٍ في البشريَّةِ أعظمُ من شهادةِ هذه القلوبِ لك بأنَّك وحدَك الشَّهيدُ، وشهادةُ اللَّه أكبر.

يا أيُّها اللِّسانُ، لا يَغُرنَّك جَهْلُ الجاهلينَ، ولا صُراخُ المُتحمِّسينَ، فالوَقارَ الوقارَ في حضرةِ الجبَّارِ..

يا أيُّها اللسانُ، لا تَفْتُرِ الآن.. لا تَفْترْ ولا لَحظةً، أَفْرِغْ ما في قلبي من ثناءٍ وسُؤالٍ، وارفعْهُ إلى ربِّي... أَفِضْ به الآن إلى ربِّي بإسرارٍ، فإنَّه يسمعُك ويراكَ.

يا أيُّها اللسانُ، لا عليكَ - قُلْها بِلُغَتِك، ولا تَكلَّفِ التَّرجمةَ فاللَّه ربي يَعْلمُ لُغَتي وهو خالقُها وهو العليمُ الخبيرُ...

يا نَفْسُ، أُصْدُقي مع اللَّهِ الآن صِدْقاً لم تَصْدُقِي مِثْلَه من قَبْلُ... أرأيتِ ماذا تصنعينَ؟

هل فكرْتِ بجارِك الطَّائفِ اللَّصيقِ هذا، أو هذا، أو هذا، أو مَنْ يُجاورُ كلَّ واحدٍ منهم في جهةٍ من الجهاتِ مِن حولِهِ؟

هل فكَّرتِ بكلِّ مَن في هذا الصَّحنِ الشَّريفِ العظيم وأنتِ تسمعينَ هذه الهَمْهَمةَ العظيمةَ مِن الدَّعَواتِ المُخْتلفةِ، المُخْتلطةِ، المُتنوِّعةِ، المتكاثرةِ، المتزاحمةِ، المتشابكةِ، المتراكبةِ؟ هل خطَرَ لكِ - يا نَفْسُ - لحظةً أنَّ أحداً مِن هؤلاءِ سَيَشغَلُ اللَّهَ عنك؟ أو أنَّ كلَّ هؤلاء سَيَشْغلونه عنكِ..؟ لا واللَّهِ.. إنَّكِ لو فكَّرْتِ بذلكَ لتوسَّلْتِ للجموعِ بالتَّوقُّفِ عن الدُّعاءِ لحظةً لِتُقَدِّمي طلبكِ في لحظةٍ...

بلْ هذِه الجموعُ تُهَيِّجُكِ للدُّعاءِ، لِلْإلْحاحِ، للتَّعظيمِ، لِلتَّقرُّبِ، لِلْعروجِ، أكثرَ، فأكثرَ، فأكثرَ...

نَعَمْ هذا الذي يستقرُّ في قلبِكِ الآن.. إنَّه السِّباقُ نحوَ العُلوِّ في مقامِ العبوديَّةِ....

فيا ربِّ لن أكتفي اليومَ بالدُّعاءِ، والبكاءِ، وقَشْعريرةِ الجِلْدِ، لا يا ربِّ..

إنَّني اليوم لا أرضى لِنَفْسي بأقلَّ مِن أَنْ أدعوكَ واليقينُ يَمْلَؤُني بأنَّكَ الآن تراني تسمعُني كما لو كنْتُ وحدي، تشاهدُ حالي وانكساري. . .

يا أيُّها البشَرُ، طُوفوا بِقاعَ الأرضِ جميعاً وانظُروا: هَل مِن بُقْعةٍ تشهدُ العبوديَّةَ والوحدانيَّةَ في آنٍ واحدٍ مثلَ هذه البقعةِ.؟!

يا أيَّتُها البشريَّةُ، ألا تَعْقِلينَ. . .؟! لو تأملْتِ هذا المشهدَ لَمَا رَضيتِ إلا أَنْ تعبُدِي اللَّهَ وحدَه لا تُشْركينَ به شيئاً أبداً، فالربُّ الذي أجمعَتْ هذه الجموعُ - بل هذه القلوبُ الصادقةُ - في هذا الصَّحنِ من الأرضِ على دعائِهِ راغبةً راهبةً، عاقلةً، مُريدةً له وحدَه دُونَ سواه. . . وهي تُؤمنُ بأنَّه لا يَشْغَلُه واحدٌ منها عن آخرَ، لَهُو الربُّ الذي لو أصْبَحتِ الأرضُ كلُّها صَحْناً للكعبة، وطافَت البشريةُ كلُّها مِن أوَّلِها إلى آخرِها حَوْلَ الكعبةِ، ودعاه كلُّ واحدٍ بدعاءٍ مختلفٍ عن صاحبِه، لما شغَلَهُ واحدٌ مِنهم عن آخرَ، ولَأَعطِي كلَّ واحدٍ حاجتَه، أَوَ لَمْ يَقُلِ اللَّهُ في الحديثِ القُدُسيِّ: «. . .**يا عبادِي، لَوْ أَنَّ أوَّلَكُمْ وآخرَكُمْ وإنْسَكُم وجِنَّكُم كانوا على أَتْقى قَلْبِ رَجُلٍ واحدٍ مِنكم ما زادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئاً، يا عبادي، لو أنَّ أولَكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أَفْجَر قلبِ رَجُلٍ واحدٍ مِنكم ما نَقَصَ ذلك من مُلْكي شيئاً، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأَعْطَيْتُ كلَّ إنسانٍ منهم مَسْأَلتَه ما نَقَصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يُنْقِصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِل البحرَ**»[1].

يا ربِّ، أنا مِثْلُ الذي بِجواري، مِثْلُ كلِّ هؤلاءِ الطَّائفينَ. . . عَصَيْناكَ

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الظلم.

ورأيْتَنَا، ونحنُ اليومَ نأتيكَ فلَمْ تَنْتقِمْ مِنَّا، ولَوْ عَذَّبْتَنا لاستَحْقَقْنا ذلك بذنوبِنا. . .

لكنَّك سبحانَك لِكَرَمِكَ تَسْتُرُ كلَّ واحدٍ مِنَّا عن صاحبِه، وأنتَ تعلمُ ما فعلَ كلُّ واحدٍ منَّا وما فعلَ صاحبُه. . . !

بلْ إنَّك لِكَرمِكَ سبحانك تُحبُّ أَوْبَةَ العاصين، وتَعدُّها لنا قُرْبى، وتُبدِّلُ السَّيِّئات حسناتٍ!

إنك - سبحانَك - لَمْ تُعذِّبْنا يومَ أَنْ كُنَّا بُعَداءَ، فكيف تُعذِّبُنا وقد جئناك حتَّى دخلنا في صحنِ بيتِك؟

يا ربِّ، نحنُ ما وصلْنَا هنا إلا بإيصالِك إيَّانا. . . فأنتَ الأوَّلُ والآخرُ، وأنتَ الظاهرُ والباطنُ، وأنتَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ.

يا ربِّ، إنَّه فيضُ كَرمِك الذي لا ينقطعُ، ولَسَوْفَ تأتي بآخرينَ مِن عبادِك مذنبين إلى هُنا، فيستغفرونَك فَتَغْفرُ لهم. . ! ولو استغفروكَ حيثُ كانوا لغَفَرْتَ لهم، لكنَّه فضلُك وأنتَ ربُّنا تُحِبُّ ذلك، وتُثيبُ على كلِّ خُطْوةٍ لنا، على كلِّ حركةٍ، كلِّ نَصَبٍ، كلِّ تَعبٍ، فلكَ الحمدُ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

يا أيُّها العبدُ، لا تستعظِم اليومَ ذنباً تتذكَّرُه، وانظرْ إلى سترِ مَن رآك يومَ عصيتَه، وإمهاله لك حتَّى جاء بك إلى بيته سبحانه. .

تذكرْ فمِن الغفلةِ أن لا تتذكرَ، واللَّهُ يغفرُ.

* * *

البيت العتيق: شاهد الوحدانية الشامخ

يا لَجَهلِ الجاهلين - باللَّهِ - ما أعظمَ جهلهم إِذْ يقولون: إنَّ الطَّوافَ بالبيتِ صورةٌ من صُوَرِ الشِّرْكِ وعبادةِ الأوثانِ، وهل الشركُ إلا تعظيمُ الأحجارِ..؟!

وبِبُهْتانِهم هذا تَظْهرُ الصفةُ المشترَكةُ التي يَتَّصِفُ بها المُشركونَ ويُؤكِّدونها في كلِّ مَرَّةٍ، تلك هي أنَّهم لا يعقلونَ، كما يعترفونَ بهذا وهُمْ على أبواب جهنَّم ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وإلَّا، أيقُولُ هذا عاقلٌ عن الكَعْبَةِ وَهِيَ أعظم شاهدٍ صامتٍ ناطقٍ معاً على التَّوحيدِ، وكيفَ لا يكونُ شاهداً على التَّوحيد وهو الذي أسَّسهُ إمامُ المِلَّةِ الحَنِيفيَّةِ خليلُ الرَّحمنِ ورفَعَهُ على التَّقوى بأمر ربِّه؟!.

وهو الذي دَعا ربَّه أوَّلَ ما وَضَعَ ذُرِّيَّتَه هناكَ لِأَجْلِ أَنْ يُوَحِّدُوهُ ويَعْبُدوهُ وقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

كيفَ لا يكونُ شاهداً على التوحيدِ وقد طَهَّرَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ من الأوثانِ التي كانَتْ تُحيطُ به وتَعْلُوه.. وهو يقرأُ: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ٨١].

كيف لا يكونُ شاهداً على التوحيدِ، وهو البِناءُ الذي لا يَنْبغي أنْ يُمَسَّ إلا حيثُ أمرَ الشَّرْعُ بمسِّه.. وإذا مُسَّ فإنه يُمَسُّ اتِّباعاً لرسولِ اللَّهِ ﷺ... وإلَّا

فهَلْ مِن حَجرٍ من أحجارِ الأرضِ كلِّها أَكْرمُ مِن الحَجَرِ الأسودِ، ومع أنَّه الحجرُ المُكَرَّم فهو لا يُقَبَّلُ أو يُمَسُّ أو يُشارُ إليه إلا اتِّباعاً، ولسانُ كلِّ مسلم يقولُ ما قال عمرُ: «**إنِّي لَأَعْلَمُ أنَّك حَجَرٌ لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ ولولا أَنِّي رأيْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يُقَبِّلُك ما قَبَّلْتُكَ**»(١).

فالنَّتيجةُ المَنْطِقيَّةُ تقولُ: إذا كانَ هذا تعاملُ المسلمينَ معَ أعظمِ الأحجارِ وأكرمِها، والذي هو مِن الجَنَّةِ، وقد وَضَعَهُ في أكرمِ مَوْضِعٍ، ليسَ في أعلى الكعبةِ ولا هو بِمُسْتوى الأَرْجُلِ، ولَمْ يُؤْمروا بالسجودِ أمامَهُ ولا عبادتَه، فهلْ يُمْكِنُ أن يَعْبُدوا حجراً غيرَه مِن الأحجارِ.. بلْ إذا توقَّفوا أمامَ الحجرِ الأسودِ وأعلَنُوا التَّوحيدَ وقالوا: «**باسمِ اللَّهِ، اللَّهُ أكبرُ**...».

إنَّ هذا الصَّحنَ وهذا البيتَ شاهدٌ على التَّوحيدِ، إذ إنَّ الطائفَ بعدما ينتهي مِن طَوافِه يركعُ ركعتينِ للَّهِ ربِّ العالمينَ، والعَجيبُ حَقًّا هو أنَّه لا يُشْرعُ في هاتين الرَّكعتينِ النَّظرُ إلى البيتِ، بل إنَّما يكونُ النظرُ إلى موضعِ السُّجودِ حيثُ يقولُ النبيُّ ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وجهَهُ لوَجْهِ عبدِه في صلاتِه ما لَمْ يلتفِتْ**»(٢).

كما هو الأمرُ في كلِّ الصَّلاةِ فإنَّ النَّظر يكون إلى الأصبع الذي يشير بالتَّوحيد، وفي أيِّ بُقْعَةٍ مِن بِقاعِ الأرضِ إلَّا عند التَّشهد...

فالصَّلاةُ عندَ الكعبةِ كالصَّلاةِ في كلِّ مكانٍ آخرَ سواءً بسواءٍ، لا يقولُ

---

(١) رواه النسائي (٢٩٣٧) كتاب الحج، باب: تقبيل الحجر، من حديث عابس بن ربيعة، وصححه الألباني، والحديث بنحوه في الصحيحين.

(٢) رواه الترمذي(٢٨٦٣) كتاب: الامتثال، باب: مثل الصلاة والصيام، من حديث الحارث الأشعري، وصححه الألباني.

المؤمنُ فيها: وجَّهْتُ وجهيَ للكعبةِ، ولا يُمجِّدُ الكعبةَ، بل الصَّلاةُ هي الصَّلاةُ، والأذكارُ هي الأذكارُ، والحَرَكاتُ هي الحركاتُ... لا يَصْرِفُ للكعبةِ كلمةً واحدةً..

بل لو كانَ التَّوحيدُ في مكانٍ يُسْتَحَبُّ أكثرَ من مكانٍ، لكانَ استحبابُه هنا أشدَّ ما يكونُ، لكنَّه التَّوحيدُ في كلِّ مكانٍ، وفي كلِّ زمانٍ، وفي كلِّ حالٍ من الوِلادةِ حتَّى المَماتِ..

أرأيتم على البيت صورة؟ أم رأيتموه في شكل صورة؟ أم رأيتم فوقه وثناً؟

هل قال اللَّه فليعبدوا هذا البيت؟ أم قال: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾؟ إنَّ الأمر في الكعبة أعظم ما يكون من التَّوحيد، ولا يفقهه من جاء يقيس الحجر بالحجر.

أين الحجر المعبود بالحجر الذي لا يجوز حتَّى القسم به، فالقسم به شركٌ باللَّه؟

أين الحجر المصوَّر في صور آلهةٍ مكذوبةٍ أو بشرٍ أو ما إلى ذلك من البيت الذي بني مقابل البيت المعمور في السَّماء السَّابعة؟ هل يا ترى طواف الملائكة حول البيت المعمور عبادةٌ للبيت؟

إنَّ من اشتبه عليه الطَّواف بالبيت بعبادة الأصنام إنَّما هو كمن احتجَّ بحجَّة إبليس حين رفض السُّجود لآدم حيث قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؟ بينما السُّجود طاعةٌ للَّه تعالى وعبوديَّةٌ له ولم يكن عبوديَّةً لآدم!

سبحانك ربَّنا ما وجدنا وحدانيَّتك تتجلَّى في القلب تجليِّها عند البيت العتيق.. بل ما وجدنا أنَّنا نعبدك كأنَّنا نراك سبحانك مثلما نكون في طوافنا

وصلاتنا لك عند بيتك العتيق؟ إنَّها مشاهدةٌ يشهد بها كلُّ قلبٍ طاف وصلَّى هناك، وما رؤي أحدٌ قط سجد أو ركع للبيت العتيق بدليل أنَّ صلاته التي يصلِّيها للَّه في بلاده هي هي صلاته التي يصلِّيها للَّه في البيت العتيق.

سبحانكَ ربِّي، ما أعظمَها مِن مِنَّةٍ عليَّ، إذ أَحْضَرْتَني إلى هذا المسجدِ المباركِ، إلى داخلِ هذا المسجدِ لِأَجْلِسَ هنا... مُواجهاً للبيتِ العتيقِ، لا يَفْصِلُني عنه فاصلٌ...

وإِذْ أنا في داخلِ بيتك تَمُرُّ عَليَّ هذه الآية فأقرؤها، وكأنَّي أقرؤها لأولِ مَرَّةٍ ﴿**وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**﴾ [البقرة: ١٤٤].

﴿**فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ**﴾! فلَكأنَّه خطابٌ لِغَيْري إذ أنا بفضلِ اللَّهِ داخلَ شَطْرِه، ووجهي مُواجِهٌ للكعبةِ مِن داخلِهِ، فالحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ...

سبحانَ ربِّي، ما أَعْظمَ مِنَّتَهُ عَلَيْنا ونحنُ نَقْرأُ دعاءَ الخليلِ الأوَّلَ ﴿**وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ**﴾ ونحن - الآن - على مائدةِ الإفطارِ، في الحرَمِ بانتظارِ أذانِه العظيم، أُنْظُر إلى الجموعِ المُمْتَدَّةِ على طُولِ ساحاتِ الحرمِ وعَرْضِها حتَّى لا تكادَ تَرى أرضَه لِتَزَاحُمِ النَّاسِ على مائدةِ الإفطارِ في رمضانَ، هنا مرَّتْ عليَّ... دعوةُ الخليلِ في قولِه تعالى: ﴿**وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ**﴾ فتبادَرَ إلى عقلي سُؤالٌ: كَمْ كان عددُ ﴿**أَهْلَهُۥ**﴾ عندما دعا لهم الخليلُ بالرِّزْقِ يَوْمَذاكَ؟

وكَمْ أَصْبحوا الآن؟... ذَهبَ الدَّاعي وبَقِي الرزَّاقُ، ورِزْقُ اللَّهِ لا يَنْفَدُ.. وها نحنُ الآن لا نَرى أحداً مِن هذهِ الجموعِ ليسَ أمامَه إفطارَهُ، وكلُّ مُسْلم يَتمنَّى أن يُقدِّمَ إفطاراً لصائم في هذا المكانِ.. أَلَيْسُوا هُمْ ضيوفُ اللَّهِ؟.. ألا يَودُّ كلُّ واحدٍ أَن يكونَ مَناطَ إجابةِ دعوةِ الخليلِ..؟!.

فكَمْ في هذا البيتِ من آياتٍ، وآياتٍ..؟!

أيُّها الوافدُ على اللَّهِ المُشاهِدُ هذا البيتَ: تُريدُ أَنْ تَرى حِفْظَ اللَّهِ إذا ادْلَهَمَّتِ الخُطوبُ؟ أَمْ تريدُ أَن ترى نَصْرَ اللَّهِ تعالى إذا عمَّ الظُّلْمُ الأرضَ، أُنظرْ لهذا البيتِ، واجْلِسْ مُتأمِّلًا التَّاريخَ البعيدَ، واقْرأ مِن موقِعكَ مَشْهداً يُثَبِّتُهُ اللَّهُ تعالى في كتابِه... لا يَنْقُصُه إلَّا يَقينُك لِتَرى بعدَهُ كلَّ القصةِ كما ترى البيتَ الآنَ أمام ناظريك: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل].

ثمَّ انظرْ بعدَه ماذا صنعَ اللَّهُ بِمَنْ كادَ بيتَه مِن: القَرامِطَةِ وغيرِهِم من الباطنيِّين والصليبيِّينَ واليهودِ والمُتَصَهْينينَ...

أيُّها المُشَاهِدُ لِلْبيتِ، لا تَحْسَبَنَّ أُمْنيةً عندَ جميعِ الحاقدين أَكْبرَ مِن أَنْ يهدِموا هذا البيتَ، ولا تحسبنَّ أمنيةً عندَ جميعِ المؤمنينَ أعظم من فداءِ هذا البيت... لكنَّه بيتُ اللَّهِ وكفَى..! ليسَ هذا عذراً لأحدٍ أَن يترُكَهُ، لَكِنْ لو تَرَكَه كلُّ أحدٍ لَمَا تركَهُ الواحدُ الأَحَدُ سبحانَه... وأيُّ شَرَفٍ أعلى مِن رُوحٍ ترتفعُ فِداءً لِلْبيتِ، ودَم يَسِيحُ لأَجْلِ هذا البيتِ في صحنِ البيتِ إذا احتاجَ هذا البيتُ التَّضحيةَ، أفأكونُ شهيداً إذا دافعْتُ عَن مالِي وبيتِي ولا أكونُ شَهيداً إذا فَدَيْتُ بَيْتَ ربِّي بروحي...؟ ما أَفْقَهَ عبدَ المُطَّلِبِ حينَ قالَ: «**أنا ربُّ الإبِلِ ولِلْبيتِ رَبٌّ يَحْميهِ**»، وما أَعْظَمَها مِن أُمَّةٍ لَوْ نادى هذا البيتُ عليها بالحِمَايةِ - زادَه اللَّهُ عِزًّا وتَشْريفاً وتَعْظيماً- لَأَصْبَحَتِ الأمَّة المترامية رُوحاً واحدةً، وبَدَناً واحداً، ثمَّ أدخلَتِ البيتَ أضلاعَها، ووضعَتْهُ في سُوَيْداءِ قَلْبِها وأَغْلَقَتْ عليهِ،

وتَنادَتْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، مُلَبِّيةً النداءَ، مُقَدِّمَةً الأرواحَ فِداءً، قَدْ سَدَّ سَوَادُها ما بينَ الأرضِ والسَّماءِ، تُنادِي على بيتِ اللَّهِ: رُوحي دُونَ حَجَرِك، ونَحْرِي دونَ رُكْنِكَ، وقَلْبي دونَ مَقامِكَ، ودَمِي دونَ زَمْزَمِكَ، وصَدْرِي دون صحنِكَ، وأعضائي دون لَبِنِكَ، وحياتي لأجلِ بقائِكَ، كلُّ روحٍ من هذه الأمةِ تتمنَّى أن تكونَ طيرًا من الطَّيرِ الأبابيل لتحرقَ بإذنِ ربِّها أصحابَ الفيلِ من أيِّ دينٍ وأيِّ قبيلٍ ثمَّ تحترقُ هيَ ولا يخدشُ البيتُ خَدشًا، زادَهُ اللَّهُ تَشْريفاً وتعظيماً وتَكْرِيماً .

* * *

العيونُ الساقيةُ لـ:
«ماذا يَرْتفِعُ من الصَّحْنِ؟»
والبيت شاهد الوحدانية الشامخ

قالَ تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

قالَ تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

عن عبدِ اللَّه بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**اِسْتَمْتِعوا مِن هذا البيتِ، فإنه قد هُدِمَ مرَّتينِ، ويُرْفَعُ في الثالثةِ**»(١).

عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**يُخرِّبُ الكعبة ذو السَّوَيْقَتَيْنِ من الحَبَشَةِ**»(٢).

* * *

(١) رواه ابن حبان (٦٧٥٣) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.
(٢) رواه البخاري (١٥١٤) ومسلم (٢٩٠٩).

ربنا آتنا ... الحسنة... والحسنة

يا لها من دعوة لو فقه الناس مخزون معانيها، وعرفوا ماذا ادخر اللَّه فيها؟

دعوةٌ قيَّدْتها - ربَّنا - نصًّا في القرآن، مربوطةٌ بالحجِّ، فقلتَ وقولُك الحقُّ في آيات الحجِّ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وجاء في السنَّة الصَّحيحة عن عبد اللَّه بن السائب قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ وهو يقول بين الرُّكن والحجر: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النَّار**»(١).

أيُّ عظمةٍ في هذه الدَّعوة يا عظيم؟!

دعوةٌ جعلْتَها سبحانك في ختام الصَّلاة بعد كلِّ تشهُّدٍ، وذلك بعد مفتاح الإجابة - بعد الصَّلاة على رسولك ﷺ - فكأنَّ الصَّلاة كلَّها ثناءٌ، وهي كذلك بغير شكٍّ، ثمَّ الصَّلاة على رسول اللَّه ﷺ، وبها يرفع الدُّعاء، وبعدها يأتي الدُّعاء في آخر الصَّلاة وأوَّله: «ربنا آتنا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النَّار»، وهكذا جعلته ربنا في آخر الشَّوط الأوَّل من الطَّواف ولم تجعله في أوَّل الشَّوط، وهكذا جاءت في آخر كلِّ شوطٍ، ثمَّ هو في ختام الطَّواف كلِّه... وهذا دليلٌ كافٍ على ما في هذه الدَّعوة من عظمةٍ وقيمةٍ..

يا ربِّ، أيُّ قيمة لهذا الدُّعاء حتَّى خصَّصت له ربع الطَّواف، وجعلت له

(١) «صحيح ابن حبان» (٣٨٢٦).

ما بين الرُّكن والمقام وهو أعظم مواقع الطَّواف حول البيت - وكلُّها عظيمةٌ وهو أعظم مقامٍ -، فهو دعاءٌ لا يقال مرَّةً واحدةً، بل يكرَّر ابتداءً من الرُّكن اليماني إلى أنْ يبلغ الطَّائف الحجر الأسود، وما أكثر ما يطول هذا الرُّكن حتَّى لكأنَّه يعادل الطَّواف كلَّه، لمن أراد تقبيل الحجر الأسود عند الزِّحام..

يا ربِّ، قد جعلت الطَّواف بالبيت هو غاية الوافد عليك، فعنده تُقطع التَّلبية، جعلته نهايةَ أعمال الوافدين إذا ودَّعوا... فأيُّ قيمةٍ لكلماتٍ جعلتها كأنَّها مطلوب الوافدين أوَّل وفادتهم وآخر دعواتهم..

يا ربِّ، إن لم تؤتنا هذا المطلب فمن ذا الذي يؤتينا إيَّاه..؟ من يملك الدنيا والآخرة سواك، ومن يملك حسنها وخلاصتها: ربنا آتنا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النَّار.

يا ربِّ، تركت لنا طوال الطَّواف نثني عليك بما نشاء، وندعوك بما نشاء، ونذكرك بما نشاء.. إلَّا عندما نكون في هذا الرُّبع العظيم من بيتك العتيق، - وكله عظيم - فإنك سبحانك خصصته لنا بهذا الدعاء..

فأيُّ محبَّةٍ لك ربَّنا بهذا الدُّعاء العظيم.. وأيُّ محبَّةٍ لك بنا حتَّى تخصَّنا بهذا الدُّعاء العظيم، بل تلقِّننا إيَّاه خاصَّةً من دون الأدعية..

سبحانك لو لم ترد إعطاءنا إجابة هذا الطَّلب ما لقَّنتنا إيَّاه في هذا المكان وهذا المقام فيها.

سبحانك ربنا، جعلت لنا هذا الدُّعاء في أكثر الأماكن اجتماعاً في الأرض على عبادتك، وجعلتنا نرفع الدُّعاء بلفظ الجماعة لا الفرد : ربنا آتنا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النَّار.

فهل ذلك إلَّا سبباً من أعظم أسباب إجابته...؟

إنَّني وأنا أقوله بمفردي أثناء طوافي لا أقول: «ربِّي... آتني.. وقني» لا، إنَّما أقولها وأنا بين هؤلاء المزدحمين حول البيت، وسط هذه الأمَّة العظيمة بضمير الجماعة: ربنا آتنا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النَّار.

فهل هذا إلَّا عنوان الإجابة، فالطَّواف جماعيٌّ، والألفاظ جماعيَّةٌ، فهل يشقى بالقوم طائفٌ، وهل يملك القلب إلَّا أن يكون عضواً فاعلًا في هذا الكلِّ المبارك الطَّائف حول البيت فيا ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

يا ربَّنا، كم يكون الطَّائف متلهِّفاً على هذا المكان وهذا الطَّواف... متلهِّفٌ على ذكرك في هذا المكان العظيم.. ولذا فلربَّما ابتدأ الطَّائف بثناءٍ واحدٍ عليك، وذهب مع عظمة ذلك الذِّكر الأوَّل حتَّى لم يذكرك بغيره من شدَّة نوره الذي لا يرى معه شيءٌ آخر، وجاذبيَّته التي سحبته من كلِّ شيءٍ.. هنا يأتي هذا الدُّعاء: ربنا آتنا في الدُّنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النَّار، ليقطع تواصل القلب مع كلِّ دعاءٍ وكلِّ ثناءٍ قبله استمرَّ به الطَّائف.. وكم واللَّه في هذا من خيرٍ..؟!

إنَّها تجعل الطَّائف ينوِّع الذِّكر، وتجعل القلب ينوِّع التَّغذية بأنوار الأذكار المختلفة، فيحصد مختلف الثِّمار.. وهكذا في كلِّ طوفةٍ جديدٌ وجديدٌ وجديدٌ.. وخصوصاً وأنَّ من النَّاس من قد لا يتكرَّر مجيئه لهذا البيت..

سبحانك ربَّنا، هنا المركز في الأرض كلِّها لكلِّ عابدٍ.. لكلِّ مسجدٍ وساجدٍ.. هنا الكعبة البيت الحرام.. هنا انقطعت تلبية الملبِّين العظيمة القريبة لبَّيك اللَّهم لبَّيك..

وهنا ابتدأ خطاب ربِّنا خطاباً مباشراً (ربنا آتنا)، فما أنسب الخطاب للحال!! فيا قلبي تيقَّظ لما تقول: فإنَّك في مقامٍ لو أدركته، لأدركت ما رُفعت إليه، فلا تغفل..

فيا عجباً لألفاظ هذه الدعوة: إنَّه طلب إيتاء حسنتين فقط!

حسنةٍ في الدنيا، وحسنةٍ في الآخرة.. فإذا كلُّ خيرٍ قد حصل وتمَّ وتحقَّق: حسنةً صافيةً من غير كدرٍ أو سوءٍ.. حسنةً شاملةً لكلِّ ما في الدنيا.. حسنةً شاملةً لكلِّ موقفٍ من مواقف الآخرة.. إنَّها طلب خير الدنيا والآخرة، ولكن من غير مخالطة ذنبٍ، أو سابقة عذابٍ، أو تنغيصٍ أو كدرٍ..

فمن يقدر على منحنا كلَّ هذا سواك ربَّنا..

فيا ربِّ، آتنا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النَّار.

فهذه الدَّعوة شاملةٌ لدعاء ليلة القدر: «اللَّهم إنَّك عفوٌّ تحبُّ العفو فاعف عنَّا»..

فالعفو لازمٌ من لوازمها، فلئن قلت: فكيف لم يكن هو الدعاء المشروع في تلك الليلة.

والجواب: إنَّها دعوةٌ مشروعةٌ في هذه الليلة كما هي مشروعةٌ في عرفة، وفي ثلث اللَّيل الأخير، وذلك أنَّ ليلة القدر لا تخلو من صلاة، وهذه الدَّعوة في كلِّ صلاةٍ..

«وقنا عذاب النَّار» أما الاستعاذة من النَّار فإنَّها حكمةٌ بالغةٌ، فيا لها من حكمةٍ..؟!

فالجنَّة لم تذكر هنا صراحةً في هذا الدُّعاء.. ذلك أنَّه ليس للوقاية من

النَّار معنىً إلَّا دخول الجنَّة، كما قال سبحانه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ثمَّ إنَّ الحسنة الأعظم في الآخرة هي الجنَّة، وأحسن حسن هذه الحسنة هي النَّظر لوجه اللَّه الكريم سبحانه، وأمرٌ آخر هو في غاية الدِّقَّة والظُّهور على الإجابة لِم لَم تذكر الجنَّة في هذا الدعاء الجامع في الطَّواف: ربَّنا آتنا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النَّار، هو أنَّ في نهاية هذا الذِّكر لهذا الشَّوط يُقبِّل هذا الدَّاعي الحجر الأسود أو يشير إليه، وهو حجرٌ من الجنَّة، وهذه أعظم بشارةٍ بإجابة دعائه ودخول الجنَّة - بإذن اللَّه - وما رأيت إجابة دعوةٍ معجَّلةٍ عمليَّةٍ مقبوضةٍ من أمور الآخرة أشهر من هذه..

فسبحانك ربَّنا، كم تُربِّينا ونحن لا نشعر.. فلا غرور، ولا ضمان نجاةٍ إلَّا باللَّه، فإذا لم ينجِّنا اللَّه فإنَّ جهنَّم محيطةٌ، والعتق منها بيد اللَّه، فيا ربِّ قنا عذاب النَّار..

سبحانك تُربِّينا على عدم الاغترار بالعبادة.. فهذا الدُّعاء جاء بعد هذه الرحلة (رحلة الوفادة)، وبعد هذا الطَّواف العظيم، وبعد هذا التَّقريب الكبير، ومع هذا فلا غرور بالرِّحلة ولا بالطَّواف ولا بالعمل ولا بالذِّكر، ولا ضمان بالنَّجاة من النَّار، ولا طريق إلَّا بالاستعاذة باللَّه منها..

فيا ربَّنا كم تطير نفوسنا وتأنس بمقامٍ نستشعره أثناء هذا الطَّواف، لكنَّها وقبل أن تركن لذلك يأتيها هذا الدُّعاء مذكِّراً إيَّاها بأعظم المخاطر ألَا إنَّه النَّار، فيا ربَّنا: آتنا في الدُّنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النَّار.

فإنَّ المصيبة العظمى والمهلكة الكبرى هي رؤية الإنسان نفسه، فأي رؤيةٍ للنَّفس تبقى إذا ذكِّر العبد بالنَّار..؟!

الإعجاز المتجدد للبيت العتيق

كنت أسير مع أخٍ لي في اللَّه خارج المسجد الحرام، فقال: الزَّحمة شديدةٌ! قلت: سبحان اللَّه! هذه الزَّحمة آيةٌ من آيات اللَّه على صحَّة نبوَّة رسول اللَّه ﷺ. . وعلى صحَّة قبلتنا، وأنَّها آيةٌ معجزةٌ باقيةٌ، وأنَّها أعظم من كلِّ معجزات الأنبياء التي ذهبت. وهذه الزَّحمة التي تراها مذكورةٌ في الكتب السَّابقة!

فلكَ الحمدُ يَا ربِّ، فمَا من مرَّةٍ نظرتُ إلَى هذَا البيتِ من بُعْد، أوْ طفتُ حولَه إلَّا ظهرتْ أمامَ عينيَّ المعجزةُ بأبهَى صُورِها، وأظهرِ حالاتِها، المعجزةُ التي نَراها نحنُ اليومَ كما لمْ يرَها أحدٌ مِنْ قبلنا أبداً.

تلكَ هِي البشارةُ بهذهِ الصُّورة حولَ هذَا البيتِ تحديداً في الكُتب السَّابقة.

المعجزةُ التي تكفِي لمنْ تأمَّلها من أيِّ دينٍ كانَ وبقطرةٍ واحدةٍ فقط من بحرِ الإنصافِ أنْ يعلنَ إسلامَه لمجردِ هذَا المنظرِ حتَّى من غيرِ دَعوةٍ قوليةٍ، ولا بكلمةٍ واحدةٍ.

وهُنا أستأذنُ القارئَ لأنقلَ له نصَّ ما كتبتُ في كتابنا «لك القرار»[1]: «**البشارة الرَّابعة**: هذه الآية في سفر التَّكوين هي وعدٌ وبشارةٌ من اللَّه لإبراهيم في ولده إسماعيل، فقال: «**وأمَّا إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمِّره وأكثِّره جدًّا، اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمَّة كبيرةً**» سفر التكوين (١٧/ ٢٠).

(١) «لك القرار» (ص٨٩٨ - ٩٠٨).

من هم ذريَّة إسماعيل الذين وعد اللَّه أن يكثِّرهم ويباركهم ويثمِّرهم. . ؟!

هل اليهود من ذريَّة إسماعيل؟ أم النَّصارى، أم من؟

أليس هم العرب؟

لكن متى كان العرب أمَّةً عظيمةً إلَّا ببعثة محمَّدٍ فيهم. . . ؟

حدَّد النَّصُّ التَّوراتي أنَّ الأمَّة الكبيرة سوف تكون من نسل إسماعيل، وفي التَّحديد بالنَّسَب دقَّةٌ لا يمكن أن تكون مثلها دقَّةٌ، فالأنساب المحفوظة تقطع الالتباس، بينما لو حدَّده بالدِّين أو المعتقد أو ما إلى ذلك لربَّما قال اليهود: هي أمَّتنا، ولقال النَّصارى: هذا تابعٌ لمعتقدنا، لكن التَّحديد جاء بذريَّة إسماعيل.

وهذا الوعد هو ما جاء شاهدهُ في القرآن بدعاء إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - حيث قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

البشارة الخامسة: سفر أشعيا (٥٤ / ١ -١٧) ط (١٨٦٥): «ترنَّمي أيَّتها العاقر التي لم تلدي، أشيدي بالترنُّم أيَّتها التي لم تمخض؛ لأنَّ بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل، قال الربُّ: أوسعي مكانك وخيمتك، ولتبسط شقق مساكنك، لا تمسكي، أطيلي أطنابك وشددي أوتادك، لأنَّك تمتدِّين إلى اليمين وإلى اليسار، ويرث نسلك أمماً، ويعمِّر مدناً خربةً. . . ».

لا شك أنَّ الخطاب هنا لأرضٍ معيَّنةٍ من أرض اللَّه. . . لكن مَن هذه الأرض «العاقر» التي لم تلد الأنبياء من بعد إسماعيل - عليه الصلاة والسلام -؟. . أهي

أرض مصر التي ما عقرت بعد هذه البشارة أبداً لأنَّها الأرض التي بعث فيها موسى – عليه الصلاة والسَّلام – ومن بعده من الأنبياء؟ أم هي أرض الشَّام التي بعث فيها داود ومَنْ بَعْدَه؟ أم هي الجزيرة العربيَّة التي عُقرت من بعد إسماعيل فلم يُبعث فيها أحدٌ، ولم تلد من بعد هذه البشارة أيَّ نبيٍّ إلى أن بُعِث محمَّدٌ – عليه الصلاة والسلام؟

هذه واحدةٌ، ثمَّ من المرأة «**المستوحشة**» التي ورد ذكرها في النَّصِّ؟ أهي «**سارة**» زوجة إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – الحُرَّة التي عاشت في مصر وما رأت وحشةً، فهي أمُّ إسحاق ويعقوب وأنبياء بني إسرائيل –عليهم الصلاة والسلام–؟ أم هي «**هاجر**» أمُّ العرب لأنَّها أمُّ إسماعيل والذي منه محمد بن عبد اللَّه – عليه الصلاة والسلام –؟ لقد عاشت هاجر الوحشة – في صحراء مكة – وجاء الخطاب بذكرها ووصفها ووصف ولدها صريحاً بذلك: «وقال لها ملاك الرَّبِّ: ها أنت حُبْلَى، فتلدين ابناً، وقد عيَّن اسمه إسماعيل؛ لأنَّ الربَّ قد سمع لمذَلَّتِك، وأنَّه يكون إنساناً وحشيًّا» سفر التكوين (١٦ / ١١، ١٢) فهل بعد هذا التَّحديد اليقينيِّ من تشكيكٍ.

البشارة السَّادسة: «**غنُّوا للرَّبِّ أغنيَّةً جديدةً، تسبيحةً من أقصى الأرض، أيُّها المنحدرون من البحر وملؤه، والجزائر وسكَّانها، لترفع البريَّة ومدنها صوتها، الدِّيار التي سكنها قيدار، لتترنَّم سكان سالخ، من رؤوس الجبال ليهتفوا، ليعطوا الربَّ مجداً، ويخبروا بتسبيحه في الجزائر**»... سفر شعباء، الإصحاح الثاني والأربعون (١٠ –١٢) العهد القديم (٣ – ٨).

في هذا النَّصِّ تحديد البشارة أكثر، وتحديدها باسم الجَدِّ، وهذا ما لا يوجد له نظيرٌ، فقيدار هذا هو ابن إسماعيل الثاني عشر باتِّفاق

المؤرِّخين. . .؟ وقبيلتي ربيعة ومضر من ولده، ومحمَّد بن عبد اللَّه - عليه الصلاة والسلام - من مضر؟ فهل بقي بعد هذا من احتمال آخر؟ لقد قطعت هذهِ التَّسمية كلَّ احتمالٍ؟

ثمَّ تعالوا ننظر في جو هذا النَّصِّ العجيب الذي يصف العالم يومها، ولنتساءل: هل حصل التَّسبيح للَّه ملء البرِّ والجبال والبحر وجزائره مثلما حصل بعد بعثة النَّبيَّ محمَّدٍ - عليه الصلاة والسلام؟!

هل يرى أهل الأرض تسبيحاً للَّه على ظهر هذه الأرض كلِّها مثلما يرونه في حجِّ المسلمين إلى الكعبة. .؟!

هل يرفع أحدٌ من العابدين صوته في الأرض كما يرفع المسلمون أصواتهم بالتَّلبية للحجِّ وهم ينطلقون من بلادهم وجزائرهم وجبالهم وبراريهم مثلما يرفعون أصواتهم بالتَّلبية.

وقد جاءت الإشارة الواضحة في سفر أشعيا (٦٠) للحجِّ وأعمال الحجِّ فتأمَّلها، فإنَّها لا تحتاج إلى كثير تفكيرٍ. . إشعيا (٦٠) النَّصُّ: «قُومِي استنيري؛ لأنَّه قد جاء نورك، ومجد الربِّ أشرق عليك؛ لأنَّه ها هي الظلمةُ تغطِّي الأرضَ، والظَّلامُ الدَّامسُ الأممَ، أمّا عليك فيشرق الربُّ، ومجده عليك يُرى، فتسير الأمم في نورك، والملوك في ضياء إشراقك.

ارفعي عينيك وانظري حواليك، قد اجتمعوا كلُّهم، جاءوا إليك، يأتي بَنُوكِ من بعيدٍ، وتحمل بناتك على الأيدي. . لأنَّه تتحوَّل إليك ثروة البحر، ويأتي إليك غنى الأمم تغطيك كثرة الجِمال بُكرانُ «مديان وعيفة»، كلُّها تأتي من «شَبَا» تحمل ذهباً ولُباناً وتبشِّر بتسابيح الربِّ، كلُّ غنم «قيدار» تجتمع إليك، كباش «نبايوت» تخدمك، تصعد مقبولةً على مذبحي وأُزين بيت جَمالي.

مَن هؤلاء الطَّائرون كسحابٍ وكالحمام إلى بيوتها، إنَّ الجزائر تنتظرني، وسفن «ترشيش» في الأوَّل لتأتي ببنيك من بعيدٍ.. وبنو الغريب يبنون أسوارك، وملوكهم يخدمونكِ».

نحن نعلم أنَّ اليهود قد زادوا على هذهِ البشارة كلمتين ليغيروا مجرى هذهِ البشارة حين قيَّدوها في نبوءة نسبوها لأشعيا (٢: ٢-٢ ميخا ٤: ٤، ٢) وهو أنَّ هذا الحجُّ العالمي سيتمُّ إلى جبل صهيون إلى بيت إله يعقوب:

ومهما غيَّر اليهود فماذا يمكن أن يغيروا في هذه النَّبوءة التي فضحتهم إذ يقول فيها النَّصُّ: «وأزلزل كلَّ الأمم ويأتي «مشتهى»، كلِّ الأمم فأملأ هذا البيت مجداً قال ربُّ الجنود: لي الفضَّة ولي الذَّهب يقول ربُّ الجنود: مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأوَّل قال ربُّ الجنود، وفي هذا المكان أعطي السَّلام يقول ربُّ الجنود». حجي (٢: ٦ - ٨).

فكيف يستطيع المعاندون الفكاك من هذهِ البشارة الواضحة على مستوى العالم كلِّه، فإثبات هذهِ البشارة لا يكلِّفك أكثر من أن تفتح فضائيَّةً من الفضائيَّات كقناة المجد أو السعوديَّة أو أيَّ فضائيَّةً خليجيَّةً بأيِّ لغةٍ من اللغات في موسم الحجِّ لترى ما ذكرته هذهِ النُّبوءة بعينيك، وترى إلى بيت اللَّه هذا الذي يجتمع حوله المسبِّحون للَّه غير ... الكعبة ... وترى بعينيك كيف أنَّ هذا النَّقل الحيَّ للعبادة في هذا المكان لا يقتصر على الحجِّ، وإنَّما تنقل للنَّاس صلاة الحشود حول الكعبة خمس مرَّاتٍ كلَّ يومٍ وعلى الهواء مباشرةً، وعلى مدى الحياة إلى يوم القيامة.

ثمَّ لك أن تتساءل: هل من بيتٍ آخر في هذهِ الأرض كلِّها يُعْبد اللَّه فيه كما يعبد اللَّه حول هذا البيت؟

وهل مرَّ على تاريخ هذه النُّبوءة - أي من أكثر من ثلاثة آلاف سنة - أنْ عُمِّرَ مسجدٌ في الأرض مثل هذا المسجد (الكعبة)؟

من يجرؤ على تحويل هذهِ البشارة لغير الكعبة وهو يرى ملايين الجمال والكباش كما جاء في هذهِ النُّبوءة تماماً تقدَّم سنوياً لتذبح في موسم الحجِّ في مكَّة تقرُّباً للَّه لإطعام الفقراء والمساكين.

وإذا اختلط على البعض الكباش فكيف تختلط الإبل؟

حتى البهاء الَّذي تذكره هذهِ النُّبوءة هو مِيزة ظاهرةٌ للكعبة وحولها جموع العابدين محتشدين كأنَّهم أساور الذَّهب متراصَّة حولها... لك أن تجعل منظر الهيكل كما هو في مخيِّلة اليهود في جهةٍ، واجعل في الجهة الأخرى منظر الكعبة كما هو في الواقع لا في الخيال! ثمَّ احكم بنفسك: أيُّهما أَليق بالصُّورة التي ذكرها هذا النَّصُّ؟ ثمَّ أيُّ دقَّةٍ في هذه البشارة حتَّى تذكر أنَّ الأمم من أطراف الأرض يأتون إليها... فأيُّ أناسٍ غير اليهود يأتون للهيكل كما هو في مخيِّلتهم؟

وأيُّ دقَّةٍ في الدِّقَّة حين تذكر هذهِ البشارة من وسائل القدوم إلى هذا البيت هو القدوم عن طريق الجوِّ في منظرٍ عجيبٍ يذكره هذا النَّصُّ الذي لا ترى له تفسيراً غير الطائرات حيث يقول: «من هؤلاء الطَّائرون كسحابٍ وكالحمام إلى بيوتها».

وهنا أودُّ أن ألفت انتباه القارئ إلى بعض الآيات القرآنيَّة الواردة في رافع بناء هذا البيت العظيم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بقوله تعالى ليقارن هو بين النُّصوص الواردة في الكتب السماويَّة: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ

﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٦ - ٢٩].

والنَّصُّ التَّوراتي يحدِّد المسألة تحديداً دقيقاً لأيِّ المسجدين ستكون هذه البشارة، فيقطع بأنَّها للمسجد الأخير للأمَّة الأخيرة والنَّبي الخاتم، فيقول: «تجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأوَّل، قال الجنود وفي هذا المكان أعطي السَّلام يقول رب الجنود» اهـ.

فسُبحانكَ من ربٍّ عظيم كيفَ جعلتَ لنَا هذه المعجزةَ الباهرةَ بعدمَا ذهبَ الأنبياءُ وذهبتْ معهمْ معجزاتُهم إلَّا رسولَ اللَّه ﷺ.

كيفَ جعلتَ لنَا هذَا النورَ الَّذي يكْفينا لو استخدمناهُ جيداً لهَدينا - بإذنك - مَا لا يُحصى مِنَ البشرِ.

إنَّ إحياء هذه العلامات الهاوية وأمثالها من الآيات الواقعيَّة عن هذا البيت العظيم لهو من الهدى الذي ربطه اللَّه بهذا البيت، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

فهو «هدى للعالمين» وليس للمسلمين فحسب، وهو هدى للعالمين إلى يوم القيامة.. يفيض بالهدى.. ولم يحدِّد هداه على وجود مقام إبراهيم عليه السلام فحسب أو زمزم فحسب.

هنا يجب على المسلمين أن يحيوا هذا الهدى المذخور في هذا البيت معنىً ومبنى.. حتَّى صوَّر البيت العتيق فيها هدىً.. فلو نُوِّع استخدامها لنطقت بالهداية.. وأوصلت إلى العالمين، كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾.

العيونُ الساقيةُ لـ:
الإعجاز المتجدد للبيت العتيق

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [قريش].

* * *

مـاءُ زَمْـزمَ في المَسْعى

سبحانَك ربِّي ما أكرمَك أَيُمْكِنُنِي أَنْ أَشْربَ هذا الماءَ مِن غيرِ أن أَتَشَرَّبَ قِصَّتَه الأُولى والرسولُ ﷺ يَذْكُرُها بصَوْتِها، وصُورتِها، وحَرَكتِها، وآهاتِها... كأنَّها حاضرةٌ أمامَ عَيْنَيْه يَصِفُها... حتى «**صَهٍ**» في وادي السكونِ... بل وادي الموتِ يذكرُها ﷺ..!

روى البخاريُّ في صحيحِهِ عن ابنِ عباسٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -قال: **أَوَّلُ ما اتخذَ النِّساءُ المِنْطَقَ مِن قِبَل أُمِّ إسماعيلَ، اتخذَتْ مِنْطقاً لِتُعَفِّي أَثَرَها على سارةَ، ثُم جاءَ بها إبراهيمُ وبابْنِها إسماعيلَ - وهي تُرْضِعُه - حتَّى وَضَعها عندَ البيتِ، عندَ دَوْحةٍ فوقَ زمزمَ في أعلى المسجدِ، وليسَ بمكةَ يومئذٍ أحدٌ، وليسَ بها ماءٌ، فوضعَهُمَا هُنالِكَ، ووضَعَ عندَهُما جِرَاباً فيه تَمْرٌ، وسِقاءً فيه ماءٌ، ثم قَفَّى إبراهيمُ مُنْطَلِقاً، فتبِعَتْهُ أُمُّ إسماعيلَ فقالَتْ: يا إبراهيمُ، أينَ تذهبُ وتترُكُنا بهذا الوادي الذي ليسَ فيه إِنْسٌ ولا شيءٌ؟ فقالَتْ له ذلك مِراراً، وجَعلَ لايلتفِتُ إليها. فقالتْ له: آللَّهُ أَمَرَكَ بهذا؟ قال: نَعمْ. قالتْ: إذنْ لا يُضيِّعُنا، ثم رجعَتْ، فانطلقَ إبراهيمُ حتَّى إذا كان عند الثَّنيَّةِ حيث لا يَرَوْنَه استقبلَ بِوَجْهِه البيتَ، ثُم دعا بهؤلاءِ الكلماتِ ورفَع يديه فقال:** ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، **وجعلَتْ أُمُّ إسماعيلَ تُرْضِعُ إسماعيلَ وتَشْرَبُ من ذلك الماءِ، حتَّى إذا نفذَ ما في السقاءِ عَطِشَتْ وعَطِشَ ابنُها، وجعلَتْ تَنْظرُ إليه يَتلوَّى أوْ قال: يتلبَّطُ فانطلقَتْ كراهيةَ أَنْ تنظرَ إليه، فوجدَتِ الصَّفا أقربَ جبلٍ في**

الأرضِ يَلِيها، فقامَتْ عليه، ثمَّ استقبلَت الوادي تنظرُ هل ترى أحداً فلَمْ ترَ أحداً فهبطَت مِن الصَّفا، حتَّى إذا بلغَت الوادي رفعَت طَرَفَ ذِراعيها، ثمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإنسانِ المجهودِ حتَّى جاوزَت الوادي، ثمَّ أَتَت المَرْوَةَ فقامت عليها فنظرَتْ هل ترى أحداً، فلَمْ تر أحداً، ففعلَتْ ذلك سَبْعَ مَرَّاتٍ(١). قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال النبي ﷺ: «**فذلك سَعْيُ النَّاس بينهَما**».

فلما أَشْرفَت على المَرْوةِ سمعَت صوتاً فقالت: صَهٍ - تريد نفسها- ثم تَسَمَّعَتْ فسَمِعَتْ أيضاً فقالت: قد أَسْمَعْتَ إِنْ كانَ عندَك غِواثٌ، فإذا هي بالمَلَكِ عندَ موضعِ زمزمَ. فبحَثَ بِعَقِبه- أو قال: بِجَناحِه - حتَّى ظَهرَ الماءُ، فجعلتْ تَحُوضُه وتقولُ بيدِها هكذا وجعلَتْ تَغْرفُ من الماءِ في سِقائها وهو يفورُ بعدما تغرف(٢)(٣).

أيُّها الوافدُ، تأمَّلْ كَم من العِبَرِ البالغةِ في هذه القِصَّةِ، تأملْ ما يَعْنِينا منها أكثرَ في أدائِنا لِلْمَنْسَكِ نفسه..

تأمَّلْ... فلَقدْ كانَ ماءُ زمزمَ بعدَ السَّعي وُقوعاً في القصَّةِ، بينما السُّنَّةُ هو شُرْبُ الوافدِ ماءَ زمزمَ أوَّلًا ثُمَّ السَّعيُ بعدَها... وما ذلك - واللَّهُ أعلمُ - إلا مُوافقةً لِحَقِّ الضيافةِ بعدَ الطوافِ بالبيتِ وتحيَّتِهِ، ولِتَسْتحضرَ القصَّةَ كاملةً قبل البدْءِ بالسعي، فيَتشرَّبُها قلبُكَ وعروقُكَ كما تشرَّبْتَ زمزمَ مِن قَبْلِها، ثُمَّ إذا

---

(١) سقاء: القربة الصغيرة. قفى: ولّى راجعاً. الثنية: مكان عند مدخل مكة. يتلبط: يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض.

(٢) **صَهٍ أو صَهِ**: كأنها خاطبت نفسها فقالت لها: اسكتي. **غواث**: مغيث.. **وتقول بيدها هكذا**: هو حكاية فعلها، وهذا من إطلاق القول على الفعل.

(٣) رواه البخاري (٣١٨٤) كتاب الأنبياء، باب: يزفون: النسلان في المشي.

سَعَيْتَ عرفْتَ مَعْنى السعي، وعِشْتَ قِصَّتَه. . . ومعايشة القصَّة للسَّاعي بين الصَّفا والمروة ضرورةٌ ولو لمرَّةٍ واحدةٍ من مجموع السَّعي وإلَّا فهَلْ مِن المعقولِ أن يَعُبَّ القادمُ مِن زمزمَ ما يشاءُ ثُمَّ هُو لا يتفكَّرُ في قصَّةِ هذا الماءِ، أَوْ لا يستحضرُها، وأَنَّ هذا الماءَ كان إنقاذاً ونَجاةً ورَحْمةً عظيمةً، وأنَّه كان ثمرةَ جُهدٍ عظيمٍ، ونتيجةَ صَبْرٍ واجتهادٍ؟

أيُّها الوافدُ، لَقدْ أصبحَتِ القِصةُ - الآن- أمامَك. . .عِشْها الآن بِنَفْسِك في نَفْسِك، بعدما شَرِبْتَ ماءَها، وابتلَّتْ به عروقُكَ، وأَطَّت به أضلاعُك.

سبحانَكَ ربي ما أكرمَك. . . صبيٌّ وامرأةٌ احتاجا الماءَ فلَمْ تَتْرُكْهُما، فكيفَ تتركُ خيرَ أُمَّةٍ وأبناءَها العِطاشَ في صحراءِ الدنيا التي امتلأَتْ جَوْراً وظلماً.؟

يا نَفْسُ، تأمَّلِي كَرمَ اللَّهِ تعالى في تقديمهِ هذا الماءِ للوافدينَ عليه - سبحانَه - بَعدَ طوافِ بيتهِ العتيقِ. . فالنبيُّ ﷺ ابتدأَ بالطَّوافِ، ثُمَّ صلَّى ركعتينِ، ثم تَضلَّعَ مِن زمزم. .

تأمَّلي كرمَ اللَّهِ كيفَ ميَّزَ هذا الماءَ عن مياهِ الدُّنيا جميعاً؟! فعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**خيرُ ماءٍ على وَجهِ الأرضِ ماءُ زمزمَ**»(١).

ثمَّ تأمَّلي كَرمَ اللَّهِ حينَ جَعلَ هذا الماءَ جامعاً لمواصفاتِ المَطْعوماتِ والمشروباتِ في هذهِ الدنيا. . . فالضَّيفُ يحتاجُ الشرابَ والطَّعامَ. . . ورسولُ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**إنها مُباركةٌ إنها طعامُ طُعْمٍ**»(٢).

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١١١٦٧) وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٦١).

(٢) رواه مسلم (٢٤٧٣) كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي ذر رضي الله عنه.

ثمَّ تأمَّلي كرمَ اللَّهِ سبحانَه حينَ زادَ سبحانَه على الطَّعامِ والشَّرابِ في هذا الماءِ لنا الدواءَ، والرَّسولُ ﷺ يقول: «**إنَّها لَمُباركةٌ وهي طَعامُ طُعْمٍ، وشِفاءُ سُقْمٍ**»(١).

ثمَّ تأمَّلي كرمَ اللَّهِ سبحانَه حينَ أضافَ لكلِّ ذلك على الماءِ ما لا نَحْتسِبُ من الخيراتِ والبركاتِ، وفتحَ لنا بابَ الأمانِيِّ بِشَرْبَةٍ من هذا الماءِ، فقدْ قال رسولُكِ ﷺ: «**ماءُ زمزمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**»(٢).

يا ربِّ، إنَّ من العبادَ مَن يتبرَّكون بآثارِ ما أنْزلَ اللَّهُ بها من سلطانٍ، لكنَّ الوافدَ - المُحْسِنَ في وِفادتِه - لَيَشْعُرُ حين يَشْرَبُ أنَّ بَرَكةَ اللَّه التي جعلها لضربة جبريلَ عليه السلام تَسْري في عُروقِهِ، في ضُلوعِه، في رُوحِه، في كِيانِه... أليسَتْ زمزمُ هَزْمَةً(٣) مِن جِبريلَ؟! أَمْ أنَّ أُمَّ إسماعيلَ ذهبَتْ ببَرَكةِ جبريلَ في الماءِ الذي شَرِبَتْهُ وحدَها..؟!

يا ربِّ، أنَّى لي بشيءٍ يَسْري في دَاخلي، له مِنْ سيِّدِ الملائكةِ الأبرارِ أَثَرٌ..؟

يا طِيبَ زمزمٍ مطعماً أو مشرباً ... تهفو لوِرْد نعيمِه الأرواحُ
جبريلُ أَطْلقَهُ بِهَمْزِ جَناحِهِ ... فإذا به مُسْتَرْسِلًا يَنْداحُ
اللهُ أَوْدَعَهُ عَناصرَ رُكِّبَتْ ... فيه يحارُ بكُنْهِها الشُّرَّاحُ

(١) رواه الطيالسي في «مسنده» (٤٥٧) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٣٥).
(٢) رواه ابن ماجه (٣٠٦٢) كتاب: المناسك، باب: الشرب من زمزم، من حديث جابر بن عبداللَّه رضي الله عنهما وصححه الألباني.
(٣) هزمة جبريل: بفتح الهاء وسكون الزاي أي: غمزته بعقب رجله، انظر فيض القدير (٥/ ٤٠٤).

فتَضَلَّعُوا مِن مائهِ وادعوا فقَدْ جاءَتْ أحاديثٌ بذاكَ صِحَاحُ
مَنْ قالَ زَمزمَ قُدِّسَتْ أسرارُها عندَ الإلهِ فما عليهِ جُنَاحُ

يا ربِّ: أنّى لي بشيء يجري على قلبي الصَّدِئ أنفعَ وأحسنَ مما اخْتَرتَه مُطَهِّراً لأطهرِ قلبٍ خَلَقْتَهُ، لمَّا أردتَ لهُ العروج إليك فقالَ ﷺ: «**أُتِيتُ فانطلقوا بي إلى زَمزمَ، فشرَحَ عن صدري، ثُم غُسِّل بماءِ زمزمَ ثمَّ أُنزلت**»(١).

يا ربِّ، ألا يكفيني تَشْريفاً مِنك أَن تَسْقِيَنِي مِن الماءِ الذي جَعلْتَه إنقاذاً لِهَاجرَ المَفْجوعةِ بولدِها المقطوعِ...

هأنذا يا ربِّ أَتصوَّرُها وَقَدْ جَمعَتْ ما بينَ أنواعِ العَطَشِ: عَطَشٍ لفُقْدانِ الماءِ ونُضُوبِه من سِقائِها، وعطشٍ لِلْجَرْيِ الشَّديدِ ما بينَ الصَّفا والمَرْوةِ وعطشٍ الولد بفقدان حليب أمِّه، وعَطشِ اللُّهاث النَّفْسي على الولدِ...

أتصوَّرُها يا ربِّ مُسْرعةً - نحوَه - حائرةً، هائمةً على وجهِها.. وقد اسْتَيْأَسَتْ من كلِّ الأسبابِ، تتركه مرَّةً وتعود إليه مرَّةً، وفي كلِّ مرَّةٍ يبعد أمل النَّجاة أكثر وأكثر ... فإذا بِها تَرى الماءَ يَتفجَّرُ في هذا الموضعِ الذي أراهُ من الحَرَمِ...

أتصوَّرُها تَرْتَشِفُ منه الرَّشْفَةَ الأولى والنبيُّ ﷺ يقولُ: «**يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إسماعيلَ لَو تركَتْ زمزمَ أو قال لو لَمْ تَغْرِفْ من الماءِ لكانتْ زمزمُ عيناً مَعيناً**»(٢)، قال رسولُ ﷺ: «**إنَّ جبريلَ لمَّا ركضَ زمزمَ بِعَقِبِهِ، جَعَلَتْ أُمُّ**

(١) رواه مسلم (١٦٢) كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول اللَّه ﷺ إلى السماوات.. وأنزلت: بمعنى تركت.

(٢) رواه البخاري (٢٢٣٩) كتاب المساقاة، باب: من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه.

إسماعيلَ تَجْمَعُ البطحاءَ فقال ﷺ: رَحِمَ اللَّهُ هاجرَ لو تَركَتْها لكانَتْ عيناً مَعيناً»[١].

أَتصوَّرُها بعدما شرِبَتْ ذهبَتْ تنظرُ في أَثَرِه المُبارَكِ لِشُرْبِها، فإذا اللبنُ وفيرٌ، وإذا الخيرُ كثيرٌ، وإذا الحياةُ الجديدةُ أوسعُ من شَخْصَينِ وَسَطَ الوادي المُميتِ، حتَّى قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: «**فشرِبَتْ وأَرْضَعَتْ ولدَها فقال لها المَلَكُ: لا تخافوا الضَّيْعَةَ، فإنَّ هاهُنا بيتُ اللَّهِ، يَبْنِي هذا الغلامُ وأبوه، وإنَّ اللَّهَ لا يُضَيِّعُ أهلَهُ**»[٢].

فهنيئاً لأهل مكَّة بهذا الضَّمان من اللَّه وهذه البشارة من جبريل «وإنَّ اللَّه لا يضيِّع أهله».

يا ربِّ أيُّ غراسٍ مِثْلُ الغراسِ الذي باركْتَهُ..أيُّ غراسٍ مثلُ غراسِ الخليلِ عليه السلام..؟

ها هو الوالدُ يَغرِسُ الولدَ - عليهما السلام - في بلدٍ ليس فيها والدٌ ولا ولدٌ..! مكانٌ ليسَ فيه أيُّ مُقوِّم مِن مُقَوِّمات الحياةِ... عتاده الوحيد الثقةُ باللَّهِ والتَّوكُّلُ عليه، يتركهما الأَب ويتوجه إلى جهة البيت وليس ثمَّة بيت ويرفع يديه إلى ربَّه لا إلى البيت فيهتف قلبه ويكلِّمُه بكلماتٍ يسجِّلها اللَّه في القرآن ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ١٧] ولا يلتفت بعدها إليهما ويسير حتَّى إذا ذَوى ذلكَ

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٢١) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.
(٢) رواه البخاري (٣١٨٤) كتاب: الأنبياء، باب: يزفون: النسلان في المشي.

الغَرْسُ بانقطاعِ لَبَنِهِ وسقِائِه، وانقطاعِه عن العالمِ، اختَرْتَ - له ربِّي سبحانك - الماءَ الذي ليسَ مثلَهُ ماءٌ، فسقَيْتَ أمَّهُ لِتَسْقِيه، فينبُتُ هذا الغرسُ أصلَبَ ممَّا كانَ، وأعظمَ بركةً، وأبقى ثَمَراً..

أيُّ ماءٍ هذا الماءُ؟ وأيُّ حياةٍ بعثَها في الأحياءِ؟ وأيُّ عَطْشى هذه - الأمُّ الفَذَّةُ - التي تشربُ الماءَ لا لِتَرْوي عطَشَها، ولكِنْ لِتَرْوي ولدَها مِن لَبَنِها الذي ذهبَ..؟!

لقدْ جعلَ اللَّهُ الماءَ حياةً لكلِّ شيءٍ حيٍّ... لكنَّ اللَّهَ جعلَ سِرَّ حياةِ الأمَّةِ القادمةِ في هذا الماءِ المُبارَكِ.. بركةُ مياهِ السماءِ والأرضِ يُفَجِّرُها سيِّدُ أهلِ السماءِ في الأرضِ.

فهلْ يعافُ التَضلُّعَ مِن هذا الماءِ المباركِ إلا منافقٌ..

فعَنْ عثمانَ بنِ الأَسْوَدِ، حدَّثني عبدُ اللَّهِ بنِ أبي مُلَيْكَةَ قال: جَاءَ رجلٌ إلى ابنِ عباسٍ، فقالَ: مِن أينَ جئْتَ؟ فقال: مِن زمزمَ. قال: شرِبْتَها كما يَنبغي؟ قال: وكيفَ ذا يا ابنَ عباسٍ؟ قال: إذا شَرِبْتَ منها، فاسْتقبِلِ القِبْلَةَ، واذكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وتَنفَّسْ ثلاثاً، وتَضَلَّعْ منها، فإذا فرغْتَ منها، فاحمَدِ اللَّهَ، فإن الرسولَ ﷺ قالَ: «إنَّ آيةَ ما بينَنا وبينَ المنافقين أنَّهُمْ لا يتضلَّعونَ مِن زمزمَ»[1].

بلْ صحَّ عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّها كانَتْ تَحْمِلُ مِن ماءِ زمزمَ، وتُخْبِرُ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ يحمِلُهُ[2]**، وكانَ يُرْسِلُ - وهو بالمدينةِ - قَبْلَ أن تُفْتَحَ**

(١) رواه ابن ماجه (٣٠٦١) كتاب: المناسك، باب: الشرب من زمزم، وضعفه الألباني، وقال خليل مأمون شيحا: إسناده صحيح كما قال ذلك البصيرى في «الزوائد».

(٢) رواه الترمذي (٩٦٣) كتاب الصوم، وصححه الألباني.

مكةَ إلى سُهَيلِ بنِ عمرو: «**أَنْ أهْدِ لنا مِن ماءِ زمزمَ ولا تَتْرُكْ، فَيَبْعثُ إليه بِمَزَادَتَيْنِ**»[(١)].

وروى مجاهدٌ عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**كان إذا نزلَ به ضَيْفٌ أَتْحَفَهُ مِن ماءِ زمزمَ، ولا أطعمَ قَوماً طعاماً إلا سَقاهُم من ماءِ زمزمَ**»[(٢)].

وقال ﷺ: «**ابنُ السبيلِ أولُ شاربٍ**» يعني: من زمزمَ[(٣)].

لستُ يا ربِّ أقتفي أَثَرَ القومِ الذينَ قَبضُوا قَبْضةً من أَثَرِ الرَّسولِ فصَنعوا منها العِجْلَ، ولكنِّي أسيرُ على سيرةِ الرسولِ محمدٍ ﷺ الذي علَّمَنا قولًا وعملًا ماذا نصنعُ معَ هذا الماءِ، كيفَ نتبرَّكُ بهِ، كيفَ نَتَضلَّعُ منه كيف نرجو من اللَّه بشربه...

واللَّه يا ربِّ، لو كانَ ماءُ البحرِ الأُجَاجِ، وفيه ما فيهِ، لشَرِبْناه وتَضلَّعْنا به مادامَ ذلك يُرْضِيكَ عنَّا.

فكيف وهو يحمِلُ بَركةَ الملَكِ القويِّ الأمينِ، حاملِ القرآنِ العظيمِ، الذي هو عندَك مكينٌ..

وكيفَ وهو الماءُ العَذْبُ الزُّلَالُ، والطعامُ، والدواءُ، والدعاءُ، والبَركةُ..!

كيف وهو الماءُ الذي اخترْتَه لِغَسْلِ قَلْبِ حبيبكَ من دونِ المياه كلِّها وكنْتَ

---

(١) رواه البيهقي (٩٧٦٧) وجود إسناده الألباني، انظر «مناسك الحج والعمرة» (ص٤٢).
(٢) «الدُّرُّ المنثور» (٣/ ٢٢٢).
(٣) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (٢٥٢) وصححه الألباني في «الصحيح الجامع» (١٠٣٣).

قادراً سبحانَك - ولا تزال على كل شيء قديراً - أن تغسِلَه بالكوثرِ أَو بِعُيون الجنَّةِ... لكنَّه زمزمُ... وكفى!

لَأَشْرَبَنَّه وقلبي معكَ وحدكَ - سبحانَك - كأني أراكَ في عليائِك وأنت تراني وأنا أشرَبُه، ترَاهُ يَسْري في بدني، رُوحي تَتَشرَّبُه قبل بدني، وقلبي يتشرَّبُه قبل قالبي... وكُلِّي أملٌ فيك يا حيُّ يا قيومُ أن تُسْري من بَرَكةِ جبريلَ في كلِّ شيءٍ فِيَّ فيزكو ويعلو ويُباركُ - سبحانك ...

* * *

العيونُ الساقِيةُ لـ:
«مـاءُ زمـزمَ في المَسْعَى»

قالَ تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

قال تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [ص: ٤٢].

عن أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنَّ جبريلَ لَمَّا ركضَ زَمْزَمَ بِعَقِبِهِ، جَعَلَتْ أمُّ إسماعيلَ تجمعُ البطحاءَ، فقال النبيُّ ﷺ: رَحِمَ اللَّهُ هاجرَ، لَوْ تَرَكَتْهَا لكَانَتْ عَيْناً مَعِيناً**»[(١)].

عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ جاءَ إلى السِّقايةِ فاسْتَسْقَى، فقالَ العبَّاسُ: يا فَضْلُ، اذهَبْ إلى أمِّكَ، فأْتِ رسولَ اللَّهِ ﷺ بشَرابٍ مِن عندِها. فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**اسقني**»، فقال العباسُ: يا رسول اللَّهِ، إنَّهم يجعلونَ أَيْدِيَهم فيه، فقالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «اسقني» فشَرِبَ منه، ثم أتى زمزمَ، وهم يَسْقونَ ويعملونَ فيها، فقال: «**اعمَلُوا فإنَّكم على عَمَلٍ صالحٍ**» ثم قال: «**لولا أن تُغْلَبُوا لَنَزَعْتُ حتَّى أَضَعَ الحَبْلَ على هذه**» يعني: عاتِقِه، وأشار إلى عاتِقه[(٢)].

قال سُوَيْدُ بنُ سعيدٍ: رأيْتُ عبدَ اللَّهِ بنَ المبارَكِ بمكةَ أتى ماءَ زمزمَ،

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٢١) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٢) رواه البخاري (١٥٥٤).

واستسقى منه شَرْبةً، ثم استقبلَ الكعبةَ، فقالَ: اللَّهمَّ إن ابنَ أبي الموال حدثنا عن محمد بن المُنْكَدِرِ عن جابرٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**ماءُ زمزمَ لِمَا شُرِبَ له**»[1] وها أنا ذا أشربُه لعَطشِ القيامةِ، ثم شَرِبَه.

* * *

(١) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١٠/١٦٦).

كَمْ في الحَلْقِ[١] مِنْ معانٍ؟!

قال لي صاحبِي المُتَمدِّنُ المُتَهَنْدِمُ. . . ونحنُ في طريقِنا إلى الحلَّاقِ: ما الفَرْقُ بين الحِلاقةِ والتقصيرِ. . .؟

يقولُها بصيغةِ سُؤالٍ وكأنَّه يقولُ لي: لا فَرْقَ !

قلْتُ: ما فرَّقَ الشارعُ بينَ الحلقِ والتقصيرِ وجعلَ فارِقَ الأَجْرِ كبيراً، إلا لفارقٍ كبيرٍ. . ! سَجِّلْ إن استطعْتَ تسجيلَ هذهِ الفُروقاتِ أو المَعاني. . . فلَعلَّ شَعْرَكَ الجميلَ، يعانِقُ المُوسَىٰ بعدَ الكتابةِ والتسجيلِ. .

المعنى الأول: فارقٌ من حيث اليقين:

فلَقدْ جعلَ النبيُّ ﷺ الحلْقَ العنوانَ الأولَ للاستجابةِ في الحُدَيْبِيَّةِ، قال ابنُ حَجَرٍ: «فلَمَّا أَمَرهُم النبيُّ ﷺ بالإِحْلالِ تَوقَّفُوا، فأشارَتْ أمُّ سلمةَ أن يُحِلَّ هو ﷺ قَبْلَهم ففعلَ، فَتَبِعُوه، فحلَقَ بعضُهم وقصَّرَ بعضٌ، وكانَ مَنْ بادرَ إلى الحلقِ أسرعَ إلى امتثالِ الأمرِ ممَّنْ اقْتَصَر على التقصير. وقدْ وقعَ التصريحُ بهذا السببِ في حديثِ ابن عباسٍ المُشارِ إليه قَبْلُ، فإنَّ في آخرِه عند ابنِ ماجَه وغيرِه أنهم قالوا: يا رسولَ اللَّهِ، ما بالُ المُحلِّقينَ ظَاهَرْتَ لهم بالرحمةِ؟ قال: «**لأنهم لَمْ يَشُكُّوا**»[٢].

---

(١) المراد: المقارنة ما بين الحلق والتقصير، وبيان معاني الحلق العظيمة، وليس المراد به إلقاء التفث.

(٢) «الفتح» (٣/ ٥٦٤).

أليسَ هذا فارقاً كبيراً من حيث اليقين، وذلك لأنهم لم يشكوا، ومِن ثم افترقت منزِلتُه عندَ اللَّهِ تعالى، وعندَ سيِّدِ الخلقِ محمدٍ ﷺ.

أما المعنى الثاني: فهو مِن حيثُ الأجرُ والثوابُ:

فعَن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**رَحِمَ اللَّهُ المُحَلِّقينَ**»، قالوا: والمُقصِّرينَ يارسولَ اللَّه؟، قال: «**رَحِم اللَّهُ المُحَلِّقينَ**»، قالوا: والمُقَصِّرينَ يارسولَ اللَّهِ؟، قال: «**رحمَ اللَّهُ المُحَلِّقينَ**»، قالوا: والمُقَصِّرين يارسولَ اللَّه؟، قال: «**والمُقَصرينَ**»(١).

وقال ﷺ: «**وأمَّا حلْقُكَ رأسَكَ، فإنَّ لَك بكلِّ شَعْرةٍ تسقطُ حسنةً**»(٢).

فأيُّ شيءٍ أكثرُ في الأجرِ مِن أن يَرْبِط الشرعُ الأجرَ بأكثرِ شيءٍ في جسمِ الإنسانِ ألا وهو الشَّعْرُ؟

المعنى الثالثُ: من حيثُ العَلاقةُ بينَ النورِ والشَّعْرِ.

فعنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**وأمَّا حلْقُكَ رأسَك فإنَّه ليسَ مِن شَعْرِكَ شَعْرَةٌ تقعُ في الأرضِ إلا كانَتْ لكَ نوراً يومَ القيامةِ**»(٣).

فالعَلاقةُ بينَ النورِ والشَّعْرِ وبينَ عِظَمِ المُكافأةِ والأجْرِ - واللَّهُ أعلَمُ - مِن

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٠٤٤)، كتاب المناسك، باب: الحلق، وصححه الألباني، والحديث في «الصحيحين» بنحوه.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (١٣٥٦٦)، من حديث ابن عمر، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٦٠).

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٢٣٠) وقال الألباني: حسن لغيره، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١١١٣).

جهاتٍ عدَّةٍ، منها:

التكثيرُ... فالحاجةُ للنورِ في تلكَ الظُّلماتِ العظيمةِ كبيرةٌ، ولا شيءَ أكثرَ في جِسْمِ الإنسانِ مِن الشَّعْرِ، ولا مكانَ في جِسْمِ الإنسانِ أكثرُ شَعراً من الرأسِ، فمِنْ كَرَم اللَّهِ على المؤمنين أن رَبَط النورَ بالشعرِ.

ومنها: أنَّ الرأسَ في أعلى الجسم، ونَفْعُ النورِ عادةً ما يكونُ أعظمُ، ومَداه أَعمُّ إذا كانَ في الأعلى...

ومنها: أن الشعرَ في أصلِه أَسْودُ... فإذا حلَق الحاجُّ أو المُعْتَمِرُ هذا الشعرَ المُتَزيَّنَ به - رَغْمَ سَوادِهِ - فإنَّ جزاءَ ذلكَ السوادِ أن يُصْبحَ نوراً ولا يُصْبِحَ سَواداً أو ظُلْمةً، ففي العادةِ أن الشعرَ لا يصبحُ أبيضَ إلا عندَ الكِبَرِ، وعندَ الكِبَرِ يتساقَطُ الشعرُ، وبِذا يجتمعُ الشَّيْبُ والصَّلَعُ، فيرخُصُ الإنسانُ بهما، ويكونُ الحلقُ عليه أهون... بخلافِ صاحبِ الشعرِ الأسودِ الكثيرِ الجميلِ، فإنَّ الاعتزازَ به يكونُ أعظمَ، وأجرُه يكونُ أكبرَ وأعظمَ، وفضلُ اللَّهِ يعمُّ الجميعَ.

المعنى الرابعُ: من المعاني الكُبْرى للحلق - حجاً كانَتْ أو عُمْرةً - التضحيةُ:

فالتضحيةُ بالخروجِ من الأهلِ، والتضحيةُ بالمالِ بتركِ أعمالِ التَّكسُّبِ بالتَّفرُّغِ للوفادة، كما هِيَ التضحيةُ بإنفاقِ المالِ، والتضحيةُ بترْكِ البلَدِ إلى بلدِ اللَّهِ، وهكذا... لكِنْ مِنْ أعلى أنواعِ التضحيةِ هي التضحيةُ بِجُزْءٍ من الذاتِ، وهو التضحيةُ بالشعرِ هنا.

ومع أن التضحيةَ بالشعرِ تضحيةٌ.. إلا أنها تضحيةٌ لا تضرُّ، ولا تَجْرَحُ،

ولا تُسِيلُ الدَّمَ، ولا تُؤْذي، فالحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ الذي جمعَ التضحيةَ والحِفْظَ في عملٍ واحدٍ..

المعنى الخامسُ: مناسبةُ الحلقِ لِخَلْعِ الثيابِ:

فكما يُزيلُ الحاجُّ والمعتمرُ ثيابَه التي اعتادَ لُبْسَها مما التصقَ بجسمِهِ - عادةً - فقد ناسَبَ ذلكَ إزالةُ ما التصقَ بجسمِه خِلْقَةً، فكان الشعرُ هو أنسبُ ما يزال لِتحقيقِ المعنى.

كما أنَّ فيه مناسبةً أُخْرى مُتعلِّقةً بخَلْعِ الثيابِ، فتبديلُ ثيابِ الحجِّ أو العمرة بالثيابِ الأخرى ناسبَ تبديلَ الشعرِ بعدَ حلْقِه بخروجِه المُعْتادِ.

المعنى السادسُ: إن التغييرَ مِن أعظمِ معاني الحجِّ والعمرةِ:

وليسَ التغييرُ بالتقصيرِ للشعر كالتغييرِ بالحلْقِ، لكنَّ أعظمَ انتصارٍ يحققُه المرءُ يكونُ بالانتصارِ على المألوفِ، كما أنَّ فيه من التمييزِ ما فيهِ، قال ابنُ حَجَرٍ: «والأَوْلى ما قالَه الخطَّابي وغيرُه: إنَّ عادةَ العربِ أنَّها كانَتْ تُحِبُّ توفيْرَ الشعرِ والتزيُّنَ بهِ، وكان الحلقُ فيهم قليلًا، وربَّما كانوا يَرَوْنَه من الشُّهْرَةِ ومن زِيِّ الأعاجِمِ، فلذلك كَرِهوا الحلْقَ واقتصروا على التقصيرِ»[(١)].

المعنى السابعُ: الحاج كما قال النبيُّ ﷺ هو: «الشَّعِثُ التَّفِلُ»[(٢)].

---

(١) «الفتح» (٣٠/ ٥٦٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٨٩٦)، كتاب: المناسك، باب: ما يوجب الحج من حديث ابن عمر، وضعفه الألباني في «سنن ابن ماجه»، وقال: حسن لغيره في «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٣١).
التَّفِل: الذي قدْ تَرك استعمال الطيب من التَّفَل وهي الريح الكريهة، ومنه الحديث: «ولْيَخْرُجْن إذا خَرجْنَ تَفِلَات» أي: تاركات للطّيب. يقال: رجل تَفِل، وامرأة متفال ومِتْفال، انظر «النهاية في غريب الأثر» (١/ ٥١٤).

ولا شكَ أنَّ إظهارَ هذه الصِّفةِ بحلْقِ الشعرِ كاملًا ليسَ كظُهورِهِ بتقصيرِ شعرِ الرأسِ، إنها العبوديةُ للَّهِ وحدَه، كما قالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولكنَّهم دانوا بِوَضْعِ رؤوسِهم ... وذلك ذُلٌّ للعبيدِ ومِيْسَمُ
ولما تَقَضَّوا ذلك التَّفَثَ الذي ... عليهِمْ وأوفَوْا نَذْرَهم ثُم تَمَّمُوا
دعاهم إلى البيتِ العتيقِ زيارةً ... - فيا مَرْحباً بالزائرينَ - وأُكْرِمُوا

فإنَّ مِن معاني الحجِّ وغاياتِه الاستعدادُ لِمَا هُو أَعْلى والبذلُ في سبيلِ اللَّهِ حتَّى بذلُ النَّفْسِ رخيصةً للَّهِ تعالى، ولا يكونُ ذلكَ في صورةٍ أَعْلى مِن الجهادِ في سبيلِ اللَّهِ، فحَرِيٌّ بمَنْ حلَقَ شَعْرَ رأسِه للَّهِ أَنْ يحلِقَ رأسَهُ كلَّه للَّهِ إذا اقْتَضَى الأمرُ ذلكَ، فالقاسمُ المُشْتَرَكُ بينَ الاثنين هُو وَحْدَهُ المقصودُ، بتنوُّعِ صورةِ التضحيةِ، ومَنْ رَأى في المنامِ أَنَّ شَعْرَ رأسِه يُحْلَقُ فإنَّ تفسيرَها بأنَّهُ يُقْتَلُ في سبيلِ اللَّهِ، كما وردَ في رُؤْيا الطُّفَيْلِ بنِ عَمْرٍو الدَّوْسيِّ المَشْهورَةِ[1]..

المعنى الثامنُ: في حلقِ الرأسِ إثْباتٌ لِتَعْظيمِ شَأْنِ اللحْيةِ التي لا تُحْلَقُ عِبادةً ولا عادةً، لا زِينةً ولا قُرْبةً. فالشاربُ يُقَصُّ أو يحف أو ينهك سُنَّةً وزينةً، وشعرُ الرأسِ يُحْلَقُ عِبادةً وقُرْبةً، أمَّا اللحيةُ فلا هذا ولا هذا... ومثلُ هذا كشفُ المرأةِ عن وجهها، فسَتْرُهُ في غيرِ الحجِّ واجبٌ على رأي كثيرٍ مِن أهلِ العلمِ، أمَّا كَشْفُهُ في الحجِّ فعبادةٌ إلا عندَ خشيةِ نَظَرِ الرجالِ، أما اللحيةُ فلا هذا ولا هذا.

المعنى التاسعُ: إنَّ ما يُعَدُّ عُقوبةً ذَوْقاً وعُرْفاً... إذا جاءَ بهِ الأمرُ الشرعيُّ

(١) انظر القصة في «زاد المعاد» (٣/ ٥٤٦).

أصبحَ قُرْبةً وشَرفاً.

وأصبحَ العملُ به مَحبةً وعِزاً.. لذا فإنَّ ما يعملُهُ المؤمنونَ الصالحونَ اليومَ وكلَّ يومٍ مِن التَّسابُقِ على الحلْق دليلٌ على ذلك.

وإلا فهلْ يَرضى أحدٌ أن يُعَاقَبَ؟!

بل هَلْ يعاقِبِ اللَّهُ تعالى أحبابَه وأولياءَه ووفدَه الذي وفَدَ عليه؟!

فكَمْ بينَ نَظْرَةِ أهلِ الجاهليَّةِ وبينَ نظرةِ أهلِ الطاعةِ؟!

بل كمْ بينَ أولئكَ الصحابةِ قبلَ لحظاتِ الحلقِ إذْ كانوا مُصرِّينَ على عَدَمِ حلقِ شُعورِهم، وبينَهم وقدْ أصبحوا يتسابقونَ لِحَلْقِ شعورِهم... إنه تغييرُ الشُّعورِ الذي أطاحَ بالشُّعورِ، وإلا فالرِّجالُ همُ الرجالُ والشعْرُ هو الشعْرُ.

المعنى العاشرُ: الزينةُ في طاعةِ اللَّه تعالى:

فاللَّهُ تعالى يقولُ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وخيرُ المساجدِ هو بيتُ اللَّهِ العتيقِ، إذاً فهو أحقُّ المساجدِ بأخذِ الزينةِ عندَه، ومعَ هذا أَمَرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ المسلمينَ هناكَ بحلْقِ الشعورِ، فهذا إذاً مِن أعظمِ الزينةِ، إذ الزينةُ بطاعةِ اللَّهِ واتباعِ أَمْرِه، ولو تأمل الشاب حقيقةَ ما يخف عليه أو يثقل فسيجد أن الحقيقة كامنة في تفسيرات النفوسِ للعملِ، فإذا أصبحَ تفسيرُ النفوسِ لِلْحلقِ زينةً أصبحَ الحلقُ الفعليُّ زينةً، وإذا أصبحَ تفسيرُ النفوسِ للحلقِ تشويهاً، أصبحَ الحلقُ الفعليُّ في العينِ تشويهاً، وبهذا المِنهاجِ تُقْبَلُ التَّقْليعاتُ الجديدةُ والانحرافاتُ في حلقِ الرأسِ ويَتَتَابعُ الشبابُ على فِعْلِها رَغْمَ قُبْحِها، وما ذاك إلا لِنجَاحِ المضلينَ أولًا في تزيينها في نفوسِ الشبابِ والشابَّات، ولذا كان

تغييرُ الشيطانِ بالتزيينِ إنما يعني تغييرَ قاعدةِ التفكيرِ التي تندرِجُ تحتَها الكثيرُ مِن المظاهرِ الشاذَّةِ، ومِن هنا فإنَّ قولَ اللَّه تعالى عن الشيطانِ: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحِجْر: ٣٩] إنما هو - واللَّه أعلم - كَشْفٌ للقاعدةِ الشيطانيةِ التي تفعلُ فِعْلَها في البشرِ من حيثُ لا يشعرونَ. . وبهذا نعلمُ أن التغييرَ الحقيقيَّ في هذا الحلقِ هو تغييرُ النفسِ من داخلِها، وهذه في حقيقتِها نَقْلَةٌ نوعيةٌ داخليةٌ، تُثْمِرُ نَقْلةً عمليةً على أوسعِ نِطاقٍ، والأصلُ في هذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ومن هذا القبيلِ تغييرُ الثيابِ، واجتنابُ الطِّيبِ ونحوِ ذلكَ من محظوراتِ الإحرامِ. . . فهي زينةٌ في ذلك الوقتِ؛ لأنَّ اللَّه شرعَها، ومن هذا القبيلِ أصبحَ التزامُ عمومِ الأحكامِ الشرعيةِ، بل أصبحَ ما يَعُدُّهُ الناسُ مَنْقَصةً ومَأْخَذاً: زينةً. . . مادامَ فيه مرضاةُ اللَّهِ تعالى. . فالزينةُ في دَمْعِ العينِ مِن خشيةِ اللَّهِ وإِنْ عدَّهُ الناسُ جَزَعاً. . . والزينةُ في ذُبولِ الوجهِ من الخُشوعِ والخشيةِ وإِنْ عدَّهُ الناسُ شحوباً.

والزينةُ في الصيامِ وإنْ عدَّهُ الناسُ تَجْويعاً. . .

والزينةُ في طولِ القيامِ وإنْ عدَّه الناسُ سَهراً. . .

والزينةُ في التخفيفِ من الطعامِ وإنْ عدّه الناسُ ضَعْفاً. . .

والزينةُ في التواضعِ في اللباسِ والمَرْكب وإِنْ عدّهُ الناس ضَعَةً. . .

والزينة في المبالغة في الإنفاقِ والإكرامِ وإنْ عَدَّه النَّاسُ إهلاكًا للمالِ.

والزينةُ في التنازُلِ للَّه عندَ الخُصومةِ وإِنْ عدّهُ الناسُ ذُلّاً. . .

والزينةُ في التنازُلِ عندَ الجدالِ وهو نَصْرٌ وإِن عدّهُ الناسُ هزيمةً. . .

فإذا اجتمعَتْ كلُّ هذه الأشياءِ وغيرُها من أحكامِ اللَّهِ في مسلم أصبحَ صاحبُها أزينَ الناسِ، وأجملَ الناسِ، ونفسُه أقوى نفوسِ الناسِ، وأَعْظمَها، وأَشْجَعَها، وأَحْزَمَها...

المعنى الحادي عَشَر: إظهارُ المساواةِ بينَ الناسِ. وهذا من غاياتِ الوفادةِ (الحجِّ والعمرةِ) ومعانيها، فمِن المعلومِ أَنَّ ظهورَ المساواةِ بالحلقِ أعظمُ من ظهورِها بالتقصيرِ، ولكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ رُؤوسَ أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ المحلوقةِ وتتصورَها قبلَ الحلقِ، كيفَ كانَتِ الفروقاتُ بينَها يومَ أنْ كانَتْ مكشوفةً.

المعنى الثاني عَشَرَ: الاستسلامُ للَّهِ رب العالمين. فهذا الشعرُ الذي كان قبلَ الإحرامِ يُرى فيه أَثَرُ الطِّيبِ، أصبحَ الآن أَثَراً بَعْدَ عَيْنٍ، فحينَ طيَّبَهُ العبدُ قبلَ الحجِّ (أو العمرةِ) بالطِّيبِ أو بالتَّلْبِيدِ مع المحافظةِ عليه دونَ مَسِّهِ، أزالَهُ العبدُ مِن أَصْلِه بعد ذلك، وكلا الفعلين كان اتباعاً واقتداءً وتطييبًا.

المعنى الثالث عَشَرَ: أن يعودَ الإنسانُ كيومِ ولَدَتْهُ أمُّه طاهراً من الذنوبِ.

وَمَنْ تَلِدْهُ أمُّهُ ليسَ عليه شعرٌ في العادةِ، وبهذا وافقَ حلقَ الرأسِ صفةَ من تلِدُه أمه؛ مَعْنىً ومَبْنىً، وفي هذا إشارةٌ وبِشارةٌ إلى زوالِ الذنوبِ، وأَنَّ زوالَها كَزَوالِ الشعرِ، وتفاؤلًا بعودةِ الحاجِّ بغيرِ ذنبٍ في صحيفتِه، وأنها أصبحَتْ كصحيفةِ مَنْ وَلَدَتْهُ أمهُ.

المعنى الرابع عَشَرَ: مَنْ أعطى للَّهِ شيئاً عَوَّضَه اللَّهُ خيراً منه.

فمِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ لِلْحلقِ في الحجِّ والعمرةِ آثاراً صحيةً كبيرةً على الرأسِ وعلى الدماغِ وعلى قُوَّةِ الشعرِ وصحةِ الإنسانِ، وفضلُ اللَّهِ لا يُحاطُ به.

المعنى الخامس عَشَرَ: إنَّ مَنْ لَمْ يحجَّ وأرادَ أن يُضَحِّي فإنه يُمْسِكُ عن

أخذِ شيءٍ مِن شَعْرِهِ وظُفْرِهِ حتى يُضَحِّي:

ومَنْ حَجَّ يُمْسِكُ عن ذلك حتَّى ينتهي حَجُّه حسبَ ما وردَ في حُكْمِ الشَّرْعِ، لكنَّ الأولَ لا يحلقُ ولا يُقَصِّرُ عبادةً... إنْ شاء أخذَ وإن شاء تركَ، أما هذا فإنَّهُ يحلِقُ شعرَه أو يُقصِّرُهُ عبادةً للَّهِ مُرْتبطةً بحَجِّهِ، وفي هذا دلالةٌ على ارتباطِ الحجِّ بالأساسِ وهو: أنَّ الحلقَ جُزْئيَّةٌ في المَنْهجِ التغييريِّ الشاملِ المُسْتَغْرِق لظاهرِ الإنسانِ ذاتاً وثياباً، ولباطنِ الإنسانِ، ولِمَنْ حَضَرَ الحجَّ ومَنْ غابَ عنه...

المعنى السادس عَشَرَ: أَنَّ الشرعَ لا يَثْبُتُ بالقياسِ العقليِّ المُجَرَّدِ:

بل الثابتُ ما أَثْبَتَهُ الشرعُ، والزائلُ ما أزالَهُ الشرعُ... فلَوْ تُرِكَ الحُكْمُ لِلْعقلِ المجردِ فنَظرَ لجانبِ التضحيةِ لقال: إن التضحيةَ تقتضي أَنْ يحلِقَ شعرَ الرأسِ والحواجبِ واللحيةِ والشَّاربِ وشعرَ البدنِ كلِّه، لكنَّه لو نظرَ إلى جانبِ الزينةِ لقال: الزينةُ أن تُجمَّلَ هذه الشعورُ وتُطيَّبَ وتُدْهَنَ، وما إلى ذلك، وهكذا كُلَّما نظرَ إلى مَعْنىً مِن المعاني أفرطَ فيه، فكانَتِ الحكمةُ البالغةُ في مشروعيةِ حلقِ شعرِ الرأسِ دون غيرِه من شعورِ البدَنِ، فما يُثْبِتُه الشرعُ هو الثابتُ وهو الحقُّ، وما يُزيلُه فالحكمةُ البالغةُ في الأمرِ بإزالته... فالحمدُ للَّهِ الذي هدانا لهذا الدينِ القويمِ..

يا ربِّ، حينَ وضعْتُ شعري ليُحْلَقَ بالمُوسى فإنما بايَعْتُكَ على التضحيةِ بالرأسِ وما فيه، وما عليه من أجلِك وحدَك يا ربِّ... وإن بُشْرى البشائرِ عندي يوم يُقْطَعُ الرأسُ مِن أساسِهِ في سبيلِك، مُقْبلًا غيرُ مُدْبرٍ وأنتَ - يا ربِّ - عن صاحِبه راضٍ.

يا ربِّ، لو جاز التباهي بما يكرهُ الناسُ من المَناظرِ التي تُرْضيكَ لكشَفْتُ الرأسَ على المَلأ، ولَمْ أَلْبَسْ عليه ما يُغَطيه اعتزازاً بأمرك سبحانَك.

يا ربِّ، إذ الحلَّاقُ يُطِيحُ بشَعْرِ رأسي شيئاً فشيئاً فإنَّ قلبي يهتِفُ بكَ معَ حركةِ المُوسى على رأسي أنْ يا ربِّ أطح بذنوبي كلِّها كما يُطِيحُ الحلَّاقُ بشعرِ رأسي... أدعوكَ - يا ربِّ - وقلبي معَك، مُتلَهِّفٌ للإجابةِ مِنْكَ سبحانَك، أدعوكَ وعينايَ على سَوادِ سِجِلَّاتي... أدعوكَ دعاءَ المُشْفِقِ الذي كأنَّه يراك سبحانَك...

* * *

العيونُ الساقيةُ لـ: «كمْ في الحلقِ من مَعانٍ؟!»

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٧-٢٨].

عن مالكِ بنِ ربيعةَ رضي الله عنه، أنه سمِعَ رسولَ اللَّهِ ﷺ وهو يقولُ: «**اللَّهمَّ اغْفِرْ لِلْمُحلِّقِينَ، اللَّهم اغْفِرْ للمُحلقين**». قال: يقولُ رَجُلٌ مِن القومِ: والمُقَصِّرينَ؟ فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ في الثالثةِ أو الرابعةِ: «**والمُقصرين**». . ثم قالَ: «وأنا يومَئذٍ مَحْلوقُ الرأسِ، فما يَسُرُّني بحلْقِ رأسي حُمْرُ النَّعَمِ»[(١)].

عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ للأنصاريِّ: «**وأمَّا حِلاقُكَ رأْسَكَ، فَلَكَ بكلِّ شَعْرةٍ حَلَقْتَها حسنةٌ، وتُمْحَى عنكَ بها خطيئةٌ**»[(٢)].

عن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**وأمَّا حَلْقُكَ رأسَك فإنَّه ليسَ من شَعْرِك شَعْرَةٌ تَقَعُ في الأرضِ إلا كانَتْ لَك نوراً يوم القيامة**»[(٣)].

* * *

(١) رواه أحمد (٤/ ١٧٧)، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٢) رواه البزار، وقال الألباني: حسن لغيره، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١١١٢).

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٢٣٠)، وقال الألباني: حسن لغيره، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١١١٣).

الفصل الرابع
منازل المحسنين في مناسك الحج

حُـجَّ حَجَّـةَ مُـوَدِّعٍ[١]

يُقدِّرُ اللَّهُ تعالى أنْ لا يَحُجَّ نبيُّ اللَّهِ ﷺ إلا حَجَّةً واحدةً، ويقدِّرُ اللَّهُ أن يكونَ اسمُهَا حَجَّةَ الوداعِ... وأن تكونَ الإشارةُ فيها للوداعِ هي الشعارُ الذي تكررَ منه ﷺ في أكثرَ مِنْ موقفٍ، فعنْ أبي الزبيرِ أنَّه سمعَ جابراً يقول: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ يرمي على راحلته يومَ النَّحر ويقول: «**لِتأخُذُوا (عنِّي) مناسكَكُم، فإنِّي لا أدري لَعَلِّي لا أَحُجُّ بعد حَجَّتِي هذه**»[٢].

فاصطبغت تلك الحَجَّةُ بالوداعِ، واصطبغَ كلُّ عملٍ مِنْ أعمالِها بالوداعِ حالًا ومقالًا، ومن الاقتداء أن يحجَّ المرء حجَّةَ مُودِّعٍ كما حجَّ رسول الله ﷺ.

فالخروجُ من البيتِ كان خروجَ مُودِّعٍ، ولُبْسُ الإحرامِ كان إحرامَ مودِّعٍ، والطَّوافُ كان طوافَ مودِّعٍ، والوقوفُ بعرفةَ وقوفَ مودِّعٍ، والمبيتُ بمزدلفةَ مبيتَ مودِّعٍ، وخُطبتُه خطبةَ مودِّعٍ، والمبيتُ بمنى مبيتَ مودِّعٍ، وطوافهُ للإفاضةِ طوافَ مودِّعٍ، وطوافُ الوداعِ طوافَ مودِّعٍ... ومرَّ العامُ وما اكتملَ، وماتَ النبيُّ ﷺ، وعَلِمَ الناسُ عندَها على وجهِ الحقيقةِ أنَّه ﷺ حَجَّ حجَّةَ مودِّعٍ.

فلم لا أَصْبِغُ حَجَّتِي بِصِبْغَةِ المودِّعِ ظاهراً وباطناً، فإذا كانتْ هذه الصَّلاةُ

---

(١) ننبه الحاج ونؤكد على رجوعه إلى جزء العمرة من كتاب الوفادة.

(٢) رواه مسلم (١٢٩٧)، كتاب: الحج، باب: رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً، وبيان قوله ﷺ: «لتأخذوا مناسككم»، وما بين القوسين من رواية البيهقي في «سننه» (٩٣٠٧).

وهي تتكرَّرُ في اليوم خَمساً ومع هذا فالنَّبيُّ ﷺ يقولُ لأصحابه: «**صَلُّوا صلاةَ مودِّعٍ**»(١) فكيف بالحجِّ الذي لا يَمُرُّ إلا في العُمُر مرَّةً، أو في العام مرَّةً...؟!

إنَّك إنْ كنتَ تُوَدِّعُ ما بينَ الصَّلاةِ والصَّلاةِ، ولا تأمنُ أن يدركَكَ الموتُ في لحظةٍ مِنْ لَحَظَاتِ الصَّلاةِ أو بعدَها، فَحَرِيٌّ بكَ أنْ تودِّعَ ما بينَ طرفي العام - من الحجِّ إلى الحجِّ - أو مِنَ العمرةِ إلى العمرةِ.

وهذا الوداعُ ليسَ مجرَّدَ إحساسٍ، بل هو العيشُ الذي تحياهُ في الرِّحلةِ الأخيرةِ لحظةً بلحظةٍ، وأنت في هذه الحياةِ...

فالوداعُ للأهل يُذَكِّرُ بالوداعِ للدُّنيا ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٤]، والاغتسالُ بالاغتسال بعد الموت، والإحرامُ يذكِّر بالكفنِ، والوفودُ على اللَّه هنا بذاك الوفُودِ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

والاستجابةُ لنداءِ الحجِّ ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، بالاستجابةِ القَسْرِيَّةِ لذاكَ النداءِ العظيم ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

والاجتماعُ في الحجِّ في مكانٍ واحدٍ بذاك الحشرِ في ذلكَ المكانِ ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

والتَّنَقُّلُ مِنْ مكانٍ لمكانٍ هو صفةُ هذا الحجِّ ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ

(١) جزء من حديث: رواه البخاري في «التاريخ» (٦/ ٢١٦)، من حديث أبي أيوب بسند حسن. قاله الألباني، انظر «السلسلة الصحيحة» (١٩١٤).

أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة:١٩٩]، والتَّنقُّل هو صفةُ ذاك الحشر ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣- ١٤].

وكَشْفُ الرؤوس، ونحوُ ذلك هي صفةُ الواقِفِينَ هنا وهناك كمَا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:٩٤].

ونزولُ الربِّ إلى عرفةَ يُذَكِّرُ بِمَجِيئِهِ سبحانه والمَلَكُ يومَ القيامةِ صَفًّا صفًّا: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

والانصرافُ من ساحةِ عَرَفَةَ - هنا -، بالانصرافِ من ساحةِ الحِسابِ هناكَ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥].

والعِتْقُ هنا، بالعِتْقِ هناك: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤].

سبحان اللَّه: بدايةُ المشاعرِ بطَوافِ القدُوم ببيتِ اللَّه العتيقِ، وختامُها بطَوافِ الوداع ببيتِ اللَّه العتيقِ... وهل رحلةُ الآخرةِ إلا هذه؟ منه وإليه سبحانه ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

هذه المواقفُ وغيرُها هي التي تصوِّرُ الرحيلَ والوداعَ قريباً قريباً، بل تجعلُ اليومَ الآخرَ كأنَّه بينَ العينين يَنْظُرُ إليه ببصرِه، ويَعيشُه في تصوُّره وبصيرتهِ..؟!

يا أيُّها الحاجُّ: إذا وَلَّتْ مواقفُ الحجِّ ومشاهدُه، ولم تَعِشْ أجواءَ الآخرةِ ومشاهدَها بمشهدٍ كأنَّك تراها، فمتى تعيشُها..؟!

أتنتظرُ أن يُحضِرَك اللَّهُ بِشَخْصِكَ كاملًا أمامَه على غفلةٍ، أم تنتظرُ أن ينقضيَ الحجُّ وأنت في غفلةٍ فَتَذْكُرُ عندها مواقفَ الحجِّ موقفاً إثرَ موقفٍ يومذاك، وتقولُ: ما أشبهَ الحشرَ بالحجِّ، وما أعظمَ غفلتي إذ ذَكَّرني اللَّهُ ونَسِيتُ، وأَرَاني اللَّهُ هذا اليومَ - يومذاك وَعَمِيتُ..؟!

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١-٣].

أيُّها الحجَّاج تنبَّهوا.. تيقَّظوا لشيءٍ هو أفتكُ بحَجَّتكم من ذئابٍ جائعةٍ أُرسلوا في غنم! إنَّه الجدال الَّذي حذَّر ربُّنا - سبحانه - منه في كتابه العزيز، فقال - سبحانه -: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الجِدَالَ الجِدَالَ.. وما أخطرَ الجِدَالَ.. ومن ذا تسلم حجَّته من الجِدَالِ وهو يعيش مع جموع السَّفر؟

راقب أثر الجِدالَ عليك وسوف تجده وكأنَّه غمامةٌ تحجب نورَ الإيمان وأثر الحج..!

يجادل الرَّجل ساعةً واحدةً فقط، فيكِّر صفو قلبه إعصارُها طوالَ نهاره وليلته.. يبقى في تفاعلٍ ذهنيٍّ وقلبيٍّ مع شكل الجِدَالِ المَقِيتِ..!

فإذا ذهب القلبُ والعقلُ.. فماذا بقي من الحجِّ.. وماذا بقيت من لذَّته وآثاره..؟! إنَّه يحوِّل كلَّ المعاني الإيمانيَّة العظيمة في هذه المشاعر العظيمة إلى حركاتٍ آليَّةٍ لا عَلاقةَ لها بالقلبِ؛ لأنَّ القلبَ قد سُلِبَ بالجدال، والفكر

في شرودٍ يبحث عن أدلَّةٍ جديدةٍ للانتصار في جداله.. والهمُّ غادٍ ورائحٌ صَوْبَ الخصم العنيد.. وهكذا تتفلَّت الأوقات الثَّمينة وتنقضي، والقلب ذاهبٌ لم يعد بعد!

كما أنَّ الجِدَالَ - في العادة - يشتِّت الإخَاءَ، بل يشقِّقه، وهذا أضرُّ ما يكون على صحبة السَّفر، فكلُّ مجادلٍ يتطلَّب النُّصرة لرأيه أكبر عددٍ من الصَّحب يميلون إلى قوله.

أيُّها الركب: أَيَليقُ أن نتهاون في تحذيرات اللَّه ورسوله ﷺ العظيمة ونجادِلُ أو نسكُتُ عن المتجادلين.. وسبحان اللَّه كيف خصَّ اللَّه الحجَّ بالنَّهي عن هذَا المفسد خاصَّةً، المفرِّط لوثاقه، ووثاق قلب صاحبه، ووثاق إخوتِهِ، فقال سبحانه: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧] فعن أبي أُمامَةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**ما ضلَّ قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلَّا أوتُوا الجَدَلَ**» ثمَّ قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾»[(١)].

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**إنَّ أبغَضَ الرِّجال إلى اللَّه الألدُّ الخَصِمُ**»[(٢)].

فاللَّهم أعنَّا على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادَتِكَ

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣) وقال: حسن صحيح، وحسنه ابن حجر والألباني رحمهما اللَّه.

(٢) متفق عليه. الألد الخصم: المعوج عن الحق، المولع بالخصومة، والماهر بها.

العيونُ الساقيةُ لـ: «حُجَّ حَجَّةَ مُوَدِّعٍ»

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: **أَخَذ رسولُ اللَّه** ﷺ ببعضِ جسدي، فقال: «**اُعبدِ اللَّه كأنك تراه، وكُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ، أو عابرُ سبيلٍ**»(١).

عن جابرِ بنِ عبدِاللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**لِتَأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلِّي لا أَحجُّ بعدَ حَجَّتي هذه**»(٢).

* * *

(١) رواه أحمد (٢/ ١٣٢) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٢) رواه مسلم (١٢٩٧) كتاب: الحج، باب: استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً.

الدعاءُ رُوحُ الحَجِّ وسُداه

رغْمَ سَعْيِي في تحقيقِ أسبابِ إجابة الدعاءِ الأخرى، مِنْ: مَدِّ يدي إليكَ - يا ربِّ - في سفرِي قبلَ المناسكِ، واجتهادِي في طيبِ المَطْعَم، وما أعلمُ مِنْ مُقَوِّمَاتِ الدعاءِ المُجَابِ، إلا أنَّ القلبَ يبقَى في مزيدِ تَعَلُّقٍ وتَخَوُّفٍ واضطرابٍ بينَ الأضلاعِ: **يا ربِّ أَجِبْ**، يا ربِّ أَجِبْ، يا ربِّ يا ربِّ... أَيُّ فرصةٍ مِثْلُ فرصتي هذه؟

لا، لن يشغلَني نظرُ الفانِين إليّ، ولا التفاتُ كلِّ مَنْ حَوْلِي إليَّ - لو التفتُوا.

لا، لن أُفرِّقَ بينَ مادحٍ وقادحٍ، فذمُّهُم إذا أجبتني مدحٌ، ومَدْحُهُم إذا رَدَدْتَني ذَمٌّ..

لا، لن أَضْعُفَ - بإذنك - وإن طالَ الطريقُ، وإن تَعِبَ من الدعاءِ الرفيق..

سوف أَدعوك- بإذنك وفضلك- وأَدعوك؛ أدعوك في صلواتِ السفرِ، في لحظاتِ السفرِ، في تقلُّباتِ الليلِ والنهارِ، في حالِ الضيقِ والشدةِ، وحالِ الراحةِ والمَسيرِ.

ها هي عرفاتٌ قد اقتربتْ ومِنْ بعدِها مزدلفةُ، ومن قبلِها الطوافُ، والمناسكُ، والسفرُ المعتادُ.. ففي أيِّ تلك المنازلِ يُترَكُ الدعاءُ؟

هنا مَجْمَعُ الدَّاعِينَ.. الصَّاعدينَ بدعائِهم إلى السماءِ...

الدعاءُ هنا ليسَ كالدعاءِ في سائرِ العامِ..!

فلكأنَّ المطلوباتِ السنويةَ التي لم تَتَحَقَّقْ للعبدِ، أو يرجو تَحَقُّقَهَا له في قادمِ العمر، أو الدارِ الآخرةِ، قد جُمعتْ كُلُّها كالمُؤَجَّلَةِ ليرفعَها في هذا اليومِ...

ارْفَعْ منها ما شئتَ، ولا تستعظمْ شيئاً، فاللَّهُ أعظمُ، وهذا اليومُ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ أعظمُ، واللَّهُ في هذا اليومِ مِنْكَ في قُرْبٍ أَعْظَمَ...

إنني لأرى أنني اليومَ على موعدٍ مع المَلِكِ - سبحانه - منذُ عامٍ... فماذا أُعِدُّ لهذا اليومِ يا ربِّ..؟!

وكيف أَعْرِضُ مَطلبي..؟!

إنه الإحساسُ بأنَّ هذه الفرصةَ إن فاتتِ اليومَ ربما لن تعودَ.

يا لمكافأة الدعاءِ الذاتيةِ ما أعظمَها! حتى إن المتلذذَ بالدعاءِ يقولُ: كفاني هذه اللذةُ التي لا أعرفُ لها وصفاً في الأرض! اللذةُ التي أَجِدُها تتخللُ روحي، وشراييني، ونَفَسي، وشَعْري، وبَشَري، ومُخِّي، وعَظْمِي، وخَلايَايَ... حتى لو لم تُجِبْنِي يا ربِّ فإن لِطَرْقِ بابِك لذةً ليس أحلى ولا أعمقَ ولا أسنى ولا أطيبَ منها شيءٌ..!

فلك الحمدُ يا ربِّ أنْ دَلَلْتَني على بابِك، ووهبتَني هذا التلذذَ بدعائك..

فكيف أُشْرِكُ معك في بَسْطِ كفي أحداً؟

أَوَ لَيستْ حاجتي عندَك..؟!

أَوَ لَيست حاجةُ مَنْ يَظْهَرُ أَنَّ حاجتي عندَه هي عندَك..؟!

أليستْ كلُّ هذه الأكُفِّ تُبْسَطُ لك وحدَك..؟!

هل مِنْ شاهدٍ أعظمَ على الإجماعِ المطلقِ على الافتقارِ المطلقِ، والحاجةِ المطلقةِ، مِنْ قِبَلِنا جميعاً نحوَك مثلُ هذه من شهادة عرفة؟!

وهل مِنْ شاهدٍ أعظمَ من هذا الشاهدِ على أنك الغنيُّ المطلقُ وحدَك سبحانك -وكفى باللَّه شهيداً.

واللَّهِ، لو قيلَ لي: ابسطْ كفَّك لأعظمِ الخلقِ، وتَحَمَّلْ انتظارًا قصيراً... لم أَبْسُطْها، ولم أنتظرْ، ولَمَا قَدَرْتُ، ولو فعلتُها - لا قدَّرَ اللَّهُ - لَبَلَغَ بي الملالُ غايتَه، والغيظُ نهايتَه، حتى لو أظهرتُ الرضا، ولكن **لو قيل لي ابسُطْ كَفَّك وادْعُ ربَّك**؛ لبَسَطَتْ رُوحي لُبَّها إليك - إن كانَ للروحِ لُبٌّ كما للعبادة لُبٌّ، ولُبُّها الدعاءُ - ولَسَبَقَ قلبي كَفَّ اليدينِ مني إليك، ولانتظرتُ وصَبَرْتُ، بل انتظرتُ وَرَضِيتُ، بل دعوتُ وتلذذتُ بالإلحاحِ، واستراحتْ رُوحي للانتظار.

كيف لا وكأنها تَرَى ربَّها يؤجِّلُها لتنتظرَ وهو يستمعُ منها، فهو يُحِبُّ منها الإلحاحَ، ويُحِبُّ لها الانتظارَ على بابِه، وتَعَلُّقَهَا بِجَنَابِهِ، وهو بها أَرْحَمُ.

يا روحي، هذا مَوْسِمُكِ، فدُونَكِ الإلحاحَ في الدعاءِ، دونَكِ السبقَ في موسمِ الثناءِ..

إنها الحياةُ قد جاءتك بحقيقتِها، وقد جئتِيها إلى موطنِها، وفي موسمِها، فهل لكِ في هذا النعيمِ الحاضرِ العظيمِ، قبل ذاك النعيمِ المقيمِ..؟

لا، ليس هذا حديثَ التسالِي، ولا هو التعبيرُ التمثيليُّ المثاليُّ.. بل هو - واللَّهِ - مجرَّدُ تقريبٍ للحقيقةِ، وليسَ هو الحقيقةَ، فما بينَ هذه الألفاظِ وبينَ

الحقيقةِ من فَرْقٍ كما بينَ الكتابةِ عن اللذةِ، وبينَ معايشةِ اللذةِ. . . !

أرأيت عبداً يبكي ويتلذذُ بالبكاءِ؟ أرأيت عبداً يعاني في دعوات له، ويتلذذُ بالعَنَاءِ؟!

أرأيت عبداً يُمْنَعُ ويُحِبُّ مَنْ يَمْنَعُهُ أكثرَ، ويتلذذُ بتأخيرِ طلبِه والانتظارِ. . ؟!

لعل النفسَ ستقولُ إنَّ هذا يقعُ في غيرِ الدعاءِ. . .

نعم: يقعُ في الموعظةِ. . . ويقعُ في الصلاةِ. . . ويقعُ في الذكرِ. . .

هذه حقيقةٌ، ومَعَ هذا فإنَّ اللذةَ والعناءَ والبُكاءَ حالَ الدعاءِ شيءٌ آخرُ. . !

ذلك أنَّ الدعاءَ نابعٌ مِنْ داخل النفس، من حاجتِها، من آمالِها وأمانِيها، من أعماقِها، من معرفتِها بربِّها، من يقينِ سمعِهِ وبصره لها. . وغيرُ الدعاءِ شيءٌ عظيمٌ لكنه من خارجِها.

أما القرآنُ فلا، ولا يقارنُ شيءٌ أبداً بالقرآنِ. . . ولذا كانَ النبيُّ ﷺ إذا مرَّ بآيةِ تسبيحٍ سَبَّحَ، أو استغفارٍ استغفَرَ، أو سؤالٍ سَأَلَ، فهو الكلامُ الذي تجتمعُ العظمةُ فيه من أطرافِها له، وتجتمعُ لِمَنْ يعايشُه. . .

فالعظمةُ في الكلماتِ القرآنيةِ التاماتِ ذاتِها، والعظمةُ لأثره إذ إنه فَجَّرَ ما في النفسِ، فأخرجَ طلباتِها من داخلِها، فسبَّحَتْ عند التسبيحِ، وحَمِدَتْ عند التحميدِ، ودَعَتْ عندَ السؤالِ. . فهو كلامُ اللَّهِ، ومع هذا يُفَجِّرُ فيك كلَّ الطاقاتِ ظاهرةً وباطنةً بما فيها الدعاءُ. .

قل ما شِئْتَ عن لَذَّتِكَ في الدعاءِ. . لكنك لو نظرتَ إلى حُبِّ اللَّهِ للدعاءِ لَوَجَدْتَهُ أعظمَ من حُبِّكَ وَتَلَذُّذِكَ وأعظمَ، فاللَّهُ إذا أَحبَّ فهو العظيمُ في حُبِّه،

وأنت أيها العبدُ إذا تَلَذَّذْتَ فأنتَ العبدُ الضعيفُ في حُبِّكَ وَتَلذُّذِكَ.

فكيف أُوفِي بِشُكْرِ رَبِّي، وهل يكافئُ العبد ربَّه..؟!

بل كيف لا أَدعو رَبِّي سبحانَه، وحُبُّه لدعائي أعظمُ مِنْ لَذَّتي بِدُعائي..؟!

لا، لا غُرورَ بِلَذَّتِي بدعائِي أمامَ محبةِ ربِّي دُعائي سبحانه، فهأنذا أتركُ الدعاءَ رَدْحاً طويلًا ولا أُبالي، بينَما رَبِّي يَغْضَبُ! لماذا؟!

لأني تَرَكْتُ دُعاءَه، فسبحانك ربي...!

وأنا حينَ أَدعوكَ فإنما أنا الطالبُ طلباً، أنا الرافعُ حاجتي، أنا المستفيدُ المنتفعُ... فيا ربِّ لا تُنْسِنِي بعدَ اليوم دُعاءَكَ الدائمَ الطويلَ الضارعَ... يا رب لا تَحْرِمْني أبداً أبداً لَذَّةَ طَرْقِ بابِك، والتَّلَذُّذَ في الطَّلَبِ من جَنَابِكَ، وأنت عَنِّي رَاضٍ سبحانك.

* * *

العيون الساقية لـ:
«الدعاء روح الحج وسداه»

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه حَيِيٌّ كريمٌ يَستحيِي إذا رَفَعَ الرَّجُلُ إليه يديه أن يَرُدَّهُمَا صِفْراً خائِبَتَيْنِ**»(١).

عن سهل بن حنيف رضي الله عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من سأل الشهادة بصدق بَلَّغه اللَّه منازل الشهداء، وإن مات على فراشه**»(٢).

عن أبي أُمامةَ رضي الله عنه قال: قيلَ: يا رسولَ اللَّه، أَيُّ الدعاءِ أَسْمَعُ؟ قال: «**جَوْفَ الليلِ الأخيرِ، ودُبُرَ الصلواتِ المكتوباتِ**»(٣).

عن عُقبةَ بنِ عامرٍ الجُهَنِيِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**ثلاثُ دَعَواتٍ مُستجاباتٍ لا شَكَّ فيهِنَّ: دعوةُ الوالدِ، ودعوةُ المسافرِ، ودعوةُ المظلومِ**»(٤).

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٥٦) وصححه الألباني.
(٢) رواه مسلم (١٩٠٩).
(٣) رواه الترمذي (٣٤٩٩) وحسنه الألباني.
(٤) رواه أبو داود (١٥٣٦) وحسنه الألباني.

عن عَمرِو بنِ شُعيبٍ عن أبيه عن جَدِّه: أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**خَيرُ الدعاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وخَيْرُ ما قُلْتُ أنا والنبيونَ مِنْ قَبْلِي: لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ لَه، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ**»(١).

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٥) وحسنه الألباني.

غَـداً المَـوْعِـدُ..!

اللهُ أكبرُ: لَيْلَةٌ صَبِيحَتُها يَوْمُ عَرَفَةَ....!

زَوَالُ شَمْسِهَا نُزُولُ رَبِّ العَالَمِينَ...!

غداً - بِإِذْنِ اللَّهِ - سَوْفَ نُلاقِي رَبَّنَا...!

غداً إِذَا جاءَ، فلنْ يَعُودَ إلّا العامَ الذي بعدَه - إنْ عادَ وَعُدْنَا - وإلا فهو الفِرَاقُ إلى يَوْمِ المَعَادِ!

ساعاتُ هذه الليلةِ مَطَايَا تَحْمِلُنا على ظُهُورِها، ومَرَاكِبُ تَمْخُرُ بِنَا عُبَابَ بُحُورِهَا، حتى يَطْلُعَ الفَجْرُ وتُشْرِقَ شمسُ عَرَفَةَ، ثُم تَمِيلَ إلى الزوالِ، وعندَها النُّزُولُ والتَّجَلِّي، وعندها اللقاءُ.. فيا للَّهِ ما أَعْظَمَه مِنْ يومٍ! بل ما أعظمَه مِنْ مَشْهَدٍ! بل ما أَعْظَمَهُ مِنْ لِقَاءٍ!

فأيُّ مِيعَادٍ مِثْل ميعادنا..؟!

لقد طارَ موسى عليه السلام اشتياقاً للميعادِ، وقالَ لربِّه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]، ولكنْ أين إيمانُنا من إيمان موسى عليه السلام حتى تَثْبُتَ قلوبُنا، أو تَثْقُلَ أَرْجُلُنا، أو نَقْوَى على الانتظارِ..؟ وأينَ تَحَمُّلُنا مِنْ تَحَمُّلِهِ..؟ وأينَ ثباتُنا مِنْ ثَبَاتِهِ؟ وأين قوتُنا مِنْ قوتِهِ؟ ومع هذا قال اللَّه لموسى عليه السلام: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٣] فاعذرْنا يا ربَّنا؛ فإنَّ لقاءَك أكبرُ عندَنا مِنْ كلِّ ما نَتَصَوَّرُ، ونعمتَكَ بهذا أعظمُ مِنْ أَنْ تُكافَأَ أو حتى تُتَصَوَّرَ.. نَعَمْ، ستغفو العينُ الليلةَ، والقلبُ مُعَلَّقٌ بِصَبَاحِهَا، بل بِصَاحِبِها...

ستغفو العينُ الليلةَ لِتَعْبُرَ بَحْرَ الموتِ الأصغرِ أو لا تَعْبُرَ. . . لكنَّ الأملَ أنها إنْ عَبَرَتْ فلسوفَ يكونُ لها في موقفِ عَرَفَةَ. . . مَوْقِفُ إحسانٍ لم تَبْلُغْهُ في حياتِها - بإذنِ اللَّهِ.

❊ ❊ ❊

العيون الساقية لـ: «غَـداً المَوْعِـدُ»

قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٣-٨٤].

عن محمد بن أبي بكر الثقفي قال: **سألتُ أَنَساً - ونحنُ غَادِيَانِ مِنْ مِنىً إلى عَرَفَاتٍ - عن التلبيةِ، كيفَ كنتم تَصنعونَ مَعَ النبيِّ ﷺ؟ قال: كان يُلَبِّي الملبي فلا يُنْكَرُ عليه، ويُكَبِّرُ المُكَبِّرُ فلا يُنْكَرُ عليه**[1].

* * *

(١) رواه البخاري (٩٢٧) ومسلم (١٢٨٥).

وَطَلَعَ فَجْـرُ عَرَفَـةَ

لَئِنْ كُنَّا نَحْمَدُ اللَّهَ تعالى كُلَّ يوم على أنه أَحْيَانَا لِيَوْم جديدٍ فإِنَّ حَمْدَ اللَّهِ تعالى على أنَّه أَحْيَانَا لهذَا اليوم ينبغي أَلَّا يكونَ مِثْلَه حَمْدٌ وثناءٌ. . ذلك أَنَّهُ أَحْيَانَا لِخَيرِ يومٍ طَلَعَتْ عليه الشمسُ، مُنذُ أَنْ خَلَقَ اللَّهُ الشمسَ وخلقَ ما طَلَعَتْ عليه.

وحَمْدُ اللَّهِ على هذا اليوم العظيم أَمرٌ عظيمٌ، لكنَّ حَمْدَه على أَنْ أَحْضَرَنَا إلى هنا لا يمكنُ تَصَوُّرُهُ، فَضْلًا عن إمكانيةِ مُكَافَأَتِهِ.

لِيَهْنَأَ الأهلُ والأصحابُ هناك ببلادِهم وأموالِهم ومألوفاتهم وترفيهِهم وما شَاؤوا، فإِنَّ الحَظْوَةَ هنا، وإن الاصطفاءَ هنا. . . فلك الحمدُ – اللَّهم – على فضلِك.

فهل تَرَكْنَا كلَّ شيءٍ إلا لأجلِ هذا اليْومِ. .؟!

هل فَارَقْنا كلَّ شيءٍ إلا لِلِقَاءِ هذا اليْومِ. .؟!

هذا اللِّقاءُ هو اللِّقاءُ المنتظَرُ الذي نسألُ اللَّهَ أنْ يَجْمَعَنا به حتَّى نُدْرِكَه كُلَّ عامٍ.

وبِتْنَا بأقطارِ المُحَصَّبِ مِن مِنى ... فيا طِيبَ ليْلٍ بالمُحَصَّبِ بِتْناهُ

وفِي يَوْمِنا سِرْنا إلى الجَبَلِ الذي ... مِنَ البُعْدِ جِئْنَاهُ لمَّا قد وَجَدْنَاهُ

فلا حَجَّ إلا أَنْ نَكونَ بأَرْضِه ... وُقُوفاً وهذا في الصَّحيحِ رَوَيْناهُ

إليه ابْتَدَرْنا قاصِدِينَ إلٰهَنَا ... فلولاه ما كُنَّا لِحَجٍّ سَلَكْنَاه

بينما يطلُعُ اليوم علينا ونحن هنا.. تزولُ الشَّمسُ ونحن في عرفة.. إذ تهيج هناك في البِلادِ أفئدةٌ، وتفيضُ عُيونٌ تمنَّت أن تكونَ في هذا الموقِفِ العظيم.. تبْكِي بحُرقَةٍ.

أناسٌ لم يحضُرُوا في حياتِهِمْ هذا اليومَ ينظرون إلى الحجِّ من جهةٍ، وإلى نهاية العُمُر من جهةٍ، ولسان حالهم يتساءل وهو في همٍّ عظيمٍ: أندرِكُ الحجَّ قبل نهايَةِ العُمُر؟!

ومنهم مَنْ حضر لكنَّ العذرَ قد حبسَهُم هذه المرَّة عن المجيء، فأصبحَ حالُهم حالَ طفلٍ ذاقَ حليبَ أمِّه ثمَّ حرمتهُ منه، فلا يزال يصيحُ ويبكِي ويضطربُ من شدَّةِ الجُوعِ والاشتياقِ.

ونساءٌ مؤمناتٌ بقين في بيوتهنَّ؛ لأنَّهنَّ لم يجدنَ المَحْرَمَ، أو لم يجدْنَ النَّفقةَ.. فلم يجدْنَ رسالةً يرسلنها أبلَغَ من البكَاءِ ممزوجٍ بالذِّكر وحشرجة الدُّعاء، وخصوصاً إذا جاء يومُ عرفةَ.

ألا ما أشبَهَ حالَ هؤلاء بمَنِ امتدحَ اللَّه في كتابه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

كلُّ شاغلٍ - إذ أنت في عرفة - عن هذا اليومِ مَردودٌ حتى لو كانَ ما كانَ من القرباتِ للَّهِ ربِّ العالمينَ.

فكم هو الصِّيامُ عظيمٌ... إلا أنَّه لا يُشْرَعُ هنا في عَرَفَةَ، إنَّ بإمكانِ القائلِ أنْ يتساءلَ: لماذا لا يُجْمَعُ لنا اليوم الصِّيامُ مع بَقِيَّةِ عِبَادَاتِ هذا اليومِ؟!

والجوابُ - واللَّهُ أعلمُ: لا يريدُ الشَّارعُ أيَّ شيءٍ يُنْقِصُ قُوَّةَ الوَاقِفِ

النَّفسيَّةِ والبدنيَّةِ عِنْ لقاءِ هذا اليومِ، عن الذِّكرِ والدُّعاءِ..

لا، فَلَحظَاتُ الغُرُوبِ هي أَشَدُّ ما تَكونُ إرْهاقاً للصَّائمِ، بينَما هي أعظمُ لحظاتِ عَرَفَاتٍ فَضْلًا وقُرْباً للواقفِ.

لا، فأنتم يا أهلَ الموقفِ لا تَحْتَاجُونَ إلى الصِّيامِ، فما أنتم فيه من الفضل لا يُدانيهِ فَضْلٌ.. فلا تُشْغَلُوا عَمَّا أنتم فيه بعبادةٍ أنتم قادرونَ على أدائِها في بيوتِكم بعدَ عودتِكم...!

لأجلِ أيِّ شيءٍ تَصومونَ؟.. ألم يَقُلِ اللَّهُ في الصِّيامِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾..؟!

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أينما تكونونَ، لكنَّكم الآنَ في مكانِ القُرْبِ الحقيقيِّ.. فَلْتَهْنَئُوا بالمَقَامِ الأَعْلَى إذ رُفِعْتُم إليه عَمَّا دونَه بعدَما مَرَرْتُم به في رمضانَ وقد رَسَخْتُم فيه..

لا، لنْ يَشْغَلَكم اللَّهُ بشيءٍ اليومَ دونَ مباشرةِ وِصَالِه ودعائِه..

لا، لن يَقْطَعَ اللَّهُ عليكم ذلك النَّعيمَ العظيمَ بِإفطارٍ، ولا بالإعدَادِ له ولا بالصَّلاةِ نَفْسِها، وإلا فلماذا أَمَرَ بِجَمْعِ صلاتَي الظُّهرِ والعَصرِ في أَوَّلِ الظُّهرِ والعَبْدُ في موقفٍ واحدٍ قائمٌ جالسٌ، لا خوفَ ولا حربَ، ولا سفرَ ولا مطرَ..؟

إنَّه يومُ عرفةَ...

كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يستطيعُ أن يأتيَ عَرَفَةَ راجِلًا لكنَّه لم يَفْعَلْ، فالأصلُ هو الرَّاحةُ لهذا اليومِ، والرَّاحةُ على الدَّابةِ - بِغَيْرِ شَكٍّ - أَعْظَمُ، والأصلُ هو توفيرُ الوقتِ بِقَطْعِ ما بَيْنَ المَشَاعِرِ في أقلِّ وَقْتٍ، وتوفيرُ الوقْتِ بالرُّكوب

أكبرُ وقد ثَبَتَ عنه أنَّه كان «**إذا وَجَدَ فَجْوَةً نَصَّ**»[١]..

وهكذا يُرَاعِي رسولُ اللَّهِ ﷺ الغاياتِ ويُقَدِّمُهَا على الوسائلِ، وإنْ كان هو عابدٌ في كلِّ حالاتِه، في الطَّريقِ، وفي المشاعرِ راكباً وراجِلًا، لكنَّ الغايةَ شيءٌ آخرُ... الغايةُ تَبْقَىٰ غَايَةً!

سِيري أَيَّتُها القوافلُ مِنْ مِنىً نحوَ أَرْضِ المَوْعِدِ المضرُوبِ...

سِيري مِنْ كلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، لِتَسْتَقِرِّي هذا النَّهارَ هناك في تلك السَّاحةِ.. ساحةِ المَوْعدِ..

يا ربِّ، ها هي الأعناقُ المؤمنةُ تَمْتَدُّ سائِرَةً نحوَ عَرَفَةَ، بينَما القلوبُ تَسْبِقُها واجفةً خاشعةً نحوَ الساحةِ العُظْمى، ساحةِ اللِّقَاءِ، ساحةِ هبوط اللَّهِ سبحانه على هؤلاءِ في نهارِ هذا اليومِ..

أيُّ إعدادٍ نَفْسيٍّ مِثلُ هذا الإعدادِ في لحظات المَسيرِ نحوَها، وأيُّ حديثٍ نفسيٍّ يتفاعلُ بمرورِ اللحظاتِ مثلُ هذا الحديثِ، إنَّها الحقيقةُ القادمةُ الكبرى تَحْمِلُكَ إليها الخُطواتُ القادمةُ، الأنفاسُ القادمةُ، إنه لقاءُ اللَّهِ في ساحةِ عَرَفَةَ..

أيُّها الناسُ، استعِدُّوا ليومِ عرفةَ.. تَأَهَّبُوا لخيرِ يومٍ منذُ وَلَدَتْكُم أُمَّهَاتُكم...

أيُّها الناسُ، انتظِروا الشمسَ حتى تَطْلُعَ، ثم انتقلوا إلى أَوَّلِ عرفةَ..

---

(١) رواه البخاري (١٦٦٦)، كتاب: الحج، باب السير إذا دفع من عرفة، ومسلم (١٢٨٦)، كتاب الحج، باب: الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه. ونصَّ: أسرع في المسير.

أيُّها الناسُ، انْتَقِلُوا الآنَ مِنْ عُرَنةَ إلى عَرفةَ، وقِفُوا حيثُ وَقَفَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، وعرفةُ كلُّها مَوقفٌ..

لو صَحَّ لي في يومٍ منَ الأيامِ التي طلعتْ عليه الشمسُ أَنْ أُخاطِبَ شَمْسَهُ عندَ الغروبِ أَنْ تَوَقَّفِي أيتُها المأمورةُ لكانتْ إمَّا شمسُ النَّصرِ وإمَّا شَمسُ هذا اليومِ، ولو مَدَّ اللَّهُ لأَحَدٍ بذلكَ لمدَّ لرسولِ اللَّهِ ﷺ فيه، ولذا عالَجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ذهابَ الوقتِ بِمَدِّ اليَدِ إلى ربِّه بالدعاءِ... دُعاءٌ إثرَ دعاءٍ إثرَ دعاءٍ.. وبعدَها فَلْتَغْرُبي وتَطْوِي اليومَ محمَّلًا بذاك الدعاءِ...

فلا التفاتةَ إلى سِواهُ ما أَمْكَنَ ذلك، فإنْ أمكنَ الدعاءُ بِرَفْعِ كِلْتا اليَدَيْنِ فهو اللائقُ بِضَعْفِنَا وشِدَّةِ حاجتِنا وقُربِنا اليومَ مِنْ رَبِّنا، وإنْ لم يُمْكِنِ الدعاءُ إلا بِيَدٍ واحدةٍ حينَ يَسْقُطُ حَبْلُ النَّاقة مِنَ اليَدِ، أو نحوِهَا فلتنزلْ يدٌ واحدةٌ تَرْفَعُ الحَبْلَ، وتَبْقَى الأُخرى مرفوعةً إلى اللَّهِ، مُعْلِنَةً المواصلةَ[1]، فلا ينقطعُ الدعاءُ كما لا ينقطعُ رَفْعُ اليَدِ حتى وإنْ أمكنَ ذلك بغيرِ رَفْعِ اليدينِ... فالكمالُ المستطاعُ هو المطلوبُ، فمن ذا الذي يريدُ أن يفارِقَ قَلْبُهُ رَبَّهُ - سبحانه - وهو في هذه الحالِ؟!

فسبحان اللَّه! كيف جعل وقفة عرفة بهذه الوسطيَّة..

فمن نظر لفضله تمنَّاه أطول وأطول.. ومن نظر لطاقة بعض البشر ومللَّهم تمنَّاه أقلَّ.. فجاء وسطاً من صلاة الظُّهر حتَّى الغروب.

---

(١) عن أسامة بن زيد قال: «**كنت رديف النبي ﷺ بعرفات، فرفع يديه يدعو، فمالت به ناقته فسقط خطامها، فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى**» رواه النسائي (٣٠١١) كتاب الحج باب: رفع اليدين في الدعاء بعرفة، وصححه الألباني.

علِّق قلبك بآخر اليوم.. وانظر لهجوم النَّاس على الدُّعاء في آخره.. ستصبح كلُّ لحظةٍ في هذا اليوم كأنَّها آخره.. فلم تكد تفلت منه لحظةٌ.

عالج الملل بتنوُّع الأذكار، عندها يتجدَّد التَّفكُّر.. أَطِلِ الإلحاحَ على ربٍّ تُحبُّه.. جدِّد الطَّهارة يتجدَّد لك النَّشاط.. أَدِمْ تعليق القلب اليوم بربِّك وكأنَّك تراه - سبحانه جلَّ جلاله.

أمَّا إطالة رسول اللَّه ﷺ في دعائه مع المواصلة وعدم الانقطاع.. فذاك رسول اللَّه ﷺ.. الَّذي ذهل عن نفسه بطول القيام حتَّى تورَّمت قدماه، وواصل صيام الأيَّام المتتابعة.. فمَنْ يقوى على صنع رسول اللَّه ﷺ؟!

ومع هذا «**فإنَّ رسول اللَّه ﷺ خطب بعد الزَّوال وليس بعد الزَّوال مباشرةً؛ لأنَّه لمَّا زالت الشَّمس كان في نمرة، فأمر بناقته فرحِّلت له، ثمَّ سار على الإبل حتَّى أتى بطن الوادي ونزل، وخطب النَّاس خطبةً طويلةً مقيَّدةً، ثمَّ أمر بلالًا فأذَّن، ثمَّ أقام فصلَّى الظُّهر، ثمَّ أقام فصلَّى العصر، ثمَّ ركب حتَّى أتى الموقف، والموقف من بطن عرنة بعيد**»[(١)].

أمَّا هو ﷺ في هذا اليوم فإنَّه دعا مِنْ على ناقته حتَّى غروب الشَّمس وهذا الحال بغير شكٍّ هو الأنس لهذا المقام.. وكم في النَّفس من هذا الارتفاع من معانٍ؟

إنَّ اللقاءَ في هذا اليوم لِقَاءٌ فِعْلِيٌّ، لِقَاءٌ حَقيقيٌّ، ذلك أَنَّك حَضَرْتَ، واللَّهُ تعالى دنا وتَجَلَّى.. واللَّهُ هبط ونَزَلَ.. كَمَا ذَكَرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**ما مِنْ يومٍ أكثرُ مِن أن يُعْتِقَ اللَّهُ فيه عَبْداً مِنَ النارِ مِنْ يومِ عَرَفَةَ، وإنه لَيَدْنُو ثم يُباهي بهم**

(١) «الشرح الممتع» (٧/ ٢٩٦).

الملائكةَ، فيقولُ: ما أرادَ هؤلاءِ»[١].

وقال عليه الصلاةُ والسلامُ: «**أَمَّا وُقُوفُكَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ، فإنَّ اللَّهَ يَهْبِطُ إلى سَمَاءِ الدُّنيا، فيباهي بكم الملائكة**»[٢].

وقال عليه الصلاةُ والسلامُ: «**وأَمَّا وُقوفُكَ بعرَفةَ، فإنَّ اللَّهَ ينزلُ إلى السماءِ الدنيا فَيُباهي بهم الملائكةَ**»[٣].

هلمُّوا إذاً يا أهل عرفة - والحال هذا - إلى أحبِّ كلمةٍ يحبُّها ربُّنا - سُبحانَه - نسمعه إيَّاها.. نكثر منها.. نلهج بها.. متفكِّرين بها فإذا بها في كلِّ مرَّةٍ تنفلق عن معانٍ جديدةٍ، ودفعةٍ إيمانيَّةٍ عجيبةٍ.. نتفكَّر.. في كلِّ كلمةٍ من كلماتها.. فواللَّه، ما أعظم مناسبتها لهذا الموقف! ما أشدَّ تأثُّر القلب بها وهو يردِّدها في هذا اليوم! كيف لا واليوم ربُّنا - سُبحانَه - في هذا القرب المخصوص - سُبحانَه - ونحن في عرفة نردِّده: «**لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ**» فأيُّ توحيدٍ مثل توحيدِ هذا اليوم؟! التَّوحيدُ هو التَّوحيدُ، لكنَّ القلبَ اليوم رأى من علائمِ التَّوحيد الفريدِ، وأبصرَ من شواهدِ الوحدانيَّة المطلقة ما لم يَرَهُ من قبل. قلبٌ لا يلتفتُ التفاتةً عن اللَّه - سُبحانَه - الَّذي نزَّل.. لا إله إلَّا هو.. رغم كثرة الحضور.. وتراحمِ الخلقِ.

بل هَذَا المشهدُ يزيدُ العبدَ عبوديَّةً.. ويزيدُ ذلَّتهم للَّه ذلَّةً.. ويزيدُ افتقارَهم افتقاراً.. وذلك بقدرِ ما يزيد عنده هذا اليوم تعظيمَ اللَّه تعظيماً..

---

(١) رواه مسلم (١٣٤٨) كتاب الحج، باب: فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.

(٢) رواه البزار قال الألباني: حسن لغيره، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١١١٢).

(٣) رواه الطبراني (١٣٥٦٦) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٦٠).

وتوحيداً مطلقاً.

وهكذا يا أهلَ عرفةَ، فإنَّ لكلِّ دعاءٍ تدعو به هذا اليوم وطأً آخر على القلبِ لم يعرف قلبُك مثله من قبل.. جرِّب أذكارَ الثَّناء على اللَّه في هذا اليوم، وسوف تجدُها شيئاً آخرَ اليوم.. ردِّد الاستغفارَ من ذُنوبِكَ وأنت في هذا القرب وستجده شيئاً آخرَ.. ارفع حاجيَّاتٍ وأنت في هذا القُرْب وستجدها اليومَ من هذا الموقعِ شيئاً آخر.

استغرق في الصَّلاة على رسولِ اللَّهِ ﷺ.. وأنت ترى كلَّ هذه الجُموع إنَّما تسير وراءه.. أليس هو سيِّد هذه الجموع وسيِّد الجموع كلِّها يوم تجتمع من أوَّلها إلى آخرها.. أَكْثِر من الصَّلاة عليه ﷺ، وستجد أنَّ للصَّلاة عليه طعماً آخر.

وهل مثل هذا اليوم يومٌ آخر.

لا، لا تُبَرِّرْ لِغَفْلَتِكَ هُنا، وتعزِّي نَفْسَكَ بِتَنَزُّلِ اللَّهِ بالثُّلُثِ الآخِرِ مِنَ الليلِ... لا...

لا واللَّهِ، ولا الثُّلثِ الآخرِ مِنَ الليلِ، ولا أَيَّةِ لحظةٍ عِشْنَاهَا...!

ذلك أَنَّ التَّنزلَ هنا طويلٌ طويلٌ، وهناك مُقْتَصَرٌ على ثلثِه، هذا تَنَزُّلٌ في النَّهارِ يَقْدِرُ عليه مَنْ لم يستيقظْ ليلًا، وهو تنزلٌ ودُنُوٌّ، كما في الحديثِ، وهو تَنَزُّلٌ عَمَّتْ بَرَكَتُهُ أَهْلَ الأرضِ وهذا الزَّمانَ، وهو تَنزلٌ مشهودٌ كأنَّه اليومُ الموعودُ، وهو تَنزلٌ وشهادةٌ وإشهادٌ للملائكةِ جميعاً له... وهو تَنزلٌ ومُباهاةُ اللَّهِ لهؤلاءِ بهؤلاءِ، وهو تَنَزلٌ مِن اللَّهِ لمَنْ جاءَ إلى هذا المكانِ خاصَّةً.. فكأنهم لَمَّا وَفَدُوا عليه مِنْ مختلفِ بِقَاعِ الأرضِ إلى هذه البقعةِ

التي اختارَها هو - سبحانه - للقائه، تَنَزَّلَ عليهم - خاصةً - مِنْ فوقِ سمواتِه - سبحانه - إلى المحتشدين له في هَذهِ البُقْعَةِ خَاصَّةً في هَذا النَّهارِ. . .

سبحان مَنْ سمَّاها منذ خلقها بـ «عرفة»! وها هي تَشْهدُ مع أمَّة مُحمَّدٍ ﷺ أعظم صورةٍ من صور معاني اسمها حين تحقَّقت أوسع معرفةٍ منذ خلقت عرفة. . فمتى شهدت هذه الأرض مثل هذه الجموع الَّتي تراها بعينك. . ومتى شهدت مثل هذا التَّوجُّه الَّذي تشهده بعينيك متعارفةً متآلفةً. . وفي أيِّ ساحةٍ على الأرض يَتعارَفُ العِبادُ على ربِّهم في يومٍ واحدٍ مثلَ يومِ عرفةَ؟!.

يا اللَّهُ، ما أعظمَ هذه اللحظةَ! بل وما أعظمَ إِخبارَ اللَّهِ لنا بها. .؟!

يا مَنْ على أرضِ عرفةَ الآنَ، إنَّ ربَّكم الآنَ قد نَزَلَ إلى السماءِ الدنيا. .؟!

أليس اللَّهُ تعالى يعلم بِحَالِكُم في كلِّ وقتٍ، إذْ هو فوقَ سَبْعِ سمواتٍ سبحانه. .؟!

إذاً، فماذا يعنِي نزوله - سبحانه - في هذا النهارِ إلى السماءِ الدنيا على هذا المكانِ وأهلِه. .؟!

إنه نزولٌ لأجلِكم، هل مِنْ شيءٍ أعظمُ مِنْ ذلك. .؟!

ألستَ تُحِبُّ اللَّهَ تعالى. .؟! إذاً، فالحبيبُ الآنَ قد اقتربَ. . فهلْ مِنْ مكافأةٍ مثلُ قُرْبِ الحبيب. .؟!

أليس هو المجيب. .؟!المجيبُ الآن قد اقترب!

أليس هو الرحمنُ الرحيمُ؟ فالرحمنُ الرحيمُ الآنَ قد اقتربَ!

أليس هو العزيزُ؟ العزيزُ الآنَ قد اقتربَ!

أليس هو القويُّ المَتينُ؟ القويُّ المَتينُ قد اقتربَ!

أليس هو اللَّهُ الذي له الأسماءُ الحسنى - سبحانه؟ فاللَّهُ قد اقتربَ ونَزَلَ!

فالسميعُ في السماءِ الدنيا... المجيبُ نَزَلَ إلى السماءِ الدنيا...

الغَفورُ في السماءِ الدنيا.. مالكُ يومِ الدِّينِ في السماءِ الدنيا.. سبحانه وتعالى...

فباللَّه عليكم، كيف سيكون دعاؤكم وأنتم في هذا التَّقريب والاقتراب؟ أيُّ حالٍ وظرفٍ أصدق وصفاً من حالكم في هذا اليوم مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

* * *

العيون الساقية لـ:«وطلع فجر عرفة»

قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وَقَفَ النبيُّ ﷺ بعرفاتٍ وقد كادتِ الشمسُ أن تَؤُوبَ[١] فقال: «**يا بلالُ، أَنْصِتْ لِيَ الناسَ**» فَقَامَ بلالٌ، فقال: أَنْصِتُوا لرسولِ اللَّهِ ﷺ. فَأَنْصَتَ الناسُ، فقال: «**مَعْشَرَ الناسِ، أتاني جبرائيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ آنِفاً فَأَقْرَأَني مِنْ رَبِّي السلامَ، وقال: إنَّ اللَّهَ عز وجل غَفَرَ لأهلِ عَرَفَاتٍ، وأَهْلِ المَشْعَرِ، وضَمِنَ عنهم التَّبِعاتِ**» فقام عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا رسولَ اللَّهِ، هذا لنا خاصةً؟ قال: «**هذا لكم، ولِمَنْ أتى مِنْ بعدِكم إلى يومِ القيامةِ**» فقال عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَثُرَ خَيْرُ اللَّهِ، وطَابَ[٢].

* * *

(١) تؤوب: تغرب، انظر «النهاية في غريب الحديث» (١/ ١٨٧).

(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٥١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يا رَبِّ أَعْتِقْني مِنَ النَّارِ

هذا هُتَافُ القلبِ مِنْ أعماقِه، هُتَافُ العبدِ بأعظمِ أمانِيه، هتافٌ يُعَبِّرُ عنه اللسانُ في هذا اليومِ العظيمِ يومِ عَرَفَةَ: **(يا ربِّ أعتقني من النار)**.

يا ربِّ، كم يَرْتَجِفُ القلبُ ويَضطربُ إذا قرأَ في كتابك الكريم وصفك لإحاطةِ النارِ في قولك: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤]، وقولِكَ: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَآ﴾ [الكهف: ٢٩] ونَحْوَ تلك الآياتِ...

وَوَصْفَكَ للحَشرِ ونحنُ إذ ذاك مِنْ أهلِه: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢١-٢٣].

وقَرَأَ وَصْفَ الشفيعِ ﷺ مَجِيئَها إذْ يقولُ: «**يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يومَئِذٍ لها سَبْعُونَ أَلْفِ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفِ مَلَكٍ يَجرُّونَهَا**»(١)...

ويَصِفُ عُمومَ الفَزَعِ الذي يَحُلُّ بقلوبِ الخلائقِ كما رَوَىٰ عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**يَجْمَعُ اللَّهُ الأَوَّلينَ والآخِرينَ...**» إلى أنْ قال كَعْبٌ رضي الله عنه: إنَّ لِجهنمَ يومَ القيامةِ لَزْفَرةً، ما مِن مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، ولا نبي مُرسلٍ إلا خَرَّ لِرُكْبَتَيْهِ حتى إنَّ إبراهيمَ خليلَ اللَّهِ ليقول: رَبِّ نَفْسي نَفْسي، حتى لو كانَ لكَ عَمَلُ سبعينَ نَبيًّا إلى عَمَلِكَ لَظَنَنْتَ أنْ لا تَنْجُوَ(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٢)، كتاب: صفة الجنة، باب: في شدة حَرِّ نار جهنم، وبُعْدِ قعرها.

(٢) جزء من حديث طويل جدًّا رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٧٦٣)، وصححه الألباني، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٠٤).

هنا تَظهرُ قيمةُ العِتْقِ من هذا الرِّقِّ، والخلاصِ من هذه الإحاطةِ المُحْكَمَةِ، والنجاةِ من ذلك الالتقاطِ الموعودِ.

هنا تَظهرُ بعض قيمةِ هذا اليومِ العظيمِ - يومِ عرفةَ - فيا ربِّ أعتقني من النار...

يقولُها القلبُ وهو يتساءَلُ رَاجياً خائفاً: هل سَيتحققُ هذا لي في عُمُري؟ هل سيتحققُ لي هذا في حِجَّتي هذه؟ هل سيتحققُ لي هذا في يَومي هذا؟

اللَّهُ أكبرُ! ما أعظمَها مِنْ مكافأةٍ قد آنَ أوانُها، وهذا اليومُ يومُها...!

ربِّ أعتِقْني من النار، وهأنذا أقولُها في أعظمِ مناسبةٍ للعِتْقِ: «**ما مِنْ يوم أكثرُ مِنْ أن يُعْتِقَ اللَّهُ فيه عبداً من النار مِنْ يومِ عَرَفَةَ**»(١).

ربِّ أعتِقْني من النار، يا ربِّ كأنني أرى الوفودَ تِلْوَ الوفودِ يُطْلَقُ سراحُها، ويُفَكُّ أُسارُها، وتَخْرُجُ أسماؤُها من سِجِلَّاتِ النارِ إلى سِجِلَّاتِ الجنة في هذا اليوم وأنا أنظرُ، وأنتظرُ اسمي..!

لكنني أَهتفُ هُتَافَ الغريقِ الذي يُوشكُ أن يَهْلِكَ، بل هُتَافَ الحريقِ الذي يوشكُ أن تأكلَه النارُ... لعلَّ ربي برحمتِه يقولُ: تعالَ أنتَ يا أيُّها اللَّحوحُ فاخْرُجْ من النارِ وادخُلْ مع هؤلاءِ الجنةَ.

يا ربِّ أعتقْني من النار، يا لها من دعوةٍ إذا رأَى صاحِبُها مكانَتَها رَأْيَ العَيَانِ يومَ القيامةِ، ورَأَى أنه من أهلِ النارِ، ورَأَى ماذا تعني النارُ، حينَ يَرى مصائرَ الزُّمرِ السائرةِ إلى جهنمَ، ثم رَأَى عِظَمَ المفاجأةِ حينَ يُخرجُ من بينِ

(١) مر تخريجه سابقاً (ص٣٢، ٤٣).

هؤلاءِ ويُدخَلُ في الوفودِ السائرةِ إلى الجنةِ. . . فتذكَّرَ عندَها أن هذا العتقَ العظيمَ كان بتلك الدعوةِ، وذلك الإلحاحِ في يومِ عرفةَ، إنه فضلُه الذي مَنَّ به، إذ سَمِعَ، وأجابَ سبحانه، ووعد ووفى، ومن أوفى بعهده من اللَّه.

يا ربِّ أعتقْني من النار، يا ربِّ حَوْلَ هذه الصيغةِ نُدَنْدِنُ. . . . ولا أجدُ لها صِيَغاً أحسنَ مما دعا به رسولُك ﷺ، ومما دعا به: (**اللَّهم إني أسألُك الجنةَ، وأَستجيرُ بك من النار، اللَّهم إني أعوذُ بك من فتنة النارِ وعذابِ النار، وفتنةِ القبرِ، وعذابِ القبر، وشرِّ فتنةِ الغِنَى، وشَرِّ فتنةِ الفقرِ، اللَّهم إني أعوذُ بك من شر فتنةِ المسيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهم اغسلْ قلبي بماءِ الثلجِ والبَرَدِ، ونَقِّ قلبي من الخطايا كما نَقَّيْتَ الثوبَ الأبيضَ من الدنَسِ، وباعِدْ بيني وبينَ خطاياي كما باعدتَ بينَ المشرقِ والمغربِ، اللَّهم إني أعوذُ بك من الكَسَل والمَأْثَمِ والمَغْرَمِ**)[1]. . .

يا لأفراح أناسٍ في هذه الأيَّام بحجِّكم وأنتم لا تشعرون. .

فكلُّ مَنْ دعوتم لهم قد بلغتهم دعوتكم، واستغفاركم وسيقال لكم في الختام عند الطَّواف: «**انصرفوا مغفوراً لكم ولمن شفعتم له**».

بل يا لَفرحة الآباء والأهل الرَّاحلين في قبورهم هذه الأيَّام. . فإنَّ الدُّعاء الَّذي يبلغهم لا يبلغهم مثله طوال العام. . وإنَّ كميَّة الأدعية الَّتي ترتفع لهم في هذا النَّهار لا ترتفع مثلها في أيِّ يومٍ من الأيَّام. . فكيف بمن أوصل حَجَّةً برمتها إلى والده أو والدته أو قريبه أو حبيبه. . لمن حجَّ عمَّن لم يحجَّ منهم؟

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٦) كتاب: الدعوات، باب: التعوذ من فتنة الفقر، ومسلم (٥٨٩) كتاب: الذكر والدعاء، باب: التعوذ من شر الفتن وغيرها.

أيُّ بابٍ عظيمٍ فتحه اللَّه - سُبحانَه - لهذه الأمَّة على أهل الدَّار الآخرة، ففي حديث شبرمة الَّذي رواه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ سمع رجلًا يقول: لبَّيك عن شبرمة، قال: «**من شبرمة؟**» قال: أخٌ لي أو قريبٌ لي، قال: «**حججت عن نفسك؟**» قال: لا، قال: «**حجَّ عن نفسك، ثمَّ حجَّ عن شبرمة**»(١).

وهذا يشمل كلَّ حجٍّ بشرط أن تكون حججت عن نفسك، ويشمل كلَّ مسلمٍ قريبٍ منك نسباً، أو بعد عنك.

وعن عبد اللَّه بن بريدة عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينا أنا جالسٌ عند رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و سلم إذ أتته امرأةٌ، فقالت: إنِّي تصدقَّت على أمِّي بجاريةٍ، وإنَّها ماتت، قال: فقال: «**وجب أجرك وردها عليك الميراث**»، قالت: يا رسول اللَّه، إنَّه كان عليها صوم شهرٍ، أفأصوم عنها ؟ قال: «**صومي عنها**» قالت: إنَّها لم تحجَّ قط، أفأحجُّ عنها؟ قال: «**حجِّي عنها**»(٢).

* * *

(١) رواه أبو داود في «سننه» (١٨١١) وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: صحيح.
(٢) رواه مسلم (١١٤٩).

العيون الساقية لـ:«يا رب أعتقني من النار»

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ما من يوم أكثرُ مِن أن يعتقَ اللَّهُ فيه عبداً من النار من يومِ عرفة، وإنه لَيَدْنُو ثم يُبَاهِي بهمً الملائكةَ، فيقولُ: ما أرادَ هؤلاءِ..**»[(١)].

* * *

(١) رواه مسلم (١٣٤٨).

المَرَضُ في الوِفَادَةِ[١]

كم مِن عبادةٍ قَصُرَتْ عن بلوغِ الدرجةِ العاليةِ الرفيعةِ التي أرادَها اللَّهُ لصاحبِها، فأرسلَ اللَّهُ هذا البلاءَ في هذه الأثناءِ، ليرفعَ هذا العبدَ إلى تلك الدرجةِ، كما جاء في الحديثِ: «**إن العبدَ ليكونُ له عندَ اللَّهِ المنزلةُ الرفيعةُ ما ينالُها بِعَمَلٍ، فما يَزالُ اللَّهُ يبتليه بما يَكره حتى يُبلِّغَه إيَّاها**»[٢].

وكم مِنْ عبادةٍ ظَنَّ صاحبُها بها التمامَ والاكتمالَ فَمَشَى وهو راضٍ عنها... لكنَّ اللَّهَ يَعلمُ كم فيها من نقصٍ لم يَحْسِبْ له حِساباً، فأتى اللَّهُ تعالى له ببلاءٍ، يَجْبُرُ كسرَها، ويُتمِّمُ نَقصَها، ويحقق إكمالها، ويتوج كمالها.

فما دُمْتَ عن مَوطنِ العبادةِ سَتَرْحَلُ، ومادامَ البلاءُ عنك سيرحلُ فَلْيُجْمَعْ لك الاثنانِ، كافِيَيْنِ وافِيَيْنِ، ولترحلْ بأجرِهما العظيمِ إلى اللَّهِ يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين..

ولو خُيِّرَ العبدُ يومَ القيامةِ بينَ السلامةِ مع العبادةِ، وبينَ البلاءِ مع العبادةِ لَمَا اختارَ إلا الاختيارَ الذي اختارَه اللَّهُ تعالى له..

---

(١) اخترنا المرض في الوفادة بالذكر لأنه يجمع على المؤمن شدة المرض وآلامه، وتعطيله عن العبادة في أعظم موقف، ومضاعفة الهمِّ لذلك، وإلا فالمرض هو المرض في الوفادة أو غيرها، ثم إن الحاج كثيراً ما يصاب بمرض وقد أصيب بعض صحبنا في عرفة بمرض وتكرر معنا ذلك في أكثر من حجة.

(٢) رواه أبو يعلى (٦١٠٠)، قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

أيتها النفس، أَرَأَيْتِ فُرصةً لتتميزي بها عن غيرِك في عينِ اللَّهِ مثلَ هذه الفرصةِ؟..

فرصة: حين يُصيبُ الإرهاقُ الركبَ كلَّه، وتكونُ الحاجةُ للنوم شاغلةً عن شدةِ الجوعِ، فيأتي المرضُ ليطردَ هذا وهذا.. هنا تكونُ فرصةُ المُحسنِ الذي يَعملُ فوقَ طاقتِه، ويتحملُ فوقَ تَعَبِهِ ومرضِهِ، ويتقدمُ الأَصِحَّاءَ والأقوياءَ لا لشيءٍ، ولكن ليُشْهِدَ ربَّه - سبحانه - يُشْهِدَهُ بتقربه إليه وهو في هذا الظرفِ العَصيبِ يقولُ: يا ربِّ، هذا لأجلِك، فهلْ يُرضِيكَ ذلك، يا ربِّ أَرَضِيتَ..؟ يا ربِّ اغفرْ، فالفَضلُ لك، لا شريكَ لك..

ففي الحديثِ، عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**عَجِبَ ربُّنا - تعالى - من رَجُلَيْنِ، رَجُلٍ ثارَ عن وطائِه ولحافِه من بينِ أهلِه وحِبِّه إلى صلاتِه، فيقولُ اللَّهُ - جل وعلا - لملائكتِه: انظُروا إلى عَبدِي، ثارَ عن فراشِه ووطائه من بينِ حِبِّهِ وأَهلِه إلى صلاتِه رغبةً فيما عندي، وشفقةً مما عندِي، ورَجُلٍ غَزا في سبيلِ اللَّه فانهزمَ أصحابُه وعَلِمَ ما عليه في الانهزام، وما له في الرجوع، فرجعَ حتى هُريقَ دَمُه، فيقولُ اللَّهُ لملائكته: انظُروا إلَى عبدي، رَجَعَ رجاءً فيما عندِي، وشفقةً مما عندي حتى هُريقَ دمُه..**»[(١)].

وفي الحديث: «**إن اللَّهَ يَضْحَكُ إلى رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ قامَ في ليلةٍ باردةٍ من فراشِه ولحافِهِ ودِثارِه فتوضأ ثم قامَ إلى الصلاة، فيقولُ اللَّهُ عز وجل لملائكته: ما حَمَلَ عبدي هذا على ما صَنَع؟ فيقولونَ: رَبَّنا رجاءَ ما عندَك، وشفقةً مما عندَك، فيقول: فإني قد أعطيتُه ما رَجَا، وآمنتُه مما يَخَافُ**»[(٢)].

---

(١) رواه ابن حبان (٢٥٥٨)، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٨٥٣٢)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٥٢٧): إسناده حسن، وكذا حسنه الألباني، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٣٠).

فالتعبُ أصابَ الجميعَ، وأُثيبَ الجميعُ -واللَّهُ أعلمُ- لكنَّ هذا المتميزَ قام فَصَلَّى، وذاك عادَ فجاهدَ...

فَمَنْ يفعلُها؟

تَمَيَّزْ ولو مرةً، ثم مرة، حتى يصبحَ التَّمَيُّزُ في حياتك مع ربك مَنهجاً..

أيتُها النفسُ التي أَوْهنَكِ المرضُ بعد تَعَبِ المناسكِ، استحضري ما يُصابُ به أهلُ المحشرِ، وطُولَ ذلكَ اليومِ، وشِدَّةَ عَرَصَاتِهِ، ومتاعبِه، وضِيقِهِ، وشدةَ زحامِه وقيامِه.

قَدِّمي العبادةَ مع هذا الوَهَنِ، في هذا المكانِ ثمناً للفَرَجِ من ذاك الوَهَنِ، في ذاك المكان...

شِدَّةٌ بشدةٍ، وكَربٌ بكربٍ، فادفعي الثمنَ إذ أصبحَ بينَ يديكِ، بل دَخَلَ بدنَكِ وبينَ عينيكِ..

فأيُّ نعمةٍ مثلُ هذه النعمةِ؟ واللَّهِ نعمةٌ، فانظري لها بِعَيْنِ ذاكَ اليومِ، وكيفَ تَكشفُ هذه اللحظةُ كرباتهِ كَشفاً - بإذنِ اللَّه..

أيتها النفسُ المُبتلاةُ، جاءَكِ الأجرُ فوقَ الحَصْرِ والحساب.. وربُّ العالمينَ يقولُ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فما أرخصَ الثمنَ المدفوعَ في مقابلِ العِوَضِ المقبوضِ.. أجرٌ بغيرِ حسابٍ..!

فلتصبرِي ولتحتسبي.. لِتقبضِي مِنْ حيثُ لا تحتسبينَ.. وفوقَ ما تحتسبين..

يا حَظْوَةَ مَنِ اختارَ اللَّهُ له ما اختارَ لأنبيائِه ليجعلَه من أوليائِه. . .

يا سعادةَ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ له الأنينَ رفيقاً في عبادتِه، فرفعَه أكثرَ، ورفَعَه أكثرَ حينَ أَحْرَقَ بحرارةِ المرضِ آثامَهُ، ودَفَعَ نصيبَ النارِ منه بالحُمَّىٰ في وِفادتِه.

يا ربِّ، أنا الوافدُ عليك. . . ووافدُك قد مَرِضَ في وِفادتِه، وأنا بذلك مسرورٌ وراضٍ، يا ربِّ، أنا قاصدُك في شعائرِ الحجِّ والوِفادةِ. . . فأصبحتُ اليومَ حَبِيسَكَ في مشاعرِ الحجِّ، وأنا فَرِحٌ بِقَدَرِكَ، وراضٍ باختبارِك.

يا ربِّ، إنْ مرضْتُ فقد ماتَ غيري، وإن وَهَنْتُ فقد بَقِيَ مِنَ القوةِ ما أَذكرُك به، وَبقِيَ عندِي من العقلِ ما أتفكرُ به. . . فَلَكَ اللَّهمَّ الحمدُ على ما أخذتَ، ولكَ الحمدُ على ما أَبقيتَ.

يا ربِّ أقولُها من خالص قلبي وأنا أستشعرُ كلَّ كلمةٍ من كلماتِها: «**اللَّهمَّ إني عبدُك، ابنُ عبدِك، ابنُ أَمَتِكَ، ناصِيَتي بِيَدِكَ، ماضٍ فِيَّ حُكْمُك، عَدْلٌ فِيَّ قضاؤُك، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسم هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ به نَفْسَك، أو عَلَّمْتَه أَحداً مِنْ خَلْقِكَ، أو أَنْزَلْتَهُ في كِتَابِكَ، أو اسْتَأْثَرْتَ به في عِلْمِ الغيبِ عندَك، أن تَجعلَ القرآنَ رَبيعَ قلبي، ونورَ صَدري، وجَلاءَ حُزني، وذَهَابَ هَمِّي**»[1].

يا ربِّ، هذا بَدَني وهذه قُوَّتي. . . أنت واهبُهما وأنت صاحبُهما. . . خُذْ منهما ما شئتَ، ودَعْ ما شئتَ ما دامَ ذلك يُرضِيك عني. . فأنا ما جئتُ إلا لأرضيكَ. . . وعافيتُك أوسَعُ لي.

يا ربِّ، لأَعجنَنَّ الصبرَ بالبلاءِ، وأَبْقَى أَلْهَجُ بِذِكْرِكَ والثناءِ. . !

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٩١) وصححه الألباني، انظر «السلسلة الصحيحة» (١٩٩).

لأذكرنَّكَ وإن وَهَنَتْ كلُّ الأعضاءِ..!

لأذكرنَّك وإن يَبَسَتْ كلُّ الأطرافِ من شِدَّةِ البلاءِ..!

لأذكرنَّك وإنِ اشْتَعَلَتِ الحُمَّىٰ، وعَرِقَ الجَبِينُ وبَرَدَ، وارتَعَشَتِ الأطرافُ واصطَكَّتِ الأسنانُ.. **لأذكرنَّك** ما بَقِيَ اللسانُ متحركاً حتى يَيْبَسَ..

لأذكرنَّك ما نَبَضَ القلبُ، وإن يَبِسَ اللسانُ، سأذكرُك وأذكرُك حتى تخرجَ هذه من هذا، وأُبْعَثُ يومَ القيامةِ من تحتِ الأرضِ وأنا بينَ الناسِ أذكرُك..

لأذكرنَّك حتى ألقاكَ.. لأذكرنَّك حتى أُلْهَمَ ذِكْرَكَ إلهاماً، كلُّ ذلك بفضلِكَ.

يا ربِّ، إنها فُرصتي كي أُقَدِّمَ شاهداً على أني أُحبك، وأنَّ حُبَّكَ يَغْلِبُ كلَّ هوىً لِنَفْسِي، ويَغلبُ حُبِّي لنفسي.. يا ربِّ، لأتخذنَّ حُبَّكَ منهجاً بعدَ هذا المرضِ إلى أنْ أَلقاك، ولأُسَائِلَنَّ نَفْسي كُلَّما تردّدتْ، أو تَثاقلتْ عن أمرِك: أيُّ الأمرَين يحبُّ اللَّهُ؟ ولن يكونَ أمامي إلا طريقُ حُبِّ اللَّهِ، ولأسائلنَّها عندَ كلِّ اختيارٍ، أَيُّ الأمرينِ أحبُّ إلى اللَّهِ؟ وليس لي عندَها إلا اختيارُ محبةِ اللَّهِ. ولأجعلنَّ سِرَّ حياتي هو حُبُّكَ ما استطعتُ لذلكَ سبيلًا، ولسانُ حالي المُفَسِّرُ لِتَصَرُّفَاتِي كلِّها يقولُ: حُبُّ اللَّهِ أقامني، حُبُّ اللَّهِ أقعدني، حبُّ اللَّه أنطقني... حبُّ اللَّه أسكتني، حبُّ اللَّه أعجلني.. حب اللَّه رَيَّثني، حبُّ اللَّه صَوَّمَني.. حبُّ اللَّه فطرني.. حبُّ اللَّه صَبَّرني... حبُّ اللَّه أرضاني.. حبُّ اللَّه ثبتني.. حبُّ اللَّه أماتني، وإني - واللَّهِ - لا أجدُ كلماتٍ أرفعُها لك يا ربِّ أَجْمَعَ من كلماتِ حبيبِك ﷺ إذ كانَ يدْعُو

ويقولُ: «**اللَّهم ارزقني حبَّك وحُبَّ من ينفعُني حبُّه عندَك، اللَّهم ما رزقتني مما أحبُّ فاجعلْه قوةً لي فيما تُحِبُّ، اللَّهم ما زَوَيْتَ عني مما أُحِبُّ فاجعلْه فَراغاً لي فيما تُحِبُّ**»[1]، فاللَّهم أَعِنِّي على شكرك وذكرك وحسن عبادتك. . .

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٤٩١) كتاب الدعوات، قال الألباني: ضعيف. وقال الشيخ عبد القادر الأرنؤوط: حسن. وانظر تحقيقه لـ«جامع الأصول» (٤/ ٣٤١).
- زويت عني: أي صرفت عني، ونحيت عني.
- فراغاً: أي: اجعل ما نحيته عني من محابي عوناً على شغلي بمحابك، وسبباً لفراغي لطاعتك.

العيون الساقية لـ: «المرض في الوفادة»

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول اللَّه ﷺ: «**أخذ اللَّه الميثاقَ من ظَهْرِ آدمَ بنُعْمانَ - يعني عرفةَ - فأخرجَ من صلبِه كلَّ ذريةٍ ذَرَأَها، فَنَثَرَهم بينَ يديهِ كالذَّرّ، ثم كلَّمهم قِبَلًا، قال: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى**»[(١)].

* * *

(١) رواه أحمد (١/ ٢٧٢)، قال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات، وكذا صححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٠١).

إغفاءة المحسنين

ها هي الطرقاتُ العامرةُ من عرفةَ إلى مزدلفة، بهذه الوفود المحرمة ترتَجّ... ها هو الليلُ يُسْتقبلُ بالتلبيةِ، حتى لكأنه ليلةُ هديرِ البحرِ الهائجِ تتصاعدُ أمواجُه بعضُها فوقَ بعض، لكنه تصاعدُ الكَلِمِ الطيبِ من المواكبِ الطاهرةِ من الذنوبِ، بما غَفَرَ اللَّهُ لها في عرفةَ:

«لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»[1].

وعلى هذا سيبقَى الحالُ متواصلًا إلى أن تنامَ الوفودُ على ساحةِ مزدلفةَ، فَتُغْمِضُ الوفودُ الأعينَ على التلبيةِ، ويبقى القلبُ معلَّقاً بك يا رب... بحبل هذه الكلماتِ... متشرباً معانيَ الوحدانيةِ إلى العروقِ، والعظمِ، والجلدِ، والشعرِ، والبشرِ.

فيا ربِّ، ما أَنْعم القلبَ والروحَ والبدنَ بذكرِك! إذ الجُنوبُ لازمتْ أرضَ مزدلفةَ الآنَ، والعيونُ تقاومُ النومَ ما بينَ ترديدِ الألسنةِ أذكارَ النومِ على تعبِ النهارِ... وما بينَ ظلمةِ الليلِ تُخَيِّمُ على عبدِك، وبينَ نورِ الإيمانِ بذكرِك من قلبِ عبدِك حتى لكأنه بأذكارِ المنامِ يراك..

---

(١) من عاش الحج من قبل، وعاشه في السنين المتأخرة وجد خفض الصوت بالتلبية حتى يكاد يختفي في هذه السنين، فلا تكاد تسمع إلا همساً، وتخافتاً في تلبيتهم وتكبيراتهم رغم كثرتهم، ولذا كان لا بد من طرائق يعود فيها الهدير إلى عهده الأول، فرغم أنهم كانوا قلة إلا أن ترديد الملبين كان يضج بمنى كلها، واليوم أصبحت الجموع بالملايين لكنك لا تسمع تلبية الملبين، وهذا من طبيعة الغثاء، لكن لابد من كشفه..

إِي واللَّهِ لكأنه يَراك، إذ يُغْمِضُ العبدُ عينيه فلا يَرى بعينيه في الموجوداتِ شيئاً، فلْتَغْفُ العيونُ هنا لأجلِك، واتباعاً لرسولِك ﷺ، ولْتَلْتَحِف الجفونُ هنا حُبَّك من على هذه الوِسادةِ في هذه الظلمةِ، ولْتتفتح البصيرةُ عليك، فكأنها تراك في هذه الظلمةِ التي غَطَّتْ هذه الساحةَ... **إنها يَقَظَةُ الإحسانِ وإغفاءةُ المحسنينَ**، فأيُّ نومةٍ أَهْنَأُ من هذه النومة؟

فصارَ قرينُ الهمِّ طولَ نهاره ... أخا السُّهْدِ والنجوى إذا الليلُ أظلمَا
يقول حبيبي أنت سُؤْلي وبُغْيَتي ... كفى بك للراجين سؤلًا ومَغْنَمَا
ألست الذي غذيتني وهديتني ... ولا زلت منّاناً علي ومُنْعِمَا
ففي يقظتي شوق وفي غفوتي مُنى ... تُلاحق خَطْوي نَشْوةً وتَرَنُّمَا[1]

* * *

(١) ديوان الإمام الشافعي (ص ١١٥)، تحقيق الدكتور/ محمد عبدالمنعم خفاجي.

العيون الساقية لـ «إغفاءة المحسنين»

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

عن أبي الدرداء رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال: «**من أتى فراشه وهو ينوي أن يقومَ يصلي من الليل، فغلبتْه عيناه حتى أصبحَ، كُتِبَ له ما نَوَى وكان نومُه صدقةً عليه من ربِّه**»(١).

عن عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال: «**إذا نَعِسَ أحدُكم في الصلاةِ فَلْيَرقُدْ حتى يذهَب عنه النومُ؛ فإنَّ أحدَكم إذا صَلَّىٰ وهو ناعسٌ لعله يَذهبُ يستغفرُ فَيَسُبَّ نفسَه**»(٢).

(١) رواه النسائي (١٧٨٧) وصححه الألباني.
(٢) رواه البخاري (٢٠٩) ومسلم (٧٨٦) واللفظ له.

استيقاظـة مزدلفـة

أيُّ استيقاظةٍ مثل استيقاظةِ مزدلفةَ؟!

استَيْقَظْنا، فإذا الآياتُ والعِبَرُ تتزاحمُ في هَذا التَّوقيتِ من كلِّ جهةٍ في هذَا الموقفِ علينا..!

يُطير نومَ هذه الحشود أذانُ الفجرِ الَّذي يشقُّ هذا السُّكونَ العظيمَ. تفتحُ عينيك تنظرُ في هذه السَّاحة! تنظرُ في الوجوه الَّتي بجوارك من هاهنا وهاهنا! فترى وجوهاً جديدةً.. ترى رجالًا ونساءً من أصنافٍ شتَّى.

حقًّا إنَّها سَاحةٌ متَّسعةٌ، لكنَّها أصبحت في هذا المهجع كأسرةٍ واحدةٍ برِجَالِهَا ونِسَائِها، ومبيتها واستيقاظها، وذِكْرها ودُعائِها، وإقامتها ثمَّ رحيلها.. ترى النِّساء يَقُمْنَ من نَوْمهنَّ فلا تتحرَّك نَفْسُك بأدنَى أدنى ريبةٍ.. وكأنَّها أُختك المحرَّمة عليك بالنَّسب.. إذاً فهي روحٌ سَرَتْ بين كلِّ هذه الجموع!

بل هي - واللَّهِ - الغيرة على هذه الأعراض المحرَّمة اليوم يجدها كلُّ مسلمٍ في نفسه.

سبحان اللَّه! هكذا بقينا في هذا المبيت بإحراماتنا مجتمعين، وقمنا من منامنا مجتمعين، ونرحل مجتمعين؛ رجالًا ونساءً، صغاراً وكباراً.. إنَّها أسرةٌ واحدةٌ.. وإن كبرت فوليُّ أمرها رسول اللَّه ﷺ.

ومهما حرص الإنسان فلابدَّ من أن يظهر من جسده كتفه أو صدره أو نحو ذلك، لكن لا تُهْمة.. لا عيب.. لا غيرة من البعض على البعض، ولو

أظهر النَّاس هذه الأجزاء أمام نسائنا في غير هذه المناسك لثارت غَيْرتنا، أما هنا فلا أحد يتحسَّس من ظهور هذه الأجزاء، وما هي إلَّا مظاهر عبادة في أماكن عبادة في أوقات عبادة.. فالقلب في انصرافٍ عن هذا، فكيف لا يكون منصرفاً عند الحشر والنُّشور، وقد غضب الرَّبُّ غضباً لم يغضب قبله ولا مثله أبداً.. فاللَّهمَّ الأمان والسَّلامة هناك برحمتك يا أرحم الرَّاحمين.

سبحانك ربَّنا! بالأمس كُنَّا نُسابقُ غروبَ الشمسِ في عرفةَ بالدعاءِ، واليومَ نُسابقُ طلوعَ شمسِ مزدلفةَ بالدعاءِ!

فلْننظرْ في هذا التقلُّبِ، ونَحْيَاهُ، والقلبُ يقولُ ما يقولُ اللَّهُ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

ويقولُ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

القلبُ يقولُ: لا عبرةَ بغروبٍ ولا طلوعٍ، إنما العبرةُ بِمَنْ أَغْرَبَهَا حينَ غَرَبَتْ، وأَشْرَقَها حينَ أَشْرَقَتْ...

العبرةُ بما عَبَرَ إليه الخليلُ عليه السلام، إذ تَوَقَّفَ قومُه عندَ المظاهرِ الطالعةِ والغاربةِ، فقال بعدَ غروبِ الشمسِ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

سبحانك ربي! قَبْلَ الغروبِ دُعاءٌ ورَجاءٌ، وقبلَ الشروقِ دعاءٌ ورجاءٌ!

إنه الشاهدُ الجديدُ، نَطَقَ به التوقيتُ على حقيقةِ التوحيدِ، وهو ما نَطَقَتْ به كلماتُ التلبيةِ التي تُشْرَعُ هنا مِن جديدٍ: **(لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)**..

إنه الحالُ كلُّه ينطقُ بما أَفْصَحَ عنه القرآنُ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ

تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨].

إنه الشاهدُ المُبطلُ لِدَعَاوَىٰ آلهتِهم الباطلةِ النائمةِ في مثلِ هذا الوقتِ أو ذاك: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

يا ربِّ، ما أعظمَ مزدلفةَ بعدَ عرفةَ! ما أعظمَ واقعيةَ الإسلامِ إذ جاءتِ الصلواتُ فيها جمعاً للمغربِ والعشاءِ ثم النومُ فيها سريعاً، راحةً من جهدِ عرفةَ، ومن زِحامِ الطريق، وتتابعِ المتاعبِ، حتى المُناخِ[1] في مزدلفةَ...؟

فكم لهذه الاستراحةِ من رَاحةٍ؟ وكم لها من طاقةٍ جديدة؟

إذ نُبْعثُ مِنْ نَومتِنا بِهِمَّةِ مَنْ يُريدُ التعويض عن التقصيرِ، هِمَّةِ العابدِ يَرجو التَّمَامَ، هِمَّةِ مَنْ بَلَغَ القِمَّةَ ويَخافُ الهبوطَ، هِمَّةِ مَنْ يُريدُ العبورَ مِنَ العملِ نحوَ القَبولِ وقلبُه مُشْفِقٌ يَهْتِفُ: يا ربِّ سَلِّمْ، يا ربِّ سَلِّمْ..!

هكذا تأتي مزدلفة بعد ما ذهبت عرفة وكأنَّها السُّنَّة للفريضة..

تأتي مزدلفة بعد عرفة وكأنَّها وضعت عقبها لتكون مكان تفجُّر الطَّاقة الإيمانيَّة الَّتي امتلأ القلب بها في عرفة.. وهذه سُنَّةٌ في العبادات إذ تكون العبادة المقصود الأولى، هي المركز، ويظهر أثرها فيما بعدها مباشرةً؛ ألا ترى كيف قال اللَّه - سُبحانَه - عن صلاة المجاهدين وما بعدها: ﴿فَإِذَا

(١) المناخ: الموضع الذي تناخ فيه الإبل، وأناخ الإبل: أبركها فبركت، استناخت: بركت، «لسان العرب» (٨/ ٧٣٤).

قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]؟

ألا ترى ماذا قال اللَّه - سُبحانَه - عن الجمعة وما بعدها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩ - ١٠]؟

ألا ترى ماذا قال اللَّه - سُبحانَه - في عموم المناسك: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، بل ألا ترى كيف خص اللَّه سبحانه مزدلفة بعد عرفة بهذا فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

هكذا هي مزدلفة.. وهكذا هي أيَّام مِنَى الثَّلاث الَّتي تعقب مزدلفة.. ألم يقل النَّبيُّ ﷺ: «**أيَّام منى أيَّام أكلٍ وشربٍ وذكرٍ للَّه**» فهي أيَّام في عقب الأيَّام العباديَّة العظمى.

فإن لم يكن التَّزلُّف إلى اللَّه في أيَّام مزدلفة، فمتى يكون؟!

إنَّك لو أردت أن تُوصي رجلًا بالدُّعاء لك فلن تجد أفضل من رجلٍ لا ذنب عليه.. إذاً، فها هي ذي الجموع قد تطهَّرت كما وعدهم ربُّهم عند منصرفهم من عرفة بمغفرة ذنوبهم جميعاً.. ها أنت واحدٌ منهم، فادع اللَّه دعاءَ الموقن.. دعاءَ مَنْ غُفِر له.

يا ربِّ، بالأمسِ كنتُ في أعظمِ يومٍ خَلَقْتَه، لكنني لم أكنْ مِمَّنْ أَعطاه حَقَّه!

يا ربِّ بالأمسِ كان اللقاءُ بك على أرضِ عرفةَ، واليومَ أَشْعُرُ بالتفريطِ، إذ كيفَ غَرَبَتْ شمسُ عرفةَ ولم آخُذْ من لقائِك حاجتي؟!

كيف هَرَبَ قلبي مراراً وأنتَ حاضرٌ سبحانك؟!

كيف لم يَبْلُغ اجتهادِي حَدَّ عِلْمِي، بينَما فاقَ اجتهادُ غيري من عَوَامِّ المسلمينَ حُدودَ عِلمِهِم بمراحلَ؟

يا ربِّ، إنهم إذ يَرجُونَ الرحمةَ والرفعةَ فأنا واللَّهِ أرجو عفوَك ومغفرتَك، وأن لا تؤاخذَني بتفريطي في جَنْبك إذ كنتَ يا ربِّ قد نزلت لأهل عرفة خاصة سبحانك: **(يا ربِّ، إنك عَفُوٌّ تُحِبُّ العفوَ فاعفُ عني)**[1].

الآن أدركتُ يا ربِّ بعضَ حكمةِ الدعاءِ عندَ هذا المَشعرِ الحرامِ في هذا الوقت... إنه طَعْمٌ آخَرُ، إنه لَوْنٌ آخرُ، إن القلبَ خلالَه شيءٌ آخَرُ.

الآنَ أَشْعُرُ يا ربِّ أَنَّ هاتفاً من أعماقي يقولُ لي: لا تَنْدِبْ حَظَّكَ بِذَهَابِ عَرفةَ، فقد جاءَكَ التَعويضُ بدعاءِ مزدلفةَ من بعدِ صلاةِ الفجرِ إلى قُبيلِ الشروقِ... إنه دواؤُك الناجعُ، لجرحِك النازفِ.

هاتفٌ من داخلي يقولُ لي: نسيتَ أَنْ تدعوَ في عرفة بكذا، ادْعُ الآنَ به، نَسِيتَ كذا وكذا... ادعُ بهِما الآنَ... نَسيتَ أن تَذْكُرَ فلاناً عندَ ربِّك.. اذكرِ الآنَ، اذكرْ كذا، اذكرْ كذا...

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٥٠) كتاب: الدعاء، باب: الدعاء بالعفو والعافية من حديث عائشة، وصححه الألباني.

وأنا واللَّهِ يا ربِّ إذ أذكرُ لك ذلك أَشعرُ براحةٍ لا أستطيعُ تصورَها، فضلًا أنْ يستطيعَ قلبي وصفَها... راحةٍ أشعرُ من خلالِها أنك تُذكِّرنِي لتُجِيبَني وتُعْطِيَني - إِي واللَّهِ - ولسانُ حالي الآنَ يقولُ:

لو لم تُرِدْ نيل ما نرجو ونطلبه من فيض جودك ما علَّمْتَنا الطلبا

راحةٍ أَشْعُرُ أنك يا ربِّ تَدْفَعُني بهذه الدعواتِ دفعاً نحوَ الجبرانِ، نحوَ الغفرانِ، ونحوَ التمام.

راحةِ مَنْ يُبَصِّره ربُّه بمواطنِ نقصِه موطناً موطناً، لِيَسُدَّه بنفسِه واحداً واحداً قبل أن يَبتعدَ أو يرحلَ...

ويذكِّرَه بِمَنْ نَسِيَ من أهلِه، وصحبِه، وأصحابِ الحقوقِ عليه، واحداً واحداً، ليدعوَ لهم.

ويذكِّرَه بمسلمينَ ماتوا ونُسُوا في القبور، ونَسِيتُهم أنا في عرفةَ، والآنَ يُذَكِّرني ربِّي بهم واحداً واحداً.... ويذكِّرُه بآخرينَ في أقطارِ الأرضِ وعلى رأسِهِم المجاهدونَ في سبيلِ اللَّهِ، والمرابطونَ هنا وهناك...

يذكِّرُه بأهلِ البلاءِ، ومَنْ نُكِبُوا في بلادِهم، فأستشعرَ حُرقةَ الدعاءِ لهم كلَّما ذَكَرْتُهُم عندَ ربي... ووالله ما ذَكَرْتُهم بنفسي إنما أنتَ سبحانك الذي ذَكّرتني بهم.

يا ربِّ أشعرُ أَنَّ مزدلفةَ تقولُ لي وللناسِ: أعندَك ضمانٌ بأنك مِمَّنْ أُعتِقَ بالأمسِ مِنَ النار؟

الجوابُ: لا واللَّهِ. إذاً: واصِلِ الدعاءَ بالعِتقِ من النارِ، واصِلِ الإشفاقَ على نفسِك.

فلعل مقطوعاً عن الركبِ يُوصَلُ، ولعل محروماً من الرفقة يقرَّبُ، ولعل ساقطاً على أرضِ الضياعِ يُحْمَلُ... لا تيأسْ فاللَّهُ قريبٌ، سبحانك ربي.

يا ربِّ، أشعرُ أَنَّ بإمكاني أن أرفعَ ذلك الدعاءَ، الطويلَ في عرفَة بدعاءٍ خالصٍ في مزدلفةَ، فلربما رَفَع الدعاءُ الدعاءَ ولربما رَفَعَ العملُ الذكرَ، والذكرُ الذكرَ، كما قال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]... فليس لي الآنَ من دعاءِ عرفةَ كلِّه إلا حُسْنُ الظنِّ بكَ يا ربِّ، وأنا ما زِلْتُ عليه، وحُسْنُ الظنِّ بك ما زال هو زَادي... وهو حافزِي بالاجتهادِ هنا أكثرَ، فمَنْ يدرِي لعل في هذا الدعاءِ رفعاً لدعاءِ عرفةَ الموقوفِ بسببِ تقصيرِي أو غرورِي أو نحوِ ذلك من المُعَوِّقَاتِ، إنه تشريعُ الرحمةِ، وإنك ياربِّ رفيعُ الدرجات.

يا ربِّ، وما يُضِيرُ الدعاء إذا أعقبَه الدعاءُ... دعاءٌ في موقفٍ، ودعاءٌ في موقفٍ يليه، دعاءٌ في حالٍ ودعاءٌ في حالٍ يليه...؟ وما ضَيْرُ الحياةِ إذا أَصْبَحَتْ كُلُّها دعاءً إثرَ دعاءٍ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

يا ربِّ، هنا للدعاءِ لذةٌ أخرى، ومَذاقٌ جديدٌ...! إنه يومٌ مجاورٌ ليوم عرفةَ، ودعاءٌ مُعَقِّبٌ لدعاءِ عرفةَ، فبقدرِ ما يَستحضرُ المرءُ دعاءَ عرفةَ وعِظَمَ يومِها، بِقَدْرِ ما يَخافُ على ذاك الدعاءِ أن يُرَدَّ، أو يُجْرَح، فيبادرَه الهمُّ بضرورةِ التعويضِ، إنه الجمعُ ما بينَ حضورِ عرفةَ وشعورِ مزدلفةَ، فلئنْ غَرَبَتِ الشمسُ هناك فقد أَشْرَقَتْ على القلوبِ هنا.

* * *

العيون الساقية لـ:«استيقاظة مزدلفة»

قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

عن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وَصْفِ حَجَّةِ النبيِّ ﷺ قال: «**ثُمَّ رَكِبَ القصواءَ حتى وَقَفَ على المشعرِ الحرامِ، واستقبلَ القبلةَ، فدعا اللَّهَ وكَبَّرَه وهَللَّه ووَحَّدَه حتى أَسْفَرَ جداً**»(١).

* * *

(١) رواه الدارمي (١٨٥٠) قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

آخر العهد بالتلبية

هأنذا يا ربِّ أَرَى نفسِي على هذه الأرضِ بينَ هذه الجموعِ الزاحفةِ مِنْ مزدلفةَ مع إشراقةِ هذا الصباحِ... هائمةً على وجهِها إلى وجهتها، هادرةً بالتلبيةِ، ليس لها مِن توقفٍ إلا عندَ الجمرةِ الكُبرى في منى...

هأنذا لا يُرى شَخصي بينَ هذه الأمم، ولا يُسْمَعُ صوتي بينَ هذه الأصواتِ... لكنَّ عِلْمَ يقيني، بل عينَ بصيرتي كأنها تَرى ربِّي - سبحانه - يَطَّلِعُ عليَّ ويرى حركةَ بدني المتهادِي حيثُ أَمَرَ، ويُبْصِرُ حركةَ روحي وَهِيَ تَخفقُ بحبِّه، ويُبصرُ قلبي وقد فُتحَ له حتى لَكَأَنَّه يَراه - سبحانه...

يا ربِّ، **العهدُ الآنَ بالتلبيةِ غيرُ عهدِ الابتداءِ عندَ الإحرامِ.. فَأَعِنِّي !**

آنَ، لعبدِك يا ربِّ وقد بَلَغَ آخرَ العهدِ بالتلبيةِ لك الآنَ، أن يَتَشَرَّبَ من مَعِينِها الإيمانَ..! يَرْضَعَ منها لَبَنَ التوحيدِ الخالِص... يُؤَكِّدَ مع كلِّ تلبيةٍ هذا العهدَ العظيمَ معك، هذه البيعةَ الخالصةَ لك... سبحانك! فكم ادَّخَرْتَ في هذه الكلمات التامات من معانٍ لا يَنْفَدُ مَذخورُها، ومعارجَ لا مُنتهى لِعُلُوِّها: «**لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**» سبحانك ربي! كيف جَعَلْتَ شِعَارَ الحجِّ إليك: «**لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك..**».

يَحْلِفُ قلبي ولساني وكُلِّي أنَّ هذه الكلماتِ منك وحدَك لا شريك لك....

فلو تَفَكَّرَ فيها كلُّ مُلَبٍّ على عددِ مرَّاتِ تلبيتِهِ، وفُتِحَ له من معانِي الإيمانِ ما فُتح.. لما نَفِدَتْ معانيها، وما بلغَ أحدٌ منَ الناسِ نِهايةَ دَرَجِها !!

ولو قُدِرَ على جَمْعِ كلِّ تلبيةٍ لَبَّى بها حاجٌّ، مضافاً لما فُتِحَ من المعاني على كلِّ حاجٍّ، لما نَفِدَتْ معانيها... فكم بَلَغَ أحدُنا من معانيها التامات، وكم عَرَجَ في مقاماتِها اللامتناهيات؟!

فيا ربِّ، أَيُّ مَدَى بلغتُ من معانيها إذ أَوْشكتُ الآنَ على بلوغِ نهايةِ المطافِ معها، وخِتامِ ذِكْرِك في هذا الحجِّ بها..؟

يا ربِّ، اجعلْ خِتامَ الذِّكْرِ بها نوراً على نور، فاجعلِ القلبَ إذ يهتِفُ اللسانُ بها في أعلى دَرَجِ الإحسانِ وأَرْفَعِهِ، حتى لكأنه من بينِ المحسنينَ في أرفعِ مقاماتِهم.

يا رب، أَيَلِيقُ بِمَنْ رَفَعْتَهُ بـ(لبيك) من الميقاتِ ولا يزالُ يرتقِي، أن يعودَ الآنَ إلى منزلةِ الابتداءِ؟

يا ربِّ، الفضلُ منك وإليكَ... يا ربِّ لا تتركْني... رَبِّ اغفرْ لي وارحمْني وانصرْني وارفعْني، يا ربِّ اكشفْ لي من أسرارِ التلبيةِ هذه... متِّعْني بِلَذَّاتِها... افتحْ لي من أبوابِها... ارفعْني إلى أعلى وأعلى في مقاماتِها...فكم يا ربِّ فيها من أسرارٍ وأسرارٍ...؟

يا ربِّ، سِرُّ هذه الكلماتِ - وأنت أعلمُ سبحانك - التي لا أُطِيقُ لمعانيها احتمالًا مرةً واحدةً هو المباشرةُ في خِطَابِكَ بـ **(لبيك)**... فكم هي المباشرةُ جليلةٌ، ومَهِيبةٌ معك، حين يباشرُ معناها القلب.

الحمدُ لك يا ربِّ إذ تَفْتَحُ لعبيدِك من نورِها بقدرِ ما يحتملونَ، ولولا أنْ

لَطَفْتَ بهم، وفَتَحْتَ لهم من النورِ أكثرَ - على ضَعْفِهم هذا - لاحترقُوا أو انماعوا، أو صُعقِوا، أو أُغْمِيَ عليهم..

يا ربِّ، سِرُّ هذه الكلمات - وأنت أعلمُ - أنَّ القلبَ إذا سارَ معها رَفَعَتْهُ حتى يَبْلُغَ مَدَاهُ، ثم تَرْفَعُهُ إلى أبعدَ مِنْ مَدَاه كُلَّما كَرَّرَها، فإذا ظنَّ أنه قد بَلَغَ... نَظَرَ، وإذا بآفاقِ كلماتِ اللَّهِ تَتَجَلَّىٰ في كلِّ اتجاهٍ، وتتصاعدُ إلى اللَّهِ... **(لبيك اللَّهم لبيك)**... فإذا عادُوا ثانياً كانَ الأمرُ كما كانَ أَوَّلَ مرةٍ، لكنه لا يَستأنفُ من البدايةِ إنما ينطلقُ من النهايةِ إلى ما بعدَها...

نَعَمْ، إنَّ عبدَك يا ربِّ يَرتفعُ حقيقةً، ويَرتقي إيمانياً وإحساناً... لأنها كلماتُك التي جَعَلْتَهَا مِعْراجاً إليك وأنتَ أنتَ اللَّهُ القائلُ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

يا ربِّ، سِرُّ هذه الكلماتِ - وأنتَ أعلمُ - أنها مُقَسَّمَةٌ على جُمَلٍ، كلُّ جُمْلَةٍ مِعْرَاجٌ في ذاتِه... كلُّ جملةٍ منها تَبْدَأُ بِلَبَّيْكَ... فهو حينَ يعيشُ في كلِّ فقرةٍ من فقراتِها ظانّاً أنها الكمالُ المطلقُ، إذْ به يُثنِّي بالكلمةِ الأخرى بعدَها... فَيَعْرُجُ قلبُه معها إليك، فينتقلُ إلى التي بعدَها وهكذا، فَلَكَأَنَّها في داخلِها معارجُ ومعارجُ، ولكأنها في كمالها وعُلوِّها مِعراجٌ ليس له سماء.

يا ربِّ، سِرُّ هذه الكلماتِ العظيمةِ - وأنت أعلمُ سبحانك - ليس كونُها من الأذكارِ العظيمةِ المطلقةِ على مَدَارِ اليومِ أو العامِ، بل كونُها مربوطةً بهذا الزمانِ والمكانِ، فكم يَبْلُغُ بِعَبْدِكَ التَرْكِيزُ حتى يبلغَ مَبلغَ هذا الاختصاصِ زماناً ومكاناً لهذا الذكرِ العظيمِ.؟!

يا قلبُ تَشَرَّبْ زُلالَ كلماتِها في هذا الموقفِ، إذ البدنُ بالإحرام مُلْتَفٌّ، والجَمْعُ إثرَ الجمعِ من حَوْلِك يَزحفُ، والحناجرُ بها من كلِّ مكانٍ تهتفُ..

سابقِ السابقينَ، واعْلُ المحسنينَ، واستشرفِ الفضلَ من صاحبِه، فلعله يَرَى انكسارَك بينَ المنكسرينَ، ويَرى إقبالَك مع إشفاقِك، ولَوْعَتَكَ مع اشتياقِك، فيرفق بحالِك، ويعطيك ما يعطي الحبيبُ حَبيبَه، ويقولَ: عَبدِي المُحِبُّ، لأعطينَّك ما تريدُ، ولأفتحنَّ لكَ مِنَ منازلِ الإحسانِ ما لم تَحتسبْ، وفوقَ ما تريدُ وتعتقدُ، عبدِي، أجْهَدْتَ نفسَك حَدَّ طاقتِك، وطَلَبْتَ مني ما يَلِيقُ بك، فلأعطينَّك ما يَلِيقُ بي... فاللَّهم عَفْوَكَ ورحمتَك.

* * *

العيون الساقية لـ:«آخر العهد بالتلبية»

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

عن عبدِ اللَّه بنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن الفَضْلِ: «**أن النبيَّ ﷺ لم يَزَلْ يُلَبِّي حتى رَمَى جمرةَ العقبةِ**»(١).

عن سَهلِ بنِ سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبيُّ ﷺ: «**. . .وإنما الأعمالُ بخواتِيمها**»(٢).

* * *

(١) رواه البخاري (١٦٠١)، ومسلم (١٢٨١) واللفظ له.
(٢) رواه البخاري (٦١٢٨).

تَغَيُّرُ طبيعةِ الحَجِّ بابتداءِ التكبيرِ

هنا عندَ رميةِ الحصاة الأُولى للعقبةِ الكبرى تتوقفُ التلبيةُ ويبدأُ التكبيرُ. . . فكم بينَ التلبيةِ والتكبيرِ من فارقٍ. .؟!

فارقُ ما بينَ الاثنينِ كالفارقِ ما بينَ الطرفينِ المتقابلينِ، أو - كما يقالُ - كالفارقِ ما بينَ المشرقِ والمغربِ من بعضِ الوجوهِ، ولكنه من جهةٍ أخرى ترابطٌ كترابطِ الركنينِ المتعاقبينِ في الركعةِ الواحدةِ، فهذه تُسْلِمُكَ لهذه، فلكأنها بدونها لا تكونُ، ولا يُفْهَمُ لها معنىً، أو كأنه البنيانُ يَشُدُّ بعضُه بعضاً. . .!

فماذا بعدَما أَعْلنَ العبدُ استجابتَه، وأعلنَ بيعتَه، وكررَ هذا الإعلانَ في صيغةِ **(لبيك اللَّهم لبيك. . .)؟**

ماذا وراءَ هذا الإعلانِ، وهذا الاستعدادِ وهذه الاستجابةِ، وهذه البيعةِ إلا العملُ بهذه البيعةِ. . .؟

ماذا وراءَ (لبيك اللَّهم لبيك. . .) إلا الانطلاقُ؟ ماذا وراءَها إلا التحدي والانتصارُ. وعنوانُ العمل بالبيعة والانتصار هو: التكبيرُ، وعنوانُه عَملًا هو حَلْقُ الرأسِ كلِّه. . .

ولو أن اللَّهَ - تعالى - لم يَشْرَعِ التكبيرَ بعدَ التلبيةِ، وحَلْقَ الرأسِ بعدَ النهيِ عن مَسِّه، والذبحَ بعدَ النهي عن محرماتِ الصيدِ، لكانَ ذلك داعياً لأيِّ مُعترضٍ أن يتساءلَ:

أو ليستِ التلبيةُ استجابةً؟ إذاً، ماذَا وراء إعلانِ الاستجابةِ؟! ماذا وراءَ البيعةِ؟! أين استثمارها؟

ويظن البعض أنها سلبيةٌ كسلبيةِ الأديانِ الأُخرى المُبَدَّلةِ، أو أنها استجابةٌ ميتةٌ كاستجابةِ المِلَلِ المُحَرَّفةِ الأخرى، لكنْ حينَ شُرِعَ التكبيرُ بعدَ التلبيةِ اكتملَ الأمرُ، وانكشفَ السرُّ، وتَمَّتْ شريعةُ اللَّهِ في الحجِّ صدقاً وعَدْلًا لا مُبَدِّلَ لكلماتِه.

فمن تَأَمَّلَ أفعالَ الحجِّ قبلَ قطعِ التلبيةِ وَجَدَ أنها: نِيَّةٌ، ولباسٌ، ومبيتٌ بمنى، ووقوفٌ بعرفةَ، ومبيتٌ بمزدلفةَ ومنى، وهكذا يسيرُ العبدُ حيثُ يُؤْمَرُ، مُعلناً كاملَ الاستجابةِ للَّهِ ربِّ العالمينَ قولًا وعملًا، ظاهراً وباطناً... وهذه هي العبوديةُ الفعليةُ، حتى إذا جاءَ هؤلاءِ المستجيبونَ المستسلمونَ لأمرِ اللَّهِ، رافعينَ شعارَ التلبيةِ وعَليهم الإحرامُ، ملتزمينَ بمحظوراتِه.. وقد أوشكوا على الابتداءِ برميِ الجمرةِ، قطعوا التلبيةَ، وتَحَوَّلَتِ التلبيةُ - مباشرةً - إلى التكبيرِ، بابتداءِ العَلَمِ الجديدِ وهو الرميُ، وذلك مِنْ أولِ رميةٍ، وَتحوَّلَ وجوبُ كشفِ الرأسِ وعدمِ مَسِّه إلى مَشروعيةِ كَشفِهِ وحلقِه، وتحولَ الكفُّ عن صيدِ البَرِّ للبهائمِ وقطعِ الدوابِّ والشجرِ إلى مشروعيةِ ذَبحِ البهائمِ... حتى يُصبحَ أحبَّ الأعمالِ إلى اللَّه - تعالى - في ذلك اليوم **(العَجُّ والثَّجُّ)** فالعجُّ بالتكبيرِ، والثجُّ بالدماءِ، ويصبحَ هذا اليومُ يومَ العيدِ الأكبرِ...

إنهما حالتانِ للنفسِ الإنسانيةِ، حالةُ القبضِ وحالةُ البسطِ... وقد رَبَّى اللَّهُ عبدَه على كمالِ العبوديةِ في كِلتا الحالتينِ، وجعلَهما على مرحلتينِ، مُرَتَّبَتَيْنِ تَرتيباً منطقياً...

فالحالُ الأولُ: هو العبوديةُ بالاستسلامِ الكاملِ في أثناءِ المناسكِ، والحالُ الثانيُّ هو العبوديةُ الكاملةُ في الإيجابيةِ الكاملةِ للَّهِ ربِّ العالمينَ..

لكنَّ الحالَ الإيجابيَّ... جُعِلَ إثرَ الانتهاءِ من المناسكِ أكثر ليتخرجَ من أعظمِ رِباطِ عبوديةٍ على بُقعةٍ من هذه الأرض في هذه الحياةِ بأعظم ما يكون إيجابية وانطلاقاً فاعلاً.

* * *

كم من تكبير في التكبير؟!

اللَّهُ أكبرُ... اللَّه أكبر... اللَّه أكبر... اللَّه أكبر... اللَّه أكبر... اللَّه أكبر

فلْيُحَلِّقِ القلبُ في سماء المعاني الكبرى، ثم لْيتطلعْ وهو في ذِروةِ تحليقه إلى مَعانٍ أَعلى وأكبرَ.

اللَّهُ أكبرُ[١] مع كلِّ رميةٍ والقلبُ متيقنٌ أنَّ وراءَها كنزاً من المعاني... فعليه أن يستكشفَها ويستخرجَها.

فإياك أيها القلبُ أن يكون حظُّك من الرمي الحجرَ، وإياكِ أيتُها الروحُ أن يكونَ زادُك من هذا الذكر الصَّخَرَ...

اللَّهُ أكبرُ... تَبتدئُ بالكبرى من الجمراتِ، في يومِها الأولِ وحيدةً، ولذلك حِكَمٌ كبرىٰ لا تَخْفَى... فلا أكبرَ من اللَّهِ[٢].

يا ربِّ، أنا أشدُّ ما أكون حِرْصاً اليوم على اتِّباع رسولك ﷺ في كلِّ شيءٍ.. انظر لهذا الشَّاخص الَّذي كُبِّر حجمه وكَبَرَ واتَّسع، فكان فيه سعةٌ للمسلمين، وراحةٌ لهم في عبادتهم، والحمد للَّه ربِّ العالمين.. أَلَا ومع

---

(١) كل فقرة تبتدئ بكلمة «الله أكبر» إنما تعني فكرة جديدة، أو حكمة جديدة، أو فائدة جديدة، أصلها مأخوذ من «الله أكبر» فلينتبه القارئ لها، ولا يظنن أنها مجرد تعبيرات أدبية، فيفوته بظنه ما يفوته..

(٢) ليست حكم التكبير والرجم المذكورة هنا خاصة بالرجم في اليوم الأول بل هي عامة لكل الأيام المتبقية عند الرجم.. فليعاشها القلب واللب متى كبَّر اللسان ورجمت اليد.

هذا فإنَّني أتقصَّد الالتصاق والاقتراب أكثر، بل أتقصد وسط الشَّاخص حيث الموقع الأصليُّ الَّذي رمى عنده رسول اللَّه ﷺ.. هنا أتذكَّر قول النَّبيِّ ﷺ في عرفة وفي مزدلفة: «**وقفت هنا، وعرفة كلُّها موقفٌ**»[١] و«**وقفت هنا ومزدلفة كلُّها موقفٌ**»[٢] نظرت فإذا بها قاعدةٌ عامَّةٌ في الحجِّ كلِّه.. قاعدةٌ قالها رسول اللَّه ﷺ لأهل ذاك الزَّمان وكأنَّه إنَّما قصد بها ما يعقبه من الأزمان المتعاقبة المتزاحمة. فكما أنَّه وقف هنا وعرفة كلُّها موقفٌ، ووقف هنا ومزدلفة كلُّها موقفٌ، فإنَّني شعرت حقيقةً وأنا هنا في هذا القرب مقابل وسط الشَّاخص الَّذي رمى عنده رسول اللَّه ﷺ.. وهذا المكان كلُّه مرجمٌ، وهكذا عند الطَّواف حرصت على الطَّواف في صحن البيت حيث طاف رسول اللَّه ﷺ فتذكَّرت السَّعة الَّتي رحم بها رسول اللَّه ﷺ، فقلت: وكذلك (الحرم كلُّه مسعى).

هكذا التَّيسير والتَّوسعة على وَفْد اللَّه هؤلاء الَّذين حقُّهم التَّوسعة والإكرام لا التَّضييق والتَّشديد.

اللَّهُ أكبرُ، مع كلِّ رميةٍ وكأنَّها وَمْضَةٌ تَنْفَجِرُ في القلبِ، لتُشرِقَ جَنَبَاتُ الصدرِ والعقلِ والروحِ، إذا صَدَحَ بالتَّكبير اللِّسانُ، كما أشرقتْ وَمضةُ البِشارةِ بالفتحِ من صَخرةِ الخندقِ.

اللَّهُ أكبرُ، لحظاتٌ نفسيةٌ لا يشعر بها مَنْ بجوارِكَ تعيشُ في غَمَراتِ بعضِ مَعَاني (اللَّه أكبر) عند إلقاء كلِّ حجر فيَرْتَجُّ لها القلبُ حتَّى يكادَ ينخلعُ لعظمتِها من مكانه...!

---

(١) «صحيح مسلم» بَاب مَا جَاءَ أَنَّ عَرَفَةَ كُلَّهَا مَوْقِفٌ.

(٢) «سنن أبي داود» بَاب صِفَةِ حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.

فاللَّهُ أكبرُ، يستشعِرُها الرَّامي تَنفيساً لحُمَم تَمورُ في صَدرِهِ على مَنْ يُمَثِّلُ عَداءً للَّهِ أو يقودُ معاداةُ اللَّه. . . ولسانُ حالِهِ يقول: ما أنا إلا سَهْمٌ لا أملكُ إلَّا أن أتوجَّهَ حيثُ يُوَجِّهُني اللَّهُ، عابداً للَّهِ على طريقةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ. . . لا أتوقَّفُ حتَّى أَنْفُذَ إلى حيثُ أُمِرْتُ، وتَبْلُغَ عَزمتِي هَدَفَها، هكذا كلَّما أَعَادَ التَّكبير وأَعَادَ. .

اللَّهُ أكبرُ، أقْطعُ التَّلبيةَ فَوْرَ رَفْعِ الحجرِ، وأَبْتدئُ التَّكبيرَ. .!!

سبحانك ربِّي! كيفَ تُبَدِّلُ هذا بهذا في هذا المَوْطنِ في هذه اللَّحظةِ، في هذا العملِ، بهذا التَّجاوُرِ. .؟

سبحانك ربِّي! كيفَ تُصلِحُ القلبَ بـ «التَّلبيةِ» في ذاك المَوْطنِ، وتُصلحُه بـ «التَّكبيرِ» في هذا المَوْطنِ؟

كيفَ ترفعُهُ وتزكِّيه، وتقربُه وتعلِّيه في مختلف المَوَاطنِ، كلٌّ بذكرِهِ مع عمله المشروعِ المخصوصِ به.

فيا ربِّ، ما شرعتَ التَّكبيرَ في هذا الدِّينِ إلَّا لموقفٍ كبيرٍ !

فأيُّ عبادةٍ من العباداتِ أكبرُ من الصَّلاةِ؟

فكانَ التَّكبيرُ أَذاناً وإِيذاناً للصَّلاةِ بدخولِ وقتِها، وكان تحريماً للصَّلاةِ بالدُّخولِ فيها. . .

وكان عند تَقْبيل أعظم حجرٍ على ظَهْر الأرض وأكرمه: الحَجَرِ الأسود أو الإشارة إليه، وكان التَّكبير عند ذَبْح بهيمَةِ الأنعَام ونحْرِها.

وأيُّ خَطَرٍ على أمَّةِ الإسلامِ والمسلمينَ أعظمُ من عَدُوٍّ يهاجمُها أو يهاجمونَه؟!

ولذا جاءَ التَّكبيرُ عندَ القتالِ[١].

وأيُّ شيءٍ أصعبُ على الفتحِ الإسلاميِّ مِنَ الحصُونِ. . . ولذا جاءَ التَّكبيرُ محطِّماً للحصُونِ[٢]. . .

وأَيُّ خَطَرٍ في الموجوداتِ أعظمُ من خَطَرِ النِّيرانِ؟

فكانَ التَّكبيرُ لإطفاءِ النِّيرانِ[٣].

وأَيُّ خَطَرٍ في المخلوقاتِ أعظمُ على الإنسانِ من خطرِ الغِيلان؟

فكان التكبيرُ إذا غَالَتِ الغِيلانُ[٤].

وأيُّ شيءٍ أَشَقُّ على الإنسانِ في مَشْيِهِ على الأرض من صعودِ المرتفعاتِ؟!

فَشُرِعَ التكبيرُ عندَ الصعودِ. . . وهكذا وهكذا.

اللَّهُ أكبرُ، أيُّ حظٍّ للشيطانِ في الرمي إلا الرميُ والرجمُ. . . فَمَهْمَا قيلَ

---

(١) شاهدُ هذا ما ثبت من عمل المسلمين، وما سيكون من تهدم أسوار القسطنطينية بالتكبير كما في حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم (٢٩٢٠).

(٢) انظر ما سبق.

(٣) عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الحريق فكبروا» قال الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية»: هذا مرسل حسن، قال ابن القيم في «زاد المعاد» (٤/ ١٩٤): لهذا كان التكبير لله عز وجل له أثر في إطفاء الحريق، وقد جربنا نحن وغيرنا هذا فوجدناه كذلك، والله أعلم.

(٤) عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «. . وعليكم بالدلجة؛ فإن الأرض تُطْوى بالليل، فإذا تغوَّلَتْ لكم الغيلان فبادروا بالأذان» رواه أبو يعلى (٢٢١٩) قال حسين سليم أسد: رجاله رجال الصحيح، وقال الألباني: ضعيف؛ لأن فيه انقطاعاً بين الحسن البصري وجابر.

مِنْ أنَّ المقصودَ ليس رجمَ الشيطانِ نفسهِ، وأنها عبادةٌ غيرُ معقولةِ المعنى، فإنَّ ذلك القولَ نفسَه غيرُ معقولِ المعنى، ولا مقبولٍ عندَ العقولِ. . . كيف وقد ثَبَتَ رَجْمُ الشيطانِ نفسه حتى ساخ إلى الأرض السابعة في القصة من أساسِها!

وإلا فلو كانَ الأمرُ كما يقولونَ فأيُّ حكمةٍ لهذا الرجمِ، وهذا الرميِ للشاخصِ في هذا الخلاءِ النائي. .؟!

إنها حِكَمٌ بالغةٌ، ومِنْ بلاغتها أنها ترتبطُ بحقيقةٍ تاريخيةٍ كبرى وَقَعَتْ مع العدوِّ الأكبر؟

أليس هو الشيطان ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦]؟ وما سَبَبُ تشريعِ الرجمِ أساساً؟ ولِمَ سَبْعُ رمياتٍ. . .؟ ألم يَثْبُتْ في السُّنةِ رَجْمُ الخليلِ الشيطانَ حينَ اعترضَه في ذبحِ ولدِه إسماعيلَ؟ فمهما قيلَ في إلغاءِ التعليلاتِ، فإنَّ الآثارَ والدلالاتِ لا تحتملُ إلا أن يكونَ المرادُ الأساسُ هنا هو رَجمُ الشيطانِ، فكلُّ عَدُوٍّ للمؤمنينَ فهو مِنْ بَعْدِ الشيطانِ - نعوذُ باللَّه تعالى منه.

أي فرح للشيطان حينما نقول إن هذا الرجم للشيطان رجم مجازي أو اعتباري والشيطان المرجوم ليس هو الشيطان الحقيقي، إنما هو مجرد رجم للشاخص؟!

كيف والنصُّ الصحيحُ الصريحُ عن ابنِ عباسٍ يَصِفُ الرجمَ ويُبَيِّنُ أَنَّ حقيقَتَه هو رَجْمُ الشيطانِ كما في حديثِ: «**الشيطانَ تَرْجُمُونَ، وملةَ أبيكم إبراهيمَ تَتَّبِعُونَ**»[1].

(١) رواه الحاكم (١٧١٣)، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٥٦).

ألا ما أعظم عذاب الشَّيطان في هذه الأيام! وكلُّ جمرةٍ تصيبه حقيقةً من هذه الملايين من الجمرات بأيدي أبناء هذه الأمَّة المباركة.

وما أعظم التَّخفيف عنه - نعوذ باللَّه منه - حين يقال: إنَّ الرَّجم لا يصيبه، إنَّما يُصيب رمز الشَّيطان أو الشَّاخص.

ليس المسلمون هم أصحاب الرُّموز، بل هم أصحاب الحقائق.. وقد ردَّ النَّبيُّ ﷺ خالداً رضي الله عنه حين حطَّم الصنم دون الشيطان... فحين فتح رسول اللَّه - صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم - مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى، فأتاها خالد بن الوليد، وكانت على تلال السمرات. فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها. ثم أتى النبي - صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم - فأخبره. فقال: «**ارجع فإنك لم تصنع شيئاً**». فرجع خالد، فلمَّا نظرت إليه السَّدَنة - وهم حجابها - امتنعوا في الجبل، وهم يقولون: يا عزى خبليه، يا عزى عوريه، وإلَّا فموتي برغم، قال: فأتاها خالد، فإذا امرأةٌ عريانةٌ ناشرةٌ شعرها تحثو التُّراب على رأسها، فعمَّمها بالسَّيف حتَّى قتلها، ثمَّ رجع إلى النَّبيِّ - صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم - فأخبره، قال: «تلك العزى»[1].

أمَّا أصحاب الرُّموز فهم مَنْ عبدوا غير اللَّه، وقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] تعالى اللَّه عمَّا يقولون علوًّا كبيراً، ولا تماثيل ولا صور، إنَّما هو اللَّه الحقُّ المبين..

(١) رواه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٧٩)، قال الوادعي: (حسن)، انظر «صحيح الصحيح المسند» (٥٣٣).

اللَّهُ أكبرُ، إنَّ الشيطانَ - نعوذُ باللَّه منه - الَّذي يَرَانا طوَالَ أعمارِنا هو وقَبِيلُه من حيثُ لا نراه، ها نحنُ اليومَ نرجمُه على وَجْهِ الحقيقةِ، وهو - بالإضافة للرَّجم - يَغْتَاظُ غيظاً لطاعةِ ربِّنا - سبحانه - ومخالفتنا له ولقبيله.

اللَّه أكبر! إذا ما رجم هؤلاء كلَّ جمرةٍ وكبَّروا معها فكأنَّهم يقولون لشدَّة غيظهم: يا ربِّ، أهذا الَّذي أغاظك... أهذا الَّذي ترأس عداوتك وحربك.. لنرجمنَّه كما شرعتَ.. لنرجمنَّه من كلِّ قلوبنا.. لنرجمنَّه إلى الأبد.. فهذا موطن فراقه وفراق كلِّ عملٍ يحبُّه، وإعلان مخالفته إلى لقاء اللَّه، فيا له من موطنِ تجديدٍ للتَّوبة: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

اللَّه أكبر! مهما حاولوا أن يصوِّروا الإسلام أنَّه لا ضرب فيه، ولا شوكة له، ولا قوَّة ولا شدَّة وكأنَّه هو الحَمَل الوديع الذي يُنطح ولا يَنْطح، ويبتسم وهو يُذبح.. يأتي الرَّجم طوال هذه الأيَّام ليغيِّر هذه التُّهمة.. ويعيد للمسلمين هذه الحقيقة العظمى. فرغم ما في هذه المناسك من إيمانيَّات وتعبُّدات إلَّا أنَّك تراها الآن، وكيف تُخْتَم برجم الشَّيطان بالحجارة رجماً.

حقًّا، إنَّه حجرٌ صغيرٌ، لكنَّه بهذا الحشد كبيرٌ، وبهذا المعنى خطيرٌ.. بل ماذا صنعت حَفنةُ التُّراب ليلة الهجرة مع عصابة العدوان على سيِّد الأنام ﷺ؟ وماذا صنعت ترابٌ ملء الكفِّ بوجوه المشركين في أعظم هجرات التَّاريخ كلِّه في بادئ أعظم غزوات الإسلام.

اللَّهُ أكبرُ، ها هي أمةُ محمدٍ ﷺ تجتمعُ مُكَبِّرَةً، راميةً، قائلةً، متقدمةً، عالمةً، عاملةً.

نعم، تتحول أمة محمد ﷺ اليوم إلى أمة رامية.

رامية حتى لو لم يكن المرمي هو السهام والسلاح إلا أنها رامية بما يؤذي عدوها ولا يؤذي إخوانها، رامية ولو كانت قوة أعظم من الرمي لفعلتها.

رامية لعدوها الأكبر، وهي عليه وعلى جنده أقدر.

اللَّهُ أكبرُ، إعلانُ اعتقادِ الأمةِ من هذا المَنسكِ وهو أن: (اللَّهَ أكبرُ).

اللَّهُ أكبر، إعلانُ سبيلِ هذه الأمةِ وهو أَنَّ عبوديةَ هذه الأمةِ الكبيرةِ للَّهِ الواحدِ الأكبرِ.

اللَّهُ أكبرُ، أنَّ ولاءَ هذه الأمةِ للَّهِ الأكبرِ.

اللَّهُ أكبرُ، إعلانٌ مِنَ الأُمَّةِ أنها قد عَرَفَتْ عدوَّها، وَوَحَّدَتْ وِجْهَةَ هُجومِها، وأنها كلَّها مُتَّحدةٌ في زَحفِها نحوَ نُقطةٍ واحدةٍ تُصَوِّبُ إليها رَمْيَها وهجومَها، وتُكبِّرُ اللَّهَ عليها، وهذه أعظمُ خُطوةٍ في تحقيقِ الانتصارِ.

اللَّهُ أكبرُ، فما أشبهَ هذا المنسكَ بالجهادِ في سبيلِ اللَّهِ! في كلماتِه، في زحفِه، في أدائِه... حقاً إنه جهادٌ، وإنه إعدادٌ للجهادِ، كما قال المصطفى ﷺ: «**الحَجُّ جِهَادُ الكبيرِ، والصغيرِ، والضعيفِ، والمرأةِ**»(١).

إذاً فهو الجهادُ في جهةٍ من جِهَاتِهِ، وهو الجهادُ في حَقِّ الضعفاءِ في الأمةِ، فإذا جاهد القادرون على الجهاد، وجاهد الضعفاءُ بهذا النوع من الجهاد فمن بقي في الأمة بغير جهاد؟! وأيُّ وصفٍ يستغرق هذه الأمة إلا وصف الأمة المجاهدة، وهكذا يبقى الحج جِهَادَ الأُمةِ الضعيفةِ إذا تَرَكَتِ الجهادَ، وبذا لن تخلو الأمة من الجهاد مهما غرقت في الذلة.

اللَّهُ أكبرُ، تعلن أن الرميَ وحدَه لن يُصيبَ الهدفَ ما لم يكنْ رمياً للَّهِ

(١) رواه النسائي (٢٦٢٦) وحسنه الألباني.

وباللَّهِ، وما أشبه الاسمَ بالاسم، والفعلَ بالفعلِ، والرميَ بالرمي، واللَّهُ تعالى يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

يا ربِّ، ها أنتَ تَرى ما حَلَّ في قلبي، وأنا أَرفعُ الحَصَى لأقذفَها..

يا رب، جِلْدِي قد اقْشَعَرَّ، شَعْرِي قد وَقَفَ، وجهي قد ذَوى، وذَوى، واصفرَّ... ذلك أنَّ عبدَك في حالِه هذا كأنه يَراكَ - سبحانك - في عليائِك تَرْقُبُه وتَراه!

تَرى خُطاهُ إذ أَقْبَلَتْ إلى هذا المكانِ لأجلِك، تَرى يديهِ قد ضَمَّتِ الحَصَى لأجلِك، وأنك لا تَشْغَلُكَ كلُّ هذه الجموعِ عنه، تَرى يَدَيه إذ ارتفعتْ تَرْجُمُ كما يَرْجُمُ الناسُ لكنك - سبحانك - تَرى قلبَه وما فيه من الإقدامِ للرجمِ لأجلِك، كما تَرى ما في قلبِه مِنْ حياءٍ منك وإشفاقٍ، والقلبُ وهو من بَيْنِ جُموعِ القلوبِ المُلتَفَّةِ كأنه يراك - سبحانك.

يا ربِّ، إني لأرجو أعظمَ الرجاءِ، ممزوجاً بأشدِّ الإشفاقِ، أرفعه إليكَ مع كلِّ حصاةٍ أَقْذِفُها أَنْ يا ربِّ: اقذِفْ ما في صحيفتي مِنْ سيئاتٍ بهذه القَذفةِ، وبهذه القَذفةِ، وبهذِه، وهذه... فما أطهر هذه القَذْفةَ إذا خَفَّفَتِ الحِمْلَ، وطَهَّرَتِ الصحيفةَ، ونَوَّرَتِ الظلامَ...؟

ما أغلاها؟!

ألم يقل النبيُّ ﷺ: «**مَعَ كُلِّ رَميةٍ كَفَّارةُ كبيرةٍ من الكبائرِ**»؟[1].

---

(١) لقوله عليه الصلاة والسلام: «**وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات**» رواه البزار، وقال الألباني: حسن لغيره، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١١١٢).

فإذا حُذِفَتِ الموبقاتُ، بِحَذْفِ الحَصَيَات. . . كان اللَّمَمُ أَحْرَى بالحَذْفِ والغُفْران وإن تَراكَمَ.

وإذا طُهِّرتِ الصحيفةُ من اللَّمم كانَ الباقي خالصاً صافياً، مع المضاعفاتِ للحسناتِ، وفَضْلُ اللَّهِ بعدَ ذلكَ أَعلى وأعظم.

اللَّهُ أكبرُ، إحدى وعِشرونَ تكبيرةً في كلِّ يومٍ بعد اليوم الأول.

اللَّهُ أكبرُ، إحدى وعشرونَ رميةً في كلِّ يومٍ.

فإن زِدْتَ أيُّها الحاجُّ على التعجيلِ إلى التأجيلِ فتلك سبعونَ تكبيرةً مقرونةٌ بمثلِها من الحَصَيات.

اللَّهُ أكبرُ، أَرَاها باللسانِ أَحْرفاً وفي القلبِ تَجتمعُ معانيها، لتنطلقَ مِنْ قَلبي إلى لسانِي كما القذيفةُ من فُوَّهَةِ مَدْفعِها مدويةً بالمعاني العظيمةِ، الكبيرةِ، القويةِ.

اللَّهُ أكبرُ، لو أَنَّ ثَمَّةَ كلمةٍ أكبرُ منها لَهَجَمْتُ بها اليومَ على الشيطانِ، فلتُطْلقِ اليدُ الحجارةَ وليطلِقِ اللسانُ الأحرفَ، وليطلقِ القلبُ التكبيرَ على مَنْ يُفْزِعُهُ الفزعَ الكبيرَ.

اللَّهُ أكبرُ، يَحْضُرُ الآنَ أمامي أئمةُ الكفرِ الأحياءُ المحاربونَ للَّهِ ولرسولِه ﷺ والمؤمنينَ. . . فَيَظْهَرُونَ في غايةِ الحقارةِ أمامَ: **(اللَّهُ أكبرُ)**، وتَحْقِيرُهُم قد استقرَّ في قلبي، وهذا أعظمُ شيءٍ، ذلك أَنَّ تعظيمَهم في الأساسِ كانَ قبلَ اليومِ في القلبِ، فتحول القلب بهذه الرميات فلم يعد فيه إلا اللَّه أكبر.

اللَّهُ أكبرُ، مِنْ فضلِ اللَّه علينَا أنْ جعلَ رجمَنا للشيطانِ نفسِه، ولولَا أنهُ مؤثرٌ فيهِ أبلغَ الأثرِ لمَا شرعَه اللَّهُ بالطريقةِ التي شرعَها رسولُ اللَّه ﷺ.

اللَّه أكبرُ، كمَا حاولَ إبراهيمُ عليه السلام طردَ الشيطانِ بالرجمِ فولَّى هارباً في كلِّ مرةٍ، وزالَ المعوِّق حتَّى انتصرَ في النهايةِ وتمكَّن مِنْ ولدِهِ لينفذَ أمرَ اللَّه بِلا عوائقَ، فإننَا بهذِه الرَّمياتِ إنَّما نرجمُ كلَّ العَوائقِ ونتخطاهَا لننفذَ أمرَ اللَّه أياً كانَ.

* * *

ما أعظمَ الجمعَ بينَ الرميِ والتكبيرِ؟!

اللَّهُ أكبرُ، استجابةً لكَ يا ربِّ أَرجمُ الحجرَ بالحجرِ... لكنْ شَتَّانَ بينَ الحجرِ المصاحبِ للتكبيرِ، والحجرِ المُكَبَّرِ عليه! بينَ الحَجَرِ الضاربِ، والحجر المضروبِ كشاخصٍ!

اللَّهُ أكبرُ، فلقد جَمَعْتَ لنا بأمرِك وفضلِك يا ربِّ ما بينَ الاستسلامِ والاتباعِ في هذا العملِ، فأنا مستسلمٌ للَّه تعالى، مُتَّبعٌ للرسولِ ﷺ بالرميِ نفسِه...

مُستسلمٌ متبعٌ بالرمي بعدَه...

مستسلمٌ متبعٌ بهذا الترتيبِ...

مستسلمٌ متبعٌ بحجمِ الحَجَرِ...

مستسلمٌ متبعٌ بالتوقيتِ، بالمكانِ، بالجهةِ، بالكيفيةِ، بكلِّ شيءٍ... وإنك تَعلمُ يا ربِّ أني مُتَشرِّفٌ بذلك، حَيِيٌّ من فضلِك عليَّ بهدايتِك لي من بينِ جموعِ المهتدينَ هؤلاءِ.

مستسلم متبع عند الجمع بين الرمي والتكبير.

نعم، مُستسلمٌ متبعٌ، فهذا شرطُ القَبولِ قد تَوَافَرَ على أَتَمِّ وَجْهٍ وأَظْهَرِه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] فاللَّهم تقبل...

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

اللَّهُ أكبرُ، فلو كانَ أَمْرُ الرجم أَمْرَ قُوَّةٍ بَدنيةٍ، أو نقمةٍ حماسيةٍ، لمَا كانَ الحَجَرُ بهذا الحَجْم، ما بينَ الحُمَّصَةِ والبُندقةِ، بل إنَّ مخالفة العَقْلِ والشَّرعِ بتكبيرِ الحجارةِ أكثرَ، مثلَما تكونُ بتصغيرِها أكثرَ، ولا يتحققُ الاتباعُ على أتمِّ وَجْهٍ إلا بهذا الحَجمِ..

اللَّهُ أكبرُ، لو كانَ الحجرُ كبيراً لأعجزَ الضعيفَ بحجمه وأعداده، وربما يكونُ إيمانُه أقوى، ولو كانَ الحجرُ صغيراً رُبَّما ضاعَ بِيَدِ القويِّ، وربُّما كانَ إيمانُه أضعفَ، وفي الحالتينِ إما أن لا يتحقَّقَ الضَّربُ، أو لا يتحقَّقُ معناه؛ فَتَوَحَّدَ الحَجَرُ بِيَدِ الجميعِ وتَوَسَّطَ.

اللَّه أكبر! فإنَّ الأمَّة الَّتي تهجمُ فترجمُ بهذا التَّدقيق والتَّحقيق أبعدُ ما تكونُ عن الاستثارةِ، وأعظمُ ما تكونُ انضباطاً واتِّباعاً.

فكم يَصْرع الشَّيطانُ - نعوذ باللَّه منه - أُناساً باسْتَثَارتِهِم في موطن غضبٍ، أو بردَّة فِعْلهم العاجلةِ، فيجرُّ عليهم وعلى الأُمَّة ما يجرُّ، فرغم عِظَمِ خطر الشَّيطان الَّذي لا أخطر منه شيءٌ - نعوذ باللَّه منه -، ورغم أنَّه موطن رَجْمه.. إلَّا أنَّ الفعل منضبطٌ بسُنَّة الهادي المصطفى ﷺ.. لا يتْبع هوىً، ولا يطيش بِردَّةِ فِعْلٍ، أو غَضْبة عَجُولٍ، وهو بغير شكٍّ أعظمُ ما يكون إيلاماً للشَّيطان - نعوذ باللَّه منه.

فلا سُباب، ولا شتائمَ للشَّيطان، ولا ضربَ بنعلٍ، ولا نحوه، ولا كلماتٍ ما أنزل اللَّه بها من سلطانٍ.. فإنَّ كلَّ هذه الصُّور إنَّما هي من الشَّيطان.. يُوقعهم فيها بالجهل فهو لا يتركهم حتى في موطن رجمه!

فكيف بمَنْ يمزح مع صَحْبه ليضحكهم، والصَّحبُ يتضاحكون حين يطلق

عباراتِ الاعتذارِ للشَّيطان وطلب المسامحة منه، أو عباراتِ الصَّداقةِ القديمةِ معه..!

ويا لخوفي على هؤلاء أن يعودوا بغير إسلامٍ إذ يعود الحجاج كيومِ ولدتهم أمَّهاتُهُم.

يا لخوفي عليهم من قول اللَّه تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

اللَّهُ أكبرُ، فَبَعْدَ يومِ العيدِ.. بعدَ الرَّميةِ الصُّغرى والوُسطى دونَ الكُبرى دعاءٌ طويلٌ كَسُورَةِ البقرةِ، وكأنَّه يقولُ للكبرى: لقد عَمِلْنَا مَعَكِ بالسُّنةِ، فقد بَدَأْنا بالأكبرِ في يومِ العيدِ الأكبرِ...

اللَّهُ أكبرُ، الرَّميُ يأتِي في اليومِ الأوَّلِ وليس بعده دعاءٌ، إنَّما هو الانصراف لإكمال الأهمِّ، ألا إنَّه طوافُ الإفاضةِ والذَّبحُ أو النَّحرُ..

فلا مجال للتَّوقُّف وقد بقيت هذه المَهمَّات، وبقي إلقاء التَّفث، وربُّ العالمين يقول: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

وهذه علامةُ التَّوحيدِ مُعْتَقَداً، والإقبالِ على اللَّه وحدَه عَمَلًا... وأَنَّ الأمرَ لا علاقةَ له بالحجارةِ وعبادةِ الحجارةِ، إنما هو تشريعُ اللَّهِ الواحدِ الأحدِ، ولم تُشَرِّعْهُ الأهواءُ البشريةُ..

فهأنذا يا ربِّ أنصرفُ بعدَ رميِ الحجارةِ (ضاربةً ومضروبةً) في يومها الثَّاني مُوَلِّياً إيَّاها ظَهري إلى جهةٍ من جهاتِها، متجهاً إلى القبلةِ... قبلةِ

الصلاةِ ببدني، مُتَّجِهاً إليك يا ربي بقلبي، لأُعلنَ مع جموعِ المُسلمينَ أَنَّ الرجمَ بل الحجارةُ لا علاقةَ له بتعظيمِ الحجارةِ، بل الحجارةُ الراجمةُ والمرجومةُ سَوَاءٌ، إنما التعظيمُ للَّهِ الذي نتوجَّهُ إليه وحدَه بالدعاءِ هنا.

يا ربِّ، أيُّ تهيئةٍ إيمانيةٍ حَدَثَتْ للعبدِ حتى وَقَفَ يدعو اللَّهَ دعاءً طويلًا كَسُورَةِ البقرةِ، ناسياً نَفْسَه، صارعاً أهواءَه، ذاهلًا عن الجموعِ مِنْ حَوْلِهِ، غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بما أصابَه مِنْ تَعَبِ الأيامِ بإرهاقِ الأبدانِ، مُعْرِضاً عَنْ طَلَبِ النفسِ الإسراعِ في الخَلاصِ والعودةِ إلى الحياةِ إلى مجالسِ مِنى، إذ العيدُ يَنْتَظِرُ، مِنْ أكلٍ وشربٍ وجمعٍ وجماعٍ..

يا ربِّ، ما أعظم أمر اتِّباع نبيِّك ﷺ وإلَّا لو كان الدُّعاء باجتهاد المرء لما توقَّف عند الجمرات أصلًا، ولو أنَّه كان توقَّف لرأى العقل التَّوقُّف عند ختام الرَّجم أي بعد الجمرة الكبرى.. لكنَّه ﷺ ما توقَّف إلَّا في اليوم الثَّاني والثَّالث والرَّابع عند الجمرتين الصُّغرى والوسطى..

ويا لها من عقيدةٍ ترسخ في كلِّ موقفٍ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

فأيَّام العيد تنتظر..

إنَّه موطنٌ من مواطن إجابة الدُّعاء.. وإلَّا فَلِمَ دلَّ رسول اللَّه ﷺ أُمَّته عليه؟ لِمَ توقَّف هنا توقُّفاً كسورة البقرة؟

كيف تستعجل أيُّها العبد في هذا الموطن وقد فتح اللَّه لك من الأبواب ما لا تعلمه.. اجهد واجتهد.. وادع دعاء المضطرِّ الَّذي يوشك أن يرحل عن هذا الموطن..

ادع ولا تستعجل، فحقُّ هذا الموقف لو قيل لك: ارحل... أسرع! أن تطلب الفرصة وتطلب التَّجديد.. وتتوسَّل، فما بالك تستعجل بالخلاص عمَّا حقُّه أن تطلب المزيد من الوقت والفرصة، ألست أنت صاحب المصلحة فكيف تستعجل؟

يا ربِّ، ها هو عبدُك - وقد انفردَ جانباً - يُشْهِدُكَ الآنَ وأنت سبحانَك في عليائِك تَشْهَدُهُ، يَدعوكَ، ويَرجوكَ، ويَخافُك، ويَطلبُكَ، ويتذللُ لكَ، ويتوسلُ بك إليك، فيا ربِّ أَجِبْ، يا رَبِّ أَجِبْ.

يا ربِّ، عَبْدُكَ غابَ عن نَفْسِهِ بك، لَمَّا تَجَلَّتْ له منزلةُ الإحسانِ، وكأنه يَشْهَدُكَ وأنتَ تَراه - واقفاً مستقبل القبلة بجانبِ الجَمَرَاتِ - وقد فَتَحْتَ عليه ما لم يَعْرِفْهُ قبلَ اللحظةِ مِنَ الثناءِ والدعاءِ، وأَنَّى له أَنْ يُطِيلَ بغيرِ فَتْحِكَ وحُبِّكَ وتَقْريبِك...؟!

يا ربِّ، هذه اليدُ التي تَوَجَّهَتْ للرَّجْمِ بالرمي قاذفةً الآنَ تَتَوَجَّهُ إليك بالدعاءِ راغبةً وراهبةً فاشهدْها، وارحمْها، وَحرِّمها على النارِ، ولا تَرُدَّها صِفْراً...

يا ربِّ، هذا القلبُ الذي تَوَجَّهَ نحوَ الشاخصِ المرجوم يَطْلُبُ قَذْفَهُ مِنْ حِجارةٍ بِيَدِهِ، وَيَدُهُ نَفَّذَتْ ما أَمَرَ به مَلِكُ الأعضاءِ (القلبُ)، الآنَ القلبُ واليدانِ وجنودُ القلبِ جميعاً مُتَوَجِّهونَ إليكَ، والقلبُ يُشْهِدُكَ إذ يُفيضُ بِتَلْقِينِ اللسانِ بِغَيْثٍ مِنَ الدُّعاء يَرْفَعُهُ إليكَ وَحْدَكَ... يا ربِّ سِلِّمْ هذا القلبَ ولا تُخْزِ صَاحِبَهُ يَوْمَ يُبْعَثُونَ.

* * *

«العيون الساقية للثلاثة الماضية»

عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رَفَعَهُ إلى النبيِّ ﷺ قال: «**لَمَّا أتى إبراهيمُ خليلُ اللَّهِ - صلواتُ اللَّه عليه وسلامُه - المناسكَ، عَرَضَ له الشيطانُ عند جَمرةِ العقبةِ، فرماه بسبعِ حَصياتٍ حتى سَاخَ في الأرضِ، ثم عَرَضَ له عندَ الجمرةِ الثانيةِ فرماه بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، حتى سَاخَ في الأرضِ، ثم عَرَضَ له عند الجمرةِ الثالثةِ فرماه بسبعِ حصياتٍ حتى ساخَ في الأرضِ، قال ابنُ عباسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الشيطانَ تَرجمُونَ، ومِلَّةَ أَبِيكم إبراهيمَ تَتَّبِعُونَ..»[(١)].

وعنه قالَ: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**إذا رَمَيْتَ الجِمَارَ كانَ لكَ نُوراً يومَ القيامةِ**»[(٢)].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرفوعاً: «**جهادُ الكبيرِ، والصغيرِ، والضعيفِ، والمرأةِ، الحَجُّ والعُمْرَةُ**»[(٣)].

عن الحُسَيْنِ بنِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: جاءَ رَجُلٌ إلى رسولِ اللَّه ﷺ فقال: إني جَبَانٌ وإني ضَعيفٌ، فقال له الرسول ﷺ: «**هَلُمَّ إلى جِهَادٍ لا شَوْكَةَ فيه: الحجُّ**»[(٤)].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٧١٣) وصححه الألباني انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٥٦).

(٢) رواه البزار، وحسن إسناده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥١٥).

(٣) رواه النسائي (٢٦٢٦) وحسنه الألباني.

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٩١٠)، وصححه الألباني، «صحيح الترغيب والترهيب» (١٠٩٨).

كم في قضاء التَّفَثِ[١] من راحة؟!

هذه شهادةُ المشاعرِ النفسيةِ، تَطفحُ على وجوهِ مَنْ قَضَى تَفَثَهُ، شهادةٌ تُفْصِحُ عنها الألسنةُ حينَما تسائلُها عن مشاعرِها بعدَما قَضَتْ مشاعرَها بقضاءِ تفثِها، إنها الراحةُ والفرحُ والبِشْرُ.

إي واللَّه، فكم في قضاءِ التفثِ من راحةٍ...؟ أليس هو عنوانُ التمامِ...؟

وهل مِنْ راحةٍ لعاملٍ مثلُ راحتِه إذا تَمَّ عَمَلُه، أو قَضَى دَيْنَه..؟!

إنه عنوانُ عودةِ الحياةِ كمَا كانتْ أَوَّلَ مرةٍ...

إنه الأصلُ في عودةِ المباحاتِ بعدَما كانتْ محظوراتٍ، فهو المفتاحُ الذي به فُتِحَ ما أُقْفِلَ على الحاجِّ طَوالَ إحرامِه...

يا ربِّ، إنك تَعلمُ أيَّ راحةٍ عندَ قضاءِ التفثِ تَسْرِي انشراحاً في الصدورِ، وتَطفحُ نضرةً على الوجوهِ، وتَجري شكراً على الألسنة، لك وحدَك لا شريكَ لك..

راحةٌ واللَّهِ وأَيَّ راحةٍ؟! فهو شارةُ الوصولِ إلى شاطئِ المطلوبِ، والوصولُ إلى الشاطئِ لا يكونُ إلا بعدَ عبورٍ، وتجاوزٍ، فبقدرِ ما تُحِبُّ الروحُ العملَ بقدرِ ما تَفرحُ بتمامِهِ، بل تمامُه هو أسعدُ لحظاتِه ولحظاتِها في

---

(١) التفث: هو ما يفعله المُحْرم بالحج إذا حَلَّ، كقَصّ الشارب والأظفار ونَتْف الإبط وحلْق العانة. وقيل: هو إذْهاب الشَّعَث والدَّرَن والوسَخ مُطْلقاً «النهاية في غريب الأثر» (١/ ٥١٣).

هذه الدنيا، وهكذا كانت ذروة السعادةِ عندَ قضاءِ التفثِ..

راحةٌ، فبقدرِ ما يخافُ المرءُ على ذهابِ الجهدِ كلِّه في لحظةِ انقطاعٍ أو بطلانٍ أو موتٍ... بقدرِ ما يَشتدُّ الخوفُ إذا تعاظمَ البناءُ وعلا، واقتربَ مِنَ التمامِ ودنا، فإذا زالتِ المخاطرُ وأُعْلِنَ التمامُ فقد بُشِّرَ بسلامةِ العملِ، فكان إلقاءُ التَّفثِ أعظمَ بشارةٍ...

وهل مِنْ حاجٍّ لم تُحدِّثْه نفسُه بالموتِ في حجِّه، في سفرِه، في زحمةِ الحجيجِ.. مع ما يَتَنَامَىٰ إلى سمعِهِ كلَّ عامٍ بموتِ حُجَّاجٍ[1]، مِنْ وَقْتِ ذاك الذي وَقَصَتْه ناقتُه بينَ يدي النبيِّ ﷺ إلى يومِنا هذا، إلى يومِ القيامة..؟

إنَّها طوارقُ تَطْرُقُ الأسماعَ، وتراها الأعينُ، وتلذعُ القلوبَ، فتزداد المخاوفُ... ليعظمَ بعدَ ذلك الفرحُ بالسَّلامةِ عندَ إلقاءِ التَّفثِ، فلكأنَّ إلقاءَ التَّفثِ جَمَعَ باقةً من البشائرِ الكُبرى..!

هنا أُلجِمَ قلبي[2] بالحياءِ من ربِّي، إذ تَمَّمَ لي هذه النِّعمةَ على غيرِ استحقاقٍ منِّي.

هنا تخلَّلَني شعورٌ بالعجزِ المطلقِ عن الشُّكرِ لك يا ربِّ..

فهل أشكرُك بعبادةٍ أخرَى جديدةٍ على هذه العبادةِ وأنت صاحبُ الأولى والآخرةِ..؟!

فإن اخترتَني لعبادةٍ جديدةٍ فهو فَضلٌ منك عليَّ جديدٌ، فكيف أشكرُ..؟!

يا ربِّ، هذا آخرُ العَهْد بلباسِ الإحرَامِ الَّذي صَاحَبنا طُوالَ هذه الرِّحلة..

---

(١) منها ما يصح، وأكثرها لا يصح.

(٢) المقصود: كل حاج وليس المؤلف نفسه.

لبسْنَاه أبيضَ ناصِعاً ولم يعد كذلك الآن.

هكذا لبسَهُ رسولُ اللَّه ﷺ، وهكذا بقيَ عليه إحرَامُهُ حتَّى نهاية حجِّه، أليس هو ﷺ الَّذي قال عندما سُئل: مَا الْحَاجُّ؟ قَالَ: «**الشَّعِثُ التَّفِلُ**» قَالَ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا أَفْضَلُ الْحَجِّ؟ قَالَ: «**الْعَجُّ وَالثَّجُّ**»[1] لقد استوى بهذا اللِّباس الجميعُ، وزالَ من النُّفوس الكِبْرُ، وعمَّ الجميعَ التَّواضعُ، إذ مَن مِن هؤلاء كانَ يرضَى أن يلبسَ هذا اللِّباس في بلدِهِ بهذه الأوسَاخ، لكنَّه اليوْمَ ذروةُ الزِّينة، وقمَّةُ الجَمالِ؛ لأنَّه عنوانُ التَّقرُّب إلى اللَّه - سُبحانَه -. فاجعل ذلك يا ربِّ علامةً على إلقَاءِ ذنُوبِنا كلِّها وعَودَة صَحَائفنا أطْهَرَ ممَّا كانتْ.

يا ربِّ، كيف أشكرُ..؟!

فتتَّابعُ العباداتُ ويتَّابَعُ الشُّكرُ، ثم تتَّابع العبادات ويتَّابع الشُّكر، ثم تَتَّابعُ النِّعمُ ويتَّابعُ الشُّكرُ... والعبادةُ وشكرُها، والنِّعمةُ وشكرُها منك وحدَك لا شريك لك، حتَّى إذا انتهتِ النِّعمُ وذهبتِ الحياةُ بَقِيَ الشَّكُورُ - سبحانه - الذي انتهىٰ إليه كلُّ شيءٍ، وكلُّ نعمةٍ وكلُّ شكرٍ..

هذا ما أدركَه أصحابُ النِّعمةِ الكبرى... أصحاب الجنَّةِ الكبرى.. حينَ رأوا فضلَ اللَّهِ، فَذَكَرُوا أَنَّ شُكْرَ اللَّهِ أعظمُ مِنْ شُكْرِهم، فخاطبوه باسمِه - سبحانه - الغفور الشكور، فقالوا: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤ - ٣٥].

فما أطيبها من حياة في الأولى...! وما أنعمها من حياة في الآخرة!

* * *

(١) رواه ابن ماجه (٢٨٩٦)، وضعفه الألباني في سنن ابن ماجه، وقال في صحيح الترغيب والترهيب (١١٣١): حسن لغيره.

العيون الساقية
لـ: «كم في قضاء التفث من راحة»

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ﴾ [المائدة: ٣].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

عن فَضَالةَ بن عُبَيْدٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**مَنْ شَابَ شَيْبَةً في الإسلام كانتْ له نُوراً يومَ القيامةِ**» فقال له رجلٌ عندَ ذلك: فإنَّ رجالًا ينتفونَ الشَّيْبَ، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ شاءَ فَلْيَنْتِفْ نُورَه**»(١).

* * *

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٧٨٣)، وحسنه الألباني، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٠٩٢).

ساحة الكرم البَشَري الكبرى[١]

هذه مِنى، وما أَدراكَ ما مِنى؟!

اللَّهم لك الحمدُ أَنْ جَمَعْتَني وهذه الجموعَ التي أَراها في مِنى، متحدثةً، متجالسةً، متذاكرةً، متآنسةً... ينقطعُ البصرُ ولا تَنْقَطِعُ..!

يا ربِّ لك الحمدُ أَنْ جَمَعْتَني مَعَ أَطْهَرِ جُمُوعٍ في هذه اللحظةِ على الأرضِ... إنهم المُتَخَفِّفُونَ من الذنوبِ، بل هم المتطهرونَ منها، الذينَ أَلْقَوْها في عرفاتٍ، وجاؤوا لِيَسْتَقِرُّوا في مِنى، في ثلاثِ ليالٍ متتابعاتٍ....

إنهم أصحابُ أَطْهَرِ صحائفَ في الدنيا على وَجهِ الإجمالِ في تلكَ اللحظاتِ.

إنهم رُكُبِ الناجينَ من النار، إذ قد أَدْرَكَتِ الرحمةُ هؤلاءِ المستريحين على أرض مِنى، فأُعْتِقُوا مِنَ النار - بفضل اللَّه - حينَ كانوا في عرفةَ..

يا لهذه الأيَّام! ما أعظم شهادتها على شموليَّة هذا الدِّين! وشهادتها على واقعيَّته! وشهادتها على معنى العبادة الَّذي يسع الحياة كلَّها!

إنها منازل ليس فيها إلَّا الدُّعاء والذِّكر في كل هذه الأيَّام الَّتي تبتدئ بالعيد.. ويالعيد ما أعظم مكانه ومكانته هذه الأيَّام.. بل إنَّ رسول اللَّه ﷺ في هذه الأيَّام قد تزوج بميمونة رضي الله عنها وأرضاها.

فهل بقي بعد هذا الزَّواج شيءٌ من المحرَّمات على المحرم لم يحلَّ له قبل

(١) المقصود بها يوم العيد الأكبر وأيام التشريق الثلاثة.

أن يغادر المناسك؟ إنَّه يعود للحياة كاملةً بكلِّ تفاصيلها، وهو على أرض المناسك.. فلا فصل بين دينٍ ودنيا.. بين عبادةٍ وحياةٍ.. إنَّما الحياة كلُّها للَّه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

يا حسرةً على أيام مِنى حينَ يُضَيِّعُها الناسُ بِفهْمٍ مُعْوَجٍّ، إذ استقرَّ عندَ كثيرٍ من الحجاجِ أن الحجَّ انتهى، وأن الدنيا أقبلتْ... فَيَهْجمونَ عليها هُجومَ المطلَقِ مِنْ حَبْسِهِ إلى أهلِه، مُتَّكِئِينَ في انطلاقِهم على قولِ النبيِّ ﷺ: «**أيامُ مِنى أيامُ أَكْلٍ وشُرْبٍ**»(١)...

إنَّ جلسةَ الوافدِ في مِنى أشبهَ ما تكونُ بجَلسةِ المحاربِ بعدَ انتصارِه، وأكلِهِ من غَنيمتِه بعدَ ظفره بها، وفَرْحَتِهِ بالنصر بعدَ إلقائِه تَفَثَهُ، إلا أنَّ شَبَهَها بأيامِ المُرابِطِ في مواجهةِ العدوِّ، المترقبِ المتوثبِ المستعدِّ... أكبرُ وأَشْبَهُ..

حَقًّا إنها (**أيامُ أكلٍ وشُربٍ**) لكنها أيامُ (**ذِكْرِ اللَّهِ**)(٢).. كذلك...

حَقًّا إنها أيامُ أكلٍ وشُربٍ، ولكنها: ليست أيام تُخَمَةٍ وأوساخٍ وأمراضٍ.

حقًّا إنها أيامُ أكلٍ وشربٍ... ولكن بالمعنى الإسلاميِّ للأكلِ والشربِ لا بالمعنى الشيطانيِّ، فهي أكلٌ وشربٌ، ودعوةٌ على الأكلِ والشربِ والتضييفِ، فَمِنَى هي أكبرُ بقعةٍ للكرمِ الإنسانيِّ مِنْ بَيْنِ بِقَاعِ الأرضِ جميعاً...

---

(١) جزء من حديث، رواه مسلم (١١٤٢)، كتاب: الصيام، باب: تحريم صوم أيام التشريق، من حديث كعب بن مالك عن أبيه.

(٢) لقوله عليه الصلاة والسلام: «أيام التشريق أيام طعم وذكر اللَّه»، رواه أحمد (٢/ ٢٢٩) من حديث أبي هريرة، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

فَمَا مِنْ شيءٍ أحبُّ إلى اللَّهِ تعالى مِنْ دَم يُهْرَاقُ في مثلِ هذه الأيام، وهل يُهْرَاقُ إلا للإطعامِ صدقةً، أو إهداءً، أوَ ضيافةً..؟! ففيها تَتَوَجَّهُ قلوبُ المسلمينَ للمسلمينَ بعضهم لبعضٍ أنْ هَلُمُّوا فلنجلسْ، فَجَلْسَةُ الغداءِ أو العشَاءِ أو الإفطارِ لها طابَعُها وصفاؤُها، إذ النفوسُ قد طابتْ مِنَ الشوائبِ، وتَخَلَّصَتْ مِنَ الأدرانِ، وتَوَجَّهَتْ هِمَّتُها نحوَ القَبولِ، ومِنْ أسبابِ القَبولِ تقديمُ جِنْسِهِ مِنَ العملِ، فَكَرَمُ اللَّهِ يُشْكَرُ بإكرامِ أوليائِه، ومِنْ أسبابِ القَبولِ إقبالُ الأخِ على أخيهِ... إقبالُ الوجهِ والقلبِ والقولِ والمائدةِ.. وتَفَرُّغُ الأخِ لأخيه بعدَ فراغِه من حَجِّه.. وما كانَ هذا التفرغُ موجوداً فيمَا قبلَها مِنَ المناسِك.

مِنى هي الأيامُ العالميةُ الكبرى الثلاثةُ... وهى أيامُ الأمةِ الثلاثةُ، إذ ينتقلُ فيها الحديثُ مِنْ حديثِ الرَّكْبِ الخاصِّ إلى حديثِ الأُمةِ العامِّ، ويتحولُ فيها المرءُ مِنْ حاملِ همِّ نفسِه إلى حاملِ هَمِّ أُمتِه، ومِنْ فردٍ كانَ ينتظرُ أنْ ينظرَ الناسُ إلى مَشَاكِلِه، إلى مُحسنٍ أصبحتْ كلُّ مَشَاكِلِ المسلمينَ مَشَاكِلَه.

مِنى التي لا تكاد تُبقِي أَحداً في الأُمةِ إلا استطاعَ التضييفَ: فالفقيرُ يُضَيَّفُ، والغنيُّ يُضيفُ؛ لأنَّ اللحمَ - لأولِ مرةٍ - أصبحَ مُشاعاً مِنَ المُشاعاتِ... هذا وهو أَغلى المطعوماتِ عندَ العربِ، فهل رَأَى الناسُ اللحمَ يُشَاعُ إلا في مِنى..؟

كأنَّ منى تَقولُ لي: اليومُ يومُ السلام على مَنْ تَعْرِفُ، وعلى مَنْ لا تَعْرِفُ بأَعلَى صُوَرِ السلامِ، وأَتَمِّ ما يكونُ السلامُ، وأوسعُ ما يكونُ على المسلمينَ... بل منى تَقولُ لي: إنْ كنتَ مُضَيِّفاً - من قبل - مَنْ تَعْرِفُ، فاليومَ ضَيِّفْ مَنْ تَعْرِفُ ومَنْ لا تَعْرِفُ... حقاً إنها مِنى التَّعارُفِ والتضايُفِ،

مِنى السلامِ والإطعامِ مِنْ مُستَوَى مَنزلةِ الإحسانِ.

سبحان اللَّه! أيُّ حكمةٍ ربَّانيَّةٍ أن جعل اللَّه - سُبحانَه - إقامةَ النَّاسِ في الأيَّام الثَّلاثَةِ في «**منى**» ولم يجعَلْها في عرفة..

أليس هؤلاء أحقَّ بالإكرَام.. وهل من مكان إكرام ومضاعفةٍ للأجْرِ في الصَّلوات مثل الحَرَم.. أليست منى من الحَرَم..؟ فليهنكم هذا الأجْرُ أيُّها الرَّابضون على هذه البقْعَة الَّتي هي جزءٌ من الحَرَم..

فلتكن صَلَواتُكم على أحسَنِ وجهٍ.. إعداداً وسبقاً وخشُوعاً وخِتَاماً بالأذكَار.. ذلك أنَّ المضاعَفَة للصَّلوات تبعٌ للصَّلاة الأولى.

وكما أنَّ منى نعمةٌ عظيمةٌ للإقامَةِ فيها.. فاضبطُوا في هذا المَقَام أنفسَكُم مِنَ الهَوَاجِس، وألسنَتَكُم من التَّطاول والجِدَالِ، وتصرفاتِكُم من الكِبْر والخُيَلاء والعُدْوان والآثام، ذلك أنَّ اللَّه يقول عن هذا الحَرَم: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

إنَّها أيَّام ضَبْطٍ للنَّفس قبل العَوْدة إلى سائر الأيَّام، فيا لها من تربيةٍ وتدريبٍ.. لو فقهناها.

بل إنَّ المسلِمَ لا ينتظرُ أن يكونَ سَالماً من الآثَام فحسْبُ في هذه الأيَّام، بل سَابقاً إلى الطَّاعات.. مشروعاً متحرِّكاً بين الخِيَام قبل أن يغادِرَها أهلُها راحِلِينَ إلى أهلِيهم..

إنَّها واللَّه أيَّامٌ قليلةٌ للحرَكَةِ بين هذه الجُمُوع الكثيرةِ.. أصحَابِ الحاجيَّات الشَّرعيَّة العدِيدَةِ.

قليلةٌ على صاحب الهمَّة العالية الَّذي يطمعُ أَنْ تحمِلَ رسالَتَهُ الجُمُوعُ إلى

مختلَفِ بِقَاعِ الأرضِ.

لقد كان النَّبيُّ ﷺ يطوف بين الخِيَام مستغلًّا أيَّام الحجِّ في الجاهليَّة.. فكيف لا نستغلُّها في أمَّة الإسلام العَطْشى للعلْمِ والموعِظَة.

ثَمَّةَ أسرارٌ في ترتيبِ هذه المناسكِ كالأسرارِ في تَرتيبِ رَكَعَاتِ الصَّلاةِ، وأركَانِها، ونحوِ ذلك...

فَلِمَ كانت مِنى التَّشريقِ بعدَ الأركانِ الأُخرى؟

لو كانت هذه الأيام في مِنَى قبلَ عَرَفَةَ لكان تعريفُ النَّاسِ بالنَّاسِ مُقَدَّماً على تَعريفِ النَّاسِ باللَّهِ تعالى، وهل مَنْ لَمْ يَعْرِفْ رَبَّه يَعْرِفُ نَفْسَه؟ فضلًا أن يَعْرِفُ أَخاه وصَحْبَه؟

هذا أَوَّلًا، أَمَّا ثانياً: فإنَّ التَّأسيسَ إنَّما يكونُ بالإيمانِ، وهو إنَّما يكونُ بمعرفةِ اللَّهِ لا بمعرفةِ النَّاسِ... وكأنَّ الإنسانَ بعدَما امتلأَ إيماناً قَوِيَتْ نِيَّتُهُ وخَلص مَقْصِدُه، وسَلِمَ قلبُه، وتحددت وِجْهَتُه، فأصبحَ بعدَها مُهَيَّأً لأنْ يعملَ أَيَّ عَمَلٍ منَ الأعمالِ الاجتماعيةِ أو غيرِها، ويَسيرُ عَمَلُه الثَّاني على نِيَّةِ العملِ الأوَّلِ وَوفْقَ مَنْهَجِيَّتِهِ، فكانَ العَمَلُ الثَّاني تابعاً والأولُ متبوعاً.

ولو انعكستِ المسألةُ فجاءتْ مِنى والذَّبحُ والتعارفُ وما إلى ذلك قبلَ عرفةَ والطَّوافِ وغيرِ ذلك، لكانَ الأساسُ هو النَّاسُ، والعبادةُ تَبَعٌ، وربَّما تَحَوَّلَت النِّيةُ إلى مَرضاةِ الناسِ لا مرضاةِ اللَّهِ تعالى..!

ليالي مِنى ليالي فيها المَبيتُ وفيها الرباطُ، ولم يَثْبُتْ أنَّ النبيَّ ﷺ - فيما أعلمُ - قامَ ليلَها، إذ لا ضرورةَ لقيامِ ليلِها، واللَّهُ أعلمُ، فَيَكْفِيها مِنَ الأجرِ كلُّ ما فيها مِنَ العباداتِ، يَكفيها أَنَّ فيها مَبِيتاً، ومَبِيتُ هَؤلاءِ أياً كان فهو

المطلوبُ، سَواءٌ كانَ فيه قِيامٌ أم لم يكنْ..!

قُمْ واقعُدْ، تَحَدَّثْ واسكتْ، تَنَفَّسْ واشخرْ، كُلْ واشربْ، اذهبْ للخَلاءِ والفَضَاءِ، افعَلْ ما تَفْعَلُ مِمَّا لم يُحرمْه اللَّهُ تعالى... ما دُمْتَ في مِنى وعلى ساحتِها فأنت عابدٌ كيفما تكونُ، وحيثُما تكونُ فيها، وما فَعَلْتَ بَعْدَ ذلكَ مِنَ العباداتِ والأذكارِ وقراءةِ القرآنِ فهو لك خالصٌ مِنْ غيرِ نُقصانٍ.

كم يحب اللُّه لعباده البقاء أطول فترة هنا فيرغِّبهم وَيُرغِّبهمْ، وَكثيرٌ مِنهُمْ يغفلُ عَنْ هذَا التَّرغيبِ الرَّبانيِّ.

فأولُ التَّرغيبِ أنْ يعرضَ عَليهمْ منزلةً عُليَا تتحقَّقُ لمجرَّدِ التَّأخيرِ، فيقولُ سُبحانهُ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣] أَلَا يكفِي أنْ يعرضَ اللَّهُ البقاءَ والرحيلَ ويُشيرُ إلَى أنَّ مَنْ رحلَ فقدَ تعجَّل ويُسمِّيه مُتعجِّلًا، فيقولُ سُبحانُه: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾؟

أَلَا يكفِي أنَّ مَنْ يبقَى فقدِ اختارَ مَا اخْتارهُ رسولُ اللَّه ﷺ مِنَ التأخُّرِ؟

أَلَا يكفِي أنَّ مَنِ اخْتَارَ البقاءَ فقدِ اختارَ ضِيافةَ اللَّه - سبحانهُ - كمَا قالَ البقاعيُّ فِي «تَفْسيرِه» «﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ قَالَ: وهِيَ أيَّامُ إِقامتِكُمْ بمِنَى فِي ضِيافةِ الله - سُبحانهُ - لفعلِ بقيَّةِ مَا عليكُمْ مِنْ تتمَّاتِ العباداتِ الحجِّيةِ.

أوَّلها: يوم القرِّ، وهو الحادي عشر ليستقرَّ النَّاس فيه بمنى، **ثانيها:** يوم النَّفر الأوَّل، **ثالثها:** يوم النَّفر الأعظم، والثلاثة تُسمَّى أيام التشريق، وهي أربعة مع يوم العيد تُسمَّى أيام النحر، ولما فهم من هذا أنَّه لابدَّ من الإقامة

بها في مدَّة الثَّلاثة الأيَّام نفى ذلك مُيَسِّراً؛ لأنَّ الحجَّ يجمع القويَّ والضَّعيف والخادم والمخدُوم، والضَّعيفُ في هذا الدِّين أميرٌ على القويِّ، فقال مشيراً إلى أن الإنسان في ذلك الجمع الأعظم له نازعان: نازعٌ ينزع إلى الإقامة في تلك الأماكن المرضيَّة والجماعات المغفورة، ونازعٌ ينزعه إلى أهلِهِ وأوطانِهِ وعشائِرِه وإخوانِهِ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ منكم النَّفر للرُّجوع إلى أوطانه ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ منها ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ والعجلة: فِعْلُ الشيء قبل وقته الأليق به.

ولمَّا كان ذلك ربَّما أفهم أن المتأخِّر يلحقه إثمٌ كما كان أهل الجاهليَّة يقولون، وكان الصَّحابة - رضي الله تعالى عنهم - قوماً يسابِقُون إلى المعالي، وكان - سبحانه وتعالى - يريد الرفق بأهل هذا الدين فستر التصريحَ بالترغيب في التأخر، فعبر عنه أيضاً بنفي الإثم كالأول بعد أن أشار إلى الترغيب فيه بالتعبير عن النفر الأول بالتعجل، فقال: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ أي فأقام في منى إلى تمام الثلاثة فرمى اليوم الثالث ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[1].

ألَا يكفِي أنْ يخبرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ كلَّ رميةٍ كفَّر كبيرةً منَ الكبائرِ، وأنَّ فِي اليومِ الأخيرِ رميَ إحْدى وعشرينَ رميةً زائدةً علَى مَنْ تعجلَ... فهلْ زيادة تكفيرَ إحْدى وعشرين كبيرةً شيءٌ قليلٌ؟!

أمَّا قولُه فِي التأخيرِ: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ فَهِيَ كمَا قالَ الطاهرُ بنُ عاشورٍ: «أي: لمن اتقى الله في تأخره فلم يرفث ولم يفسق في أيام مِنَى، وإلا فالتأخرُ فيها لمن لم يتق إثمٌ»[2].

---

(١) «نظم الدرر» (٢/ ١٦٢ - ١٦٥).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٤٨).

﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٠٣] فالتَّقدُّم والتَّأخُّر بدون التَّقوى عند اللَّه سواءٌ.. فلا يغترنَّ أحدٌ بتأخُّره وصورة عمله، أو مدَّة مكثه، أو طول قيامه، أو صيام نهاره، أو كثرة حَجِّه وعمرته.. فإنَّ العبرة بالتَّقوى مع العمل، اللَّهمَّ إلَّا إذا استوى النَّاس، بـ(التَّقوى) كان مزيد العمل مُرجِّحاً.

وقد قال - سُبحانَه - لمن جاءوا للحجِّ متوكِّلين من أهل اليمن غير متزوِّدين: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال: ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]».

سبحان اللَّه! كأنَّ جميع هؤلاء الحجيج مُتَّقين إلَّا أنَّ الأفضل من المتَّقين هم المتأخِّرون. وهذا هو الأصل في المتأخِّرين.

إنَّها أيَّام التَّقوى الثَّلاث.. أيَّام استلال العبر لرحلةٍ هي أعظم ما يشهده البشر على هذه الأرض.. أيَّام شهود المنافع.. أيَّام الإنفاق والصَّدقات.

أيَّام ذكر الأهل والإعداد للعودة.. أيَّام جبران ما مرَّ من نقصانٍ، لذا لا يجد المرء مثل الاستغفار في الختام، فهو الدَّواء المعتاد لكلِّ العالمين في ختام أعمالهم.

ألم يقل اللَّه - سُبحانَه -: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٩٩] وأمر النَّبيُّ ﷺ في ختام أكبر الفتوحات وآخر الحياة بالاستغفار والتَّوبة، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:٣].

وقد كان النَّبيُّ ﷺ يستغفر اللَّه في ختام الصَّلوات، ويستغفر في ختام المجالس.

ويا لاستغفارٍ في هذا الموطن ما أعظمه.. ما أعمق خروجه من القلب.. كيف لا وهو يرى عبادته.. دعواته.. مناسكه الَّتي أدَّاها ويرى تقصيره.. فيخاف من نقصٍ ونقصٍ وكسرٍ، فكلُّ استغفارٍ بإشفاقٍ.. وكلُّ استغفارٍ بحرقةٍ وأملٍ.

مِنى تَقولُ: (الجنةُ الموعدُ) فَتَلاقِي الرَّكْبِ بالرَّكْبِ، والمسلم بالمسلم، في مِنى تَلاقٍ علىٰ غيرِ مَوْعدٍ، هذه صفتُه العامةُ.. رِجالٌ ما عَرَفْتَهم قبلُ، ما رأيتَهم قَطُّ، تُبَاسِطُهُم ويُبَاسِطُونَك.. تَفْرشُ لهم رُوحَكَ ويَفْرشونَ لك أَرواحَهم، تَتَمنَّى لو أَنَّ الصدْرَ انفتحَ وانفسح فَوَضَعْتَهم فيه وأغلقتَ عليهم...! لكنَّ اللقاءَ يَنتهِي، والفراقُ يَحِينُ، والوداعُ يَحِقُّ، والظنُّ كُلُّ الظنِّ أنه اللقاءُ الأولُ والأخيرُ، فلا يَسَعُكَ حينَها إلا أن تُخْرجَ ما يَدورُ في ثَنايا قلبِك، وتَبْرُق به عَيناك، وتَرنُو بَعْدَه بعيداً... فتقولُ مُؤَمِّلًا مُتفائلًا: (الجنةُ الموعدُ)!

يا ربِّ، أعطيتُ صاحبي موعداً وليسَ لي في تحقيقِه مِنْ ضَمَانٍ إلا الاتكالُ الكاملُ عليك وحُسْنُ الظنِّ بك، فأنا ما أعطيتُ موعداً إلا بِنَاءً على مَوْعِدِكَ للمؤمنينَ بالجنةِ، وأنت يا ربِّ لا تُخْلِفُ الميعادَ فَتَكَفَّلْ لي بموعدِي...

يا ربِّ، ذَكِّرْني بهذا اللقاءِ، يومَ اللقاءِ - في هذا المكانِ مَع هذا الأخِ..

يا ربِّ، ما لَقِيتُ أَخي هذا - الآنَ - إلا بفضلِك، ولن أُلاقِيَهُ في الجنةِ إلا برحمتِك، فأنا ما بَيْنَ رحمتِك وفضلِك، فهل يُحْرَمُ مَنْ تَرَدَّدَ حالُه ومصيرُه

إلى واحدةٍ مِنْ هاتينِ النعمتينِ، أو استقرَّ مَرْكَبُهُ على أحدِ هذينِ الشاطِئَينِ: شاطئِ الفضلِ، وشاطئِ الرحمةِ..؟ وأَمَلِي يا ربِّ بك أنْ تَجمعَ لي الفَضِيلتَينِ، وتَزيدَني مِنْ فضلِك العظيمِ، يا أرحمَ الراحمينَ...

* * *

العيون الساقية لـ:
«ساحة الكرم البَشَري الكبرى»[١]

عن جابرِ بنِ عبدِ اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «**طعامُ الواحدِ يكفِي الاثنينِ، وطعامُ الاثنينِ يكفِي الأربعةَ، وطعامُ الأربعةِ يكفي الثمانيةَ**»[٢].

عن وحشيِّ بن حرب بن وحشيِّ بن حرب عن أبيه عن جدِّه وحشيٍّ قال: قالوا: يا رسول اللَّه، إنَّا نأكل ولا نشبع؟ قال: «**تجتمعون على طعامكم أو تتفرَّقون؟**» قالوا: نتفرَّق، قال: «**اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم اللَّه يبارك لكم**»[٣].

عن عبدِ اللَّهِ بن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إذا دَعا أحدُكم أَخاه فَلْيُجِبْ؛ عُرْساً كانَ أو نحوَه**»[٤].

عنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إذَا دُعِيتُم إلى كُرَاعٍ فَأَجِيبُوا**»[٥].

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثمَّ جَلَسَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَشْرٌ**» ثمَّ جَاءَ آخَرُ، فَقَالَ: السَّلَامُ

---

(١) مَنْ تصور ساحة مِنَى وما فيها من رجال ونساء ومظاهر واقعية فَهِم المقصود من كل حديث ورد في هذه العيون.

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٥٢٢٤).

(٣) رواه مسلم (٢٠٥٩).

(٤) رواه مسلم (١٤٢٩).

(٥) رواه أبو داود (٥١٩٧) وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: صحيح.

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّه. فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: «**عِشْرُونَ**» ثمَّ جَاءَ آخَرُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّه وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ، فَقَالَ: «**ثَلَاثُونَ**»(١).

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ عن يومِ الحجِّ الأكبرِ؟ فقال: «**يَوْمُ النحرِ**»(٢).

عن عبدِ اللَّهِ بنِ قُرْطٍ رضي الله عنه قال: قالَ ﷺ: «**أعظمُ الأيامِ عندَ اللَّه يومُ النحرِ، ثم يومُ القَرِّ**»(٣)(٤).

عن مُصعبِ بنِ سعدٍ عن أبيهِ رضي الله عنه: أنه ظن أنَّ له فضلًا على مَنْ دُونَه(٥) مِنْ أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ فقال النبيُّ ﷺ: «**إنما يَنْصُرُ اللَّهُ هذه الأمَّةَ بِضَعِيفِها، بِدَعْوَتِهِم وصَلاتِهِم وإخلاصِهِم**»(٦)(٧).

عن عُبادةَ بنِ الصامتِ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**ليس مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كبيرَنَا، ويَرْحمْ صغيرَنا، ويعرفْ لعالِمِنَا حقَّه**»(٨).

عن أَبي مُوسى الأَشعري رضي الله عنه، أنه سَمِعَ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**مَلعونٌ مَنْ سَأَلَ بوجهِ اللَّهِ، ومَلعونٌ من سُئِل بِوَجْهِ اللَّهِ ثُمَّ مَنَعَ سائلَه، ما لم يَسألْ**

---

(١) رواه مسلم (١٤٢٩).
(٢) رواه الترمذي (٩٥٧)، وصححه الألباني.
(٣) قال أبو بكر بن خزيمة: يوم القر يعني يوم الثاني من يوم النحر.
(٤) رواه ابن خزيمة (٢٨٦٦)، قال الأعظمي: إسناده صحيح.
(٥) أي في المغنم.
(٦) ما من موطن يُرَى فيه الناس الضعاف المتعففون أكثر من هذا الموطن.. فوجب أخذ سبب النصر من مِنَى لحياة الأمة..
(٧) رواه النسائي (٣١٧٨)، وصححه الألباني.
(٨) رواه أحمد (٥/ ٣٢٣) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤٤٣).

هُجْراً»[١][٢].

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**كَمْ مِنْ جارٍ مُتَعَلِّقٍ بِجَارِهِ يقولُ: يا ربِّ، سَلْ هذا: لِمَ أَغْلَقَ عَنِّي بَابَه وَمَنَعَنِي فَضْلَه**»[٣][٤].

عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «**ما مِنْ عَبْدٍ أَتى أَخَاهُ يَزُورُهُ في اللَّهِ إلا نَادَاه (مُنَادٍ) مِنَ السماءِ: أَنْ طِبْتَ وطَابَتْ لك الجنةُ، وإلَّا قالَ اللَّهُ في مَلَكوتِ عَرْشِهِ: عَبْدِي زَارَ فيَّ، وعَلَيَّ قِرَاهُ، فَلَمْ يَرْضَ (اللَّهُ) له بِثَوَابٍ دُونَ الجَنةِ**»[٥].

عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**ما مِنْ عَبْدٍ أَنْعَمَ اللَّهُ عليهِ نِعْمَةً فَأَسْبَغَهَا عليه، ثُمَّ جَعَلَ شيئاً مِنْ حَوَائِجِ الناسِ إليهِ فَتَبَرَّمَ، فَقَدْ عَرَّضَ تلك النعمةَ لِلزَّوَالِ**»[٦].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**مَنْ رَأَى مُبْتَلىً فقال: الحمدُ للَّهِ الذي عافاني مِمَّا ابتلاكَ به، وفَضَّلَني عَلَى كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا**» لم

---

(١) ما أكثر من يسأل بوجه الله هنا، وما أكثر ما يُرَد السائلون لكثرة المتحايلين، أفترى من جاء للرحمة يعود باللعنة، عياذاً بالله، فاقتضى التنبيه، واقتضى ذكر هذا الحديث هنا.

(٢) رواه الطبراني في الدعاء (١/ ٥٨١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٨٩٠).

(٣) أحق من يُتَفَقد: جارك في السكن؛ سواءً كان في الغرفة أو في المبنى أو في الخيمة، وكل مَنْ يَصْدق عليه لفظ الجار فمنى قابلة لأن تجعل من هذه الجموع أسرة واحدة وحيًّا من أحياء المسلمين لو طبق الناس هذه السنة العظيمة وإنها لتربية عملية للحياة القادمة بعد الحج.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٣٤٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٤٦).

(٥) رواه البزار، وأبو يعلى (٤١٤٠)، وقال الألباني: حسن صحيح، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٧٩).

(٦) رواه الطبراني في «الأوسط» (٧٥٢٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦١٨).

يُصِبْهُ ذلك البلاءُ[١][٢].

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه أَنَّه جاءَ في رَكْبٍ عَشَرَةٍ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ، فَبَايَعَ تِسْعَةً وأَمْسَكَ عن بَيْعَةِ رَجُلٍ منهم، فقالوا: ما شَأْنُ هذا الرجلِ لا تُبَايِعُهُ؟! فقال: «**إنَّ في عَضُدِهِ تَمِيمَةً**» فَقَطَعَ الرجُلُ التميمةَ، فَبَايَعَه رسولُ اللَّهِ ﷺ ثم قالَ: «**مَنْ عَلَّقَ فقد أَشْرَكَ**»[٣].

عن يَعيشَ بنِ طخفة بنِ قيسٍ الغِفارِيِّ قال: كان أَبِي من أصحابِ الصُّفَّةِ.. قال: فبينَما أنا مُضطجعٌ في المسجدِ مِنَ السَّحَرِ على بَطْني إذْ رَجُلٌ يُحَرِّكُني بِرِجْلِهِ، فقال: «**إنَّ هذه ضِجْعَةٌ يُبْغِضُها اللَّهُ**» قال: فنَظَرْتُ، فإذَا رسولُ اللَّهِ ﷺ[٤].

عن بريدةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدشِيرِ، فكأنما صَبَغَ يَدَهُ في لَحْمِ خِنزيرٍ ودَمِهِ**»[٥][٦].

---

(١) ما أكثر ما يرى الناس في مِنَى من أهل البلاء، فيمر المار عليهم دون ذكر الدعاء، والإحساس بنعمة الله عليه، إذ يألف الناس هذا المنظر..

(٢) رواه الترمذي (٣٤٣٢)، وصححه الألباني.

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٥١٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤٥٥).

(٤) رواه أبو داود (٥٠٤٠)، وضعفه الألباني في «سنن أبي داود»، وقال في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠٨٠): حسن لغيره.

(٥) ذكر هذا الحديث إشارة إلى تساهل الناس في إنكار منكرات أَلِفَ الناس رؤيتها في مِنَى.. النرد: بفتح النون وسكون الراء: لعب معروف، ويسمى الكعاب. والنردشير، قال النووي: هو النرد، فالنرد عجمي معرب، وشير معناه حلو.
ومما اعتاده بعض المترفين على الأخص في مِنَى: التشاغل بألعاب الورق وغيرها من ألعاب التسالي التي تشغل صاحبها عن غايته وهو في ختام وفادته..

(٦) رواه مسلم (٢٢٦٠).

اتبعه كأنـك تـراه ﷺ

ليست العِبرةُ بِمَنْ يَظْهَرُ مِنَ الأشخاصِ والشخصياتِ الجديدةِ والمتجددةِ في كلِّ عامٍ في المناسكِ أو في غيرِها، سواءٌ كان إظهارُه في الصحافةِ، أو على الشاشاتِ أو نحوِ ذلك من الواجهات.. فإنَّ كلَّ تلكَ الشخصياتِ - كما يَرَى الناسُ - تَظْهَرُ مَوسماً أو مواسمَ ثم تَختفِي، تعلُو ثم تُغْمَرُ، تُرفَعُ ثم تُحطُّ، تَذْكُرُ وتُذْكَرُ ثم تُنسى إلى الأبدِ كأنْ لم تَحْيَ بالأمسِ، طالَ الزمانُ أو قَصُرَ... ليُبْقِيَ اللَّهُ عَزَّ وجل الشخصيةَ الوحيدةَ البارزةَ، الباقيةَ، الواضحةَ، الظاهرةَ، لا ينافسها في علوها منافس.. عالية في سويداءِ قَلْبِ كُلِّ حاجٍّ وبينَ عينيهِ، مَهْمَا بَعُدَ أو قَرُبَ، كَبُرَ أو صَغُرَ، اخْتَلَفَتْ طِباعُه ولغتُه: إنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

إنك تَتَطَلَّعُ في وُجوهِ هذه الأفواجِ العظيمةِ، الهادرةِ كالأمواجِ، تَطُوفُ عليك، وتَدْفَعُكَ مِنْ هُنا وهناك... فَتَرى أَنَّ كلَّ واحدٍ منهم قد جَعَلَ بينَ عينيهِ رسولَ اللَّهِ ﷺ..

إذْ إنه الشخصُ الذي جَعَلَهُ كُلُّ شَخْصٍ مِنْ هؤلاءِ: رَجُلًا كان أم امرأةً: أَمَامَه، وإِمَامَه... وهو يَسيرُ وراءَه في مَسيرهِ أَنَّى تَوَجَّه، فهو الوحيدُ الذي لا يناقَشُ فيه أو يُجَادَلُ..

كيفَ لا، والسؤالُ الأكبرُ والأبقَى بينَ عينيْ كلِّ حاجٍّ يَقْدُمُ على أيِّ مَنْسَكٍ هو: ماذا صَنَعَ رسولُ اللَّهِ ﷺ هُنا؟!

أينَ وَقَفَ رسولُ اللَّهِ ﷺ؟ ومنْ أيِّ الجهاتِ دَخَلَ هذا المنسكَ، ومن أينَ خَرَجَ؟!

أينَ قامَ وأينَ قَعَدَ؟!

أكان هُنا راكباً أم جالساً؟

كيف صَلَّىٰ هنا؟ هل خَطَبَ؟ وماذا قال في خطبتِهِ؟ وماذا قَرَأَ في صلاتِهِ؟

هل أَسْرَعَ على ناقتِهِ هُنَا أم أَبْطَأَ؟ أنام أم استيقظَ؟

ماذا صَنَعَتْ ناقَتُهُ؟ مَنْ كانَ معه مِنْ أصحابِهِ؟ مَنْ كان رَدِيفُهُ؟ كيف تَوَقَّفَ، ولماذا؟ أينَ بَالَ، وأينَ تَوَضَّأَ، وأينَ صَلَّىٰ؟ وأينَ دَعَا؟ وماذا قَال؟ وكم أَطَال؟ أسئلة وأسئلة كلها عن رسول اللَّه ﷺ.

وهكذا تَتَجَلَّىٰ صورةُ رسولِ اللَّهِ ﷺ أمامَ هذه الجُموعِ، وإنْ كان قد غَابَ رَسْمُهَا فهي - واللَّهِ - أَظْهَرُ في القلوبِ وُضوحاً مِنْ صُوَرِ عُظَمَاءِ الأحياءِ في كلِّ مواسمِ الحجِّ في الدنيا إلى أَنْ تَقومَ الساعةُ... إنها تَتَجَلَّىٰ في كلِّ موطنٍ، في كلِّ عملٍ، عندَ كلِّ اتفاقٍ واختلافٍ...

إنه رسولُ اللَّهِ ﷺ الذي قالَ اللَّهُ له - وصَدَقَ ما قال اللَّهُ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] فَأَيُّ رِفْعَةٍ لذكرِهِ ﷺ على جُموعٍ في هذه الدنيا أكبرُ مِنْ هذه الجموعِ؟ وأكثرُ تَكراراً، وأكثرُ وُضوحاً وبُروزاً في هذه الأيامِ؟!

إنه ميزانٌ تتنافسُ فيه القلوبُ قُرْباً من رسولِ اللَّهِ ﷺ، أو بعداً عنه عياذًا بالله؟

فأناسٌ يَبْعُدُونَ عنه حتى لا يطلبون إلا مُجردَ الحكمِ التكليفيِّ النظريِّ بأقسامهِ الخمسةِ، وكَفَى...!

وآخرونَ يَحُجُّونَ كأنهم يَرَونَ رسولَ اللَّهِ ﷺ في كلِّ مَنْسَكٍ، وكلِّ موطنٍ، وكلِّ قولٍ، وكلِّ عملٍ...

إذ إنَّ هُفُوَّ قلوبِهم إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ لا يتوقفُ أبداً... وحُضورَ

رسولِ اللَّهِ ﷺ بينَ أعينِهم لا يكاد يغيبُ أبداً، وخَفَقَانَ أرواحِهم في كلِّ موطنٍ نحوَ رسولِ اللَّه ﷺ لا ينقطعُ أبداً.

ليس هذا اتحاداً وحلولًا - معاذَ اللَّهِ مِنْ ذلك - بل هو الإحسانُ في الاقتداءِ.

وَاشَوْقَاه، فَهُنَا المَوَاطِنُ التي يَهِيجُ فيه الاشتياقُ لرسولِ اللَّهِ ﷺ، ويكاد يَنْخَلِعُ القلبُ إليه...

فَمَنْ لم تُذَكِّرْهُ كلُّ هذه المناسكِ بِمَنْ سَنَّها اليومَ.. فَمَتَى يَشتاقُ إليه، وأينَ يَتَّبِعُهُ كأنه يَراه؟

لقد عَلَّمَنا النبيُّ ﷺ تَفعيلَ حَاسَّةِ التَّصَوُّرِ لِدَرجةِ التصويرِ، وحاسَّةِ التصويرِ لدرجةِ النظرِ للشخوصِ الماضيةِ حَيَّةً، مُتحركةً قائلةً قادمة، قافلة، ساعيةً، فاعلةً... فكيف لا نَتَصَوَّرُهُ والوصفُ الذي يَصِفُه به أصحابُه ﷺ - في حَجِّهِ خاصةً - وَصْفاً دقيقاً، وتفصيليًّا مِنْ أَوَّلِ خروجِه من الحجِّ حتى رجوعِهِ..

هنا ساحةُ سِبَاقِ القلوبِ نحوَ تحقيقِ أعلى درجاتِ الإحسانِ في الفهمِ والعملِ وفق «لا إله إلا اللَّهُ، محمدٌ رسولُ اللَّه ﷺ»، وَكَفى.

فماذا يَمْلِكُ الوافدُ وهو يَرَى رسولَ اللَّهِ ﷺ يَنْزِلُ يَبُولُ فَيَتَوَضَّأُ... إلا أَنْ يَعْزِمَ على أَنْ لا يتركَ الوضوء بعدَ الحدثِ أبداً.. لِيَرَاه اللَّهُ - سبحانه - طاهراً، ظاهِراً وباطناً أبداً.. فَلَعَلَّه يَلْقَاهُ وهو كذلك، وهكذا يستخلص الأعمال اتباعاً وإحساناً.

هذا شأنُه في اقتناصِ العهودِ مَعَ اللَّهِ مِنْ وِفادتِهِ هذه إلى بقية حياتِهِ، إلى مماتِهِ، حتى يَلْقَاه سبحانه...

العيون الساقية لـ:
«اتبعه كأنـك تـراه ﷺ»

قال اللَّه تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

عن أبي بُرْدَةَ رضي الله عنه قال: «**دَخَلْتُ على عائشةَ رضي الله عنها فَأَخْرَجَتْ إلينا إزاراً غَليظاً مِمَّا يُصْنَعُ باليمنِ، وَكِسَاءً مِنَ التي يُسَمُّونَهَا المُلَبَّدَةَ**»[(١)]، قال: «**فَأَقْسَمَتْ باللَّهِ إنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قُبِضَ في هَذينِ الثَّوبَيْنِ**»[(٢)].

عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: **انْطَلَقْنَا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ** من مكةَ إلى المدينةِ، فلمَّا أَتَيْنَا على وادِي الأزرقِ قال: «أَيُّ وَادٍ هذا؟» قالُوا: وادي الأزرقِ، قال: «كَأَنَّما أَنظرُ إلى موسى يَنْعَتُ مِنْ طُولِهِ وشَعْرِهِ ولَوْنِه واضعاً أَصْبُعَيْهِ في أُذُنَيْهِ، له جُؤَارٌ إلى اللَّهِ بالتلبيةِ مارّاً بهذا الوادِي»، ثم نَفَذْنَا الوادِيَ حتى أَتَيْنَا ثَنِيَّةَ هَرْشَى، قال: (أيُّ ثَنِيَّةٍ هذه؟)، فقلنا: ثَنِيَّةُ هرشى، قال: «كأنما أَنْظُرُ إلى يُونُسَ على ناقةٍ حمراءَ، خِطَامُ الناقةِ خُلْبَةٌ، عليه جُبَّةٌ له مِنْ صُوفٍ يُهِلُّ نَهَاراً بهذه الثنية ملبياً»[(٣)].

* * *

(١) الملبد: المرقع، وقيل غير ذلك.
(٢) رواه البخاري (٢٩٤١)، مسلم (٢٠٨٠) واللفظ له.
(٣) رواه ابن حبان (٣٨٠١)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

آياتٌ في هذا الزمان!

بعدَما انجفَلَ الناسُ عن مواقعِ المناسكِ بيومٍ واحدٍ فقطْ، عُدْتُ إليها مُسْتَنْطِقاً المَشَاعِرَ عَنْ أحوالِها التي كانتْ عليها، وَوَحْشَتِهَا التي آلَتْ إليها..!

سبحانَ اللَّهِ ! أينَ الناسُ، أينَ خيامُهم، أين آثارُهم، أين زِحَامُهُم، أين صَوْلَتُهُم وحركتُهم وأصواتُهم وأنفاسُهم...؟

أَتَحْسبُ أخي القارئُ أَنَّ الحُزْنَ المذكورَ هنا تَمثيلٌ، أو مجرد تَصويرٍ بصياغةٍ أدبيةٍ مُؤَثِّرَةٍ..؟!

ألم تكنْ هذهِ المواطنُ تَعُجُّ بذكرِ اللَّهِ تعالى..؟!

أليستْ هي الشاهدةُ يومَ القيامةِ لِمَنْ أسمعها ذِكْرَ اللَّهِ..؟!

فأيُّ بُقعةٍ على الأرضِ شَهِدَتْ ما شَهِدَتْهُ أَرْضُ المناسكِ مِنَ الذِّكْرِ..؟!

وأَيُّ أرضٍ على الأرضِ وُطِئَتْ بأقدامِ الصالحينَ، في فترةٍ قصيرةٍ من الزمنِ كما وُطِئَتْ هذه الأرضُ..؟!

ألم يَقُلْ رَبُّ العالمينَ سبحانه: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢]، ويقولُ سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤].

لقد ذَهَبَ كلُّ شيءٍ مِنْ هنا... ولم يَبْقَ شَيءٌ أبداً، اللَّهمَّ إلا ما تَرَكُوهُ مِنْ ذِكْرَيَاتٍ.

أَيُّ آيةٍ تَتَجَدَّدُ في هذا الزمانِ مثلُ هذه الآيةِ؟

إنها آيةٌ(١) على أنَّ اللَّه على جَمْعِهم إذا يَشاءُ قَديرٌ. . . . جَمَعَهُم - سبحانَه - في الموعدِ، وصَرَفَهُم في الموعدِ، وعلى هذا يَتَكَرَّرُ الأمرُ كلَّ عامٍ، كلمَّا جاءَ الموعدُ. . . وهكذا هو - سبحانه - سَيَجْمَعُهُم لليومِ الموعودِ في الوقتِ المحدودِ الذي كَتَبَ، ويَصْرِفُهُم مِنْ أرضِ المَحشرِ وعَرَصَاتِهِ في الوقتِ الذي كَتَبَ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

فَلْيَحْفَظِ الناسُ هذا المشهدَ العظيمَ اليومَ، ولْيَتَأَمَّلُوهُ، ولْيَتَشَرَّبُوه، فإنهم سَوفَ يَرونَه مَرَّةً أُخرى، ولكنْ بِصُورةٍ ليسَ مِثْلَها صُورَةٌ، وعَدَدٍ مِنَ المخلوقاتِ ليس مِثلَه عَدَدٌ، وساحةٍ ليس مثلَها ساحةٌ. . . ورَبٍّ قد غَضِبَ ذلك اليومِ غضباً لم يَغْضَبْ مثلَه قبلَه ولا بعدَه أبداً ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]!

فَمَنْ ذَهَبَ إلى الحجِّ فإنه يعيشُ فصولَ الآخرةِ بِنَفْسِهِ جيداً، حينَ يعيشُ بِنَفْسِهِ فُصُولَ المناسكِ؛ اجتماعاً وتَنَقُّلًا وتَفَرُّقاً. . . . ومَنْ لم يَذْهَبْ فإنه سوفَ يحتاجُ لِمَشْهَدِ هذا اليومِ المشهودِ لذلك اليومِ الموعودِ. . ويا وَيْلَ مَنْ رَأَى هذا المشهدَ العظيمَ في الدنيا ثم هو لم يُؤْمِنْ بذلك اليومِ العظيمِ!

أَيُّ آيةٍ هذه التي تَتَجَدَّدُ في كلِّ عامٍ؟

آيةٌ على دعوةِ إبراهيمَ عليه السلام. . . بل آيةٌ على عَظَمَةِ اللَّهِ السميعِ

(١) كلما وردت هنا كلمة «**أي آية**» أو «**إنها آية**» أو نحوها بخط بارز فاعلم أنها فائدة جديدة وحكمة جديدة.

المُجيبِ. . . دعا إبراهيمُ في صحراءَ قاحلةٍ دعوةً. . !

دَعَا وليسَ مِنْ مُكَبِّرَاتِ صَوْتٍ، أَوْ إِعْلامٍ يُسجل وينشر أو يبث كما هو الشأنُ اليومَ. . . دَعَا مِنْ دُونِ تَأمينِ الجُمُوعِ الحاضرةِ على دعائِهِ، فإذا الجُموعُ تَستَجِيبُ بِأَمْرِ ربِّها - سبحانَه وتعالى. . . ليسَ لِسَنَةٍ واحدةٍ تَسْتَجِيبُ، ثم تَضْعُفُ الدعوةُ وتَضْعُفُ حتى تَموتَ - كما هو المعتادُ - ولا لِعَهْدِ إبراهيمَ وحدَه حتى يَرَاهُم بِعَيْنَيْهِ، ولا لِقَرْنٍ. . . إنما تستجيبُ البشريةُ، ويزدادُ تَجَاوُبُها كلمَّا قَدِمَت تلك الدعوة، وهكذا يزداد أعددُ المستجيبين إلى أنْ تقومَ الساعةُ.

تَستجيبُ هذه الجموعُ العاقلةُ المختارة المريدةُ التي هي الذروةُ في المخلوقاتِ مِنْ حَيْثُ التَّحكُّمُ في إِرادَتِها، وهي الذُّرْوَةُ في التقريرِ وَفْقَ عَقْلِها، وهي الذُّروةُ في قيادةِ المخلوقاتِ الأخرى وتَسْخِيرِها.

والسؤالُ هو: أينَ إرادةُ الجموعِ الآنَ؟ أينَ قيادتُها؟ أين حُكْمُها وتَحكُّمُها؟

أينَ هذه الإرادةُ في جِيلٍ، في جِيلَيْنِ، في الذَّرَارِي، إلى أنْ تقومَ الساعةُ؟!

إنَّ هذا الحجَّ عُنوانُ الربوبيةِ، عنوانُ الألوهيةِ، من جهة وعنوان العبودية من جهة أخرى، إنه عنوانُ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

يَا نفسُ، انظرِي إلَى إخلاصِ قلبِ الخَليلِ وسلامتِهِ، انظرِي إلَى تضحيتِهِ فِي خفائِهِ لربِّه، انظرِي ليقينِهِ ودعوتِهِ، تأملِي كلَّ كلمةٍ من هذهِ الكلماتِ وستعرفينَ لِمَ خصَّ اللَّهُ الخليلَ عليه السلام بأجرِ هذهِ الجموعِ الَّتِي لَا نهايةَ لهَا ولَا انقطاعَ.

أيَّتهَا النفسُ، أقِيمي منارَ الإخْلاصِ الكاملِ والتجرُّد التامِّ للَّه، واكتفِي باللَّهِ عنِ البشرِ، واجعلِي أُنسكِ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ عندمَا يَبْكي من شدَّةِ المُصابِ البشرُ، فالناسُ عندهُم أولادُهم بأوْلاد الدُّنيا كلِّها، وإبراهيمُ جعلَ ولدَه والدُّنيا لله.

أيَّتهَا النفسُ، ارفعِي منارةَ الإخْلاصِ الخَالِصِ للَّهِ ثمَّ اعملِي في السرِّ والعَلنِ، والسرُّ عندكِ كمَا العلنُ، والعلنُ كَما السرُّ فِي حُضورِ اللَّه فِي القلبِ، وانتظرِي فلعلَّ اللَّهَ الَّذِي فَجَّرتِ له الإخلاصَ في القلبِ يفجِّرُ لكِ ينابيعَ الصدقاتِ الجاريةِ تفجيراً، فتجرِى فِي الحَيَاةِ جَدَاول وأنهاراً وبحاراً . .

وَتجرِي لكِ في قبرِك، وتُجمعُ لكِ فِي مِيزَانِك يومَ حَشْركِ. . . فتقولُي عندَها لعظمةِ مَا تَرين: الحمدُ للَّه، فلَو كانَ ميزانَ بشرٍ لمَا وَسِعَهَا، الحمدُ للَّه الَّذِي جعلَ ميزانه بهذهِ العظمةِ.

يَقولُ النَّبيُّ ﷺ: «**يُوضَعُ المِيزانُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَوَاتُ والأَرْضُ لَوَسِعَتْ**»(١).

لَا يشغلنكَ ذاتُ عملِك عنِ اللَّه الَّذِي هداك إليه، وحببه إليك، وأعانكَ عليهِ، فلَا تُوجِّه وَجْهكَ إلَّا لوجههِ الكريمِ سُبحانهُ، فعملُك غرسٌ، وغرسُك بغيرِ اللَّه لَا شيءِ، وهُو سبحانهُ القائلُ عنِ الغرسِ المأكولِ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣- ٦٧].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٨٦)، وصححه الألباني، انظر «السلسلة الصحيحة» (٩٤١).

قَلْبُ الخليلِ وولدُه معلقٌ بالبيتِ الأعظم، ومع هذا ما شغلتهُ حجارتُه وعِمارتُه عمَّن بنَى لُه الخليلُ البيتَ ولَا لحظَةً واحدةً، فقالَ سبحانهُ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

أكانَ إبراهيمُ يتصورُ هذهِ الأعدادَ؟ أكانَ ينتظرُ بركةَ اللَّه - لِندائهِ ذاكَ - تبلغُ آفاقَ الأرضِ وآفاقَ الزَّمانِ؟

أكانَ يتصورُ هذهِ الأعدادَ منَ المَساجدِ في أقطابِ الأرضِ وأقطارِها تُبنى وتتوجَّه نحوَ بيتهِ الَّذي بناهُ؟

إنكَ كذلكَ لنْ تستطيعَ أنْ تتصورَ فضلَ الله وبركَته إذَا باركَ نداءَك، وباركَ قلمكَ، وبارَك عملَك.

مارسِ الإخلاصَ عملًا ولنْ تبلغَ ممارستُك لهُ ذبحَ الولدِ باليدِ بالسِّكينِ، أو تركَهِ رضيعه وأمِّه بوادٍ غيرِ ذِي زرعٍ، لكنْ مارسْ إخلاصَك للَّه في وِحْدتِكَ ووحْشتِكَ قبلَ جمعتِكَ، فِي عُسرِكَ قبلَ يُسرِكَ، فِي ضِيقكَ قبلَ فَرجكَ، فِي فَقرِك قبلَ غِناكَ، فِي إرهاقِكَ قبلَ رَاحتِك، فِي مرضِك قبلَ سلامتِك، في همِّك وغمِّك وكربِك قبلُ تنفيسِه، مارسْ تلكَ الأحوالَ وسيصبحُ الإخلاصُ دَيْدنَك.. مارسْه وأنتَ فِي كلِّ حالٍ تقولُ مِنْ خالصِ قلبِكَ: يَا ربِّ أشهدُ، يَا ربِّ أشهدُ، فذلكَ فضلُك وحدَك لا شريكَ لكَ.. إنَّ ذلكَ هُو إحسانُ الإِخْلاصِ حينَ تُخلصُ للَّه كأنكَ تَراهُ..

لغةٌ جديدةٌ يُتأتئ بها القلبُ أولَ مرَّةٍ كَمَا يُتأتئ الطفلُ بِالكلام حتَّى ينفلقَ لسانُه بِه، فينفلقُ قلبكَ بهذِه اللُّغة (لغةِ محادثةِ اللَّه) كأنكَ تراهُ أثناءَ ممارستكَ طاعتَه، وأحياناً حينَ تمارسُ أعمالَ الحياةِ كُلَّها..

فَقَلبكَ يقولُ بلسانٍ فصيحٍ يسمعُه مَنْ يسمعُ السرَّ والنَّجوَى وهُو يقولُ عندَ كلِّ طاعةٍ: ياربِّ أشهدُ، يَا ربِّ أشهدُ، فقدْ غلبَ حبُّك المكارهَ، فهَا أنَذا أتوضَّأ علَى المَكارِه حبًّا لكَ.

يا ربِّ أشهدُ عندَ غَسْلِ كلِّ عضوٍ مِنْ أعضاءِ الوُضوءِ، فأنتَ تخاطبهُ فِي عليائهِ إذْ أنتَ تعبدُه وحدَه لَا شريكَ لهُ.

هكَذَا تستمرُّ المخاطبةُ علَى هذَا المِنْوالِ، بلْ هَكَذا تستمرُّ الحياةُ مِنْ منزلةِ الإِحْسَانِ، فلسانُ قلبِكَ دائمُ المخاطبةِ للَّه، وهُو فِي غايةِ الخُشوعِ وغَايةِ التذُّللِ والذُّبولِ حتَّى إنَّه ليكادُ ينماعُ مهابةً مِنْ جلالِ اللَّه العَظيمِ، وشهود أثرِ تجلِّيه وهُو العليُّ العظيمُ.

لنْ تنتفعَ أيُّها القارئُ الكريمُ مِنْ هذِه الكلماتِ مَا لمْ يمارسْ قلبُكَ التحدُّثَ بِهَا بهذِه الدِّقةِ.. حتَّى تُصبحَ أحبَّ إليكَ مِنْ نُطْقِ اللِّسانِ معَ أيِّ إنسانٍ.

تمارسُ هذهِ اللغةَ حينَ تتقدمُ لتأمرَ بِالمعروفِ وتَنْهى عَنِ المُنكرِ لأصغرِ إنسانٍ وأكبرِه علَى حدٍّ سواءٍ حَسْبَ الحكمةِ الشرعيَّةِ.

تمارسُ اللغةَ عندَ الخَطابةِ... عندَ الكِتَابةِ... عِندَ الإمساكِ للصَّومِ... وعندَ الإفْطارِ، عند الزَّكاةِ وعندَ الصَّدقةِ... عندَ الأكلِ والشُّربِ... عند البيعِ والشَّراءِ بلْ عندَ النَّومِ.

هذه اللغةُ علَى الأخصِّ لنْ تفقدَ بَريقَها بكثرةِ اسْتخدامِهَا، بلْ هِيَ تتوهَّج كأنَّها كوكبٌ دريٌّ يوقدُ من شجرةٍ مباركةٍ، تتوقدُ فِي كلِّ مرةٍ أكثرَ وأكثرَ.

أرأيتَ رجلًا عرفَ اللَّهَ أكثرَ كيفَ تزدادُ مهابةُ اللَّه فِي قلبهِ معَ ازْديادِ مَعْرفتهِ؟

أرأيتَ أحداً يخشَى اللَّه خشيةَ حبيبِ اللَّه محمدٍ ﷺ، أليسَ هُو أعرفَ النَّاسِ باللَّهِ؟

أرأيتَ جبريلَ كيفَ وصفَه النَّبيُّ ﷺ لمَّا رآهُ - ليلَةَ أُسريَ بهِ عندَ سِدْرةِ المُنتهَى حينَ قالَ: «مَرَرْتُ بِجِبْرِيلَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالمَلأ الأَعْلَى وَهُو كالحِلْسِ البَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»(١).

أرأيتَ مُوسَى عليه السلام لمَّا نسيَ وطلبَ رؤيةَ اللَّه كيفَ ردَّه اللَّهُ إِلَى الحقِّ بالصَّعقِ مِنَ المَهابةِ فكانَ أولُّ كلامِ مُوسى بعدَ الإفاقةِ هُو التَّوبةُ بعدَ التَّسبيحِ، فقالَ سُبحانهُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أَيُّ آيةٍ باقيةٍ ناطقةٍ هذه الآيةُ؟!

مَنِ استجابَ وقَدَرَ وجَاءَ، كان مَجيئُه عُنواناً للإيمانِ، وأَنَّ الإيمانَ لابُدَّ له مِنَ الأعمالِ.

ومن استجابَ كذلك كانتِ استجابتُهُ دليلًا على أَنَّ اللَّهَ تعالى لو شاء لَهَدَى الناسَ جميعاً، إذْ ما الفارقُ بينَ هؤلاءِ القادمينَ وأولئكَ المُعاندينَ إلا هدايةَ اللَّهِ تعالى؟

ومَنْ رَفَضَ كانَ رَفْضُهُ دليلًا على عِظَم رَحمةِ اللَّهِ تعالى بهؤلاءِ المؤمنينَ

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٧٩)، وصححه الألباني.

القادمينَ إذْ مَنَّ عليهم مِنْ دُونِ الناس بالهدايةِ والاستطاعةِ..

ومَنْ رَفَضَ - كذلك - كان رَفْضُه دليلًا على أنَّ الآخرةَ هي دارُ الجزاءِ، إذ كيفَ رَدَّ أَمْرَ اللَّهِ ولم يعاقِبْهُ اللَّهُ تعالى في هذه الدارِ..؟!

وهكذا فإنَّ مَنْ رَفَضَ كانَ رَفْضُه دَليلًا على حِكمْةِ اللَّهِ وعَدْلِهِ، وأنه سبحانه لا يَظْلِمُ أحداً، فَمَنْ شاءَ فلْيؤمنْ ومَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ.

أَيُّ آيةٍ ناطقةٍ هذه؟

إنَّها آيةٌ على أنَّ الأرضَ هي الأرضُ... لا تُزَكِّي أَحَداً ولا تُرَجِّسُهُ، إذْ عادَتِ الأرضُ كمَا كانتْ، فهذهِ أرضُ عرفةَ، وأرضُ مزدلفةَ، وأرضُ مِنى، وأرضُ المشاعرِ... عادتْ كما كانت قبلَ أيامِها هذه.. انظرْ إليها، مُدَّ نَظَرَكَ إلى بعيدٍ... إلى مَسْجِدِ الخِيْفِ... إلى مَسْجِدِ نَمِرَةَ... إلى الجمراتِ... لا أحدَ! لا بَشَرَ! لا داعِيَ! لا راجم! لا واقفَ! لا قائمَ! لا قاعد! لا ذاكرَ!... ما هذا؟

سبحانَ اللَّهِ...! لقد انصرفُوا عنها إلى حيثُ أَتَوا، وأدلجوا مِنْ حَيثُ خَرَجُوا... وعادتِ الأرضُ كما كانتْ قبلَ أن يَأْتُوها..وكذلك يَرِثُ اللَّهُ الأرضَ ومَنْ عليها وإليه يُرْجَعُونَ، هكذا تُصْبِحُ الأرضُ سواءً... !

تُعَظَّمُ بِتعظيم اللَّهِ تعالى لَها، وتَعودُ إلى حالِها بإعادةِ اللَّهِ تعالى لها، فَلْيَتَعَلَّقِ القَلبُ بِصاحبِ الأمرِ العظيم، باللَّهِ العليِّ الأَعلى، لا بالأرضِ ولا بالترابِ ولا بالحجرِ... إنه اللَّهُ... وكَفَى !

هَبْ أَنَّ رجلًا أَخَذَ مِنْ هذه المناسكِ تُرَاباً إلى بلدِه... ماذا يَعني؟

لا شيءَ... لأنَّ هذه الأراضيَ نَفْسَهَا لا تَعْنِي - اليومَ - شيئاً زائداً على

الأراضِي الأُخرى..!

أَيُّ آيةٍ مثلُ هذه في هذا الزمانِ..؟

إنها آيةٌ على عِظَمِ شَأْنِ التوقيتِ... قبلَ أيامٍ كُنَّا هنا، ثم هنا، ثم هنا... وها نَحْنُ اليومَ خارجَها.

عُدِ الآنَ إلى هذا المكانِ... اجلسْ بعدَ الشروقِ، قبلَ الزوالِ، بعدَ الزوالِ، بعدَ منتصفِ الليلِ، بعدَ الفجرِ، افعلْ ما تَشاءُ.. اُرجُمْ كما تَشاءُ... إنك لو فَعَلْتَ هذا هُنا الآنَ كما لو فَعَلْتَه في بَلَدِكَ، في بَيْتِكَ... لا يَعني ذلك شيئاً، إنها آيةٌ على أَنَّ مَنِ التزمَ العبادةَ في وقتِها فقد فازَ، وذَهَبَ بِخَيْرَيِ الدنيا والآخرةِ، ومَنْ أَخَّرَها عَنْ وقتِها مِنْ غَيرِ عُذْرٍ، فَقد فَاتَه خَيرا الدنيا والآخرةِ - إذا لم يكنْ لعبادتِهِ قضاءٌ - ولم يكنْ معذوراً... لكنْ مَنْ كانَ لعبادتِهِ قضاءٌ فَمِنْ أَينَ يأتي بالضمانِ على أدائِها في عامٍ جديدٍ... هكذا تَرْحَلُ العباداتُ برحيلِ وقتِها، ويَرحلُ الفائزونَ بأجورِهم، ويقْبعُ المفرِّطونَ في رَيبِهم يَتَرَدَّدُونَ.

أيُّ آيةٍ مثلُ هذه الآيةِ في هذا الزمانِ...؟

تُمْلأُ نفسُ العبدِ حَمْداً وشُكراً للَّهِ ربِّ العالمينَ، الحمدُ للَّهِ: أَحْضَرَني مِنْ بَلَدِي إلى هنا، الحمدُ للَّه: فَقَبْلَ أيامٍ كُنْتُ هنا في مِنَى، الحمدُ للَّه: كنتُ هنا في عرفةَ، الحمدُ للَّه: كنتُ هنا ضِمْنَ الرَّاجمينَ هذه الجمراتِ.

يَطُوفُ المُستذكِرُ هذه المواقعَ وقلبُهُ مُعَلَّقٌ باللَّهِ، يَشْعُرُ بِعظيمِ العَجْزِ حين يَشْعُرُ بِعِظَمِ اللُّطْفِ الرَّبَّانِيِّ، فهو حين يُرَدِّدُ هذا الحمدَ مِنْ خَالِصِ قَلْبِهِ، بِخَالِصِ عَجْزِهِ، كأنه يَرَى اللَّهَ - سبحانه وتعالى - في عَلَيائِه، يَنْظُرُ إليه

ويُشَاهِدُ قَلْبَهُ، وحَرَكَةَ فِكْرِهِ، وَذِكْرَهُ، وَشُكْرَهُ، وحركة قلبه بحمده فَيَزدادُ حَيَاءً مِنَ اللَّهِ!

وهنا يَدعو اللَّهَ دعاءَ مَنْ يَرَاهُ رَبُّهُ - سبحانه - ويَسْمَعُهُ في هذه اللحظةِ، بل يَدعوه دُعاءً وكأنه هو يَرَى ربَّه - سبحانه - بقولِهِ: «**اللَّهم أَعِنِّي على شُكرِك، وذكرِك، وحسنِ عبادتك**».

* * *

العيون الساقية لـ: آياتٌ في هذا الزمان!

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠١].

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**لَمَّا فَرَغَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ من بناءِ البيتِ، قال له: أَذِّن في الناسِ بالحجِّ، قال: وما يَبْلُغُ صوتي؟ قِيلَ: أَذِّنْ وَعَلَيَّ البلاغُ، فَنَادَى إبراهيمُ: يا أيها الناسُ، كُتِبَ عليكم الحجُّ إلى البيتِ العتيقِ، فَسَمِعَهُ ما بينَ السماءِ والأرضِ، ألا تَرى أَنَّ الناسَ يَحُجُّونَ مِنْ أقطارِ الأرضِ يُلَبُّونَ**»[(١)].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذا جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه**»[(٢)].

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في مَرَضِهِ الذي ماتَ فيه: «**لَعَنَ اللَّهُ اليهودَ والنصارى اتَّخَذُوا قُبورَ أنبيائِهم مساجدَ**»، **قالتْ: ولولا ذلك لَأَبْرَزُوا قَبْرَهُ، غَيْرَ أني أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً**[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن حجر في «المطالب العالية» عن أحمد بن منيع بسند حسن، والبيهقي (٣٦١٤).
(٢) رواه البخاري (٣٨٥٦)، ومسلم (١٣٦٥).
(٣) رواه البخاري (١٢٦٥)، ومسلم (٥٢٩).

خُطى المـودع

يا ربِّ، أنا مُستسلمٌ لأَمْرِكَ بِوَدَاعِ بَيتِكَ، وإنْ كان الوداعُ يُؤْلِمُني ويُبْكِيني..

فتقارُبُ الخَطْوِ نَحْوَ البيتِ اليومَ، ليس كَسَعْيِها يومَ جِئناه أولَ وُفودِنا عليك..!

الأرجُلُ - اليومَ - ثَقيلةٌ كأنَّ البَدَنَ أَثْقَلُ على رِجليَّ من بَدَنةٍ، ذلك أَنَّ الرُّوح - إلى أهلِها - لا تريدُ أَنْ تَرُوحَ، والقلبُ - إلى أحبابِه - لا يريدُ الانقلاب، والصَّدْرُ يَكْرَهُ الصُّدُورَ بالعودة وكأَنَّ أَحَداً يسوقه إلى القُبورِ..!

إنك تَعْلَمُ يا ربِّ أَنَّ لَحظةَ الوَداعِ هذه - حقيقةً - تُبكِيني مِنْ شِدَّتِها على قَلبي..!

آهٍ، ها هو البيتُ قد طَلَعَ، لكنه طَلَعَ لِيَخْتَفِيَ بعدَ حينٍ، طَلَعَ عليَّ وأنا المأمورُ أَنْ أُسْرِعَ مِنْ بَعْدِ الوداعِ بالرحيلِ... فَأَيُّ منظرٍ أَشَدُّ حُزناً من هذا الطُّلوعِ السريعِ والأُفول المريع؟!

يا ربِّ، بيتُك حَبيبي... لأنه أَحَبُّ البقاعِ إليك.. أفلا يَحْزنُ الحبيبُ إذا وَدَّعَ حبيباً، وهو لا يَدرِي أَيَعُودُ بعدَ هذا الوداعِ، أم أنه الوداعُ الكبيرُ والطوافُ الأخيرُ، والنظرةُ الأخيرةُ..؟

إذاً يا ربِّ، فهو طَوَافُ مُوَدِّعٍ..! ولْيَصْنَعِ القَلْبُ بعدَ ذلك ما يشاء.. في هذه اللحظاتِ، بهذه الخُطواتِ، بهذه الأَشواطِ السبعةِ حَوْلَ هذا البيتِ العتيقِ..

ادْخلِ البيتَ الآنَ، لا لِتَسْتَقِرَّ.. بل لِتَنْفِرَ منه إلى بَلَدِكَ وَبيتِك.. نْفَرَة مُوَدِّعٍ..

اُنظُرْ إلى البيتِ مِنْ داخلِ المسجدِ الحرامِ.. لكِنَّها نَظْرَةُ مُوَدِّعٍ..!

طُفِ الوداعَ إن شِئْتَ كما شِئْتَ، لكنه وَدَاعُ مُودِّعٍ..!

اِلْثِمِ الحَجَرَ كما وَرَدَ، لكن اجْعَلْها قُبلةَ مُوَدِّع..!

فَلْتَعِشِ الوداعَ ظاهراً وباطناً... قَلْباً مُتَلَهِّفاً، وعَيْناً هامِلَةً، ولِساناً ذاكراً، ودُعاءً مُضطراً ضارِعاً، وقَلباً مُحْسِناً يَعْبُدُ اللَّهَ في بَيْتِ اللَّهِ الأكبرِ، كأنه يَرَى اللهَ سبحانه...

يا لِلْوَدَاعِ ما أَقْسَاه، ما أَلْذَعَه، ما آلَمَه..!

لكنه الواقعُ قد حَلَّ... والفراق قد حمَّ... فماذا تَرَاني صانعاً... وقلبي بعد الخروج يتفطر حسرة على ذاكَ البيتِ الذي فَارَقْتُهُ وكأني دَفَنْتُ فيه رُوحِي...!

يا للعجب! كيف يتذمَّر العباد من شدَّة الزِّحام في طواف الإفاضة أو الوداع.. ولو تفكَّروا لرأوا كأنَّ اللَّه - سُبحانَه - يحبسهم أطول فترةٍ حبًّا منه لهم، وزيادةً لهم بالأجر العظيم، وإعطاءً لهم هذا الوقت كي يقولوا طلباتهم، ويعوِّضوا ما فاتهم، ويرفعوا درجاتهم، ولو تفكَّروا لطلبوا هم المزيد، ورجوا ذلك من اللَّه رغم ما حلَّ بهم من تعبٍ وإرهاقٍ.. فإنَّ صاحب الطَّلب في آخر لحظاته لا ينظر إلى الانصراف إنَّما ينظر إلى تحقيق مطلوبه.. فما فائدة رحلةٍ بدون بلوغ الغاية.. ومن يدري فكم من ساقطٍ خلْف القافلة نفعه نَحِيبُه الأخيرُ وبكاؤه المريرُ.

العيون الساقية لـ: «خطى المودع»

قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**وإذا قَضَى آخِرَ طَوَافٍ بالبيتِ، خَرَجَ من ذنوبِهِ كيومِ وَلَدَتْهُ أُمُّه**»(١).

عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ أَهْلَ الجنةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ في الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أو المَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ ما بَيْنَهُم**»، قالُوا: يا رسولَ اللَّهِ، تلكَ منازلُ الأنبياءِ لا يَبْلُغُها غَيْرُهُم؟ قال: «**بلى والذي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا باللَّهِ وصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ**»(٢).

عن عائشةَ رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ قال في مَرَضِهِ الذي ماتَ فيه: «**لَعَنَ اللَّهُ اليهودَ والنصارى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِم مَسَاجِدَ**»، **قالتْ: ولولا ذَلِكَ لَأَبْرَزُوا قَبْرَهُ، غَيْرَ أَنِّي أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً**(٣).

* * *

(١) رواه ابن حبان (١٨٨٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٥٥) وفي رواية البزار: «**وأما طوافك بالبيت بعد ذلك، فإنك تطوف ولا ذنب لك، يأتي ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول: اعمل فيما تستقبل، فقد غفر لك ما مضى**» قال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١١١٢): حسن لغيره.

(٢) البخاري (٣٠٨٣) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٨٣١) كتاب الجنة.

(٣) رواه البخاري (١٢٦٥)، ومسلم (٥٢٩).

ختام الوفادة
وانطلاقة الإحسان في العبادة

إذا كانَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ يقولُ: **لو بِعْتَ لَحظةً مِنْ إِقْبَالِكَ على اللَّهِ، بِمِقْدَارِ عُمُرِ نُوحٍ في مُلْكِ قَارُونَ، لَكُنْتَ مَغْبُوناً في العَقْدِ**[1].

فكم تُسَاوِي رِحْلَةٌ كامِلَةٌ، كُلُّها إِقْبَالٌ على اللَّهِ مَعنىً ومَبنىً، بَلَغَ فيها إقبالُ العبدِ دَرَجَةً كأنه فيها يَرَى ربَّه - سبحانه وتعالى... إنها ليستْ «**لَحْظَةً**» كما قالَ ابنُ القَيِّم ومِنْ قَبْلِهِ ابنُ الجوزي رَحِمَهُما اللَّهُ[2] إنها: «**رِحلةُ وِفادةٍ عليه سبحانه**»، فما يَكادُ العبدُ يَفْرَغُ فيها مِنْ مَوْقِفِ إحسانٍ إلا نَصَبَ لِمَوْقِفِ إحسانٍ آخَرَ..

مَوْقِفٌ إِثْرَ مَوقفٍ: تُشْرِقُ الشمسُ على الوافدِ وتَغْرُبُ، يَنَامُ وَيستيقظُ، يَقومُ ويَقْعُدُ، يَتَكَلَّمُ ويَسْكُتُ، يَنْعَزِلُ ويُخالطُ، يَغْتسلُ ويَلْبَسُ، يُصَلِّي ويَطُوفُ، يَسْعَى ويَحْلِقُ، يُعَرِّفُ ويَزْدَلِفُ، يَرْمي ويَنْحَرُ، يَدعو ويُوَدِّعُ... وهو في كلِّ ذلك يَحْيَا في مَقَامِ «اعبدِ اللَّهَ كأنك تراه».

فهي: حياةُ الإحسانِ في القَلبِ، أو حياةُ القلبِ في منزلةِ الإحسان...

وهي: ممارسةُ الإحسانِ في الحياةِ، أو ممارسةُ الحياةِ من منزلةِ الإحسانِ..

لكن: أَيَرْحَلُ عن مَنازِلِ الإحسانِ قَلْبٌ، إذا رَحَلَ جَسَدُهُ عَنِ المَشاعرِ والمناسكِ..؟!

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٧٥٨).

(٢) «المدهش» (ص٤٠٤).

حَرِيٌّ بِوَافِدٍ خَرَجَ قاصداً مَنَافِعَ التجارةِ في وِفادتِه، أَنْ يَعُودَ بما يَنْفَعُ نَفْسَهُ وأَهْلَهُ كمَا قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]، **وأَحْرَىٰ بِمَنْ** شَهِدَ مَنَازِلَ المُحسنينَ أَنْ يعودَ بزادٍ مقتضاه «ربح البيع»... فلا المالُ - بعدَ ذلك - يَغْلُو، ولا الرُّوحُ تَعِزُّ، ولا الولدُ يَمْنَعُ... كيف وقد بَلَغَ بصاحبِ هذه المنزلة الأول الجَلَدُ والفداءُ أن قِيلَ: ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] عليه الصلاةُ والسلامُ.

حَرِيٌّ بعبدٍ سَلَكَ طريقَ الحجِّ والعمرةِ، فَبَرِقَتْ له منزلةُ الإحسانِ، فَخَطَفَتْ قلبَه بِعَظمتِها، ثم خَطَتْ رِجْلُهُ صُعُداً على دَرَجِها، فاستقامَ عَمَلُه على أساسِها... حَرِيٌّ به أن يَسْلُكَ طريقَ الإحسانِ في طريقِ الحياةِ كلِّها، يَعْبُدُ اللَّهَ فيه كأنه يَراه، إلى أن يَنْتَهِيَ به الطريقُ، فَيَرَى اللَّه حقيقةً في الجنةِ بعيني رأسِه.. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، عندَها يَعْلَمُ المحسنُ أَيَّ مَنزلةٍ بَلَغَها في الدنيا حينَ عَبَدَ اللَّهَ كأنه يراه مقارنةً لها بما دونَها مِنَ العباداتِ العظيمةِ والعابدينَ الآخَرِينَ، إِذْ رَأَى بِنَفْسِهِ عُلُوَّ مَنزلةِ النظرِ لِوَجْهِ اللَّهِ الكريمِ - سبحانه - عَمَّا دونَها، وكلُّ ما في الجنةِ دُونَها، وليسَ في الجنةِ دُونٌ...

لقد كانتْ هذه الوِفادةُ هي نقطةُ الانطلاقِ، ومحطةَ التعارفِ، ومدرسةَ الإحسانِ...لكنْ، أيتوقفُ هذا العبدُ عن مَزيدِ صُعودٍ في هذه المنزلةِ، بعدَما ذَاقَ طَعْمَهَا في رِحلتِه، وتَشَرَّبَ مُثِيرَ الاشتياقِ، واستمعَ لحَادِي الإحسانِ طَوَالَ وِفادتِه...؟! القُربُ لا يتوقفُ بالتقربِ ولا التقريبِ، بل ولا الاقترابِ..! إِذْ أَيُّ شيءٍ يُشْبِعُ نَهَمَ عَبدٍ عَبَدَ اللَّهَ كأنه يَراه إلا أَنْ يَراه، ثم يَراه، ثم يَراه ... في دارٍ أعظمُ ما فيها أنه يَراه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا

نَاظِرَةٌ﴾ . . . هكذا تُصْبِحُ غايةُ المحسنِ وهو في ذُروةِ التقربِ أَنْ يَعيشَها طَوَالَ حياتِه، لِيُعْلِنَهَا مَعَ النَّفَسِ الأخيرِ يَخْرُجُ مِنْ صَدرِهِ إلى أَعلى: «**في الرفيقِ الأعلى، في الرفيق الأعلى، في الرفيقِ الأعلى**»[١].

فاللهم أَعِنِّي على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتِك.

* * *

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٤١٧٤) كتاب المغازي من حديث عائشة.

عهود الوافدين الآيبين

أَيُّ شُعورٍ سَيَنْتَابُ مَنْ أَلِفَ قلبُه المشاعرَ والشعائرَ طَوالَ فترةِ الوِفادةِ إذا حَضَرَتْ لحظاتُ فراقِها...؟

لا أزالُ أظنُّ أَنَّ ثمةَ ثمراتٍ عُظمى لهذه الوفادةِ لَمَّا تُقْطَفْ بَعْدُ، أَرَى جَنَاها قد جَنَى مَعَ الختام ودنا...

فَأَعِنِّي يا ربِّ على أَنْ أقطفَها وأُرْسِلَها لكلِّ مسلمٍ وافدٍ على بيتِكَ إلى يومِ القيامةِ...

حين نَظَرْتُ في وجوهِ وفدنا الصغير المرافق (لنا)[١] أَستنطقُها عن عهودٍ قَطَعَتْها قلوبُها مع اللهِ أيامَ هذه الوفادةِ المباركةِ في مشهدِ إحسانٍ من مشاهدِها الخاصةِ الخالصةِ بينهم وبين الله لم يعلم بها أحد من خلق اللَّه؟

أَبَتْ ألسنتُهم أن تُفصحَ عَمَّا عاهدتْ قلوبُهم عليه ربَّها سبحانه، لكنها حينَ عَلِمَتْ أن في إفصاحِها مزيدَ أجرٍ لها، حين يُعْرَضُ عهدُها - في هذا الكتاب - على المسلمينَ، لِيقتدوا بها، دونَ أَنْ يعرفوا أسماءَها... بادرتْ بإظهارِ عهودِها على استحياءٍ، وذكر مَبعثِها في نفوسِها مع اشتراطِ تَرْكِ الإفصاحِ عن الأسماءِ ما دامت حية[٢].

---

(١) وذلك في حجنا عام ١٤٢٧هـ.

(٢) قد توفِّي أصغر وافدٍ في ركْبِنا هذا، وقد كان أكثر أعضاء الوفد مشاركةً في هذه العهود، إنَّه «محمَّد بن عادل بالرميثة» رَحِمَهُ اللَّهُ وهو في السَّادسة عشرة من عمره هو وأمه في حادث واحد بعدما ابتدأ طريق حفظ القرآن مع أمِّه بالرحلة إلى عمان كل يوم، تلك الأمُّ المباركة =

أفصحَ لسانُ الوافدِ الأولِ عن خَبيئةٍ[١] خَبَّأَهَا مع ربِّه، إذْ كان كأنه يَرَى اللهَ سبحانه، لَمَّا تَأَمَّلَ انصرافَ الجموعِ المصاحبةِ له والبعيدةِ فَتَوَجَّهَ قلبُه- كلُّه- نحوَ اللَّهِ طالباً مبايعاً على الإخلاصِ والإحسانِ معاً، قال: فنطقت قائلًا:

يا ربِّ، أتستحقُّ هذه الجموعُ - التي كانتْ ثُمَّ زالتْ - أَنْ يَعْمَلَ لِوَجْهِهَا العاملون، تَارِكينَ رَبَّ العالمينَ؟!

أينَ تلكَ الوُجوهُ؟ وأينَ وجوهُ الوجوهِ؟

هَبْ أنك - يا هذا - رأيتَ وَجهاً عظيماً بعَينِكَ أو صَحِبْتَهُ... أينَ هو الآنَ؟!

لقد وَلَّى على وَجهِه إلى وِجْهَتِهِ التي جاءَ منها، وتَرَكَكَ! وسَيُوَلِّي عنك أو تُوَلِّي عنه إلى الدارِ الآخرةِ، وتَتْرَكُهُ أو يَتْرُكُكَ!

أينَ مَنْ مَدَحَكَ؟ وماذا أَعطاك! اقبض المدحَ والثناءَ مِمَّن تَشاءُ... ثم ماذا؟! لقد ضَاعَ في الفضاءِ! اقبِضِ المالَ...ثم ماذا؟! فَنِيَ أو سَيَفْنَى عنك أو تَفْنَى عنه...!! آهٍ على أيامٍ عظيمةٍ ضَاعَتْ... ذَهَبَ المخلصونَ منها بالأجرِ...!

آهٍ على أيامٍ أَضَاعَ فيها رِيَائي عَمَلِي، وأصبحَ ثَنَاءُ الناسِ عَلَيَّ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ به الرِّيحُ في يَوْمٍ عاصفٍ، وثَبَتَ فيها إخلاصُ المُخلِصين، وصَعَدَ فيها عَمَلُهُم للهِ ربِّ العالمين...

= وذلك في طريق عودتهما من دراسة القرآن من عمان إلى دبي، فاللَّهمَّ اكتبهما عندك شهداء، اللَّهمَّ اجعل عهوده هذه يجري له أجرها إلى يوم القيامة.

(١) لقوله ﷺ: «**من استطاع منكم أن يكون له خبء من عملٍ صالح فليفعل**» رواه الضياء عن الزبير، قال الألباني: صحيح. انظر «صحيح الجامع» (٦٠١٨).

فاللهم أَعِنَّا على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتِك. . .

أَفْصَحَ الوافدُ الثاني عن خَبِيئةٍ بقولِهِ:

عاهَدْتُ رَبِّيَ أَنْ لا أَغْفَلَ- بعدَ اليومِ- عن ذِكْرِهِ لَحظةً- ما استطعتُ- حَتَّى أَلْقَاهُ. . .

قال: نَظَرْتُ في الوافدينَ فَوَجَدْتُ ذِكْرَ اللهِ شِعَارَهُم، وهُتافَهم، ولُغتَهم، في كلِّ أحوالِهم وتقلباتِهم، فقلتُ: لِمَ يا لسانُ تَتَوقَّفُ عن ذِكْرِ ربِّك مَعَ أنك لا تَتْعَبُ كَبَقِيَّةِ الأعضاءِ مِنَ الحركةِ!؟ لِم تَتَوَقَّفُ وخَيْرُ سُقْيَاكَ رُطُوبَةُ ذِكْرِ اللهِ؟

لم تَتوقَّفُ وأَغْلَبُ حالاتِك في الحياةِ سَاكِنٌ بينَ الأضراسِ مِنْ غير عَمَلٍ؟

لم تَتَوَقَّفُ ورُبَّما كلمةٌ طيبة واحدةٌ منك شجرةٌ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ؟!

إياكَ أن تَجْمُدَ إذا ذَهَلَ العقلُ، أو غَفَلَ الصحبُ، أو امتدَّ البصرُ سارحاً هنا وهناك؟! أما رأيتَ أُناساً لا يَفتُرونَ عن ذكرِ اللهِ أبداً في الحجِّ. . . فلم لا أكونُ مِثْلَهم في الحياةِ كلِّها؟

يا ربِّ، لا أريدُ إلا أَنْ تَشْغَلَني بك عَمَّنْ سِواك!

يا رب، أريدُ لِساني يُوَاطِئُ قلبي على ذِكْرِكَ. . .

يَذْكُرُكَ وكأني أَراك حتى أَمُوتَ، فَأراك هناك يا ربِّ، حقيقةً بِبَصَرِي.

يا ربِّ، أُريدُ التلذذَ بِذِكْرِكَ وعبادتِك، تَلذذاً يُنْسِيني الملهياتِ وإن كَثُرَتْ، ويُنْسيني المُنَغِّصَاتِ وإنْ عُجِنْتُ بالبلاء، وصُهِرْتُ في حَميمِ الدنيا -لأجلِكَ- وعافيتُك أَوْسَعُ لي. . .

فاللهم أَعِنِّي على ذِكْرِك وشكرِك وحسنِ عبادتِك.

أفصحَ الوافدُ الثالثُ - عن خَبيئةٍ - حينَ قال: نظرتُ في أولوياتِ حياتي اليوميةِ في بِلادِي فَوَجدتُها مُبعثرةً، ووجدتُ الدنيا -عندَنا- مُؤْثَرةً! فاللهم عَهْداً أَن أجعلَ الأَحَبَّ إليك مُقدَّماً عندي أبداً، حتى تَأْلَفَهُ نَفْسي، ويُصْبِحَ الأحبُّ عندَك هو الأَحَبُّ عندِي...

يا ربِّ، سَأُحَوِّلُ هذا العهدَ إلى نظامِ حياتي، وأُقِيمُ عليه بَرنامَجَ ليلي ونهارِي...

فاللهمَّ أَعِنِّي على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتِك.

أَفْصَحَ الوافدُ الرابعُ- عن خَبيئةِ إحسانٍ اسْتَخْلَصَهَا مِنْ وفادتِه- فقال: نظرْتُ في شدةِ سباقِ الوافدينَ في طرائقِ العبادةِ -هنا- فَوَجَدْتُها نحْو أبوابِ إجابةِ الدعاءِ تَشْتَدُّ أكثر، إذْ شِدَّةُ السباق في شدةِ الدعاءِ عندَ الكعبةِ... في عرفةَ... بعدَ فجرِ مزدلفةَ... عندَ رميِ الجمراتِ، وهكذا...!

فقلتُ: سبحانَ اللهِ! ما أكثرَ ما فتحَ اللهُ علينا من أبوابِ إجابةِ الدعاءِ ونحنُ في بلادِنا! فعهداً يا ربِّ- لن يغيبَ هذا الساقُ عن ذاكَ السباقِ، ولنْ تَغيبَ هذه اليدُ عن طَرْقِ البابِ، وإِنْ نامَ في الثلثِ الأخيرِ الأنامُ، أو غَفَلَ بعد عصرِ الجمعةِ الأقرانُ... لأُضِيفَنَّ لِتَسْبيحاتِ كلِّ سجدةٍ دعوةً أو أكثرَ... ولَأَرْفَعَنَّ بينَ الأذانينِ دعوةً أو أكثرَ... ولَأترصدَنَّ أبوابَ الإجابةِ - أينَما وحيثُما كانت - تَرصُّداً... فما أن تُفْتَحَ حتى أَقتحِمَها... ومتى فتح القلب واقشعر الجلد، وذرفت العين هرعت للدعاء في أي وقت كان.

فاللهمَّ أَعِنِّي على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتِك.

أفصحَ الوافدُ الخامسُ- عن خَبيئةٍ جديدةٍ - إذ قال: كما رأيْتُ افتراقَ منازل الوافدينَ في رحلةِ الوفادة - هذه - يعودُ للإحسانِ في العبادةِ، فإني رأيتُهُ يَعُودُ لمَلْءِ الأوقاتِ التي بينَ العبادةِ والعبادةِ، فرأيتُ الغفلةَ تَلُفُّ الكثيرَ من الوافدينَ بينَ العباداتِ، كما رأيتُ افتراقَ المتسابقينَ هنا يَتَّسِعُ بِمِقدارِ استغلالِ السابقِ ما بينَ العباداتِ، وما أكثرَها مِنْ أوقاتٍ بينيّة! كيف إذا أَضَفْنا لها تَنبيهَ القلوبِ عندَ إرادة النومِ طَوالَ الليلِ والنهارِ، على مَدَى الحياةِ؟

فيا رَبِّ أَعِنّي على ملءِ هذه الأوساعِ الفارغةِ مِنْ حياتي حتَّى يَفترِقَ لساني عَنِ الأَلسنةِ بالذكرِ فيها، وجَوَارحي عن الجوارحِ بالسعيِ لوجهِك فيها، وقلبي قد تَمَكَّنَ - في كلِّ ذلك - مِنْ منزلةِ الإحسانِ فيها.

فيا ربِّ أَعِنَّا على ذكرِك وشكرِك وحسْن عبادتِك...

قال الوافدُ السادسُ: عاهدتُ اللهَ عهداً وادخرتُه خَبيئةً بيني وبينَه أَلَّا أحتقرَ مِنَ الصالحاتِ شيئاً، فكم ذكَّرَنَا الصحبُ الوافدونَ بتفريطِنا في أجورٍ بينَ اليدينِ مضمونةٍ؟! ثلاثونَ حسنةً تذهبُ من بينِ أيدِينا مراتٍ ومراتٍ بالتفريطِ في إفشاء السلام على التمام، وتَذهبُ بالتفريطِ في أجورِ التيامنِ، اقتداءً بسيدِ المرسلينَ ﷺ أَخْذاً وعَطاءً، دُخولًا للبيتِ والدوائرِ والمساجدِ، وتَنَظُّفاً واغتسالًا، ولُبساً وانتعالًا... أُجورُ الكلمةِ الطيبةِ على كَثْرةِ ما نَتَكَلَّمُ به، أُجورُ الخُلُق الحسنِ حينَ يُصبحُ سَجِيةً...أُجورٌ وأُجورٌ وأُجورٌ...

فاللهم أعنا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك...

قال الوافدُ السابعُ: رأيتُ خِفَّة نفوسِ الوفدِ في خدمةِ بعضِهم بعضاً، وقد كانوا مِمَّنْ يُخْدمُونَ في بلادِهم وبيوتِهم، ومع هذا فقد رأيتُهم يَزدادون بخدمتِهم للناسِ هنا رفعةً أكثرَ من رفعتِهم في بلادِهم، فقلتُ: سبحانَ اللَّهِ!

ما أثقلَ خُطَانا بالخدمةِ في بلادِنا! وما أعظمَ إسراعَنا في طلبِ خدمتِنا! فعاهدتُ اللهَ عهدَ المحسنينَ الصادقينَ أنْ أَكْسِرَ حاجزَ الكسلِ بخطوةٍ، وأَهْتِكَ حجابَ الاحتشامِ دونَ الخدمةِ بالخدمةِ، وأُزيل نفسية الترفعِ بدوامِ التواضعِ، ولا أطلبَ من أحدٍ شيئاً مِنَ الدنيا مَهْمَا بَعُدَ أو دَنَا.

فاللهم أعنَّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

قال الوافد الثامن: كم حدَّثَتْني النفسُ أني قد رجعتُ من وِفادتي كيومِ ولدتْني أُمِّي، وأَنَّ اللهَ قد أَعادَني من غيرِ خَطيئةٍ؟ أليسَ الحجُّ إلى الحجِّ، والعمرةُ إلى العمرة كفارةً لما بينهما إذا اجتنبت الكبائرُ؟ أليس...؟ أليس...؟

فقلتُ لنفسي... إذاً، ليكنْ أَوَّلُ عَمَلٍ أَعْمَلُهُ بعدَ عودتي هو أن أُغْلِقَ بابَ كلِّ سيئةٍ جاريةٍ فَتَحتُهُ علىٰ نَفسي، إذ ما فائدةُ أَنْ تُغْفَرَ ذنوبي أَيَّاماً وتَعودَ مضاعفةً أياماً وأعواماً حتى أموتَ؟! أيجتمعُ الإصرارُ والاستغفارُ في آنٍ واحدٍ؟

فلَأُغلقنَّ كلَّ حسابٍ لي في الرِّبا، ولَأَتخلصنَّ من كلِّ سهمٍ أو مساهمةٍ مشبوهةٍ في الحرامِ، ولأقطعنَّ كلَّ ظلمٍ وقطيعةٍ أَجْرَيْتُهُما، ولأُجَفِّفنَّ مَنَابعَ السيئاتِ إلى الأبدِ - بإذنِ اللهِ تعالى...

فاللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

قال الوافدُ التاسعُ: كم كُنْتُ غَضُوباً في حياتي، فلساني يَسْبِقُ عَقلي عندَ الاختصامِ، ويَدي تَسبقُ لساني عندَ الغضبِ، وللأسفِ! وكم هَيَّجَتْني مُخالفاتُ الوفودِ ومضايقاتُهم في حجتي هذه، لكنني حينَ هَمَمْتُ بإنفاذِ

الغضبِ مراراً أَلْجَمَني لباسُ الإحرامِ الحِلْمَ قبلَ الكلامِ. . . وعَهداً للهِ عهداً أنْ أُلْجِمَ الغَضَبَ بذكرِ مَنْ لبستُ لأجلِه الإحرامَ، وصَبَرْتُ لذكرِه على مضايقاتِ الأنامِ.

فاللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

قال الوافدُ العاشرُ: رأيتُ أعلامَ الوافدينَ على اللهِ ومنارات الناس - هنا - هم: (أهلُ العلم)، فقلتُ: كم يُخْبِرُ هؤلاءِ الكرامَ عنِ اللهِ. . .؟ كم يَدُلُّونَ العبادَ على مرادِ الله؟ كم يقطعونَ على الشيطانِ حبائلَه في إضلالِ العبادِ وإهلاكِهم. . .؟

ليتني واحدٌ مِنْ هؤلاءِ الأعلامِ. . . ليتني أَجْمَعُ ما بينَ تعليمِ الناسِ الأحكامَ والإحسانَ. . . ليتني أَرْتَقِي بمقامِ العبادِ في عبادتِهم حتى يعبدُوا الله على عِلْمٍ، ويعبدُوه كأنهم يَرونه سبحانَه. . .

إذاً، هو العهدُ بَعْدَ الإيابِ على طلبِ العِلْمِ وإن طالَ الطريقُ، وكَبُرَت السنُّ، وقَلَّ الرفيقُ، فإنْ بلغتُ الغايةَ فالحمدُ للهِ، وإلا فبلوغُ الأجرِ بالنيةِ مشفوعةٌ بالعملِ على تحقيقِ ذلك . . .

وَلَكَمْ تَمَنَّيْتُ العلمَ لكنني شَعَرْتُ أنَّ القِطَارَ قد فاتَ، فقلتُ: لأجعلنَّ العِوَضَ في تعليمِ ولدي، ليحفظَ القرآنَ ويَرْسَخَ في العلمِ، ولأُنشئَنَّ صدقةً جاريةً علميةً أو مشاركتي فيها أو دِلالتِي عليها. . . فهل نَحْنُ وهذه الجموعُ ومَنْ قَبْلَنا ومَنْ بعدَنا إلا صدقاتُ المصطفى ﷺ؟

فاللهم علمني ما ينفعني، وانفعني بما علمتني، وزدني علماً. . .

قال الوافدُ الحادي عَشَرَ: عَجِبْتُ مِنْ تَجْرِبَتِي في الإنكارِ: فإني ما تَرَدَّدْتُ

مَرَّةً في إنكارِ منكرٍ، أوإنكارِ مخالفةِ السنةِ خوفاً مِنْ ردةِ الفعلِ القاسيةِ، أو بحجةِ المصلحةِ أو نحوِ ذلك... فَتَكَعْكَعْتُ، ثم أَقْدمْتُ وقَدَّمْتُ الأمرَ والنهيَ لأهلِه... إلا وجدتُ المصلحةَ كلَّ المصلحةِ في الأمر والنهي بالحكمةِ، كما وجدت القبول والمحبة والدعاء على ألسنة حجاج بيت اللَّه، فإذا الوفودُ قد عادوا مِنْ حيثُ أَتَوْا يَحْمِلُونَ معهم ما أمرنَاهم به ونهيناهم عنه، فلأصبحنَّ بهذا حامياً مِنْ حُمَاةِ التوحيدِ أن يُمَسَّ بأقلِّ مسَاسٍ ولو بِحَرْفِ الواوِ بدل ثُم، أو يُمَسَّ بحرفِ القسمِ بغيرِ اللهِ، أو يُخْدَشَ ولو بالنيةِ الشركيةِ! فضلًا عن الشِّرْعَةِ الشركيةِ... إنها مهمةُ الأنبياءِ التي نَصَّ عليها القرآنُ الكريمُ،... فعهداً للهِ عهداً ألا أترددَ في أمرٍ ونهيٍ ... بالحكمةِ التي أمرَ اللَّهُ، طالباً رضا اللَّهِ.

فاللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

قال الوافدُ الثاني عَشَرَ: تَثْوِيرُ الأماني الصالحةِ في القلوبِ مَزِيَّةٌ عظيمةٌ لهذه الوفادةِ... فما أكثرَ مناظِرَ الصالحاتِ المؤثرة المثيرة وما أعظمَها؟

كم تمنيت أن يكون والداي معي كي أحملَهُما على ظهري، على جناحِ الذلِّ مِنَ الرحمةِ، لِأَطوفَ بهما... وأسعى بهما... وأُعَرِّفَ بهما... وأُوَدِّعَ بهما قبلَ أن يُوَدِّعاني أو أُوَدِّعَهُمَا، ذلك حينَ رأيتُ مَنِ احْدَوْدَبَ ظَهرُه يَحْمِلُ مَن فَنِيَ عُمُرُهُ أو عُمُرُها!

قال الوافدُ الثالثَ عَشَرَ: أَرى مِنْ شُكْرِ هذه النعمةِ العظيمةِ أن أَمْشِيَ إلى كلِّ مَنِ استطاعَ ولم يَحُجَّ مِنْ معارفي مِنْ قَبل...ولن أتركَه حتى يَمْشِيَ إلى الحجِّ والعمرةِ.

ومِنْ حَقِّ هذه النعمةِ عَليَّ أَنْ أُذِيقَ طَعْمَ الإحسانِ في الوِفادةِ كُلَّ مَنْ لم يَتَذَوَّقْها.

ومِنْ حَقِّ هذه المنزلة عليَّ أَنْ أسعى لإدراكِ ما يُقَابِلُ منزلةَ الإحسانِ في الآخرةِ... وهل تُقَابِلُها إلا منزلةُ المزيدِ، منزلةُ النظرِ لوجهِ اللَّهِ الكريمِ سبحانه وتعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

قال آخر الوافدين - معنا -:

يارب، إنك تعلم أن لكل واحد من أحبتي خبيئته، وخبيئتي عندك عهداً لا أقيل عنه ولا أستقيل - بإذنك - أن اجعل جميع عهود إخواني عهداً واحداً لي معك.. فيا رفيع الدرجات ذو العرش، ارفعني إليها في كل عباداتي.

يارب، إذ أذقتنا في هذه الوفادة مراراً وتكراراً طعم عبادتك كأننا نراك فأدم هذه المنة علينا في كل عهودنا حتى آخر حياتنا..

يارب، وكما أذقتنا عبادتك كأننا ننظر إليك فأذقنا أعلى النعيم في دار النعيم إذ المنة الكبرى بأن تكشف لنا الحجاب فنراك بأبصارنا يا حي يا قيوم.

فاللهم اجعلنا مِنْ أصحابِ منزلةِ المزيدِ الذين يَرَوْنَ وَجْهَ ربِّهم بُكرةً وعشيًّا.

والحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ

* * *

الفهرس

- بوابة الوفادة ٥
- عن الغلاف ٦
- المقدمة غايةُ كتابِ الوِفادةِ ٧
- الفصل الأول الإحسان من مقرِّ الإقامة حتَّى المدينة ١٥
- وَصِيَّةُ مُوَدِّعٍ ١٧
- العيون الساقية لـ: «وصية مودع» ٢٧
- ركعتا الوداع في البيت ٢٨
- العيون الساقية لـ: «ركعتا الوداع في البيت» ٣٢
- قطع الالتفات ٣٤
- العيون الساقية لـ: «قطع الالتفات» ٤٣
- إمامة الركب ٤٤
- ثِقَلُ إمامةِ الرَّكْبِ ٥٠
- ما بينَ التقديم عندَ الناسِ والتقديم عندَ اللَّهِ ٥٤
- العيونُ الساقيةُ لـ: «الثلاثة الماضية» ٥٨
- الإعداد المنسي ٦١
- العيون الساقية لـ: «الإعداد المنسي» ٦٥
- ما ألذَّ الأذكارَ عندَ وقتِها وظَرْفِها ٦٦
- العيون الساقية لـ: «ما ألذ الأذكار عند وقتها وظرفها» ٧٢
- الفصل الثاني منازل المحسنين في مدينة سيد المرسلين ﷺ ٧٣
- الاقترابُ مِنْ رسولِ اللَّه ﷺ ٧٥

- العُيونُ السَّاقيةُ لـ: «الاقتراب من رسول اللَّه ﷺ» ٨٢
- طَعْمُ الإيمان به مِن أذان مسجده ﷺ ٨٣
- العُيون الساقيةُ لـ: «طَعْمُ الإيمانِ به من أذانِ مسجدِه ﷺ» ٩٣
- أُدْخُل الرَّوضَةَ ٩٥
- العيونُ الساقيةُ لـ: «أُدْخُل الرَّوْضَة» ١٠١
- الصلاةُ على الطِّفْلِ... يَرْحَمُكُم اللَّهُ ١٠٢
- العيونُ الساقيةُ لـ: «الصلاةُ على الطفلِ.. يَرْحَمُكم اللَّه» ١٠٧
- في رَكْبِ نَعْشِ أَخِينا نَمْشِي ١٠٩
- العيونُ الساقيةُ لـ: «في رَكْبِ نَعْشِ أَخِينا نَمْشِي» ١١٤
- المقصِّرانِ في حقِّ رسولِ اللَّهِ ﷺ ١١٦
- العيونُ الساقيةُ لـ: «المقصِّرانِ في حقِّ رسولِ اللَّهِ ﷺ» ١٢٤
- ما بين مدينتي والمدينة..! ١٢٥
- العيون الساقية لـ: «ما بين مدينتي والمدينة» ١٢٩
- هياج القلب عند وداع المدينة ١٣٠
- العيونُ الساقيةُ لـ: «هِياجُ القلبِ عندَ وداعِ المدينةِ» ١٣٥
- الفَصْلُ الثالثُ منازل المحسنين في مناسك العمر ١٣٧
- يا ربِّ: هأنذا أغتسلُ لإحرامِك ١٣٩
- العيونُ الساقيةُ لـ: «يا ربِّ: هأَنذا أَغْتسلُ لإِحْرَامك» ١٤٤
- ضَبْطُ القلبِ عندَ الميقاتِ ١٤٥
- العيونُ الساقيةُ لـ: «ضَبْطُ القلبِ عندَ الميقاتِ» ١٤٨
- اللَّهم حَجَّةً لا رِياءَ فيها ولا سُمْعَةَ ١٤٩
- العيونُ الساقيةُ لـ: «اللَّهمَّ حَجَّةً لا رِياءَ فيها ولا سُمْعةَ» ١٥٦
- كم في لبس الإحرام من تربية؟! ١٥٧

- العيونُ الساقيةُ لـ: «أيُّ تربيةٍ هذه بلبس الإحرام؟!» ١٦١
- لَبَّيْكَ اللَّهمَّ لَبَّيْكَ ١٦٢
- العيونُ الساقيةُ لـ: «للبيك اللَّهم لبيك» ١٧٠
- عَيْبٌ . . . غَطِّ عَوْرَتَكَ! ١٧١
- العيونُ الساقيةُ لـ: «عَيْبٌ. . . غطِّ عورتَك» ١٧٤
- إذا فَتَرَتِ الهِمَّةُ ١٧٥
- العيون الساقيةُ لـ: «إذا فَترَتِ الهِمَّةُ» ١٧٨
- هنا: الكعبةُ البيتُ الحرام ١٧٩
- العيونُ الساقيةُ لـ: «هنا: الكعبةُ البيتُ الحرامُ» ١٨٧
- طَهِّرْ بيتي ١٨٨
- العيونُ الساقيةُ لـ: «طَهِّرْ بيتي» ١٩١
- ماذا يَرْتَفِعُ مِن الصَّحْنِ؟ ١٩٢
- البيت العتيق: شاهد الوحدانية الشامخ ١٩٨
- العيونُ الساقيةُ لـ: «ماذا يَرْتفِعُ من الصَّحْنِ؟» والبيت شاهد الوحدانية الشامخ ٢٠٤
- ربنا آتنا . . . الحسنة. . . والحسنة ٢٠٥
- الإعجاز المتجدد للبيت العتيق ٢١٠
- العيونُ الساقيةُ لـ: الإعجاز المتجدد للبيت العتيق ٢١٧
- ماءُ زَمْزمَ في المَسْعى ٢١٨
- العيونُ الساقِيةُ لـ: «ماءُ زمزمَ في المَسْعَى» ٢٢٧
- كَمْ في الحَلْقِ مِنْ معانٍ؟! ٢٢٩
- العيونُ الساقيةُ لـ: «كمْ في الحلقِ من مَعانٍ؟!» ٢٣٩
- الفصل الرابع منازل المحسنين في مناسك الحج ٢٤١

- حُجَّ حَجَّةَ مُوَدِّعٍ ٢٤٣
- العيونُ الساقيةُ لـ: «حُجَّ حَجَّةَ مُوَدِّعٍ» ٢٤٨
- الدعاءُ رُوحُ الحَجِّ وسُداه ٢٤٩
- العيون الساقية لـ: «الدعاء روح الحج وسداه» ٢٥٤
- غَداً المَوْعِدُ..! ٢٥٦
- العيون الساقية لـ: «غَداً المَوْعِدُ» ٢٥٨
- وَطَلَعَ فَجْرُ عَرَفَةَ ٢٥٩
- العيون الساقية لـ:«وطلع فجر عرفة» ٢٦٩
- يا رَبِّ أَعْتِقْني مِنَ النَّارِ ٢٧٠
- العيون الساقية لـ:«يا رب أعتقني من النار» ٢٧٤
- المَرَضُ في الوِفَادَةِ ٢٧٥
- العيون الساقية لـ: «المرض في الوفادة» ٢٨١
- إغفاءة المحسنين ٢٨٢
- العيون الساقية لـ «إغفاءة المحسنين» ٢٨٤
- استيقاظة مزدلفة ٢٨٥
- العيون الساقية لـ:«استيقاظة مزدلفة» ٢٩٢
- آخر العهد بالتلبية ٢٩٣
- العيون الساقية لـ:«آخر العهد بالتلبية» ٢٩٧
- تَغَيُّرُ طبيعةِ الحَجِّ بابتداءِ التكبيرِ ٢٩٨
- كم من تكبير في التكبير؟! ٣٠١
- ما أعظمَ الجمعَ بينَ الرميِ والتكبيرِ؟! ٣١٢
- «العيون الساقية للثلاثة الماضية» ٣١٧
- كم في قضاء التَّفَثِ من راحة؟! ٣١٨

- العيون الساقية لـ: «كم في قضاء التفث من راحة» ٣٢١
- ساحة الكرم البَشَري الكبرى ٣٢٢
- العيون الساقية لـ: «ساحة الكرم البَشَري الكبرى» ٣٣٢
- اتبعه كأنك تراه ﷺ ٣٣٦
- العيون الساقية لـ: «اتبعه كأنك تراه ﷺ» ٣٣٩
- آياتٌ في هذا الزمان! ٣٤٠
- العيون الساقية لـ: آياتٌ في هذا الزمان! ٣٥٠
- خُطى المودع ٣٥١
- العيون الساقية لـ: «خطى المودع» ٣٥٣
- ختام الوفادة وانطلاقة الإحسان في العبادة ٣٥٤
- عهود الوافدين الآيبين ٣٥٧
- الفهرس ٣٦٦